

مجلة الفكر والفن المعاصر

لقلعة

العدد (١٤١) أغسطس ١٩٩٤

الشيوعية
الجديدة؟

لمن يعود
سولجنتسين

لقطر
أم للكنيسة؟

تمثال

الحرية

لمصر

أم

لأمريكا

؟



لوحة الغلاف الأول
تمثال الحرية
الفنان: بارتولدي

لقلقة

مجلة الفكر والفن المعاصر

شهرية تصدر يوم ١٥ من كل شهر. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب



العدد (١٤١) أغسطس ١٩٩٤

الثمن في مصر : جنيهاً

العراق - ١٥٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ دينار - قطر ١٥ ريال - البحرين ١,٥٠٠ دينار - سوريا ٧٥٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٢٥٠ دينار - السعودية ٢٠ ريال - السودان ٤٧٠٠ ق - تونس ٤ دينار - الجزائر ٢٨ دينار - المغرب ٤٠ درهما - اليمن ١٠٠ ريال - ليبيا ١٦٠ دينار - الإمارات ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥٠٠ ريال - غزة والضفة والقدس ٢٥٠ سنتا - لندن ٤٠٠ بنس - الولايات المتحدة دولاران.

الاشتراكات في مصر :

عن سنة (١٢ عدداً) ٢٤ جنيهاً مصرياً شاملاً البريد.

الاشتراكات من الخارج [عن سنة ١٢ عدداً] :

- البلاد العربية: افراد ٣٠ دولاراً، هيئات ٥٢ دولاراً شاملة مصاريف البريد.
- أمريكا وأوروبا: افراد ٤٨ دولاراً، هيئات ٧٠ دولاراً شاملة مصاريف البريد.

العنوان: مجلة القاهرة - جمهورية مصر العربية - القاهرة -

١١١٧ كورنيش النيل - فاكس ٧٥٤٢١٣ ت/ ٥٧٨٩٤٥٥

المادة المنشورة مكتوبة خصيصاً للمجلة، وتعبير عن آراء أصحابها

ولاترد في حالة عدم النشر. المراسلات باسم رئيس التحرير.

رئيس مجلس الإدارة

سمير سرحان

رئيس التحرير

غالى شكري

مدير التحرير

عبد جبير

المستشار الفني

حلى التونى

السكرتارية الفنية

التحرير

مهدى محمد مصطفى

التنفيذ

صبرى عبد الواحد

مادلين أيوب فرج

المحررون

فتحى عبد الله

السماح عبد الله

المعاجز ١١

الفكرية والغايات ٥٩

المراجعات ١٢٢

الإيقاعات والروايات ١٦٩

الانتشارات والتنبيهات ١٨٧

القصيدة اسمها توفيق زياد

قبيت واحد من الشعر هو الخطأ.

أما القصيدة فاسمها توفيق زياد، بيتها الأخير هو الخطأ، أعنى زمن الرحيل، فقد غاب توفيق فى الزمن الخطأ، إيقاعاً ومعنى.

أم أن القصيدة كانت قد أقلت عكس الزمن؟ لا أحد يدري، فقد أخذ سره معه.. هذا الشيخ الذى عاش عمره فى صمت الزاهدين وحكمة المتكلمين ومقاومة المؤمنين.

هذا المتصوف فى إيمان فلسطينى يرحل الجبال عن موقعها. كان «مؤمناً» فقط. ومن فيض الإيمان كان الشعر، أشبه ما يكون بشعر المتصوفة الذين يبصرون، ما لا تراه ويعتقدون أن ما لا يرى هو الحقيقى الوحيد.

لم يدخل فى أية صراعات بين الريح والخسارة، لا داخل الحزب الذى اتخذ منه بيتاً للروح، ولا فى ساحة العمل السياسى الفلسطينى

العام، لم يدخل من باب المزايدات أو المناقصات ولكن الناس من أهل الناصرة أدخلوه قلوبهم من أوسع أبوابهم، فأصبح رئيساً لبلدية، لم يسع إلى رئاستها، وأصبح عضواً فى البرلمان فى زمن المحرمات، ولكنه ظل صوتاً يخرق الأذن الإسرائيلية بكلمة واحدة اسمها: فلسطين.

وهى الكلمة الوحيدة التى تكونت منها القصيدة فى الرجل والشعر. لم يكن يعنيه فى الزمن القديم القول بأنه من شعراء المقاومة، لأنه هو نفسه كان قصيدة المقاومة الحية الجسورة القادرة على اللحاق إلى البصائر العمياء فتضيئها بنور لا ينطفئ.

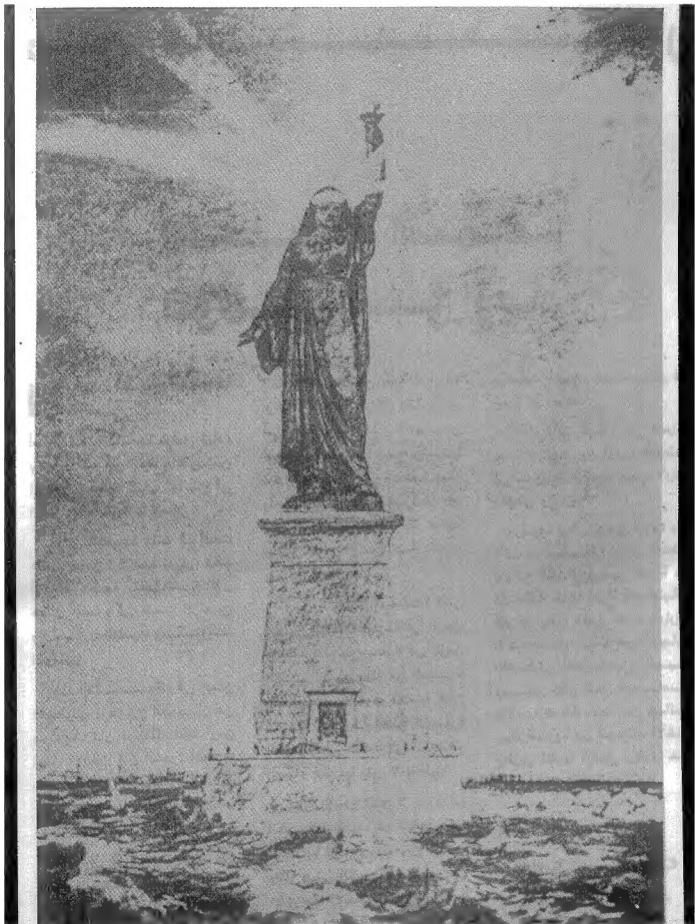
كان الإيمان الذى لا يبرد فى القلب الصامد، هو اللغة التى أشاعها توفيق زياد بين الناس. وظل حتى النفس الأخير يراهن على هذا الإيمان. لم يراهن قط على زعيم أو قوة مهما كان

توعها، سوى قوة الإيمان فى شعب لن يموت.

لذلك كانت قصيدة على الدوام، صلاة تربط بين قلوب المؤمنين فى سموات أحلامهم وبين الأرض والوطن والحرية.

وسوف يبقى توفيق زياد، بكل تأكيد، قصيدة الإيمان المعطرة بروائح التين والزيتون جزءاً من كل نطفة تلدها امرأة فلسطينية.. فهو لن يكون مجرد ذكرى يتوارثها الأجيال، وإنما هو «الإيمان» الفلسطينى الذى يرحل الجبال ويبقى على الحق المحاصر بالأسلاك الشائكة من جانب، وبالزغاريذ من الجانب الآخر. وطوى لك يا توفيق زياد.. حتى ولو أخطأت زمن الرحيل. ■

غنى



تمثال الحرية لمصر أم لأمريكا؟

أحمد يوسف

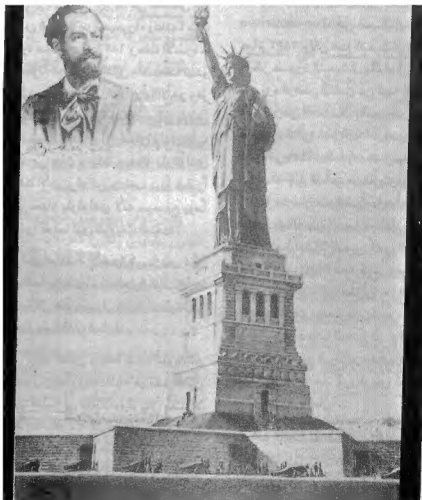
باحث مصري وأستاذ بجامعة باريس

« إن الشكل لصانع التمثال
يمثل كل شيء ويمثل لا شيء، فهو
لا شيء دون الروح، وهو كل
شيء بالفكرة. »

من رسالة ليفكتور هوجو
إلى بارتولدي في ١٣ مايو ١٨٨٥

قا هل تذكر عزيزي القارئ فيلم
يوسف شاهين «إسكندرية
ليه»، هل تذكر بالتحديد نهاية الفيلم
عندما غمز تمثال الحرية بعينه مستقبلاً
بإتسامة وأعدة بالأمل لبطل الفيلم
المصري؟

هل كان يدري يوسف شاهين، إن
هذا المشهد الذي استغرق ثوان قليلة على
الشاشة، ولخص قصة من أغرب قصص
التاريخ المعاصر، وخاصة تاريخ العلاقات
بين دول ثلاث هم أبطال هذه القصة:
مصر وفرنسا وأمريكا؟ وقبل أن أدخل في
التفاصيل أريدك عزيزي القارئ أن لا
تأخذ ما سوف تقرؤه على أنه محاولة
معي لاسترداد ما لا يسترد، أو أنها
محاولة لفتح باب المشاكل مع دولة، بل
مع دولتين تربطنا بهما علاقات متينة،
متشعبة ومعقدة، ولأنها كانت معقدة كان
لا بد من التسليم بأن الواقع لا ينطبق
بالضرورة مع الحقيقة التاريخية، وأن



التمثال حالياً

إلى اليمين مشروع الفنان بروتولدي
لإنشائه تمثال على هيئة منارة عند
مدخل قناة السويس بتكليف من خديوي
مصر وإلى أعلى تمثال الحرية وصورة
الفنان بروتولدي

الواقع لا يطبق بالضرورة مع الخطأ التاريخي أيضاً، وأقصد هنا الخطأ بمعنى erreur وليس معنى foute، وإضا الواقع هو استمرارية حدث ما في الزمان بصرف النظر عن تقديرنا لهذا الحدث، وبصرف النظر عن حكم التاريخ عليه.

ودون الدخول في المعضلات الفكرية لعلم «فلسفة التاريخ، واستعمال أداة الشرط (لو)، فإن عمل الشيطان نفتحه أيضاً سياسة الجهل أو سياسة اللجاهل، وسوف يجد القارئ في الصفحات القادمة ما سوف يتطلب منه بعض الجهد في فهم «لا مباشرة، بعض الأحداث ولا مباشرة، بعض العبارات لأن عملية الطمس، وربما أشهر عملية طمس في التاريخ، قد أخذت وأخفت وأضاعت وأحرقت وثائق خطيرة، ولم يبق منها إلا شذرات وفصايقص قد تكون قليلة ولكنها - ولحسن الحظ - عظيمة الدلالة وأشد برهاناً إذا ما أحسنا فهمها وتحليلها.

وربما يحسن أن أبدأ أولاً بنبذة سريعة عن حياة صانع هذا التمثال العظيم، اللحات الشهير، بل أشهر نحاتي فرنسا في القرن التاسع عشر، وأسمه فردريك - أوجست الشهير ببارتولدى، ثم استعرض مع القارئ الظروف التي صاحبت ظهور فكرة التمثال في فرنسا ثم في مصر، وأخيراً درر رجلين ساهما في صنع المصير النهائي للتمثال وهما دي لويسيس من ناحية والمفكر الفرنسي إدوارد دي لا بولاي - Edouard de la-boulaye. ويعددها محصلة أو خاتمة نهائية لهذا البحث ثم أترك القارئ ومن يهتم بالموضوع من الباحثين وربما المسئولين ولهؤلاء جميعاً أهدى هذا العمل.

أولاً: من هو بارتولدى؟

للا داخل إلى مدينة كولمار Colmar التابعة في بطن إقليم الإلزاس شرقى

فرنسا، يلحظ صغر الشوارع، وتشابك حواربها الجميلة في تقاطعات على نسق العصور الوسطى، وعند كل تقاطع نافورة صغيرة قديمة، ويلحظ أيضاً وبشكل لانت كثرة العلامات الإرشادية الدالة إلى متحف بارتولدى، والمتحف عبارة عن قصر صغير به فناء واسع ملحق به منزل الفنان نفسه ثم مكتبة هائلة تضم نفائس تخص حياة وأعمال بارتولدى ومنها استقينا أغلب معلومات هذه الدراسة.

ولد بارتولدى بالمدينة سابقة الذكر في أبريل ١٨٣٤ (وربما في أغسطس من نفس العام) لأسرة ميسورة، وعندما مات أبوه مبكراً عام ١٨٣٦ رحلت الأسرة - المكونة من الأم وطفلين، أحدهما تبتو عليه بوانر للتخلف العقلى أما الآخر وهو فتاننا فكان ذا صحة ضعيفة - إلى باريس وأقامت عند ابن أخ لبارتولدى الأب ويدعى جان - بابتيست بارتولدى وهذا الأخير له ابن سيلب دوراً خطيراً في حياة بارتولدى لأنه سيصبح يوماً سفيراً لفرنسا لدى الولايات المتحدة.

ورغم بقاء الأسرة في باريس فإن صلتها بكولمار لم تنقطع وكانت تزورها مرة كل عام وسيؤثر هذا أثر عظيم في حياة بارتولدى فيما بعد.

وتمر السلون وبينما يتجه أخوه نحو الجنون رويداً رويداً، لنتجه هو نحو الفنون وخاصة فن النحت، ولم يكن بعد إلا تلميذاً بالمرحلة الثانية بلبسيه لويس الأكبر Lycée louis le grand أشهر مدارس باريس، حتى أخذ في التردد على أتقيله أشهر نحاتي ورسامي عصره في فرنسا أنطوان إتيكس Antoine Etex ثم خالط الرسام الفيلسوف الأشهر آرى شيفر Ary scheffer، هكذا تنوعت مصادر التكوين النفسى والفنى لبارتولدى بين الرسم والنحت والفلسفة، فإذا أضفنا إلى هذا التربية شبه العسكرية التي أعطتها له أمه، والتي كانت تمتد

أن النظام والطاعة في الحياة هما مفتاحا؛ الحياة قشب بارتولدى شديد الالتصاق بأمه وكان يكتب لها في كل رحلاته كل يوم رسالة واحفظت هي بكل هذه الرسائل وكانت تبويبها وقرتها تاريخياً لشعورها أن ابنها سيكون يوماً ذا شأن عظيم، مما ساعدنا كثيراً على فهم خفايا قضية تمثال الحرية التي اندلعت في أمريكا وفرنسا في الأشهر الأخيرة من حياة بارتولدى على نحو ما سيرى القارئ فيما بعد.

وقد قدم بارتولدى أول أعماله، Le Bon samaritain، في صالون باريس عام ١٨٥٣، لكن هذا التمثال العظيم (انظر صورة التمثال بالملحق) كان مصيره الرفض الكامل من لجنة التحكيم فلم يعرض التمثال بالمعرض، وفي المعرض الدالى عام ١٨٥٥ رفض تمثاله الشاننى Les sept Souabes، وأدى به الإحباط إلى اليأس من باريس وسافر للراحة بكولمار مسقط رأسه، وأحاطته المدينة بهالة من السجد وظلّت منه أن يصنع لها تمثالا كبيراً من البرونز للجنرال راب Rapp أحد كبار مساعدي نابليون، وكانت المفاجأة أن هذا التمثال عندما عرض بمعرض باريس الدولى ١٨٥٦ حاز إعجاب الجميع ثم تم افتتاحه بعد ذلك بأشهر في أكبر ميادين مدينة كولمار وعندما عاد إلى باريس كان اسم مصر على كل لسان!

في حقيقة الأمر كانت باريس تعيش أولى سنوات إمبراطورية نابليون الثانى الكبيرة وكان الشان سيمونيون Les Saints - Simoniens قد عادوا من مصر بعد إقامة طويلة كانت نتيجتها مشاريع هائلة كسد قناطر القاهرة وبعض المدارس الصناعية والصحية بالقاهرة ثم مشروع هائل لربط البحرين الأحمر بالأبيض وأقاموا علاقات ثقافية وطيدة مع أركان الثقافة المصرية وقبضت مثل رعاضة الطهاوى وعلى مبارك، ومن ناحية

أخرى كانت أعمال الأدباء الفرنسيين الذين زاروا مصر بين الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي قد بدأت في الخروج إلى الجمهور الكبير وعلى رأسهم جيرار دى نرفال وتيوفيل غوتييه والعملاق فلوبيز صاحب «مدام بوفارى الشهيرة»، كان اسم مصر إذن على كل لسان وجاء الإعلان عن مشروع قناة السويس بواسطة قنصل شاب يدعى فرديناند دى ليسبس، حتى يكمل الحلقة وتصبح مصر أرض أحلام الأدباء والفنانين ولعشاق التاريخ بل والباحثين عن المستقبل مثل لسان سيمونيين.

ثانياً: مصر في أعمال بارتولدى

في الشهر التالي لافتتاح شمال راب أى شهر سبتمبر ١٨٥٦ سافر بارتولدى إلى مصر بصحبة بعض الفنانين، وكانت بمثابة الضخمة مفاجأة هائلة له وظلت مضخمة هذه التماثيل تمثل له لغزاً محيراً وإن يهذأ له بال حتى يصنع لنفسه تماثلاً مشابهاً في الحجم على نحو ما سيفعل في شمال الحرية، إلا أن أعظم ما تركه مصر في أعمال بارتولدى على وجه الخصوص في عشقه الشديد لمشاهد الحياة اليومية في القاهرة القديمة، وهنا يكشف اللحظات الكبيرة أنه مصور أيضاً فيرسم لنا لوحات رائعة لمشاهير من القاهرة ما زلت موجودة بمتحف كرامر، وكان قد اصطحب معه آلة تصوير فوتوغرافية وكانت في بدايتها الأولى، فصور لنا بعض الصور الفوتوغرافية أشهرها على الإطلاق واحدة من أقدم الصور لتمثالى ممتون، ثم عشرات الرسوم الكروكية لرجال ونساء من مصر خصوصاً الفلاحات الصريات، لا تعرف على وجه الدقة إذا ما كانت خطأً لمشاعير مستقبلية في اللحظ لم في الرسم أو في شيء آخر.

وعندما عاد عام ١٨٥٧ قدم لجمهور باريس لوحة رائعة اسمها «قنطرة البرير، La Lyre du Berfère على أن أعظم أعماله على الإطلاق، وتقصّد أعماله المستوحاة من مصر، هو تماثيل شامبليون مكتشف الهيروغليفية، وقد وضع قدمه على رأس الفرعون رمسيس الثانى. وشامبليون في وضع تأمل عميق، هذا التمثال موجود اليوم بمدخل الكوليج دى فرانس Collège de France حيث قسم علم الصريات الأشهر في العالم.

وفي مصر تعرف على فرديناند دى ليسبس ولم يكن يدري أن لقاءه بالقتل سيغير له مجرى حياته.

ثالثاً: دى ليسبس وبارتولدى

كان اللقاء بين الرجلين يشبه لقاء الماء بالنار، كل شيء يفرقهما ولا يجمع بينهما إلا الطموح من ناحية وصلة كل منهما بمجموعة اللسان سيمونيين في فرنسا ومصر من ناحية أخرى.

وكان اللسان سيمونيين مولعين حتى الجنون بنابليون والثورة الفرنسية، كانوا إذن جمهوريين حتى النخاع وكانت صلات بارتولدى بهم وبخينة واسعة من الفلاسفة الجمهوريين وعلى رأسهم لا بولاي، قد جعلت منه أيضاً جمهورياً عتيقاً، بينما دى ليسبس رغم إعجابه الشديد بنابليون وبالثورة، فإن الأقدار دفعته في اتجاه المكيين الفرنسيين من أسرة نابليون؛ ربما لأن الإمبراطورة أوجيلى شئت بصلة قرابة بعيدة إلى أسرته، وربما لأن الدبلوماسي السخيف قد جعله لا يهاجر صراحة بأرائه، وربما - وهو الأرجح - أن مصالح الشخصية بعد ارتباطه بأسرة محمد على في مصر حسمت أن يرتبط بالأسرة المالكة في فرنسا خصوصاً بعد توقيع امتياز حفر قناة السويس واحتياجه الشديد جداً لتأييد ومساعدة الإمبراطور والإمبراطورة في فرنسا.

بقيت هناك نقطة أخرى مهمة تفرق بين دى ليسبس وبارتولدى، وهى مرتبة ولا شك على ميول كل منهما السياسية ألا وهى انتماء بارتولدى إلى جماعة ماسونية تركز معتقداتها على الأسس والجزء الغربية للماسونية، على عكس دى ليسبس وأبيه ماتيو الذى كان أحد مؤسسى الماسونية الشرقية في مصر ولبنان.

على أية حال كان اللقاء الأول فاتراً إلى حد أن دى ليسبس «لم يكف» عن صب الماء البارد على وجهه، على حد تعبير بارتولدى في رسالة لأمه (١) تعبيراً عن جفاف العلاقة التي ربطت بين الرجلين منذ اللقاء الأول، وبالطبع لم يتمكن بارتولدى من رؤية الخديوى سعيد وعاد بسرعة إلى فرنسا ليقيم للجمهور الفرنسى محصلة زيارته لمصر، وهى كما أسلفنا غنية بالأعمال الفنية المتعددة الأشكال فما أن حل موعد معرض باريس الدولى العام ١٨٦٧ وكان الحاكم قد تغير بمصر، وأصبحت علاقة دى ليسبس بأساميل متذبذبة بين الفئور والبرود لأن إسمايل كان يعتقد أن دى ليسبس أسرف في استخدام صقلته لسعيد لمصالحه الخاصة، وأسرف في حقوق مصر، وكان الخديوى على وشك أن يدخل في صراع مع شركة قناة السويس وأن يلجأ إلى تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث، وكلما يعرف صلة زوجة الإمبراطور بدوى ليسبس، وتون الدخول في تفاصيل هذه المشكلة، فإن ما يهمنا فى الوضع قد تغير بالنسبة لكل الأطراف دى ليسبس، وبارتولدى، ومصر نفسها. من خلال المعرض سابق الذكر، عرض بارتولدى آخر لوحاته المستوحاة من مصر هذه اللوحة تحمل اسم «ذكرى من مصر، Souvenir d'Egypte وكانت مصر ممثلة في هذا المعرض على نحو آثار إعجاب ودهشة الناس، ذلك أن

الخدوي أراد أن يظهر للناس ميوله للعلمة والمدنية فأقام قصرًا خشبيًا رائع التصميم^(٢)، وزخرفه بالرسم والتقوش الفرعونية وفي هذا القصر، عرض بارتولدي لوحته سابقة الذكر «ذكرى من مصر» وكان إعجاب الخدوي بها كبيرًا

في اللقاء الذي تم بين الخدوي وبارتولدي في المعرض دعى الأول الثاني في مصر وعرض مشروعاته عليه وهكذا تم مع إسماعيل ما لم يتم مع سعيد، وكان أن عاد إسماعيل إلى مصر بعد زيارة حافلة إلى فرنسا، وعكف بارتولدي على تصميم ضريح هائل للخدوي على شكل قصر ذكرى يعطوه أسد هائل وقد تربع عليه الخدوي إسماعيل في وضع التأمل (لاحظ نص الفكرة في شمال شامبلون آنف الذكر)، وقد ألقاها رحلته إلى مصر ليصلها في مارس ١٨٦٩ ليقلبه دى ليسبس ببعض الحرارة هذه المرة لأسباب قد لا تخفى الآن على القارئ، وفي اللقاء الذي يقال أن دى ليسبس رتبته مع الخدوي، رغم أن ليس هناك ما يثبت ذلك، عرض بارتولدي على الخدوي مشروع ليفاجأ بأن هذا الأخير يطلب منه تمثالًا هائلًا يضعه عند المدخل الشمالي للقناة التي من المقرر أن تفتتح خلال أشهر، وهذا يخرج بارتولدي قلمه ويرسم أمام الخدوي تمثالًا كبيرًا على نمط تماثيل الفرعانة التي بهرته في زيارته الأولى، لكن الخدوي يطلب منه «أن يكون المشعل على الرأس بدلًا من اليد على نفس طريقة الفلاحات المصريات»^(٣).

ويعود بارتولدي إلى فرنسا محملاً بآمال تسمع الدنيا كلها ويصمم عدة ماكينات التمثال، كلها موجودة الآن بمتحف بولمار وقد أطلق عليها الجمعية المصرية على أمل أن يعود إلى مصر ويحصل على موافقة الخدوي النهائية على إحداها ويشرع في التنفيذ.

وتمر الشهرة وفتحت القناة دون تمثال، بل ونفاجأ أن هناك حفلة تبرعات واسعة اللطاق في فرنسا وأمريكا لاتمام صنع التمثال وإعادته إلى الولايات المتحدة... فكيف حدث هذا؟

رابعًا: كيف تم تحويل مسار التمثال؟

بين عام ١٨٦٧ وعام ١٨٦٩، تاريخ افتتاح القناة جرت مياه كثيرة تحت الجسر، ذلك أن الخدوي الذي أنفق بجئون على مشاريعه لإدخال الحضارة الحديثة إلى مصر، كما أنفق ببذخ على حياته الخاصة وعلى حاشيته بالإضافة إلى حروبه في السودان والحشة وهداياه التي فاقت ألف ليلة وليلة إلى الباب العالي وأركانها... إلخ.

كل ذلك جعل الوضع المالي لمصر غاية في الصعوبة فإذا ما أضفنا تكاليف حفل الافتتاح التي يصنفها بشكل دقيق جان ماري كاريه في كتابه العمدة «رحالة وكخبا فرنسيون في مصر» Voyageurs et écrivains Français en Egypte.

كانت الصورة إذن قاتمة وأدرك الخدوي الكبير أن أيامه أصبحت معدودة خاصة وأن الإنجليز دخلوا على الخط وأصبحوا من الحساسين من الخدوي ومن القناة ومن فرنسا إلى حد أنهم بدؤوا يحسبون عليه خطاؤه ويضمخون مشاكله ويفرغون وضعه المالي تعقيدًا.

على أية حال هذا الموضوع ليس محور اهتمامنا الآن إلا أنه يظهر المناخ الصعب الذي أراد فيه بارتولدي تحقيق حلمه بإقامة التمثال الفرعوني الضخم عند مدخل القناة الشمالي.

لكن المنطق، منطق الخدوي إسماعيل، كما عرفنا في كل ما يخص إظهار عظمة ملكه، وما يخص علاقته

بالفرنسيين واللفانبيين منهم على وجه الخصوص، هذا المنطق الذي يطلب تمثالًا يعطى توجيهات، هذه المطالب المصحوبة بتوجيهات لابد أن تكون خديوية أقصد مدفوعة أو على الأقل مدفوع جزء منها، فكيف نتصور قائلًا يتفق على ماكيناته ثم رسومه ثم سفرياته وإقامته دون عون الخدوي؟

الذي نحن متأكدون منه أن الخدوي قد طلب التمثال والمقبرة معًا، وأنه قد أعطى تعليمات للفرانكي كي يعمل في التمثال على نحو ما يريد بارتولدي نفسه وعلى نحو ما تلبه صورة التمثال التي قدمها للخدوي بنفسه وأشار هو بنفسه إلى ذلك أسفل الصورة، أما المدفن أو المقبرة فلا نعرف على وجه الدقة رأى الخدوي فيها، وإن كانت من العظمة والجمال بحيث أن رجلا كالخدوي إسماعيل لم يكن إلا ليرغب فيها ويطلبها من بارتولدي، وعلى أية حال فيما يخص المقبرة ما نملكه من وثائق لا يدل على شيء ذي أهمية للباحث العلمي أما التمثال الذي كان على ما يبدو مطلوبًا في عجلة من الأمر لأن القناة على وشك الافتتاح، وهذا تحدث كارثان ستقباي الأوراق على المائدة، الأولى هي هزيمة فرنسا أمام بروسيا عام ١٨٧٠ واحتلال إقليم الأناضول موطن بارتولدي ثم وفاة الإمبراطور نابليون الثالث منفيًا في إنجلترا عام ١٨٧٣، وبعد ست سنوات فقط عزل إسماعيل وعاش ومات منفيًا في استانبول، وأصبح صاحبها القناة، مالكيها الأول، وحاميها الثاني، خارج اللعبة ويجد بارتولدي نفسه في مأزق كبير.

وفي رسالة خطيرة إلى أمه بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٨٦٩ يشرح لها في مزارعة أنه ينوي السفر إلى أمريكا للاستجمام. ثم يقول لها أنه إن فعل ذلك قبل عام.

في هذا العام حدث - كما رأينا - هزيمة فرنسا وحصار باريس، ثم صمت كامل من جانب الخديوي إسماعيل الذي وضع تماماً أن هناك شخصاً ثالثاً لا يرغب في القتال.

هذا الشخص الثالث قد يكون دي ليسبس الذي لم يحبه قط، وقد يكون الفيلسوف لابولاي عالم الفلسفة وعالم السياسة المتأمرك والذي كان يحبه حباً شديداً ويعتبره ابنه الروحي.

لقد جعلت هزيمة أسرة نابليون موقفه في موضع صعب دون حماية ودون غطاء سياسي، وكان عليه البحث عن مغامرة جديدة في عالم جديد على نحو ما سدرى في مغامرة قناة بنما، ثم أن استفحال ديون الخديوي العامة منها والشخصية كانت تجعل رجلاً مثل دي ليسبس يخشى دخول مغامرين جدد على الخط وأصبحت حاجته لإنجلترا تزاد يوماً بعد يوم، خاصة بعد ما وضع لفلوذا في القناة ونفلوذا على الخديوي، ولاندرى على وجه الدقة سبب اللهجة المروية التي يتحدث بها بارتولدي عن دي ليسبس في رسائله لأمه دون أن يدري السبب لذلك، ولعله لم ير أن سبب لأمه أمزناً أو قللاً شديداً، وعندما أطلق لابولاي فكرته بإقامة تمثال كبير نهديه فرنسا إلى أمريكا بمناسبة مرور مائة عام على استقلالها، كان دي ليسبس متحمساً جداً لأنه - ولا شك - كان يمد لزوجيه الأناظر إلى العالم الجديد من أجل مشروعه للقادم.

أما لابولاي الذي أقنعه بضرورة السفر إلى أمريكا، يرد عليه بارتولدي في الرسالة التالية بتاريخ ٨ مايو ١٨٧١: «لقد فضضيت بعض الوقت من أجل تنظيم بعض شئوني المختلفة، ولكن مع فكرة خلفية بالذهاب لاستئاق الهراء في مكان آخر، واعتقد أنها اللحظة المناسبة لتنفذ

الرحلة التي كان لي شرف الحديث عنها معك، وأعددت نفسي للسفر آخر هذا الشهر الولايات المتحدة، أطلب إذن - عزيزي - مساعدتك الكبيرة التي وعدتني بها على شكل رسائل التي قد ترفع من قدرتي لدى الجمعيات ولدى الصحافة والحكومة ... وأرجو عندما أعود أن أجد فرنسا للسكنة وقد برزت قليلاً من المصائب المتحدة التي تسبب فيها النظام الإمبراطوري»، وعندما انتشرت فكرة تمثال الحرية في فرنسا وأمريكا هاجمت الصحف في فرنسا بارتولدي واتهمته بإهداء تمثال بيع مسبقاً، ويقول برتراند لوموان Bertrand Lemoine أحد أعظم مؤرخي بارتولدي في كتابه القيم «تمثال الحرية، لقد دافع بارتولدي بشكل شيء عن نفسه أمام اتهامات الصحافة له ببيع المشروع الذي كان قد باعه بأدعاه بأنه لم يرسم لقناة السويس إلا كروكيس صغيراً ويتابع لوموان ليحضر نفسه حجة بارتولدي فيقول «إن الماكينات المحفوظة تظهر لنا بشكل واضح عكس ذلك» (٥).

وعندما اشتدت الحملة على بارتولدي ولابولاي ظهر في فرنسا من يدافع عن التمثال كهدية لأمريكا ولكن دون الإخلال بحق مصر، على الأقل ذكر اسمها في لوحة قاعدة التمثال واعتبار هذا التمثال خيطاً رابطاً العالم القديم التمثال في مصر، بالعالم الجديد التمثال في أمريكا.

واخفت فجأة وثائق كثيرة ثم صمت الخديوي إسماعيل نفسه المحبر والذي كان لا يزال على قيد الحياة في استانبول عند افتتاح التمثال في نيويورك عام ١٨٨٥ (٦).

كل هذه علامات استفهام مازالت تحتاج إلى بحث وتحليل من الباحثين والمؤرخين

على أية حال أنا لم أدع ملكية مصر بعد لهذا التمثال ولكني أشك في ملكية فرنسا وأمريكا له، هناك فارق بين الفرضين أو بين الظنن ولست أقصد هنا فتح النار على دول أو على أشخاص وإنما أبغى فتح الملف، وإذا كان لنا مسلة في ميدان الكونكوردي ورمبدا بهذا وإذا كانت لنا آثار في متاحف الدنيا كلها يعلم الله كيف خرجت من مصر فليس لنا أن نبكي على تمثال الحرية، لنا أن نبكي فقط على صنيع حقيقة تاريخية أخرى من حياتنا ■

هوامش

(١) في رسالة من بارتولدي إلى أمه بتاريخ ٦ مارس ١٨٦٥ من أرشيفات المكتبة البلدية بكيهان. قسم بارتولدي.

(٢) هذا القصر موجود الآن في قصر لندر Hof Linderhof بهانرا بعد أن لشراء لويس الثاني من الخديوي إسماعيل.

(٣) من رسالة لبارتولدي لأمه ١٥ أبريل ١٨٦٩.

(٤) عندما يتجاوز السبعة وكلها من التماثيل مترسطة المعصم مرتدين ملابس الفلاح المصرية وبعضها كتب عليه أنها موجهة للخديوي إسماعيل.

(٥) «La statue de la liberté» B 10- moine, raigra Ed.

(٦) مات الخديوي عام ١٨٩٥. Bruxallis. 1958.

مراجع البحث

(تكررت هذا فقط لعدم المراجع وبخصوصاً منها الذي يهم بالهالب المصري المشرع)

المراجع الإنجليزية:

- 1 - «The Statue of liberty» The Centenary edition of a classic history and Guide. by. Harvin tra chthenbery ed. Elisabeth sifton Books Penguin Books 1984

(1) Le Statue de la liberty de Bertrand
le moine

ed . rardaga, bruxelles 1958.

(2) Vérité sur la statue de la liberty et
son Createur

André Gschmedler

ed. Jerome dobintzinger Editer 1986.

المراجع الفرنسية:

المرجع الفرنسي للوحيد الذى يلقى
بظلال الشك على حق بارتولدى فى
التصرف فى العمل هو كتاب برتران
لوموان

2 - The story of the statue of liberty
and Ellis is laud

James B. Bell

(Spécial centennial Commemoratus)
Richard and .i Abrams.

ed. Double day and combagny in Gar-
den city

new York 1984

المواجحات

ماذا يبقى للشيوعيين تحت مظلة الليبرالية والراية الوطنية ؟

✍️ الاشتراكية غداة انهيار الستالينية، ترجمة: بشير السباعي.

✍️ حول انهيار النموذج السوفييتي، خليل كلفت.

— إذا يبقي —



الشيوعيين..

تحت المظلة الليبرالية والراية الوطنية؟

منذ عام ١٩٨٥ وصعود جورباتشوف إلى قمة السلطة بالاتحاد السوفيتي السابق، والأحداث تتلاحق في العالم بالتحويلات العميقة والانهيارات الضخمة.

فقد بدأ صعود جورباتشوف إيدانًا بتحويلات جذرية في أوروبا الشرقية وروسيا، حيث انهارت الاشتراكية التي طبقت (اشتراكية القياسرة)، ولقد تلقى الغرب الرأسمالي هذا الانهيار بمقولات مثل: «نهاية التاريخ»، و«انتصار الرأسمالية النهائي». وبالفعل كانت الثمانينيات حقبة توسع للمد الرأسمالي، وتراجعًا للمنظومة الاشتراكية، فقد بدأ العمال في بولندا إضرابهم، الذي أنهى الحكم هناك ثم تسارعت الأحداث في تشيكوسلوفاكيا ورومانيا وألمانيا الشرقية والاتحاد السوفيتي نفسه.

لكن السؤال الملح في أذهان مفكرى الشيوعية:

ماذا عن المستقبل؟

وهنا في «مجلة القاهرة» - تنشر دراستين، الأولى نشرت في نوفمبر ١٩٩٠ - على شكل كراس صادر عن مجلة «سوشاليست آرتلوك»، البريطانية دون إشارة إلى اسم المؤلف ومن ترجمة بشير السباعي، والثانية لـ «خليل كلفت»، حول انهيار النموذج السوفيتي والدراسات تقدمان رؤية للماركسية الجديدة، وتوضحان الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار للاشتراكية التي كانت على مدى عقود تحمل عوامل فئانها.

لا شك أن الديمقراطية الغائبة على مدى عقود طويلة، وتفشي البيروقراطية، أدبا إلى تسارع سقوط نموذج الاشتراكية التي أخذت طريقها إلى التطبيق في مجتمعات قادمة من التخلف الحضاري - روسيا مثلا التي كانت مليئة بالقناتة والعبيد والحكم القيصري - ومن هنا كانت الرؤية الاشتراكية مزروعة بقوة في أرض غير صالحة. ولذا انفجرت في المجتمعات «الاشتراكية»، السابقة الاثنيات والعرقيات والقوميات، تحت ستار الليبرالية والديمقراطية والتطلع إلى الغرب الرأسمالي.

ومنذ عام ١٩٩٠ وصعود ما يسمى بالنظام العالمي الجديد وانفجار الحروب والقوة الدولية الواحدة، نرى أن هناك أحزابا - اشتراكية غيرت أسماءها وأضالفت كلمة الديمقراطية وهنا لا يزال السؤال قائما:

ماذا يبقى للشيوعيين تحت المظلة الليبرالية والراية الوطنية؟

التحرير

ماذا يبقى للشيوعيين؟



الإشتراكية غداة انهيار الستالينية

ترجمة: بشير السباعي

والحال إن الشعور بأن أعداءنا يشنون الهجوم، وبأننا نراجع، قد زادت من احتداده التحركات الرامية إلى استعادة الرأسمالية في أوروبا الشرقية، وحتى بالنسبة لغالبية اليسار الذي لم يكن يعتبر الكتلة الشرقية «اشتراكية»، فقد كان يظن إليها على أنها تشكل عقبة في وجه الغرب، والإمبريالية، بوسعها مساعدة الثورات في العالم الثالث على الأقل. والآن يبدو أن هذه العقبة تنهار في اتجاه «انتصار نهائي للغرب». وهو تصور عززه انفلات العسكرية الإمبريالية المسعورة في الخليج والحال أن هذا التغير الواسع في السياسة الدولية والمحلية قد أفرز في جانب منه، واجتمع في جانب آخر منه، مع شعور متزايد بين صفوف اشتراكيين كثير بأن نظرياتنا وبرامجنا التقليدية لا تملك

بوسع الاقتصاديات المخططة مركزاً أن تكون كفاً أو ديمقراطية في أي يوم من الأيام. ونتيجة لذلك، فإن الأيديولوجيين المؤيدين للرأسمالية قد وجدوا مجالاً واسعاً لإعلان أن الاشتراكية تراجع في كل مكان وأن الماركسية قد «ماتت».

وقد أدى للحرك السياسي إلى اليمين في كثير من البلدان الغربية إلى إفراز الشكوك حول إمكانية الحصول في أي يوم من الأيام على تأييد شعبي للاشتراكية. وهذا صحيح بشكل خاص في بريطانيا، حيث أدى عقد من التناشورية إلى تحويل مجمل المشهد السياسي صوب اليمين: إذ يبدو أن عديداً من الاشتراكيين السابقين يقبلون سياسات «كيولد» شبه التناشورية بوصفها أفضل ما يمكن إنجازه.

● معالجة لمشكلات العالم المعاصر وآفاق تطوره، نشرت في نوفمبر ١٩٩٠ على شكل كراس صادر عن مجلة «سوشاليست آوتلوك»، الشهرية البريطانية، دون إشارة إلى اسم المؤلف.

الاشتراكية في أزمة ؟

فا توجد اليوم أزمة تكاد تكون غير مسبوقة في الإيمان بالاشتراكية. في بريطانيا وفي معظم بلدان العالم. وليس من الصعب تمييز جذور هذه الأزمة. فانهيار «اشتراكية» الدولة في أوروبا الشرقية والأزمة في الاقتصاد السوفيتي والأحداث في الصين قد أفرزت شكوكاً ضخمة فيما يتعلق بما إذا كان

الأزمة العالمية الجديدة

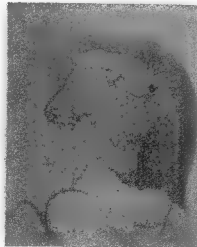
سوف يدخل عام ١٩٨٩ التاريخ بوصفه أحد الأعوام الرئيسية في تاريخ القرن العشرين. فقد رمز انهيار سور برلين إلى انهيار النظم الستالينية في أوروبا الشرقية. وأدت الأحداث الراهبة في بكين إلى تبديد أية أوام باقية في أن النظام الشيوعي في الصين يقدم نموذجاً أكثر إنسانية وتقدمية. وخلف هذه الأحداث تهدر الدراما المتواصلة في الاتحاد السوفيتي نفسه، حيث لا يتوافر يقين عن أي مخرج اشتراكي في الأجل القصير.

وترتبط بهذه الأحداث هزيمة الساندينيستا الانتخابية في نيكاراغوا، وهي حدث أدى إلى تفخيخ صديق الجماهير في أمريكا اللاتينية وخارجها. ومن السهل استنتاج أنه ترتباً على ذلك فإن الستالينية العالمية هي وحدها التي في أزمة، جارة معها إلى الهاوية مجمل المشروع الاشتراكي. لكن الواقع أكثر تعقيداً من ذلك بكثير فانهيار الستالينية سمة محورية للأزمة العالمية الجديدة، لكنه ليس السمة الوحيدة أبداً.

فأزمة الستالينية تجتمع مع أزمة دامت عقوداً للرأسمالية الدولية، لا تزال بعيدة عن الحل، وليس الصعود الجديد العسكرية الإمبريالية في العالم الثالث غير جانب واحد فقط لمحاولة التغلب على تلك الأزمة وجعل العالم مكاناً آمناً للرأسمالية. ولتكوين صورة واضحة عن الأزمة العالمية يلزم دمج العوامل التالية.

كروا عن ظهر قلب الحكمة التي خلفتها لهم أجيال من الاشتراكيين. لقد كانوا كباراً لأنهم جددوا، لأنهم فكروا تفكيراً عميقاً في المشكلات الجديدة وقدموا إجابات جديدة، لأنهم قدموا رؤية اشتراكية لزمانهم.

وإعادة التفكير في الاشتراكية ليست في حد ذاتها «نزعة مراجعة». ومن الناحية الأخرى، فإن عصريّة النظرية الاشتراكية ليست أمراً مماثلاً للقفز إلى عريات موسيقى الموضات الثقافية اليمينية الراحلة - «ما بعد الحديثة»، «ما بعد الماركسية»، «ما بعد الفرديّة»، وما إلى ذلك. إن استمرار التقسيم المادية الأساسية، قيم البرهان والحقائق الواقعية يجب أن يكرن نقطة انطلاقاً. أما أولئك الذين يتخلصون من الطفل الماركسي مع الحمام الستاليني فسوف ينتهون بسرعة كافية، إما إلى التفخيخ أو إلى الدفاع عن الأمر الواقع.



إجابات عن كثير من المشكلات الملحة - والأزمة الأيكولوجية ليست غير مجرد مثال واحد لذلك.

ونحن نرى في هذا الكراس أن رداً اشتراكياً مناسباً على الأزمة الراهنة يجب أن يستند إلى أمرين. الأمر الأول هو نبذ الاستسلام للناس وللخلى عن الاشتراكية. والأمر الثاني هو الإصرار على التفكير العميق. في المسائل التي طرحتها الحالة العالمية الجديدة وعلى الانخراط في جهد جماعي يهدف إلى عصريّة وتحديد نظريتنا واستجاباتنا السياسية العملية.

وإذا كانت الاشتراكية تواجه صعوبات جديدة جسيمة، فإن الرد لا يتمثل بالتأكيد في السقوط في موقف مؤيد للرأسمالية. فأياً كانت نجاحاتها المعاصرة، لا تظهر الرأسمالية الدولية أية دلالات على أنها قادرة على تلبية أبسط حاجات مئات الملايين من الفقراء فقراً مبروساً منه، ومن الناس المستغلين في العالم. وأياً كانت الإجابة، فإن الرأسمالية ليست إجابة.

ومن الناحية الأخرى، فإن إدراك أن الرأسمالية لا تزال نظام الاستغلال والنهب الخبيث الذي كائنه دائماً، لن يقدم لنا إجابات عن طابع الأزمة العالمية. فالاشتراكية، لكي تكون هدفاً قابلاً للحياة، ودليلاً للعمل يمكن أن يلهم ملايين العمال، يلزم لها دائماً أن تتغير وأن تتكيف. والحال إن المفكرين الاشتراكيين الكبار - بدءاً من ماركس نفسه، في الواقع - لم يكونوا كباراً لأنهم



فشل الرأسمالية العالمية في الإفلات من دورة انحدارها التسلسلي المديدة

لقد أدى انهيار سوق الأسهم في نوفمبر ١٩٢٧ إلى إنهاء الرواج المحدود المضارب والتضخم في الثمانينيات. فالرأسمالية العالمية الآن هي في مرحلتها بعد البراجمية. وعلى مدار نحو عشرين سنة والرأسمالية تحاول التقلب على أزمة الربحية والتي ترتبت على انتهاء رواج ما بعد الحرب (العالمية الثانية) والذي دام من عام ١٩٥٠ إلى نهاية الستينيات .

شهدت الرأسمالية العالمية بالفعل توسعا في الثمانينيات. وهو توسع محدود ضمن موجة أزمة وانحدار عامة. وكان وقود هذا التوسع هو نمو الاقتصاد الأمريكي عبر الإسدانة. وهذا النمو، الذي كان يهدف في جانب منه إلى تمويل البرنامج الأمريكي الضخم لإعادة التصالح في ظل ريجان وبيلبرجر، قد جرى تمويله بالاقتراض الضخم من اليابان وألمانيا والبلدان الرأسمالية الرئيسية الأخرى. وقد استخدمت الديون في تمويل الرأسمالية الأمريكية في فترة كانت قد أصبحت فيها بالفعل قوة صناعية منحدرة. والحال أن رواج الثمانينيات قد انقلب إلى عكسه. فقد أدى في الولايات المتحدة إلى قنوصي ميزانيات مالية مع تأرجح الحكومة على حافة الإفلاس .

ويحجه اقتصاد اليابان نحو الركود، ولم يعد بالإمكان الاعتماد على أن البنوك اليابانية سوف تشتري كميات ضخمة من سندات الخزنة الأمريكية لكفالة الإنفاق الحكومي الأمريكي. أما ألمانيا، القوة الرأسمالية الرئيسية التي عززت موقفها الإجمالي في الثمانينيات، فهي تتجه بصعوبة لدفع تكاليف إعادة التوحيد، وطبعي أن بريطانيا تتجه صوب ركود تضخمي شامل. حيث يجمع ركود عميق مع كل من ارتفاع نسبة البطالة والتضخم، وهو ما يشهد على فشل «الناشورية» طويل الأجل. ويحتمل رد رئيسي من جانب الولايات المتحدة على انحدار قوتها الاقتصادية في محاولة استخدام تفوقها العسكري، قيادتها العسكرية والسياسية لـ «العالم الحر» لتعزيز وتوسيع موقعها الاقتصادي. وأزمة الخليج هي نجاحها الأكثر إثارة، حتى الآن، في كسب القيادة العسكرية والسياسية الشاملة للغرب .

وخلال السبعينيات والثمانينيات كانت للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على حد سواء قوتين اقتصاديتين آخذتين في الانحدار، وكانتا تدينان بمكانتهما كـ «قوتين عظميين» لجبروتهما العسكري. ومن الناحية الاقتصادية، فإن أوروبا الغربية واليابان على حد سواء قد عززتا موقعهما. والحال أن الأزمة السياسية قد ضعفت الجبروت العسكري للاتحاد السوفيتي، تاركة الولايات المتحدة

بوصفها القوة الوحيدة القادرة على استخدام العسكرية لموازنة الانحدار الاقتصادي. وهي تستخدم ذلك الخيار بلارحمة، كما يثبت ذلك غزو بنما والتدخل في الخليج و «الحملة الصليبية» العسكرية الجديدة «ضد المخدرات» في أمريكا اللاتينية والوجود الضخم المتواصل في المحيط الهادئ .

على أن الرد الرأسمالي العام على الأزمة الطويلة، بشكل أكثر إثارة بعد ركود ١٩٧٤ - ١٩٧٥، قد فشل في جهد متواصل يرمى إلى إعادة الهيكلة والهندسة الاجتماعية من أجل استعادة الأرباح. وقد قاد ذلك، بين أمور أخرى، إلى اندخاق بطالة جماعية (٤٠ مليون إنسان في البلدان الرأسمالية المتقدمة)، وإلى محاولة تقويض قوة النقابات والمنظمات العمالية الأخرى، وإلى محاولة خلق مجتمع ثلثين، سعيا إلى تهميش قسم ضخم من القوة العاملة وإزالة الإعانات الاجتماعية بشكل دائم، وإلى أشكال جديدة لتنظيم الإنتاج (تسمى على نحو مضلل بـ «مبادئ الفورية») هدفها الأساسي هو خفض تكاليف الإنتاج، خاصة تكاليف العمل. وإحلال إن كل هذه المحاولات قد أصابت النساء والعمال السود والعمال المهاجرين إصابة قاسية بشكل خاص.

وعلى الرغم من قرابة عقدين من الجهد المكثف، فإن الأزمة الرأسمالية

الأساسية لم يجر الخطاب عليها، لأن الحلول لا تتعامل بشكل مناسب مع المشكلة. فأزمة الريحية هي في أساسها أزمة فائض إنتاج (أزمة الكورين العنصرى المتصاعد لرأس المال) لا يمكن حلها حلاً نهائياً إلا بالاعتماد على مصبات استثمار منتجة جديدة تسمح بتحقيق معدل ربح أعلى بكثير. وأحد السبل الرئيسية إلى ذلك هو خفض الحاد للتكلفة قوة العمل - بعبارة أخرى، فرض هزائم ضخمة على الحركة العمالية العالمية. وبالرغم من كل شيء، فإن مثل هذه الهزائم الضخمة لم تحدث بعد.

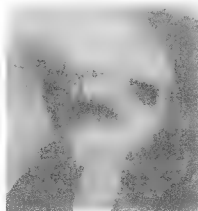
والقول بأن الرأسمالية في أزمة طويلة لا يعنى أنها سوف تنهار من تلقاء نفسها. وقد اعتاد لينين القول بأنه ليست هناك أزمة لا يمكن للرأسمالية الخروج منها شرط أن تكون الطبقة العاملة مستعدة لدفع الثمن. والرأسمالية أمامها مخارج من هذه الأزمة.

ففى الأجل الطويل، لو أمكن إعادة الرأسمالية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي، فإن ذلك بوسعنا أن يوجد مركزاً ضخماً جديداً للإنتاج الرأسمالى بتكاليف عمل أدنى بكثير مما في الغرب. لكن ذلك يتوقف على إنزال هزيمة مطلقة بالعمال في تلك البلدان، ليس فقط فيما يتعلق بإقامة الرأسمالية، وإنما أيضاً فيما يتعلق بمعدلات أجورهم وظروفهم الاجتماعية.

الاتساع المتواصل للهوة بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة

على مدار أكثر من عشر سنوات الآن والمستويات المعيشية الفعلية في أفريقيا وأمريكا اللاتينية أخذت في الانحدار. وذلك بشكل مطلق وقياساً إلى المستويات المعيشية في الشمال الأكثر ثراءً على حد سواء.

وخلال الفترة نفسها، زاد دخل الفرد في آسيا زيادة طفيفة، لكن ذلك يرجع بشكل رئيسي إلى الثراء النسبي لـ البلدان المصنعة حديثاً - الأربعة - تايلوان وسنغافورة وهونج كونج وكوريا الجنوبية (وكذلك الزيادة في إنتاجية الزراعة في الصين). وحتى في البلدان الأربعة المصنعة حديثاً، فإن معظم السكان فقراء بالمعايير الغربية.



ماركس

والعامل الرئيسى هنا هو الميل طويل الأمد داخل البلدان الرأسمالية الرئيسية في انتهاء معدلات ربح أدنى، وأزمة الديون المترتبة على ذلك. فخلال السبعينيات جرى تحويل أموال استثمار ضخمة إلى العالم الثالث - خاصة أمريكا اللاتينية. أما الآن فإن التدفق الاستثمارى يسير في الاتجاه الآخر. فالفقراء يمولون استثمار الأغنياء من خلال أقساط سداد وفوائد الديون والانديار في أسعار السلع الأساسية التى يعتمد عليها كثير من بلدان العالم الثالث. والنتيجة هي الانعدام الدائم للاستقرار السياسى في الجنوب.

تصاعد أخطار القنبلة الأيكولوجية الموقوتة

كان إفساد البيئة ولا يزال سمة للرأسمالية منذ الثورة الصناعية. وهو ظاهرة قلل ماركس من شأنها، لكن أبعاد ذلك الإفساد قد أصبحت الآن تشكل أزمة عالمية، وذلك لسبب واحد بسيط: أنها تهدد بأن تصبح غير قابلة للإزالة. والجانب الأخطر لذلك معروف. ازدياد الحرارة في الأرض وتدمير طبقة الأوزون

ولا أحد يعلم، ولا يمكن لأحد أن يتوقع بدقة، الأبعاد المحددة للأزمة الأيكولوجية. وما نعلمه هو أنه مالم يتخذ إجراء جذرى على مسعيد الكوكب لوقف حرق الوقود المستخرج من باطن الأرض وتدمير للغابات واستخدام الكلورو فلورو

ماذا يبقى الشيوعيين؟



بما في ذلك موت الملايين في التجميع الإجباري للفلاحين وحملات التطهير الستالينية.

لكن الستالينية كانت تفترق إلى شيء كانت الرأسمالية - في فترات الازدهار على الأقل - تمتلكه: دينامية متصلة نحو التجديد. وهكذا بينما حققت نجاحاً بالغاً في النمو التوسعي، افتقرت إلى القدرة على النمو المكثف، وعلى التجديد المتواصل للوعدة الإنتاج. كما افتقرت إلى القدرة على إشباع الحاجات الاستهلاكية المتزايدة في الوقت الذي كان فيه مستوى المعيشة في الغرب الرأسمالي أخذاً في النمو. فالاقتصاديات الأوربية البيروقراطية تتميز باتجاه متأسل ليس فقط إلى التديد المزمن واللاعقلانية المزمنة، وإنما أيضاً إلى إعادة إنتاج نفسها باستمرار دون تجديد.

إن السبب البسيط لانهار الستالينية في الشرق هو أنها، إذ بذلت من موقع اقتصادي أكثر نخلاً، قد خسرت المباراة الاقتصادية مع الغرب الرأسمالي.

وفي الثمانينيات، بينما شهد الغرب رواجاً محدوداً، فإن الهوة في مستويات المعيشة بين الشرق والغرب قد اتسعت. وساهم الضغط الاقتصادي، بما في ذلك سباق التسلح، مساهمة ضخمة في هذه النتيجة. على الرغم من جميع النجاحات التي تحققت على مدار عقود التصنيع الأساسي، ضروريات الحياة الأساسية الرخيصة، نظام الرعاية الاجتماعية

السبب في ذلك، من الضروري التماسك عما ملته الستالينية وإماداً انهيارت.

إن الجدل حول أصول الستالينية هو جدل طويل ومعقد. ويشكل بسيط واضح فإن الستالينية كانت نظاماً جمع بين التخطيط المركزي من جانب الدولة، وملكية الدولة للاقتصاد من ناحية والديكتاتورية السياسية التي مارسها نخبة بيروقراطية بهذه الدرجة أو تلك من العنف من ناحية أخرى. وقد جمع تطورها في الاتحاد السوفيتي بين شيئين: الآثار الاقتصادية والاجتماعية للتخلف والعزلة، والهزيمة السياسية التي منيت بها القوى المتصكة باشتراكية ديمقراطية.

والحال إن الحزب البلشفي الذي قاد الثورة الروسية كان يفتقر، بسبب غياب أية نماذج سابقة، إلى فهم عميق لمخاطر البيروقراطية. وكان على المعارضة المضادة الستالين أن تصرخ نظرية عن الانحطاط البيروقراطي للثورات تحت إلحاح الموقف وفي معجمات الصراع.

إن بذور دمار النظام الستاليني قد غرست في نجاحاته الأولى. ففي الاتحاد السوفيتي، أثبت الاقتصاد الأورامى البيروقراطي نجاحاً بالغاً في التصنيع السريع للمجتمع عبر النمو التوسعي. وبسبب موارد الاتحاد السوفيتي الطبيعية الضخمة، كان برسم تعبئة مقادير متزايدة الاتساع من المواد الخام والعمل أن تخلق بسرعة بنية أساسية صناعية، ولكن بعمق بشري رهيب وغير ضروري،

كبريون، فإن بالإمكان أن تحدث كارثة عالمية. وهذا جانب محوري للأزمة العالمية الجارية، وهو جانب يفهمه الأيديولوجيون المؤيدون للرأسمالية الأكثر بعداً للنظر، لكن الرأسمالية والبيروقراطيات الستالينية عاجزة عن معالجة الأزمة. فهي تتطلب تخطيطاً دولياً وإيجاد أولويات أيكولوجية لا يمكن للسوق وللخطة البيروقراطية توفيرها وتبين الاعتبارات السالفة أنه في حين أن الموقف الحالي يتهدى بالدرجة الأولى بوصله أزمة سياسية للستالينية الدورية، فإن الرأسمالية العالمية تواجه اتجاهات تهددها على مدى طويل، ومن الزاوية التي تهم البشرية بوجه عام، فإن البحث عن بديل للرأسمالية وللإقتصاديات البيروقراطية ليس مجرد مسألة أخلاقية، بل مسألة ضرورية عملية ملحة.

نهاية الستالينية

ما الذي مثلته الستالينية،

ولماذا نهـارت؟

الستالينية هي أكبر مأساة حلت بالاشتراكية في القرن العشرين. فقد بددت أحلام وحيوات وطاقت آلاف لا حصر لها من البشر، الذين كانوا ضحايا لها أو أنصار لها. ومحصلتها تجمع بين المأساة والمهزلة في آن واحد. على أن انهيار الستالينية في أوروبا الشرقية، وإن كان يستحق الترحيب، لم يؤد بعد إلى إقامة اشتراكية ديمقراطية. وللإجابة عن

المتفاوت ولكن المجاني بوجه عام - فإن الاقتصاد السوفيتي قد أفلس في نهاية الأمر. وقد أظهر، خلافاً لأوهام كثيرين من الاشتراكيين في الخمسينيات والستينيات، عجز النظام عن إصلاح نفسه.

وأحد العوامل التي يجب ذكرها هنا هو أن البلدان الرأسمالية المتقدمة، على مدار الزمن الذي وجدت فيه الكتلة الشرقية، قد واصلت انتزاع منهويات إمبريالية ضخمة من العالم الثالث - خلافاً للاتحاد السوفيتي. والنتيجة هي أن النظام الرأسمالي العالمي لا يضم فقط البلدان المتقدمة، بل يضم أيضاً مناطق تعاني فيها مئات الملايين من البشر من الفقر والبرص المزريين اللذين لم يعرفهما قط العمال في الكتلة الشرقية. وإذا فإن أية صرورة عن بؤس اقتصادي في الشرق ونجاح مجيد في الغرب هي في غير محلها.

فلماذا إذن لم يؤد التمسرد على الستالينية في أوروبا الشرقية فوراً إلى نتيجة اشتراكية ديمقراطية؟ أولاً وبالدرجة الأولى لأن التحدي المنظور الوحيد لـ الاشتراكية القائمة في الواقع، هو الرأسمالية القائمة في الواقع، وبالنسبة لجماهير ألمانيا الشرقية بوجه خاص، ولكن أيضاً بقية أوروبا الشرقية، فإن الاشتراكية الديمقراطية هي مجرد فكرة لا إمكانية عملية. إذ لا يوجد مثال اشتراكية ديمقراطية جذاب في أي مكان

على هذا الكوكب. ويعبارة أخرى، فإن السبب يكمن في غياب الاشتراكية في البلدان المتقدمة، أي في فشل الثورة الاشتراكية في الغرب.

مصير الاشتراكية في الغرب

للدرد على السؤال عن السبب في أن الثورات السياسية في الشرق لم تؤد إلى اشتراكية ديمقراطية، يلزم لنا الدرد على المسألة الرئيسية للاشتراكية في الغرب. فهي، بمعنى ما، المسألة التي يتوقف عليها مجمل تاريخ القرن العشرين وأهلية الاشتراكية ذاتها كبديل.

ويمكن أهد الدرد على هذا اللغز في القول بأن الاشتراكية لم تتجج لأن الرأسمالية، قوية جداً، وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، من الواضح أن الراج الرأسمالي الطويل خلال الخمسينيات والستينيات قد خلق سباقاً صعباً للتحول الاشتراكي. لكن قوة

الرأسمالية ليست غير جزء واحد من أجزاء الصورة. وعلى أية حال، فإن الرأسمالية قد مرت في القرن العشرين بحالات ركود وأزمات طويلة، بما في ذلك نشوب حريين عالميتين، إن الدرد على اللغز أكثر تعقيداً.

لم تهزم الرأسمالية في الغرب لأنها صدت للتحديات الضخمة التي واجهتها، وهذا يمكن تفسيره جزئياً فقط بالقوة الداخلية للنظام الرأسمالي نفسه. وبشكل جزئي، فإن هذه النتيجة قد قررها وجود الستالينية عيه. فالستالينية، بتقويضها لتأييد الاشتراكية، قد ساهمت في استمرار الرأسمالية وبشكل يدور إلى السفري، في هلاكها هي نفسها. وينطبق هذا بشكل خاص على فترة ما بعد الحرب (العالمية الثانية) في البلدان للرأسمالية للديمقراطية، حيث لم تكن الدول الستالينية جذابة إلا بالنسبة لأقلية معزولة من الطبقة العاملة.

وكان الشيء الحاسم بالنسبة إبقاء الرأسمالية هو هزيمة الأحزاب والتيارات الثورية التي انبثقت في العشرينيات بعد الحرب العالمية الأولى، والصال إن الهزيمة التاريخية للحركة العمالية الألمانية - الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية لجمهورية - عندما وصل هنار إلى الحكم في عام ١٩٣٣ - كانت الفصل السحوري في هذه المسألة. لكن هزيمة اليسار في الحرب الأهلية الأسبانية وهزيمة حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية



دروسكي

ماذا يبقى الشيوعيين؟



الحرب (العالمية الثانية)، خارج العالم الثالث .

وهكذا، فإن النتيجة المباشرة للثورات السياسية في أوروبا الشرقية هي نتاج لهذا التطور التاريخي الطويل، ولا يمكن قلبها إلا عندما يمر العمال في تلك البلدان بحجيرة ما الذي تعنيه إعادة الرأسمالية وقوانين السوق في الواقع .

مستقبل أوروبا الشرقية

إن محصلة مجمل الأزمة التي نشهتها الجلاسوت والبيرستروكا تتمحور على ما سوف يحدث في الاتحاد السوفيتي . فالحكم الليبروقراطي هناك أكثر انغراسا مما في البلدان الأوروبية الشرقية الأخرى، والاتحاد السوفيتي غارق في أزمة محددة، ليست نتيجتها واضحة . ولا تزال القوى الاشتراكية الديمقراطية هناك ضعيفة . وليست هناك إمكانية في الأجل القصير لإحلال الديمقراطية الاشتراكية محل الحكم الليبروقراطي .

وقد أدت التطورات الأخيرة إلى إبراز دور الليبروقراطية في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية بشكل حاد . فعلى الرغم من أن الليبروقراطية كقوة حاكمة لا يمكنها أن تخرج سالمة من إعادة الرأسمالية، فإن أقساما من الليبروقراطية سوف تدفع في اتجاه إعادة الرأسمالية بوصفه المخرج الوحيد لحماية مواقعها وامتيازاتها الخاصة .

ثالثا، أدى صعود هتلر إلى السلطة، والذي أضرنا إليه أعلاه، إلى عزل الثورة في أسبانيا ومهد الطريق إلى الحرب العالمية للثانية .

ولقول، بأن جميع هذه الهزائم كانت «حتمية»، ليس أكثر من جبرية تاريخية؛ أي القول بأن التاريخ قد سار في المسار الذي سار فيه لأنه كان للمسار الوحيد الذي كان يمكن أن يسير فيه . ومثل هذا الموقف ميكانيكي بدرجة عميقة، وهو يقلل من دور الفعل الإنساني الواضح .

وأما كان الأمر، فإن الطليعة الاشتراكية الكفاحية التي عرفت في العشرينيات والثلاثينيات لم تبين من جديد في سنوات ما بعد الحرب (العالمية الثانية) . فبمجرد انتهاء أزمة ما بعد الحرب، أدى الدواج الرأسمالي الطويل . رغم أنه لم يخلق استقرارا دائما بالضغط . إلى فصل الثورة على العالم الثالث . ولم يحدث إلا بشكل تدريجي، مع بدء الركود الطويل في نهاية الستينيات، أن بدلت الاشتراكية الكفاحية في الانقياد من جديد كتيار مهم في الحركات العمالية الغربية وحتى الآن، لم تصبح الاشتراكية الكفاحية قوة جماهيرية، على نطاق ما كانت عليه في العشرينيات والثلاثينيات على الأقل . فذلك النوع من القوة، الذي شهد وجود عدة أحزاب شيوعية ثورية جماهيرية في أوروبا، كان نتيجة لجانزية الثورة الروسية . ومثل هذه التطورات الثورية الأكيدة لم تحدث في فترة ما بعد

والحرب العالمية الثانية نفسها قد ساهمت كلها في تشتت وهزيمة الطليعة الاشتراكية التي تكوّنت في فترة ما بين الحربين .

إن تاريخ القرن العشرين حافل بأملّة فرص التقدم الاشتراكي المهددة والهزائم غير الضرورية . وأساس ذلك هو أن الحركة العمالية قد سرحتها القيادات الستالينية والاشتراكية الديمقراطية التي سدت طريق الانتصار . وفي حين أن هزيمة الطليعة الاشتراكية خلال سنوات ما بين الحربين (العالميتين) كانت تراكمية، إلا أننا نود إبراز ثلاثة صراعات أساسية بوصفها حاسمة:

أولا، هزيمة ثورة ١٩١٨ - ١٩١٩ في ألمانيا، وإقامة جمهورية فيمار . ذلك أن حيز الطليعة الثورية الضخمة المنظمة في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الموحّد وعصبة سبارتاكوس وحركات لجان العمال الثورية عن كسر هيمنة إصلاحيين الحزب الاشتراكي الديمقراطي، قد فتحت الطريق إلى الهزيمة . والحال إن ذلك، إلى جانب الفرصة المهددة في عام ١٩٣٣، قد أكّدت عزلة الدولة السوفيتية الجديدة وجعلا صعود الستالينية أكثر سهولة .

ثانيا، أدت هزيمة المعارضة المناوئة للليبروقراطية في الاتحاد السوفيتي في العشرينيات إلى تأكيد صعود «اشتراكية» الدولة السلطوية واستيعاب الحركة الشيوعية العالمية في الستالينية .

وفي حين أن صعود الرأسمالية سوف يؤدي إلى دمار أقسام مهمة من جهاز الدولة، فإن كثيرين من الليبروقراطيين سوف يجدون ملاذا إما في جهاز دولة معاد للكون أو من خلال تحولهم إلى رأسمالين. وتبين التطورات في بولندا أن الليبروقراطيين على المستوى المحلي هم في موقع مساومة قوى يتبع لهم أن يصبحوا مديرون أو ملاكا في المؤسسات المحولة حديثا إلى الملكية الخاصة. وسوف يتعين على دولة رأسمالية جديدة استيعاب أقسام جماعية من الجهاز الليبروقراطي القديم.

إن مختلف الخطط التي طرحها جورياتشوف ويليستين والآخرين من أجل تحويل الاقتصاد السوفيتي إلى اقتصاد سوق إنما تسير كلها في اتجاه إعادة الرأسمالية. لكنها سوف تؤدي في المدى القصير إلى فوضى عميقة. وبما أنه لا توجد حتى الآن قوة اشتراكية ديمقراطية قوية بما يكفي على مسرح الفصل، فإن النتيجة قد تكون تماما «حكومة نظام». نستند إلى قوة للجيش ولجنة أمن الدولة.

ويكاد يكون من المؤكد أن «حكومة نظام، كهذه سوف تكون عاجزة عن منع الانفصال الفعلي لكثير من الجمهوريات غير الروسية. كما أنها لن تمنع بالضرورة صعود الرأسمالية في الجمهورية الروسية. والواقع أن حكومة شبه عسكرية يمكن أن تكون التدخل إلى

إعادة للرأسمالية، كما حدث في بولندا بعد عام ١٩٨١.

وما نراه الآن هو أن الليبروقراطية ليست القوة الأساسية لمنع إعادة الرأسمالية. وطالما كان بوسع الليبروقراطية الدفاع عن سلطتها وامتيازاتها عن طريق تفادي الإمبريالية، وعن طريق صون الدولة الليبروقراطية فقد اتجهت إلى ذلك الخيار. وعندما يبدو ذلك مستحيلا فإنها سوف تتجه إلى خيارات أخرى.

وفي بقية أوروبا الشرقية فإن الثورة المضادة الليبروقراطية، استعادة السدالية قديمة الطراز، تعتبر غير مرجحة إلى حد بعيد.

والواقع أن التوحيد الألماني قد أعاد للرأسمالية بالفصل في أراضي جمهورية ألمانيا الديمقراطية. وفي حين أن حركة ١٩٨٩ ضد نظام «هونينكس» قد



جورياتشوف

بدأها المنتدو الجديد وقوى أخرى يسارية، إلا أن هجوم الوحدة الذي شنه «كول» والليبروقراطية الألمانية الغربية سرعان ما تجاوز الحركة. وقد ترك اليسار في جمهورية ألمانيا الديمقراطية نفسه عرضة لهذا الهجوم بتقليله من شأن المسألة القومية. ووقع أن ألمانيا قد قسمت، ضد إرادة الشعب الألماني، على يد الإمبريالية والسدالية، عند نهاية الحرب العالمية الثانية. وبمجرد بدء حركة ضد الحكم الليبروقراطي، لم يكن هناك مفر من طرح مسألة إعادة توحيد ألمانيا طرحا حادا داخل الحركة. وبدلا من تكرار شعار «لا لألمانيا الموحدة»، كان على اليسار في جمهورية ألمانيا الديمقراطية أن يطرح هو نفسه مطلب التوحيد. لكنه توحيد يتضمن المكاسب الاجتماعية للعامل في الشرق.

ومن المؤكد أن التكاليف الاجتماعية للانتقال إلى الرأسمالية في ألمانيا الشرقية سوف تشمل في البطالة الجسيمة، والخصمير الجزلي لنظام الرعاية الاجتماعية وحركة ارتباجية متزايدة بين صفوف العمال تجاه تكاليف إعادة الرأسمالية إلا أنه سوف يدور الآن في مجمل أوروبا الشرقية صراع طويل الأمد على النظام الاجتماعي الذي سوف ينشأ في المستقبل. وتوجد الآن في بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر حكومات موالفة للرأسمالية إلا أن من غير المرجح إعادة تأسيس الرأسمالية في المدى القصير.

ماذا يبقى للشيوعيين؟



خلاصة الموقف العالمي الجديد

بشكل عام إن يمكننا أن نرى أن الموقف العالمي الجديد يجمع بين انهيار الستالينية العالمية التي أضلت وأزمت عميقة وممتدة للرأسمالية الدولية، تخلف في أعقابها بزوا متزايد العمق في العالم الثالث، وتتفاعل مع أزمة أيكولوجية مزمنة.

وتحاول الإمبريالية حل هذه الأزمة من خلال هجوم يستهدف أوروبا الشرقية والعالم الثالث والعمال في البلدان المتقدمة. إلا أننا يجب أن ننبذ جميع التفسيرات التي تنظر إلى هذا الموقف باعتباره مجرد أزمة للستالينية، تستفيد منه الإمبريالية من خلال هجوم شامل، فالرأسمالية الدولية لا تزال في أزمة ممتدة تعتبر إحدى أعمق الأزمات في تاريخها. فما الذي سوف يقود إليه كل ذلك في الأجل المتوسط والطويل ؟



خورخه

فهذه البلدان بحاجة إلى مدد ضخم من رأس المال الأجنبي لفصصخصه اقتصاداتها المتدهورة، وهذا الرأسمال إن يكون في المتناول قسراً وعلى نطاق ضخم. فالمستثمرون الغربيون سوف يتقنون ويختارون القطاعات الأكثر ربحية وتقدما والمؤسسات الرأسمالية الدولية كالجماعة الاقتصادية الأوروبية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي تطرح الآن شروطا مرعبة للتصويل الاستثماري وإعادة التفاوض على الديون. والمسال إن البطالة والتقصيف، وإلغاء الدعم، والارتفاع الفادح في الأسعار. وكل هذه الأشياء تحدث بالفعل في بولندا. وسوف تكون هي النتيجة.

إن هجوم التقشف وإعادة الهيكلة الرامى إلى خلق الشريط الأولية لبعث الرأسمالية لابد أن يؤدي إلى تمرد متزايد بين صفوف العمال، وهذا هو الذى يخلق الإمكانية الموضوعية لتطور معارضة اشتراكية قادرة على النضال من أجل مستقبل بديل.

وعلى الاشتراكيين في الغرب أن يفعلوا كل ما هو ممكن لمساعدة حركات المعارضة الاشتراكية الأخذة في التطور والمطالبة بإلغاء الديون وإلتهاء نظام التقشف الذى فرضه صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والجماعة الاقتصادية الأوروبية .

إن كثيراً يتوقف على النتيجة المحددة في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي. فإذا ما أعيدت الرأسمالية في المنطقة كلها، وإذا ما سمحت الطبقة العاملة في تلك البلدان بتدمير مكاسبها على مدار فترة طويلة من الزمن دون أن ترد على ذلك، وإذا ما اجتمعت مثل هذه الهزيمة مع هزائم جديدة للعمال وللقوى التقدمية في البلدان الرأسمالية المتقدمة والعالم الثالث. فسوف توجد إمكانية للتوسع جديد ضخم للرأسمالية، لمرجة جديدة من الدرامك المتواصل مماثلة لما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا واليابان بعد عام ١٩٥٠.

ويجب أن نتذكر أن انهيار الستالينية هو نعمة ذات حدين بالنسبة للغرب .

فمن الصحيح أن القادة الغربيين، بعد شيء من التردد في البداية، قد قاربوا، في أواخر عام ١٩٨٩، الانتهاء بشكل سافر إلى تدمير الدولة الستالينية، خاصة من خلال فرض التوحيد الألماني. لكن فمن ذلك هو انتهاء نظام الكتل وتقسيم أوروبا، الذى كان عنصراً جوهرياً في صون سلطة الرأسماليين في الغرب والبيروقراطيين في الشرق. والحال إن الرأسمالية الدولية - شأنها في ذلك شأننا - تدخل ميها غير مستكشفة في وضع يجرى فيه تجاوز لنظام الطبقة العاملة الأوروبية ويعاد فيه بشكل كامل تكوين وصياغة جميع الأحزاب السياسية والقابات الرسمية وغير الرسمية. في الشرق.

وهجوم الإمبريالية الدولي يتضمن مخاطره الخاصة. وأزمة الخليج تصور هذه المخاطر تصويرا حادا .

إن جميع التطورات في أزمة السئاليدية وهجوم الإمبريالية الناشئة عن أزمة، تبين أن العقبة الحاسمة في وجه نظام عالمي جديد، يجمع بين الهيمنة الإمبريالية ومرحلة جديدة لتراكم رأسمالي سريع، ليست هي البيروقراطية السئاليدية بل الطبقة العاملة الدولية. ويتطلب الأمر هزائم جديدة ثلث مقاييس عالمية - تاريخية حتى يصبح العالم مكانا آمنا للإمبريالية من جديد - وهي هزائم لم تحدث. هذا يعنى إزلال الهزيمة بالحركة العمالية في الغرب وبالعمال في الشرق وبالتركيزات الجديدة المتنامية بسرعة للطبقة العاملة في بلدان مثل كوريا والبرازيل . وهذه مهمة جسيمة، محفوفة بالصعاب. إن كل شيء لا يزال محل رهان.

التخطيط والسوق

من المفهوم أن إفلاس الاقتصاديات السئاليدية، وتجربة التأميم البيروقراطي في الغرب، قد خلقا فورة نقاش حول ما يمكن أن يكون عليه نموذج عملي للاقتصاد الاشتراكي.

لكن الأيديولوجيين المؤيدين للرأسمالية وبلاعبون عندما يستنتجون أن الاقتصاد الأوامري السئاليدى، وتجربة التأميم البيروقراطي في الغرب، قد أثبتا

أن أى شكل للاقتصاد المشترك لا مفر من أن يكون بيروقراطياً وسلطوياً وغير كفء. والتخدير الذى يتحدثون عنه - إما اقتصاد أوامر بيروقراطى أو السوق الرأسمالية - هو تخدير زائف. وحتى نرى ما يمكن أن يكون عليه البديل، فإن علينا شرح أسباب انهيار الاقتصاديات السئاليدية.

فى رأينا أن الرد على ذلك هو أن الاقتصاد الأوامرى السئاليدى (بل والتأميم فى الغرب) كان، بمرور الوقت، غير كفء لأنه كان، بالتحديد، سلطوياً وبيروقراطياً. فانهدام الكفاءة والفوضى المتزايدة كانا نتيجة لمحاولة إدارة كل شيء من أعلى - الإقراط الضخم فى المركز، حيث تحاول الوزارات القومية تحديد كل شيء. والنماذج المختلفة للنظام الاقتصادى لا يمكن أن تكون ديمقراطية أو غير ديمقراطية تبعا للأمواء: فالنموذج السئاليدى للاقتصاد كان لابد له من أن يكون ديكتاتورياً وسلطوياً ليتسنى له العمل، أما الاقتصاد الاشتراكى الذى يعمل من أجل تلبية حاجات الناس فلا بد له من أن يكون ديمقراطياً.

ونقطة انطلاقا هى نبذ الفكرة التى تذهب إلى أن السوق الرأسمالية هى وحدها التى يمكنها توفير الديمقراطية والاختيار الاستهلاكى. والواقع أن السوق الرأسمالية المعاصرة، على الرغم من توفير سلطة واسعة من السلع والخدمات، هى بدرجة عميقة غير ديمقراطية فى تخصيصها لموارد

المجتمع. فليس هناك «اختيار استهلاكى، أو ديمقراطية، فيما يتصل بالأسلوب الذى يجرى به توزيع الناتج الاجتماعى الإجمالى بين الأرباح والأسلحة والرعاية الاجتماعية والاستثمار والأجور، إلخ. وقد تتأثر كل هذه الأمور بتضال الطبقة العاملة، لكنها فى نهاية الأمر إما أنها قرارات الشركات الرأسمالية القومية والدولية، أو قرارات الحكومات الرأسمالية - المحددة بقرارات تلك الشركات نفسها. أما الديمقراطية من خلال خيارات المستهلك الفرد فهى أسطورة بشعة للمقاييس.

كما أنه لا وجود هناك لأى اختيار استهلاكى حقيقى فيما يتعلق بالمنتجات المنتجة. فمن هم بالضبط المستهلكين الذين قرروا، بشكل ديمقراطى، أن يكون هناك ٨٧ مسحوق غسيل متماثلة، لكل مسحوق منها تكاليف استحداثه وتطعيمه وإعلان الخاص به؟ أو أن يكون هناك ٥٠٠ حاسب اليكترونى شبه متماثلة ذات تكاليف استحداث ضئيلة وتسويق تنافسى؟ لا يمكن لأى إنسان عاقل أن يختار هذه الحالة: إنها نتاج للمزاحمة الرأسمالية، خارج أى قرار ديمقراطى. إن القاعدة الأولى للاقتصاد الاشتراكى يجب أن تتمثل فى إخضاع القرارات الأساسية بشأن توزيع الموارد الاقتصادية التى يملكها المجتمع للرقابة الديمقراطية. لكن هذا المبدأ الأساسى لـ «الديمقراطية الاقتصادية» تترتب عليه آثار ضخمة

ماذا يبقى للشيوعيين؟



المسوق

فإن هبوطاً حاداً في عدد أجهزة الفيديو المشتراة (وهو أمر محتمل إلى حد بعيد في مجتمع يكف فيه الاستمتاع بوقت الفراغ عن أن يكون استمتاعاً خاصاً داخل الأسرة النووية) سوف يؤدي إلى إدخال تعديل على الخطة. وإنها لأسطورة أن التخطيط لا يمكنه التجاوب مع الإشارات الاستهلاكية التي تجد تعبيراً عنها في السوق. ومن الطبيعي أن استطلاعات الرأي والدراسات الاستقصائية عن الاستهلاك يمكنها أن تقدم بعض البيانات عن أولويات المستهلكين. لكن الحقيقة الملموسة المتعلقة بما هي السلع التي اشتراها المستهلكون بالفعل سوف تكون معياراً حاسماً للتخطيط. الإنتاج.

ويذهب الأيديولوجيون المؤيدون للسوق إلى أن التخطيط القومى بطيء جداً في استجابته لإشارات المستهلكين. لكن الأمر لا يجب بالضرورة أن يكون كذلك. وفي المقام الأول، فإن «إشارات» المستهلكين، في المجتمع الرأسمالي مهيكل إلى حد بعيد بما تقرر الشركات الكبرى بشكل حاسم صنعه وتسويقه: ونحن نعتبر من المسلمات إنه لن يكون، في مجتمع اشتراكي، طلب تلقائي على نوع آخر جديد من سيارات الجاجوار يتعين على الخطة أن تستجيب له. نحن نعتبر من المسلمات أن النزعة الاستهلاكية المنهوسة والسقيمة المعيزة للرأسمالية سوف تتحصر تدريجياً. لكن

ماداماً لامتلاك موارد اقتصادية لا متناهية، فلا بد من توزيع الناتج الاجتماعي بين الاستثمار والاستهلاك والبيع الاستهلاكية للأفراد إما أن يجري توزيعها بشكل مباشر (عن طريق الحصص) أو أن تشتري وتباع. وإذا لم يكن لدينا توزيع عن طريق الحصص، فإن علينا إيجاد سوق. إلا أنه في اقتصاد مشترك لبعض السلع والخدمات، المسوقة، حالياً للمستهلكين. كالتلفاز العام. أن تكون ذات سعر لا يذكر أو مجانية، أى أن توزع في الواقع توزيعاً مباشراً.

لكن غالبية حاجات الأسر المعيشية والأفراد سوف تشتري وتباع. والاقتصاد المملوك ملكية اجتماعية، مع وجود خطة قومية مقررّة بشكل ديمقراطي، يمكن أن يخصص موارد لسلع الاستهلاك استناداً إلى مؤشرات السوق، وعلى سبيل المثال،



ماوتسى تونج

بالنسبة لشكل الاقتصاد الاشتراكي. فهو يعني، على الأقل أن القرارات الأساسية المتعلقة بالاستثمار يجب اتخاذها بشكل جماعي. وبما أنه يجب اتخاذها بشكل متزامن (لا يمكنك تخصيص ٨٠ في المائة من الناتج القومي الإجمالي للاستثمار و٨٠ في المائة للأجور) فإنها لا بد أن تكون جزءاً من خطة عامة.

ويرتبط على ذلك أن وحدات الإنتاج الرئيسية يجب أن تكون مملوكة ملكية اجتماعية. لماذا؟ إنها لو ظلت مملوكة ملكية خاصة فإن ذلك سوف يعنى شركات خاصة تتعرض أجورها وأرباحها واستثماراتها ومنتجاتها لقيود حادة مفروضة من جانب الخطة الاقتصادية القومية. لكن ذلك يزيل عين الدافع إلى الملكية الفردية، والذي يكمن على وجه التحديد في تعظيم الأرباح. وهو ما يتطلب بدوره قرارات خاصة فيما يتعلق بجميع المسائل الأساسية لتوزيع الموارد. والشركة الخاصة التي يجري رسم حدود رئيسية لها هي في واقع الأمر شركة مشتركة وعندئذ يزول المورد في أن يكون المرد مالكا رأسمالياً.

لكن هذه الاعتبارات العامة لا تعطينا أية أفكار تفصيلية عن الأسلوب الذي من شأن اقتصاد مشترك أن يعمل من خلاله. وعلى سبيل المثال، ما هو دور آليات السوق؟ هل هناك دور لمشروع خاص بشكل محدد؟

والمؤسسات، المشتركة، لكي تستجيب لإشارات المستهلكين المتغيرة، لابد من أن تكتسح بقدر من الحرية لتحريك أولوياتها الإنتاجية. وهذا هو السبب في أن الخطة القومية لا يمكنها - كما فعلت الجوسبلان السوفيتية فيما يزعمون (ولكنها لم تفعل في واقع الأمر) - تخطيط مجمل الاقتصاد، من المواد الخام إلى كل منتج نهائي. فهذا لا يؤدي إلى منع القدرة على التكيف وحسب، بل إنه يتطلب اتخاذ الكثير جدا من القرارات.

إن الخطة القومية في اقتصاد غير بيروقراطي سوف يهتم عليها التركيز على تصديق الخيارات الأساسية بين الاستثمار والاستهلاك، بين الموارد المخصصة للاحتياجات الاجتماعية كالصحة والنقل والبنية الأساسية الاجتماعية بوجه عام، والموارد المخصصة للاستهلاك الفردي.

وليس هناك سبب لئلا يكون هناك قطاع خاص من المؤسسات الصغيرة، في مجال الإنتاج والتوزيع على حد سواء. إن كتلا ضخمة للبيع بالتجزئة (مثل ماركس أند سبنسر وتيسكو) سوف تصبح بشكل متلقى ملكية اجتماعية: فهي لن تكون أكثر كفاءة إن كانت مملوكة ملكية خاصة أو موزعة. لكن الآلاف من منافذ تجارة التجزئة الصغيرة يمكن بسهولة أن تبقى في أيدي خاصة، وسوف تبقى نسبة من «أرباح» السلع في أيدي الملاك الخاصين لتلبية حاجاتهم الاستهلاكية.

وبالمثل، يمكن أن تكون هناك مزايا محددة لوجود قطاع إنتاج خاص من المؤسسات الصغيرة والتعاونيات، للحرية في اتخاذ قراراتها الخاصة بشأن ما ستلججه، الأمر الذي يمكن أن يساعد على تلبية طلبات جديدة غير متوقعة في السوق وباشترط أنها سوف تكون محدودة من حيث الحجم، ومحدودة عن طريق الضرائب من حيث حجم الربح الذي يمكنها تحقيقه، وبخاصة لمبادئ توجيهية صارمة حول أجور وظروف عملها، فإنها يمكن أن تكون عناصر مساعدا مفيدا للمؤسسات المملوكة ملكية اجتماعية، وهذا ليس دعوة إلى الاقتصاد مفتطه، بل هو مجرد إقرار بأنه في الطور الأول للاشتراكية، فإن قطاعا من المؤسسات الصغيرة، المراقبة مراقبة صارمة والخاضعة للقطاع الاجتماعي الأكبر بكثير، يمكن أن يكون معلقا مفيدا يساعد على تحقيق المرونة.

الاختيار والديمقراطية

ليست هناك ضرورة لأن يزيل الاقتصاد المشترك الاختيار من جانب المستهلك، بل إنه سوف يجعله أكثر عقلانية وسوف يوسع مجاله. فالاختيارات الأساسية المتعلقة بتوزيع موارد المجتمع بين القطاعات سوف تخضع للسيطرة العامة لأول مرة.

ومن المرجح أن الاختيار غير العقلاني - حرية الاختيار بين ٧٨

مسحوق غسيل أو ٢٧٥ نوعا من البيرة الخفيفة المتماثلة أو ١٣٧ من أفران الميكرويف المختلفة - سوف يزول. إلا أن هناك اختيارات أكثر أهمية بكثير سوف يتعين اتخاذ قرارات بشأنها من جانب الأفراد والمجتمع ككل.

وسوف يؤدي المزيد من الخدمات المشتركة - مثل توسيع عدد المطاعم الرخيصة، المملوكة ملكية اجتماعية ولزيادة الضخمة في الاعتمادات المخصصة لرعاية الطفل المشتركة - إلى خفض الطلب على السلع الاستهلاكية المعمرة. وشذا فشيئا سوف يدر الاختيار من جانب الأفراد حول ما يفعلونه لا حول ما يمكنونه. ومن شأن خفض جذري فيما يدفعه الأفراد مقابل السكن أن يؤدي بسرعة إلى زيادة الدخول الحقيقية الخاصة.

إلا أنه لن يسمح لإعادة الهيكلة الجزئية للطلبات الاستهلاكية عن طريق التشريك المتزايد بتقديد مجال اختيار السلع والخدمات التي يريد الناس مجموعة متنوعة منها، والملابس والمواد الغذائية والمطاعم والكتب أمثلة واضحة على ذلك. ولأنهم في كل مرحلة هو أن الموارد المخصصة لكل قطاع - ورتبها على ذلك لعدد المنتجات المختلفة التي يمكن إنتاجها في كل قطاع - سوف تكون موضوع قرار ديمقراطي.

ماذا يبقى للشيوعيين؟



الكفاءة والتجديد

ولكن ما الذى سوف يجعل الاقتصاد المشترك يتحرك قدما إلى الأمام؟ ما الذى سوف يولد التجديد والنمو؟ فى المجتمع الرأسمالى يعتبر حافز الربح هو المدخل الرئيسى إلى التجديد وإلى جعل الإنتاج أرخص تكلفة. وفى الاقتصاديات البيروقراطية فإن منطق الخطة البيروقراطية هو الذى يعوق التجديد والكفاءة. إن الرد الأساسى هو الديمقراطية. وخلافا لذلك، فإن العمال فى أوروبا الشرقية ليست لهم مصلحة فى إدخال تهنيدات وجعل الإنتاج أكثر كفاءة لأنهم لا يسيرون شيئا من ذلك. وفى مجتمع تخضع فيه الخطة للسيطرة الديمقراطية سوف يكون هناك عاملان رئيسيان لأن يجعل العمال ووحدة العمل إنتاجهم أكثر كفاءة ولأن يدخلوا تجديدات.

فأولا، إذا كانت وحدات العمل الفردية حرة - ضمن إطار المبادئ التوجيهية للخطة - فى تنظيم إنتاجها بشكل ديمقراطى (ساعات العمل، تنظيم العمل، إلخ)، فسوف يكون لدى العمال دافع أسيل لجعل عملهم أقل استهلاكاً للوقت وأكثر كفاءة. فهذا من شأنه أن يولد رغبة جماعية فى تنظيم العمل بشكل كفء، وفى التخلص من انضباط العمل القهرى المميز للرأسمالية.

إلا أنه ثانيا، فإنه إذا (وفقط إذا) كان التوجيه العام للاقتصاد خاضعا للسيطرة

لديمقراطية - ولم تكن هناك نخبة رأسمالية أو بيروقراطية منخرطة فى استهلاك مثير - فسوف يتولد حس جهد جماعى وتوحد مع الأهداف المشتركة للمجتمع.

ويمكن للتجديدات التكنولوجية الفردية أن تجد مقابلا ليس فقط عن طريق المكانة الأدبية الرفيعة التى سوف يحصل عليها أولئك الذين يستحدثونها، ولكن فى الصراخ الأولى لاقتصاد مشترك، عن طريق حوافز مادية أيضا. إن جعل هدف اقتصاد مشترك بشكل ديمقراطى هو إطلاق أكبر حجم من المعارف والمهارات والقدرة على القيام بتقنيات تتميز بتناسع الخيال وعلى الشجديد، وهى القدرة التى لاتزال حبيسة، ومكبوتة فى القوى العاملة التى يسيطر عليها الانضباط عمل قهرى. ويتميز أمران بأهمية حاسمة لعمل ذلك: السيطرة الديمقراطية على الخطة القومية،



ليونيد بريجنيف

والتسيير العمالى الذاتى فى المؤسسات ووحدة الإنتاج.

الاختيارات المتعلقة

بالتنمية الاقتصادية

تتميز للرأسمالية باتجاه متأصل (فى فترات الازدهار على الأقل) إلى التجديد التكنولوجى والنمو الاقتصادى. وفى اقتصاد مشترك يمكن القيام باختيارات أكثر أساسية فيما يتعلق بالنمو. وأيا كان الأمر، فلا بد من أن يكون هناك حد للنمو الاقتصادى، ولا يوجد هناك غير عدد محدود من السلع المادية التى يمكن لأى فرد واحد استخدامها.

وعلاوة على ذلك، فإن النمو الاقتصادى قد تعد منه اعتبارات أيكولوجية. وقد يختار العمال، عند مناقشة الخطة القومية، نموا اقتصاديا أقل فى مقابل ساعات عمل أقصر. ومن هذه الزاوية، فإن من الخطأ طرح مسألة كيف يمكن لاقتصاد مشترك أن يفعل كل ما يفعله اقتصاد رأسمالى. ففى اقتصاد اشتراكى، لن تكون حاجة إلى عمل كل ما يعمله اقتصاد رأسمالى. ويبدو من المحتمل أن أى نوع من الاشتراكية سوف يعطى الأولوية لإدخال تحسينات على نوعية الحياة، وهو أمر لا يتطابق بالضبط مع الإنتاج المرنى للمزيد والمزيد من الأشياء.

إن وقت الفراغ هو أعلى سلعة تحرم الرأسمالية والنظم البيروقراطية العمال

منها . والمزيد من وقت الفراغ، جذباً إلى جنب مع أساسيات الرعاية الصحية، والمزيد من العمل المذلى المشترك، والتعليم، والنقل العام المتيسر، والسكن - جذباً إلى جنب مع توافر اختيارات عقلانية فيما يتعلق بالاستهلاك الفردي - والحال إن أى داهية للسوق لا يحلم ألبتة بأى شيء من هذه الأشياء .

الديمقراطية

إن أسوأ جانب من جوانب الأزمة فى أوروبا الشرقية، من زاوية أيديولوجية، هو الخيار الاجتماعى الظاهر المثار: إما اقتصاد تهيم عليه الدولة دون ديمقراطية أو رأسمالية مع حريات ديمقراطية . ولكسب أية مساندة جماهيرية، لا بد للاشتراكيين من التمسك بأهداف الديمقراطية، ليس فقط فى نوع المجتمع الذى يدعون إليه، وليس فقط فى الأهداف المباشرة التى ينادون من أجلها، وإنما أيضاً فى ممارساتهم الحركية العملية عموماً ومنظمتهم بشكل خاص .

فبالأشكال السلطوية للتحظيم الاجتماعى تجد جذورها دائماً فى الدفاع عن امتياز مادى أو اجتماعى، وليس فقط فى أيديولوجية سطورية . وهذا الامتياز يمكن أن يكون امتيازات طبقات، أو صفقات بيروقراطية، أو زعماء سياسيين . وصون أى شكل للامتياز الاجتماعى يتطلب دائماً استبعاد الأغلبية غير المميزة من المشاركة الإيجابية فى اتخاذ القرار.

والديمقراطية النشيطة على أى مستوى - فى المجتمع ككل أو فى المنظمات السياسية - تتطلب وقت فراغ ونشراً واسعاً للمعلومات وهياكل مفتوحة للمشاركة، جذباً إلى جنب مع سيادة الأغلبية المعبر عنها من خلال التصويت، وهذا هو السبب فى أن الديمقراطية النشيطة تتعارض تماماً مع اقتصاد تهيم عليه السوق، ففى اقتصاد تهيم عليه السوق، يجرى اتخاذ القرارات الاقتصادية المحورية وتحدد التوزيع الأساسى لوقت المجتمع وموارده على يد جماعات وزمر قوية وبشكل غير رسمى .

إننا لن نقدم هنا نقداً تفصيلياً للديمقراطية فى ظل الرأسمالية (الديمقراطية البورجوازية) . فنحن نوافق على أنه مع أن هذه المجتمعات تتضمن بحريات صورية وفعلية واسعة - كحرية التعبير والنشر والتنظيم السياسى -، فإن معنى هذه الحريات مقيد بعدم تساوى إمكانية الوصول إلى الموارد والمعلومات والوسائل المادية للسلطة واتخاذ القرار . فهل هناك بديل دون الانحدار إلى حكم الحزب الواحد والاستبداد البيروقراطى؟ .

ما لم يلتزم المرء بوجود طبيعة بشرية ضرورية أبدية ما، فإن النظام الاشتراكى الديمقراطى لا بد من أن يكون ممكناً . فما هى الخصائص المحورية التى سوف تميزه؟ إن الديمقراطية الاشتراكية العملية سوف يتعين عليها الدمج بين عاملين محوريين؛

أولاً، أن الديمقراطية الحقيقية ديمقراطية إيجابية، حيث يتوافر حق المواطنين فى الأنخراط بشكل شبه دائم فى اتخاذ القرار، خاصة فيما يتعلق بحيواتهم، وقرارات المشروعات الجماعية - من المصانع إلى المناطق السكنية - التى تجمع بينهم .

ثانياً، أن أى هيكل قسومى للديمقراطية هو دائماً ديمقراطية تمثيلية إذا لا يمكن أن يكون هناك أبداً اشتراك دائم من جانب المجتمع برمته فى كل قرار على حدة؛ فعد مستوى معين، لا بد من قبول الإنابة وانتخاب النواب فكيف يمكن إذن، خلق تضافر بين الديمقراطية الإيجابية التشاركية عند «قاعدة» المجتمع وهيكل قسومى «تمثيلى»؟ إن صرغ مشروع دقيق بصورة مسبقة هو أمر غير ممكن . لكن بعض المبادئ الأساسية واضحة .

إن كل مواطن يجب أن يكون له حق متساو فى التصويت على قرارات المؤسسات التى ينتمى إليها . والمقترحات المتعلقة بكيفية تنظيم مكتب خاص أو مصنع أو ناد أو لجنة محلية للمواطنين، إلخ - يجب مناقشتها مناقشة علنية والتصويت عليها بشكل علنى . ويجب اتخاذ القرارات دائماً على أدنى مستوى ممكن . ويتعين مد مبادئ التصوير الذاتى العالى، إلى كل مؤسسة فى المجتمع .

إن الديمقراطية الاشتراكية هى ديمقراطية تعدد الأحزاب . والأحزاب

ماذا يبقى للشيوعيين؟



«السياسة، للتشيطة عبر التأكد من أن قراراتهم تؤثر في الواقع على حيواتهم .

وطبيعة الحال، فليس ذلك هو ما يجريه الناس في البلدان الرأسمالية الديمقراطية، اليوم، لكنه أيضا ليس ما يجريونه في منظمات الحركة العمالية. فالديمقراطية الاشتراكية لا تتعلق ببساطة بأهداف ديمقراطية مجردة لمجتمع قادم؛ إنها تتعلق بالمطالب التي تكافح من أجلها في المجتمع الآن، وهي تتعلق بالطريقة التي تدير بها أمورنا في الحركة العمالية والاشتراكية. والأمران مرتبطان، لأن قبول مبدئين للحركة العمالية، والبيروقراطية، للنظام الحالي غير الديمقراطية للمجتمع، إنما يرتبط بالطريقة التي يديران بهما منظماتهما.

وإذا كان يحعين النضال من أجل هدف الديمقراطية الاشتراكية بأساليب اشتراكية وديمقراطية، فإن هناك حاجة إلى شيئين :

أولا، خوض نضال ضد السيطرة البيروقراطية على الحركة العمالية والعامل الأساسي هنا هو وجود البيروقراطية النقابية من حيث هي شريحة اجتماعية محددة لها امتيازاتها الخاصة، ومصالحها المادية والسياسية الخاصة. وديمقراطية الحركة العمالية تعني الانتخاب العلني لجميع المسؤولين، واتخاذ القرار بشكل ديمقراطي على كل مستوى، وعدم تجاوز راتب المسئول المتفرغ لأجر عامل ماهر.

والمبدأ الأساسي للديمقراطية الاشتراكية هو السيطرة الاجتماعية على الاقتصاد. وتوسيع الديمقراطية المتأصل في الاشتراكية ليس مجرد ديمقراطية للآليات العمالية ولمؤسسات السلطة؛ كما أنه ليس مجرد الفتح الواسع لقارة السياسة أمام جماهير الشعب . فهو يتألف أيضا بشكل حيوي من توسيع مثير لنطاق القرارات السياسية، بعيدا عن الزمر الصناعية أو البنوك أو العسكرية أو المخابراتية السرية، وفي اتجاه قرارات علنية ومعلنة من جانب الشعب. ومثل هذه الديمقراطية مستحيلة حرقيا دون اقتصاد مشترك .

إن الديمقراطية الاشتراكية إذا هي فكرة مجتمع تجري فيه هيكلة الديمقراطية الإيجابية التشاركية في نظام تسيير عمالي ذاتي وتعددية سياسية، وحرية المعلومات والرقابة الديمقراطية على كل مستوى، ونزع احتراف، السياسة. إنها تعني مشاركة الناس في

التي تنظم نضالا مسلحا ضد الدولة هي وحدها التي يجب تحريرها. إلا أنه لكي تكون تعددية الأحزاب ديمقراطية فإن ذلك يعني ديمقراطية الوصول إلى وسائل الدعاية والإعلام. ولا بد لجميع الأحزاب من أن تحصل على تمويل، ويجب أن تتمتع كافة الجماعات السياسية وجماعات المواطنين المنظمة بحرية الوصول إلى وسائل النشر والتلفزيون. فديمقراطية وسائل الإعلام مبدأ أساسي للاشتراكية الديمقراطية. ولا بد من أن تتمتع جماعات العمال والمواطنين كلها وجميع الأحزاب السياسية بحرية استخدام قاعات ومكاتب الاجتماع.

وحتى في نظام تسيير عمالي ذاتي، سوف تكون هناك حاجة إلى شكل ما من أشكال الجمعيات الوطنية. ولا يمكن للتبؤ مسبقا بالشكل المحدد لانتخاب مثل هذه الجمعية. وربما تنتخب انتخابا مباشرا في انتخابات عامة، وربما تنتخب بشكل مباشر جزئيا، وتنتخب بشكل جزئي على شكل مندوبين من جمعيات عمالية محلية وإقليمية وأيا كان الأمر فإن من اللازم أن تتوفر إمكانية سحب النواب فوراً من جانب ناخبيهم وألا يزيد راتب النائب عن الأجر المتوسط. وهكذا يمكن «نزع احتراف السياسة.

ولا حاجة إلى قول إن الديمقراطية الاشتراكية سوف تمثل، في جميع الانتخابات، الآراء والأحزاب السياسية بحسب نسبة الأصوات الممنوحة لها.



ستالين

ثانياً ، يجب على الاشتراكيين أن يكونوا في طليعة المناضلين من أجل الحقوق الديمقراطية في ظل الرأسمالية . ولا يعنى ذلك أن نوسعنا تأكيد وصون الحقوق الديمقراطية بصفة دائمة ؛ فطالما ظلت الرأسمالية موجودة ، سيكون من الممكن نزع الحقوق الديمقراطية - يشهد على ذلك إدخال عقوبة الإعدام من جديد في الولايات المتحدة الأمريكية والمادة ٢٨ في بريطانيا - إلا أنه عن طريق الدفاع عن توسيع الحقوق الديمقراطية في ظل الرأسمالية ، عن طريق أمور مثل قانون حرية المعلومات والتعديل العسبي ، يمكننا في آن واحد النضال من أجل الإصلاحات التي تجعل النضال من أجل الاشتراكية أسهل باتاحة مجال أوسع أمام الطبقة العاملة لتنظيم وتأكيد نفسها ، وكشف نواقص «الديمقراطية» القائمة ، وإظهار أن الاشتراكيين ليسوا غير مهالين بالحقوق الديمقراطية ، بل إنهم خير المدافعين عنها .

الطبقة العاملة

وسياسة التحرر

رأى الاشتراكيون دائماً أن الطبقة العاملة هي القوة المحورية في تحقيق التغيير الاشتراكي . ولا يرجع ذلك إلى أي سبب أدبي ، أو لأنها دالما الجماعة الأكثر عرضة للانضهاد في المجتمع ، بل يرجع إلى قوتها العددية ودورها المحوري في عملية الإنتاج .

وقد تطورت مناقشة لا مفر منها حول العلاقة المحددة للنضال الطبقة العاملة بنضال جماعات في المجتمع . عمالية الكوئين في غالبيتها - مضطهدة بشكل خاص وأخذت تنظم نفسها منذ انضهادها . وقد أثبتت تساؤلات إضافية حول التركيب المتغير للطبقة العاملة نفسها . ومن الحيوى أن يتصدى الاشتراكيون تصدياً صحيحاً لهذه التساؤلات .

وداعاً للطبقة العاملة

إن السمات الأكثر وضوحاً للطابع المتغير للطبقة العاملة في جميع البلدان الرأسمالية الصناعية تقريباً إنما تكمن في تراجع العمل الصناعي - اليدوى ، والتأنيث المتزايد للقوة العاملة ، والانقسام المتزايد للقوة العاملة بين نواة من العمال المستقرين ، المشغلين بصفة دائمة وهامش متزايد الاتساع من العمال المشغلين بصفة عرضية ، غير مستقرة . ولا يجب لأى شيء من ذلك أن يقودنا إلى القول : «وداعاً للطبقة العاملة» .

إن تراجع العمل اليدوى ، والعدد المتزايد للعمال ذوى الياقات البيضاء وعمال الخدمات والتوزيع هو نتاج للطبيعة المتغيرة للإنتاج الرأسمالى ونتيجة للتغير التكنولوجى . إلا أن من الخطأ من زاوية نظرية وعملية تصور أن التغير في تركيب القوة العاملة قد أدى إلى خفض عدد العمال .

وعلى نطاق عالمى ، فإن عدد العمال ، بطبيعة الحال ، لم يزد فحسب بصورة مثيرة في السنوات العشرين الماضية ، مما أدى إلى ظهور تركزات جديدة ضخمة للبروليتاريا في بلدان مثل البرازيل وكوريا والصين ، بل إن عدد العمال الصناعيين في العالم الثالث قد زاد هو الآخر بصورة مثيرة . فتراجم العمل الصناعى - اليدوى ، هو سمة لبعض البلدان الرأسمالية المتقدمة ، وليس للعلم الرأسمالى ككل .

إن العمال ذوى الياقات البيضاء ، في الصناعة الخاصة كالبنوك والتأمين ، وفي الحكم المحلى والعظيم ، غالباً ما يحصلون على أجور أسوأ من أجور العمال اليدويين الصناعيين ، وعلاقتهم برأس المال لا تزال علاقة بتعرضون فيها لبيع قوة وعلمهم ولاستغلالهم . وهم منتقمون إلى نقابات بأعداد قليلة . وصحيح أنهم لا يتميزون غالباً بالتقاليد الكفاحية التي تتميز بها جماعات صناعية راسخة منذ زمن طويل كعمال المناجم أو المهندسين أو عمال صناعة السيارات أو عمال الموانئ . لكن السبب الرئيسى لذلك هو أن مثل تلك التقاليد لا تبني بين عشية وضحاها .

ويعر العمال ذوى الياقات البيضاء بعملية إيجاد هذه التقاليد ، والتي تحتاج إلى عقود من الخبرات المتركمة . إلا أنه لا يزال من الصحيح أن العمال الصناعيين في بلدان كثيرة ، بسبب كل



النقابات والأحزاب السياسية العمالية الجماهيرية.

الاستقلالية وسياسة التحرر

منذ الستينيات والعلاقة بين الحركة العمالية والمنظمات الاشتراكية وحركات تحرر الجماعات المعرّضة لأشكال خاصة من الاضطهاد محفوفة بالمنازعات والمشاق. فكيف يجب على الاشتراكيين المكافحين النظر إلى تطور الحركات المستقلة للمضطهدين؟

إن أنسب مدخل هو علاقة المضطهدين - النساء والسود والمضطهدين والمضطهدين جنسيا والموقوفين - بالرأسمالية. ومن المؤكد أن اضطهاد النساء سابق للرأسمالية وما زال للمجتمع الطبقي. إلا أن هناك أشكالاً أخرى للاضطهاد ترتبط ارتباطاً مباشراً أكثر بتاريخ الرأسمالية: فالعصرية الحديثة، مثلاً، لا يمكن فصلها عن تاريخ الإمبريالية والعبودية الأفريقية.

إلا أنه أياً كانت الأصول التاريخية المحددة لهذه الأشكال من أشكال الاضطهاد، فإن هناك شيئا واضحا: لقد اكتسبت ديناميتها الخاصة بها، ولا يمكن القضاء عليها بشكل أوتوماتيكي عن طريق القضاء على الرأسمالية. وتاريخ جميع الدول بعد الرأسمالية منذ عام ١٩١٧ يبين ذلك بوضوح.

وهكذا ففي حين أن القضاء على الرأسمالية يعتبر شرطا ضروريا لتحرر

التطورات جزء من اتجاه الرأسماليين إلى إعادة هيكلة الإنتاج وجعل القوة العاملة أكثر «مرنة». وممارسات مثل الأجر المرتبط بالأداء والمساومة على الأجور على أساس محلي تعمق مخاطر الانقسام هذه، وتفتح الباب أمام التصريح النقابي لأقسام من القوة العاملة. وهذا يمثل تحديا للنقابات. والنضال من أجل وحدة الطبقة العاملة لا يمكن تطويره إلا ببذل محاولات خاصة لتشكيل نقابات لقطاعات جديدة من العمال، والحرص بشكل خاص على اشراك العاملات والعاملين على أساس غير دائم في النقابات، ومكافحة البطالة وإضفاء طابع عرضي على العمالة. ويوجه عام، فإن للبلدان الرأسمالية المتقدمة، على الرغم من الانحدار الكبير للانضمام إلى النقابات في بلدان كالولايات المتحدة وأستراليا - إنما تتميز بواقع أن الطبقة العاملة لم تنحدر فيها من الناحية العددية، كما لم تتلاش منها



من التقاليد المتركمة والطابع القمعي لاضطباط العمل، لا يزال النواة الصلبة للقطاعات الأكثر كفاحية بين صفوف الطبقة العاملة.

وغالبا ما يؤدي العمال ذور النقابات البهيماء أعمالا مملة وتكرارية وبلا معنى، وهم لا يتوحدون مع عملهم ولا مع ما ينتجونه. أما عمال الخدمات فهم بوجه عام أكثر عرضة للاضطهاد من حيث كل مستويات أجورهم ونظام عملهم. وهم في بعض القطاعات لا يتمتعون بتنظيم نقابي جيد. كما هو الحال مثلا في مجال الترويجيات السريعة وتجارة التجزئة. لكنهم جزء من الطبقة العاملة أيضا.

ويبين تجدد النضال النقابي الكفاحي في كل من بريطانيا وبلدان رأسمالية كبرى أخرى في السنوات الأخيرة أنه لا مبرر هناك لقول «وداعا للطبقة العاملة، سواء أكان ذلك من حيث كونها فئة اجتماعية قائمة بالفعل أو من حيث كونها قوة اجتماعية وسياسية فاعلة.

على أن مستوى الانضمام إلى النقابات، والأساس الموضوعي لوحدة الطبقة العاملة يحرصان للتهديد من جراء التطورات الأخيرة التي تسير في اتجاه الاعتماد أكثر على العمال الذين يعملون على أساس غير دائم (وأغلبهم من النساء)، وازدياد البطالة والعمل العرضي، كما تسير في اتجاه التخصصية وممارسات العمل «المرنة». وهذه

الجماعات المضطهدة، فإنه ليس شرطا كافيا، فالقضاء على العنصرية والتحيز الجنسي والأشكال الأخرى للاضطهاد يتطلب القضاء على الرأسمالية وإقامة الديمقراطية الاشتراكية، لأن ذلك لن يكفل زوال كل هذه الأشكال للاضطهاد. ونضمن هذا الزوال يتطلب حركات خاصة، نضالات خاصة، من جانب المضطهدين أنفسهم.

ويرتبط على ذلك أن المضطهدين اضطهادا خاصا لهم ذات المصلحة التي لبقية الطبقة العاملة في القضاء على الرأسمالية، وهذا هو الأساس الموضوعي لتحالف الطبقة العاملة مع المضطهدين - سواء أكان هؤلاء المضطهدين جزءا من الطبقة العاملة أم لا. كما يرتبط على ذلك أن اكتمال المضطهدين اضطهادا خاصا بالنضال من أجل الإطاحة بالرأسمالية على أمل أن الاشتراكية سوف تحررهم بشكل أوتوماتيكي، إنما يتعارض مع الخبرة التاريخية. وإذا كان أساس الحركات المستقلة للمضطهدين هو حفظ النضالات والحاجات الخاصة لتلك الجماعات المضطهدة، فإن ذلك يستتبع ثلاثة أمور:

أولا، إن التنظيم الذاتي المستقل للمضطهدين هو حق ديمقراطي، في الحركة العمالية وفي المجتمع بوجه عام، وهو ليس عملا «انقساميا»، بل إنه يرسى الأساس لتعبئة سوف تخلق وحدة على مستوى أعلى .

ثانيا، إن السبيل الأنسب إلى تعبئة وإشراك المضطهدين في النضال ضد اضطهادهم ربما يتمثل في بناء حركات تصرف أمورها بنفسها، قادرة على تحديد أهدافها الخاصة واستراتيجيتها وتكتيكاتها الخاصة وأساليبها الخاصة في النضال.

ثالثا، في حين أن حركات النساء وحركات السود وحركات المضطهدين جنسيا وحركات الأشخاص المعوقين سوف تكون مستقلة اجتماعيا وسوف تصرف أمورها بنفسها، فإنها لا يمكنها أن تكون معزولة عن التيارات السياسية العامة في المجتمع. إن سلسلة كاملة من الأيديولوجيات السياسية المتنوعة توجد داخل هذه الحركات.

ويرتبط على ذلك أن الاشتراكيين؛ في الوقت الذي يناصرون فيه حركات المضطهدين، سوف يناضلون أيضا، لا محالة، من أجل مظهر معاد للرأسمالية داخلها. وفي حين أن حركات التحرر، في بريطانيا على الأقل، قد سالت إلى التحالف مع اليسار، فإن ذلك لا يعنى إنها كانت معادية للرأسمالية عن وعى أو ثورية. على العكس، إن معظم التيارات داخل الحركة العمالية، وتيارات كثيرة في المجتمع بوجه عام، تتطور بشكل عفوى داخل حركات المضطهدين - الإصلاحية، الليبرالية، الشعبية - بل والستالينية. ومالم يتدخل الاشتراكيون بأولوياتهم السياسية الخاصة، فسوف يكون من

الممكن استيعاب هذه الحركات في اتجاه رجعى.

وليس هناك ما يهدد الاستقلالية في نضال الاشتراكيين داخل هذه الحركات من أجل تحالف استراتيجي مع الطبقة العاملة ومن أجل مظهر معاد للرأسمالية. وهذا لا يعنى إنشاء حركة نسائية «اشتراكية» أو حركة سود «اشتراكية»، بل يعنى فقط أن المنظورات السياسية المختلفة داخل هذه الحركات تتناقش لا محالة. ليس في شكل اعتماد أيديولوجيات متعارضة، بل في شكل مقترحات متبادلة من أجل عمل سياسى ملموس. إن مفهوم سياسة التحرر المعروض هنا يعنى محاولة صفر الأهداف العامة المعادية للرأسمالية مع مطالب وحركات المضطهدين في تحالف مشترك. لكن تحقيق ذلك، بطبيعة الحال، ليس مجرد مسألة توحيد من جانب الحركات المستقلة لعملها المعادى للرأسمالية، إنها مسألة إثبات من جانب الحركة العمالية لالتزامها العلنى بأهداف سياسة التحرر.

وهناك عقبات هيكلية كبرى أمام تحقيق هذا الهدف. فالالتزام تجاه أهداف سياسة التحرر لا يعنى مجرد شن حملات حول مسائل المضطهات والمضطهدين جنسيا أو السود أو المرأة - كالترحيلات العنصرية أو التفتيح للبرص أو الملاحقة الجنسية أو الإجهاض - التي تبتهل الحركة العمالية واليسار بدرجة أو بأخرى. فهو



للحضارة البشرية. ومن الصعب القول ما إذا كانت الأمور قد أصبحت بالفعل متأخرة جداً، إلا أنه لا مفر أمامنا من افتراض أن بالمكان اتخاذ تدابير علاجية، بدلا من الاستسلام لليأس. فما هي الاستنتاجات بالنسبة للأفكار الاشتراكية عن الاقتصاد العالمي والاشتراكية؟

هل يتعين علينا تعديل برنامجنا تعديلًا أساسيًا، خاصة فيما يتعلق باقتراح النمو الاقتصادي؟

أولاً، لا يمكن تحقيق التدابير العلاجية الحقيقية إلا عن طريق تعاون دولي واسع وتخطيط دولي. وكما بين رد تاتشر على تقرير مؤتمر الخبراء الدوليين، فإن هذا غير محتمل إلى حد بعيد خارج نظام اشتراكي للتعاون الدولي، فالمسألة تتلخص في أنه ما من حكومة رأسمالية تعتبر حماية الكوكب هدفاً سياسياً رئيسياً لها.

ثانياً، إن التكنولوجيات البديلة جاهزة بالفعل، مثال ذلك التكنولوجيات البديلة لمحطات الطاقة (المحولات المحققة للفاعل). لتقليل تلوث الغلاف الجوي بشكل فوري وحاسم. وما تحتاج إليه هذه التكنولوجيات هو الاستثمار فقط، وقد قدر أن هذا الاستثمار سوف يضيف في الأجل القصير نحو ١٠ في المائة إلى تكلفة الكهرباء. لكن حماية الأرباح هي وحدها التي تحول دون تطبيق هذه التكنولوجيات.

ومشاركتهم فيها (بما في ذلك المشاركة في قيادة حركات التحرر) ليست شيئاً سوف «يتحقق» مرة وإلى الأبد، إنها ممارسة دائمة وتوتر دائم. وعليها تتوقف قدرتنا على بناء التحالفات اللازمة لإلحاق الهزيمة بالنظام الرأسمالي.

الحمر والخضر

قليلون الآن هم الذين يشكون في وجود أزمة إيكولوجية، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أمثالها العامة. إن الطوفان من جميع الأنواع يسمم الأرض بأشكال عديدة، لكن أكبر خطر محتمل هو ارتفاع درجة حرارة جو الأرض.

ومالم تتخذ تدابير جذرية لوقف انبعاث غازات الصوبات الزراعية، خاصة ثاني أكسيد الكربون الناشئ عن احتراق الوقود المستخرج من باطن الأرض، فإن مناخ الكوكب قد يتغير بشكل مثير يقدو إلى وقوع كارثة



أيضاً مسألة إتاحة المجال للسياسي والحق الديمقراطي أمام الجماعات المضطهدة في توحيد نضالاتها وأهدافها من خلال الحركة العمالية واليسار.

وهذا الهدف مستحيل دون حق التنظيم المستقل داخل الحركة العمالية ودون العمل الإيجابي الرامى إلى تحدى البيروقراطية والهيراركيات العنصرية. العيزة للرأسمالية ولكن التي يعاد انتاجها داخل الحركة العمالية كلها.

وليمت هناك مجموعة من الصيغ والممارسات المنفصلة عن الزمان التي تلخص «الفعل الإيجابي» - فهو يعنى برجه عام تدابير خاصة، أرقى من الممارسات العادية للحركة العمالية واليسار، سعياً إلى ضمان ليس فقط مشاركة المضطهدين، وإنما أيضاً الحق في الإسهام على جميع المستويات، بما في ذلك حق القيادة.

ولا شك أن بناء تحالف مستقر بين الحركة العمالية واليسار وحركات المضطهدين سوف يكون عملية طويلة ومتناقضة. فهي سوف تكون متناقضة ومحفوفة بالصعاب لأن كلا من الحركة العمالية وحركات المضطهدين تتخالفاً أيديولوجيات متناقضة ومتعارضة، وهي أيديولوجيات تمثل غالباً منسخت البيروقراطية النقابية والعمالية، أو - في التحليل الأخير - منسوخاً طبقيّة مختلفة.

ويهيمنة أخيراً - فإن مساندة الاشتراكيين لمباشرة التحرر

ثالثاً، إن ملء الغلاف الجوى بغازات الصنوبرات الزراعية والتدمير الجزئى لطبقة الأوزون هو نتيجة لاستخدام تكنولوجيات وتقنيات لا عقلانية من الناحية الاجتماعية فى جميع الحالات (مثال ذلك اقتصاد السيارات الكبير، الذى دعت إليه السيدة تاتشر). والتدابير الرامية إلى الاستغناء عن هذه التكنولوجيات - عن طريق برنامج ضخم للاستثمار فى النقل العام مثلاً - تتطلب رقابة اجتماعية على الاقتصاد وتخطيطاً اجتماعياً له.

رابعاً، غالباً ما يدور تدمير البيئة حول أشكال لاعقلانية للاستهلاك ليست، فى حد ذاتها، ضرورية للحفاظ على المستويات المعيشية للعمال فى البلدان الغربية. وعلى سبيل المثال، فإن تدمير مناطق الغابات المغطاة فى أجزاء من أمريكا الوسطى هو للمساعدة على إنتاج كميات ضخمة من لحوم الأبقار لحساب ما كسدرنالد وبيرجر كلج. وهذا ليس محورياً بالنسبة للمستويات المعيشية للعمال الغربيين أو لمجمل السعادة البشرية!

خامساً، من الخطأ الخلط بين التصنيع والعمليات الصناعية فى حد ذاتها، من ناحية، وتلوث أو تدمير البيئة، من ناحية أخرى. فالعودة إلى عصر «قبل صناعى» هى بروتوبيا رجعية، ويقترح أكثر دعايتها تطرفاً، مثل إدوارد جولد سميث، رئيس تحرير مجلة «الإيكولوجيست»، عودة إلى

الزراعة البدائية، والحياة الريفية والأسرة المميزة للعصر الوسيط (أى إلى الإقطاع). على أن الاشتراكية سوف تعيد بالتأكيد تعريف العادات الاستهلاكية. ففى حين أن الاشتراكيين لا يعارضون الاختيار فى مجال السلع الشخصية، فإن إنتاج طوفان هائل من السلع الاستهلاكية هو شيء لا عقلانى ولا قيمة له. والنمو السلبى ليس وارداً فى المستقبل المباشر، ولو لمجرد أن البلدان المتقدمة، فى ظل الاشتراكية، سوف يكون عليها بذل جهد ضخم فى مساعدة العالم الثالث على رفع مستوياته المعيشية.

على أن المجتمع الاشتراكى، من خلال إعادة تصريف المصادات الاستهلاكية، سوف يوجه بشكل تلقائى ضربة إلى مصادر كثيرة لتدمير البيئة.

وفى الأجل الطويل، هناك، على الرغم من ذلك، قصور فى النظرية الاشتراكية، بدءاً من ماركس فصاعداً. فقد افترض ماركس، ويمكن تقديم دلائل عديدة لتأييد افتراسه، أن موارد الأرض تعتبر من جميع النواحي العملية غير محدودة. واستناداً إلى تقنية أو أساط للقرن التاسع عشر، ربما كان هذا افتراضاً معقولاً. لكن موارد الأرض، خاصة للموارد المعدنية والغابات كما نعلم محدودة.

ولا يمكن تجنب هذه المحدودية بمجرد الكلام عن عجائب التخطيط. فسوف يتعين إدخال تغييرات كبرى على

التقنية الإنتاجية، كما سوف يتعين إدخال تغييرات على أنماط الاستهلاك.

وكل هذا أيضاً يعنى برنامجاً ضخماً للبحث العلمى، أكثر إنتاجية بكثير بالنسبة للبشرية من كل الأموال المهددة على بحوث الفضاء والأسلحة النووية.

وفى ضوء ما سلف، كيف يجب على الاشتراكيين النظر إلى العلاقة بين الاشتراكية والأيكولوجية، بين الحمر والخضر؟ إن الأيكولوجية ليست بصدد مجرد الدفاع عن «الطبيعة» أو عن فكرة مجردة ما عن البيئة، إنها بصدد الدفاع عن النوع البشرى وخاصة جماهيره الشعبية. وبطبيعة الحال، فإن العمال والفلّاحين هم دائماً الذين يتعرضون للنصل الحاد لاحتياط البيئة - سواء أكانوا عمالاً بولندا، أم عمالاً البرازيل الذين يستخرجون المطاط، أم عمال وفلاحي بربل، أم عمال أوكرانيا وبلغاريا الذين أصيبوا من جراء الإشعاع النووى الصادر من تشرنوبل.

إن تدمير النظام الأيكولوجى ليس نتاج نزعة تخريبية تجاه الطبيعة عسرة على التفسير. بل هو نتاج أشكال تنظيم اجتماعية وسياسية محددة، هى بوجه عام الأشكال المرتبطة بالربح والاستغلال البيروقراطى. وهذا هو السبب فى أننا يجب أن نرفض الفكرة القائلة بأن القلق على مسائل البيئة يتجاوز انقسامات اليسار - اليمين: فالأيكولوجيا مسألة محورية بالنسبة للسياسة الاشتراكية لأن

ماذا يبقى للشيوعيين؟



العالمى الجديد الذى تشده الإمبريالية. إن المستهدفين المحددين لهذا الهجوم هم شعوب العالم الثالث وأوروبا الشرقية .

إن شعوب هاتين المنطقتين بشكل خاص هي ضحية لأزمة الدين ولهجوم التشفش الذى يستلهم الوحي من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. وأثار هذه الأزمة وهذا الهجوم فى أمريكا اللاتينية معروفة للجميع، وفى أوروبا الشرقية، يجرى استخدام أزمة الدين كرافعة لفرض التشفش والفصلية ورفع الأسعار - فى مقابل استعمار رأس المال . وكانت النجوى وبولندا من أوائل الضحايا. وتكسب الحملة الأممية ضد الدين أرضية لها. ففي عام ١٩٨٩، خلال اجتماع مجموعة السبعة الكبار، بول وكول وتانشير والآخرين، فى باريس، تظاهر ٢٥٠٠٠٠ إنسان ضد الدين. ويجب بناء الحملة ضد الدين فى كل مكان من العالم .

إن أوروبا يجرى تقطيعها وإعادة تقسيمها خلف ظهور شعوبها. والمؤسسات التى يجرى استخدامها فى ذلك هي صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وشيء يسمى نفسه «أوروبا» - الجماعة الأوروبية. ولا يجب للاشتراكيين أن تخافهم أية أوهام تجاه واقع أن الجماعة الأوروبية ليست أكثر من الدادى الرأسمالى - وهو ناد يتعذر إصلاحه - الذى كانته دائما. والتضامن مع شعوب العالم الثالث وأوروبا الشرقية يعنى المطالبة

استخدام هذه الروح الأممية من أجل أهداف اشتراكية إيجابية؟.

إن الروح الأممية الحقيقية هي تضامن النضال، تضامن النضال الذى عرفته الحرب الأهلية الأسبانية، والتضامن مع المقاومة الفيتنامية، ومع نيكاراجوا ومع نضال السود فى جنوب أفريقيا .

لكن الأزمة الجديدة تتطلب أشكالاً جديدة للتضامن. فتدويل الإنتاج يصير يدا بيد مع تدويل السياسة. والشركة المتعددة الجنسيات التى يمكنها تحويل الإنتاج من ركن من أركان «المصنع العالمى» الذى تمكته إلى ركن آخر بلصة على مفتاح التحويل فى جهاز كمبيوتر إنما تحمل التنظيم النقابى الأممى ضرورة حيوية.

لكن الشكل المحدد للروح الأممية الذى نحتاج إليه الآن لابد من أن يستند على إدراك لسقوط المد البنية وللهجوم

تدمير البنية هو هجوم محورى على الشعب العامل. وما يتميز بأهمية رمزية أن تشيكو مينديث، قائد عمال استخراج المطاط الذى راح ضحية الاغتصاب، والمدافع عن مناطق الفلبات المطارة والهندو البرازيليين، قد انخرط فى صفوف أكبر حركة للدفاع عن البيئة فى البرازيل - حزب العمال، إن الأيكولوجيا هي مسألة طبقية: وجعلها عصباً إيجابياً فى السياسة الاشتراكية يتطلب ما هو أكثر من «صالح» أفلاطونى بين الحصر والخصر: إنه يعنى جعل الأيكولوجيا جزءاً من البرنامج الاشتراكي .

الروح الأممية

فى الستينيات، تحدث مارشال ماكلوهان عن تحول العالم إلى «قرية عالمية». والسياسة اليوم عالمية بأكثر المعانى مباشرة. وعندما يصاب ميخائيل جورباتشوف بالبرد تحدث ثورة فى أوروبا الشرقية وتحدث انتفاضة شبه ثورية فى الصين.

إن مشاهد الناس، خاصة الشباب، وهم يجادلون التحية ضد سوريلين، لم تكن بشكل رئيسى علامة من علامات الثورة القومية الألمانية الرجعية: لقد كانت تعبيراً عفواً عن الروح الأممية بين الشباب اليوم. وقد أظهرت ذلك بشكل مخبر أشياء أخرى. وليس ذلك مجرد نزعة غريبة، بل هو إحساس حى بالأممية. والسؤال هو: ما الذى يجب على اليسار عمله تجاهه؟ كيف يمكن



بإنهاء الدين وبأشكال جديدة للتجارة والمساعدة، وهو يعنى فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى المطالبة برفع القيود التجارية والتجريفات الجمركية التى لم يزلها الغرب بعد .

إن الروح الأممية المعاصرة تعلى إدارك - كما نبين ذلك فى القسم الخالى، إن هناك نموا عالميا لنوع جديد من النضال الطبقي والتنظيم الاشتراكي - يمثله حزب العمال فى البرازيل والمنظمات الاشتراكية والنقابية الجديدة فى الاتحاد السوفيتى - يمكننا الارتباط معه والعمل على تشييده . فالروح الأممية الاشتراكية اليوم، فى عصر للسياسة العالمية، يجب دمجها بشكل عملى فى بناء منظمات اشتراكية جديدة فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى، ومساعدة اليسار الأسمى البازغ فى كثير من أجزاء العالم

الجماهير تصنع التاريخ

دروس من الصين وأوروبا الشرقية

لا بد لأحداث عام ١٩٨٩ أن تقوى من الناحية المنطقية فكرة أن قوة الجماهير هى التى تصنع التاريخ. إن عمال الصين وتشيكو سلوفاكيا وألمانيا الشرقية لم يكونوا أنصاراً لنظريات مفترضة عن الثورة، لقد تحركوا ببساطة - وأخفهم حركتهم إلى الشارع وإلى صدام مع سلطات الدولة، والأمر كذلك فى

الاتحاد السوفيتى؛ فالتغيير الاجتماعى الضخم يعنى التعبئة الجماهيرية للشعب لامحالة.

ولا يجب لأحد أن يتصور نظرية تأمرية شاذة ما عن ثورة عنيفة تقوم بها أقلية مضطربة، لكن أى إنسان يتصور أن التغيير الاشتراكي الأساسى - تحويل المجتمع فى اتجاه ديمقراطى ومساواتى سوف يتمشى بالضرورة مع الشعائر البالية المسكنة لألام البرلمانات إنما هو إنسان لا يحيا فى العالم الواقعى .

وبطبيعة الحال فإن الأحداث فى ألمانيا الشرقية والصين فى عام ١٩٨٩ لا يمكن التعامل معها كنظريات مباشرة لما يمكن أن يحدث فى بلدان رأسمالية متقدمة كبريطانيا؛ لكنها تخبرنا بشيء عن التغيير الاشتراكي - والفارق بين الصين وألمانيا الشرقية هو أن سلطة الدولة قد تأسكت فى الصين وريت باستخدام أساليب قسوة مضادة للثورة.

أما فى ألمانيا الشرقية، فإن جهاز الدولة قد شلته تعليمات شريكه الأكبر، الاتحاد السوفيتى، بالأى يقاوم التعديلات الجماهيرية. وكانت نتيجة عجزه عن استخدام القمع هى سقوطه - واللاذ الأخيرة لأى نظام قمعى هو دائما جهازه العمكرى، استخدام للثورة؛ وليس هناك مبرر للاعتقاد بأن الدول الرأسمالية المتقدمة سوف تكون مختلفة عن ألمانيا الشرقية أو الصين أو جنوب أفريقيا.

إن كل نظام اجتماعى قمعى يعتمد على جمع بين الخضوع والقمع. وفى البلدان الرأسمالية المتقدمة «الديمقراطية»، يوجد تأكيد خاص على أساليب مركبة وحديثة لتحقيق الفئزوع، خاصة هيمنة أيديولوجية «الديمقراطية» نفسها، والمنظرون الأورو شيوعيون، مسيحيين استخدام جرمشى، يركزون كل التركيز على عنصر بقاء «الهيمنة» الأيديولوجية الرأسمالية، ويختزلون مهام التحويل الاشتراكي (إن كانوا لا يزالون مؤمنين به) فى مكافحة تلك الهيمنة.

لكن إلحاق لك زيمة بالأيديولوجية المؤيدة للرأسمالية فى المجتمع ليس بالدرجة الأولى مهمة أيديولوجية بشكل مباشر، ولو كان الأمر كذلك لاقتصرت مهمة الاشتراكي على إلقاء خطاب مطولة، بدلا من بناء وتوسيع النضالات. ويبين مثال أوروبا الشرقية إن العقبات الأيديولوجية يمكن أن تسقط بين عشية وضحاها فى وجه النضالات الجماهيرية.

إن مفتاح مجادلة الإصلاح «الثورة»، هو فكرة سلطة الدولة. ويخسزل الإصلاحيون الاشتراكيون الديمقراطيون والليبراليون فكرة «السلطة» إلى شيء موزع فى المجتمع فى ككل متميزة بين «صفوات» مختلفة. لكن الاشتراكيين الكفاهيين يدركون أن السلطة فى المجتمع الرأسمالى تتركز وتعبء عن نفسها فى سلطة طبقية هيراركية، تعتبر الدولة ذروتها. أما أن هذه الدولة تلك

ماذا يبقى للشيوعيين؟



والبشرية دائما تتعلم الدروس عمليا قبل أن تتعلمها نظريا. وفي القرن العشرين، تطلب الأمر تجربة الستالينية المتعددة والمريرة، حتى تبدأ الحركة الاشتراكية في استيعاب ضرورة الديمقراطية من حيث هي ركن تكويني. وليس عروضا. لا اشتراكية قابلة للحياة.

والنظام الستاليني القديم في أوروبا الشرقية، بكل قسوته ولا إنسانيته، أخذ في الانهيار. ويرجع ذلك في معظم الحالات إلى التحفة شبه الثورية المتراصة للشعب. ولا يجب أن ننسى أن الأحداث المعنوية في عام ١٩٨٩، التي عزلت النظامين في تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ومهدت السبيل أمام سقوطهما، قد جرت في ألمانيا الشرقية وأنها كانت تحت قيادة اليسار.

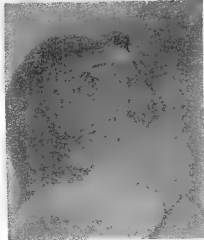
وأيا كان الأمر، فإن سقوط النظم الستالينية هو انتصار هائل للعمال واليسار في كل مكان. وأولئك الذين يحنون إلى الأيام التي كانوا يحسرون فيها أن سوريلين والأرليجاركية الستالينية التي لا ترحم تحميمهم من رياح الرأسمالية الباردة لا يدركون في الواقع معنى الاشتراكية. ولكن السؤال لا يزال قائما: من الذي سوف يحنى ثمار هذا الانتصار في المدى الطويل؟.

كما قلنا من قبل، فإن غياب أي نموذج عملي ذي أهلية لـ «اشتراكية ديمقراطية موجودة بالفعل» قد جعل تحقيق لانتصار اشتراكي في أوروبا

ولذا فمن الضروري امتلاك حس بالمنظور فيما يتعلق بموقفنا الآن وأفاق الانتصار الاشتراكي.

ومن زاوية تاريخ البشرية فإننا لم نقتطع شوطا طويلا على الطريق. وربما يزجج عمر الجنس البشري إلى خمسة ملايين من السنين على الأكثر. وإذا بقيت الأرض فإن أماننا عشرات الآلاف من ملايين السنين. إلا أنه بما أن أحدا منا لن يحيا كل ذلك الزمن، فإننا يجب أن ننظر إلى الأمور من زاوية أقصر.

لقد قال لينين إن العصر الإمبريالي - هذا القرن بوجه عام - هو عصر الانتقال إلى الاشتراكية. لكن هذه الفكرة لم تكن تتضمن جدولا زمنيا محددا، إن الانتقال من الاقطاع إلى الرأسمالية قد احتاج إلى قرون: ومن الواضح تماما أن الأمر سوف يحتاج إلى عشرات العقود قبل أن يتسنى إلحاق الهزيمة النهائية بالرأسمالية



قدرة قمعية منضمة، حتى في بريطانيا، فهو أمر لا يمكن الشك فيه من جانب أحد شارك في مظاهرة منضمة أو فكر فيه ولو للحظة.

رأى أنصار «الطريق الشوري» إلى الاشتراكية، ليسوا دعاة شكل عسكري للنضال. فهم لا يكرهون أن حالات من حالات الدولة الرأسمالية مثل كسب أغلبية برلمانية - يمكن أن تفوز بها قوى اشتراكية وتقدمية. وكل ما يقولونه هو أنه لا مفر من مواجهة الوظيفة القمعية للدولة. والسيدنا ريو الأنسب هو سقراط سلطة الدولة القمعية من جزاء التفتيش والمصاعب الكاسحة، كما حدث في ألمانيا الشرقية. ففي ألمانيا الشرقية سقطت السلطة القمعية، إلا أنه ليس هناك ما يضمن أن الحالة سوف تكون كذلك دائما. وفي أزمنة الفرار اللغوي لا يمكن للطبقة العاملة أن تتخلى عن خيار استخدام القصر ضد الطبقة الحاكمة لتفرض الإرادة الديمقراطية للأغلبية.

نحو عام ٢٠٠٠ - آفاق الاشتراكية

حس المنظور

نادرا ما يشعر الاشتراكيون بأنهم لا يجدون ما يمكنهم عمله: فمعظمهم مخفطون بشكل محترم في مصخب السياسة العملية. ويبدو أن ذلك غالبا ما لا يؤدي إلا إلى اللز اليسير في تحقيق انتصارات للحركة الاشتراكية.

الشرقية أصعب بكثير في المدى القصير. وهذا يعنى أن أوروبا الشرقية هي هدف لهجوم إمبريالى ضخم وأن المحصلة سوف تكون نتيجة لنضال طويل.

إلا أنه في النضال الطويل من أجل الاشتراكية الذى يواجها، هناك أسباب ضخمة للأمل، وعقبات ضخمة أمام تحقيق الاستقرار للإمبريالية، وموارد ضخمة للانتصار. وهذه الموارد تكمن في الثغرات الاجتماعية والسياسية الجبارة التى حدثت في السنوات العشرين الأخيرة.

إعادة التكوين الاجتماعية والسياسية : ثمن الأغلبية

عندما كتب ماركس ، رأس المال، كانت الطبقة العاملة أقلية طفيفة: وهى الآن الغالبة. وعلى الأقل، فإن من المختلف عليه الآن (قياساً إلى ما كان عليه الأمر قبل عشرين سنة) ما إذا كانت الأكثرية في العالم تتألف من عمال أم من فلاحين - والمساءلة مسألة تعريف إلى حد بعيد .

وهذه المحصلة هي نتيجة عملية التصنيع الجزئى في بعض بلدان العالم الثالث ونزاجع عدد الفلاحين ونمو التحول الحضري في كل مكان. وقد ظهرت تركزات جديدة ضخمة للطبقة العاملة في بلدان كالبرازيل والصين (حيث يجى الآن ٤٥٠ مليون إنسان في المدن) وكوريا الجنوبية وأفريقيا الجنوبية.

وتتمثل النتيجة في النضالات النقابية والسياسية الجبارة التى إنشقت في تلك البلدان. وهكذا ففى حين أن أوروبا لا تزال مركز الطبقة العاملة المنظمة بشكل أرمخ في العالم، فإن هيمنتها العددية قد تلاشت : إنها أقلية طفيفة.

ومن الناحية السياسية، وهذا يجتمع مع أزمة الستالينية، فقد شهدنا انبثاقاً لأنواع جديدة من التنظيم خارج الإطار الستالينى والاشتراكى الديمقراطى التقليدى ، والأكثر شهرة بين هذه الأنواع هو حزب العمال في البرازيل الذى حصل مرشحه للرئاسة على ٣٢ مليون صوت في عام ١٩٨٩ والنظمات الحورية الجماهيرية في الفلبين والجماعات النقابية المستقلة في الاتحاد السوفيتى، ومنظمة «تضامن» في مراحلها الأولى على الأقل.

وهذه الحركات متنوعة جداً وتتميز بخصائص مختلفة . لكنها كلها جزء من اتجاه عام نحو انبثاق حركات نضال طبقى غير ستالينية . وإعادة التكوين العالمية هذه للسياسة اليسارية ، خارج الإطار الستالينى والاشتراكى الديمقراطى، تخلق إمكانيات ضخمة لنوع جديد من السياسة الاشتراكية على المستوى الدولى.

العمال لم يهزموا

علاوة على التطور الأيديولوجى والتطور السياسى بشكل مباشر للحركة العمالية الدولية هناك العلاقة المادية للقوى .

فأولاً وقبل كل شيء يجب أن نلاحظ أنه رغم كل ما حدث منذ أواخر السبعينيات ، فإن العمال لم يهزموا بشكل حاسم في أى بلد رئيسى - مثلاً حدث في ألمانيا في عام ١٩٣٣ مثلاً .

فالحصون التنظيمية والسياسية الرئيسية للطبقة العاملة لا تزال قائمة ، خاصة في أوروبا الغربية . ولعل أسوأ الهزائم في السنوات الأخيرة هو انهيار النقابية في أسبانيا (إلا أنه حتى هناك نشهد جهوداً للنضال وليمارس الكفاح) ، والهبوط في عضوية النقابات في الولايات المتحدة . إلا أنه حتى مع ذلك ، فإنه لم تحدث هزائم تاريخية ماثلة لهزيمة عام ١٩٣٣ أو حتى لهزيمة الإضراب العام البريطانى . وهذا أمر مهم للغاية بالنسبة للتطور الفئالى للحركة الاشتراكية .

البنائى جهات جديدة للنضال

كما قلنا من قبل ، فإن الحركة المضادة للرأسمالية اليوم تتميز بتنوعها، وبإضافة عشرات الحركات الجديدة وجهبات النضال الجديدة إلى الحركة الاشتراكية الكفاحية والحركة العمالية بوجه عام - ضد تدمير البيئة ، وضد التحيز الجسدى ، وضد العنصرية ، وضد جوانب محددة للإمبريالية .

وهذا الشراء ليس سبباً لمصاعب تستحق الأسف ، بل هو مصدر ضخمة لقوة ممكنة . فكما قلنا ، ليس بإمكان هذه

ماذا يبقى للشبيوعيين؟



الحركات الانتصار بشكل نهائى خارج بناء الاشتراكية على مستوى عالمى . والقوة الرئيسية للاشتراكية ، بسبب قوتها العددية ومكانتها المركزى فى الإنتاج ، هى الطبقة العاملة العالمية وحركاتها المنظمة . ولكى تتحرك الطبقة العاملة إلى الأمام ، يتعين على اليسار إيجاد تصور للاشتراكية يساعد على توحيد مختلف جبهات النضال حول مركز مشترك - نضال الطبقة العاملة .

إن معنى كل ما كتبناه هنا هو أن الماركسية لا تزال الآلية الفعالة الوحيدة

لفهم العالم الذى نحيا فيه وللتصرف بشكل واع بناء عليه من أجل تحقيق الاشتراكية . وقد شدد استعراضنا لتاريخ القرن العشرين على الفرص الضائعة للتقدم الاشتراكى . ويترتب على ذلك أن الاشتراكيين لا يجب أن يكونوا محايدين أو لا أدبيين تجاه مسائل الاستراتيجية الرئيسية التى تواجه الحركة العمالية المنظمة .

إن الاشتراكية ليست حتمية ، وليست هناك أزمة لا يمكن للطبقة الرأسمالية الإفلات منها لو كان أولئك الذين تحكمهم مستعدين لدفع الثمن . والفرص الرئيسية

للتحول الاشتراكى تنبذ عندما يواجه النظام الرأسمالى نفسه الأزمة وانعدام الاستقرار . لكن استعمار هذه الأزمات يتطلب الوجود المسبق لقوى اشتراكية كفاحية مستعدة إلى الماركسية - فى بريطانيا وعلى المستوى العالمى - قادرة على كسب التأييد بين صفوف الطبقة العاملة . إن الطبقة العاملة والغالبيين الفقراء والعمال الزراعيين وسكان مدن الأكراف والمضطهدين عتصريا وجلسيا - أى الغالبية الساحقة - مازال أمامهم عالم يمكنهم الفوز به . والريبية والفسخ لن يفلا شيئا لمساعدتهم على الفوز به ■





حول انهيار النموذج السوفييتي

خليل كلفت

التاريخ والأسطورة:

بدى في بطبيعة الحال أن مفتاح فهم المغزى الحقيقي لهذه التحولات الجارية في بلدان الشرق، وبالتالي في كل العالم، يتمثل في فهم الطبيعة الاجتماعية للنموذج السوفييتي، هذا النموذج الاقتصادي والسياسي والأيدولوجي الذي ساد طوال العقود السابقة في بلدان ما كان يسمى بالمنظومة الاشتراكية العالمية في أعقاب ثورات أو نتيجة لزحف الجيش الأحمر.

غیر أن الطبيعة الاجتماعية للنموذج السوفييتي ظلت، على مدى العقود التي عاش فيها هذا النموذج، عقدة مستعصية فلم يعقد عليها أي إجماع من أي نوع، بل نمايزت وتبلورت ماركسيات متعددة متباينة انطلقت من اختلافات حول هذه المسألة المحورية.

وجنوب يتمثل في عالم ثالث تابع مختلف تضاعف ضعفه وتضاعفت انهيار مقاومته. إنها صورة تحلل صدراتها رأسمالية عالمية متحدة موحدة عاتية رمزها الموحى هو حلول ألمانيا الموحدة محل ألمانيا (الاتحادية) وألمانيا (الديمقراطية) المتنافستين السابقتين، ولا يخفى أنها صورة تحيط الثورات الاشتراكية، وحتى كل استقلال وطني، بإطار كئيب من الشروط غير المواتية. وكل ما يدور في الأفق هو أن التحولات الجارية في بلدان النموذج السوفييتي، وهي بلدان ذات مستويات متباينة في التطور، تباين كوبا والاتحاد السوفييتي، ستضاعف ببعض هذه البلدان قوة الشمال وبعضها الآخر بؤس الجنوب.

قا بانهار النموذج السوفييتي في كل مكان (حيث يبدو أن انهياره في بفة بلدانه لم يعد سوى مسألة وقت) تكتمل دورة كبرى من دورات التاريخ الحديث تميزت بوجود هذا النموذج وانقسام العالم، بالتالي، إلى غرب (رأسمالي) وشرق (سوفييتي) وعالم ثالث (تابع للغرب أخفقت كافة محاولاته للثبات من إرصاد هذه التبعية بالاستفادة من وضع دولي تميز بالتناقض والحرب الباردة بين المسكرين: الغرب والشرق).

والصورة المستقبلية العامة التي يرسمها انهيار واختفاء هذا النموذج وتبني بلدانه للنموذج الرأسمالي الغربي، هي صورة شمال اتحد بشرقه وغربه فتضاعفت قوته وتضاعف جبروته،

وهناك بوجه خاص الماركسية السوفييتية التي رأت أن هذا النموذج يساوي الاشتراكية والتطبيق الخلاق للماركسية - اللينينية، وتقويضها المباشر، وهو الاتجاه الذي ينتمى إليه مؤلف هذا الكتاب، وهو اتجاه حزب العمال الاشتراكي في بريطانيا بزعامة توني كليف، الذي رأى منذ أواخر الأربعينيات، وليس الآن، أن هذا النموذج ليس سوى النموذج الشرقي للرأسمالية الواحدة نفسها، نموذج رأسمالية الدولة البيروقراطية، كما رأى أن ثورة أكتوبر هزمت وأن «شيوعيتها» انهارت منذ أواخر العشرينيات من هذا القرن، وليس الآن.

وإذا صحت هذه النظرية الأخيرة فإن الموقف الراهن سيبدو أشبه بمشهد سورياني: ماتم في كل مكان على ظهر الكرة الأرضية بقيمتها - الآن - الشيوعيون للشيوعية التي انهارت منذ أكثر من ستين سنة، وأُفْرَحَ في كل مكان على ظهر الكرة الأرضية بقيمتها - الآن - أعداء الشيوعية لانهيار الشيوعية منذ أكثر من ستين سنة. ولما إزاء ذكرى حزية أو سعيدة من أواخر العشرينيات، فالشيوعيون وأعداء الشيوعية على السواء يعتقدون أن الانهيار حدث أو يحدث الآن. ويعتقد الشيوعيون أن مؤامرة أعداء الشيوعية كانت عاملا حاسما وراء انهيار الشيوعية، رغم أنه لا مانع لديهم من الحديث عن «أخطاء وسلبات» للتجربة،

جعلت نجاح المؤامرة (الأمريكية بوجه خاص) ممكنا، أما أعداء الشيوعية فيسهلون أنفسهم مرتين؛ مرة لأن الشيوعية انهارت من الداخل لأنها ضد الطبيعة البشرية، ومرة أخرى لأنها انهارت تحت ضغطهم الطويل المظفر.

وإن يصدّق الشيوعيون أبدا أن شيوعيتهم كما تحققت في الواقع والتاريخ لم تكن سوى رأسمالية دولة بيروقراطية، كما أن أعداء الشيوعية لن يصدقوا إلا أن الشيوعية تعني في الواقع البيروقراطية والامتيازات والاستبداد والشمولية حيث لا يمكن الزعم أن هذه الشرور «الشيوعية» اختفت منذ أكثر من ستين سنة فهي، بالأحرى، استحكمت وتفاظمت ولم تأخذ في التراجع والانهيار إلا الآن.

وبعيدا عن ماتم الشيوعيين من الطراز السوفييتي وأفراح أعداء الشيوعية من كل طراز، ينبغي أن نلاحظ أن هذا المشهد السورالي ليس سوى المشهد



مدالين

الأخير من ملحمة سوراليية عاشتها البشرية قاطبة طوال عقود طويلة: ينقلب الحلم الشيوعي إلى كابوس يراه الشيوعيون في منامهم ويظنّهم، خاصة خارج بلدان النموذج بأسطورة وردية أو اللندوس تحقق على الأرض، ولهذا يراه الرأسماليون في كل مكان كابوساً ينبغي التخلص منه، وفي الحالين تتحمل الصباغة العقلانية لهذا الحلم الكابوس في فكرة أن النموذج السوفييتي هو نموذج الاشتراكية، وتغدو هذه الفكرة أسطورة تصحّد على عقل وسلوك العالم بأسره، بشعريه وحكوماته. ولا جدال في أن هذه الأسطورة ليست الأسطورة الوحيدة التي سيطرت على الشعوب أو الحكومات في القرن العشرين، ويكفي أن نتذكر أساطير أخرى بدت للشعوب أو الحكومات سبل خلاص في فترة أو أخرى في كل أو بعض مناطق العالم كالفاشية أو تصفية الاستعمار أو التنمية. على أن هذه الأسطورة تبدو لي أشد هذه الأساطير شعولا، وأطولها أمدا، وأكثرها خصبية، أي قدرة على توليد أساطير جديدة تعيش كثيرا منها الآن، فهي جذيرة بالتالي بدراسات رياضية معمقة لفهم الإطار الثقافي، العقلي والأسطوري، الذي تعيش البشرية في سبيله الآن.

ولكي نفهم عددا من تلك الأساطير المتولدة عن الأسطورة الأصلية، مثل الأسطورة القائلة أن هذه النهاية للشيوعية أو نهاية هذه الشيوعية هي النهاية لكل

شوعية وأنها بالنال نهاية التاريخ، أو الأسطورة القاتلة أن انهيار النموذج السوفييتي انقلاب في اتجاه مجرى التاريخ الحديث، أو غيرهما من أساطير، سيكون من الملام أن نبعد، وإن قليلا، عن الأساطير لتركز، وإن بسرعة، على الطبيعة الاجتماعية لهذا النموذج والتي يمثل فهمها كما سبق القول المفتاح الحقيقي لفهم مغزى وأبعاد ونتائج انهيار هذا النموذج..

الطبيعة الاجتماعية للنموذج السوفييتي:

تتوقف، إذن، مغزى وجود أو اختفاء هذا النموذج على حقيقة طبيعته: فهل كان ذلك النموذج اشتراكيا (كما زعم الخط السوفييتي)، أم انتقالا بين الرأسمالية والاشتراكية في عهد ستالين (كما زعم تروتسكي) وكذلك في عهود خلفائه (كما زعمت الأممية الرابعة)، أم جماعيا بيوغرافيا أي مجتمعا بعد رأسمالي لكن استغلاليا (كما زعم شاختمان) أم رأسمالية دولة بيوغرافية (كما زعم توني كليفت)، أم اشتراكيا في عهد ستالين انتقل رأسماليا وامبرياليا اشتراكيا في عهود خلفائه فيما يتعلق بالانحدار السوفييتي (كما زعمت الماوية)، أم اشتراكيا في عهد ستالين ثم مهددا بعودة الرأسمالية من خلال التحريفية أو المراجعة (كما كان الخط الماري قبل الفوتيريل التاسع للجزيب الشيوعي الصيني

الذي تحدث عن الامبريالية الاشتراكية في ١٩٦٩، ويحذر بالذكر أن كاتب هذه السطور ظل منذ أواخر الستينيات وطوال السبعينيات وحتى بداية الثمانينيات من أنصار هذا الطريق الثالث، الذي كان له حظ من الانتشار في الهند ومصر، والذي لا يمدون أن يكون مرحلة من مراحل الفكر الماوي، الذي تمثل نقطة منطفة الرئيسية فيما يتعلق بهذه المسألة في نظري إلى عهد ستالين على أنه عهد اشتراكى، وكان من المنطقي أن أتخلي خلال الثمانينيات عن هذا الموقف غير المتسامح، وأن انتقل إلى الفكرة القائلة أن النموذج السوفييتي ليس سوى رأسمالية دولة، وإذا كانت هذه الفكرة مشتركة لدى اتجاهات وشخصيات عديدة فإنه يبدو لي أنها تصل إلى أقصى تماسكها لدى اتجاه «توني كليفت» وحزب العمال الاشتراكي البريطاني، وهو اتجاه ألتقى معه في هذه الفكرة بالذات في حين أنصت على أو اختلف مع بل حتى أهمل جهلا مباشرا في كثير من الأحوال، كثيرا من أفكاره وتوجهاته ونظرياته الأخرى، أم ماذا؟

وليس من الوارد، بطبيعة الحال، في سياق مثل هذا التناول الموجز، أن أحاول مناقشة هذه النظريات والمذاهب، فلا مناص إذن من أن أكتفي بإشارات سريعة يمكن الارتكاز عليها، بعيدا عن أي عرض منهجي منظم، إلى طبيعة وخصائص النموذج السوفييتي.

فكيف أمكن أن تتحول ثورة أكتوبر إلى رأسمالية دولة، وأن يقلب الحلم إلى كابوس؟

وبطبيعة الحال، لم يكن المجتمع الذي أعقب ثورة أكتوبر في روسيا مجتمعا اشتراكيا. وإذا كان من المنطقي أن المجتمع التالي حتى لثورة اشتراكية لاجتلال في طبيعتها حتى في باد رأسمالي غاية في التطور لن يقلب إلى مجتمع اشتراكى في خمسة عيين، فإن المجتمع التالي للثورة أكتوبر لم يكن لنتقالا وحسب، بل كان كذلك مطبوعا بطابع تخلف روسيا القيصرية، وبالتالي بطابع خصائص ثورة أكتوبر وعهد من الأوضاع والظروف العالمية والمحلية البالغة التأثير.

وكان على ذلك المجتمع الانتقالي أن يتصدى لمهامه الجبارة، الدفاعية والهجومية، العربية والهندية، الاقتصادية والسياسية، الديمقراطية والاشتراكية، في سياق شروط وأوضاع وظروف موضوعية وذاتية وثيقة الصلة بخصائص كل من روسيا القيصرية ولثورة أكتوبر والحركة الشيوعية العالمية في ذلك الحين.

فرغم التطور السريع العاصف للرأسمالية في روسيا القيصرية في العقود السابقة للثورة أكتوبر، وركت الثورة والمجتمع الانتقالي التخلف الاقتصادي الذي ضاعفه الدمار الناتج عن الحرب العالمية الأولى وحرب التدخل من جانب

١٤ دولة والحرب الأهلية. وكان كل هذا التخلف الاقتصادي وثيق الارتباط بطبيعة الحال بالطابع غير الحديث للتركيب الطبقي والديموقراطي. وهكذا كانت روسيا بلد القذاة والفلاحين ولم تكن بلد البروليتاريا التي كانت منبذة الممج بالمعنى المطلق والسبى. ولم يكن من شأن هذه القاعدة الاجتماعية الضيقة للثورة أن تؤمن هذه الأخيرة اجتماعياً وكان التحالف الثوري بين العمال والفلاحين تحالف جماهير متأخرة ثقافياً وسياسياً.

وفي سياق هذا التخلف الاقتصادي والاجتماعي للبلاد والتأخر الثقافي والسياسي للجماهير، أي قوى الثورة جاءت ثورة أكتوبر ليس كثورة اشتراكية بل انصورت أخرى بل كضرورة تلعب خصائصها وطبيعتها من كافة الشروط الموضوعية (المحلية والعالمية) والذاتية (الخاصة بقوى الثورة وقادتها).

والحقيقة أن ثورة أكتوبر لا يمكن أن تكون مجرد موضوع للبحث الأكاديمي، بل ينبغي النظر إليها أولاً ثم إلى الثورات التالية باعتبار الدروس المستفادة من فشلها في الحساب الأخير دروس نجاح ثورات المستقبل. إن ثورة أكتوبر ليست مجرد تاريخ للبحث الأكاديمي وليست بالأخص تاريخاً مقدساً قال فيه كرادلة البلشفية كلمتهم الأخيرة. إنها، على العكس من ذلك، بحث مفتوح مادامت قضيتها قضية مستقبل وليست رمز حثين إلى ماضٍ أسطوري.

ولم تكن ثورة أكتوبر ثورة أقوى حلقات السلسلة بل ثورة أضحت حلقات السلسلة. ولم تكن الأزمة التي فجرتها أزمة اكتمال نمو مجتمع جديد (الاشتراكية) في رحم مجتمع قديم (الرأسمالية)، ذلك أن المجتمع للتقدم ذاته (الرأسمالية) كان لا يزال جنيناً لم يكتمل نمجه في رحم مجتمع أقدم (الإقطاع). كما أنها لم تكن تعبيراً عن النمر الطبقي لنضال أسناد التكوين البروليتاري للمجتمع القديم بل كانت تلك الأزمة ترجع بصفة مباشرة إلى تأثير الحرب العالمية الأولى حيث خلفت الجيوش الألمانية في سياقها فراغاً هائلاً في روسيا عن طريق تدميرها اقتصادياً وعسكرياً، فتفاقمت بالتالي الأوضاع وأزمات جماهيرها إلى حد يستحيل معه المضي على المسوول نفسه. وكان ذلك التدافع للمزغ من جانب طبقات المجتمع كافة ومن جانب قواه السياسية كافة لملء أو استغلال ذلك الفراغ هو المجرى الفعلي للثورة والثورة المضادة في روسيا.



ليونيد بريجنيف

لما إذن إزاء اكتمال نضج مجتمع برجوازي من ناحية واكمال نضج النضال من أجل انتصار الثورة الاشتراكية من ناحية أخرى. بل إن طبيعة الثورة ذاتها لم تحسم إلا في معهما معارك الثورة (أبريل ١٩١٧). ولهذا فإن مدى عمق الطابع الاشتراكي للثورة أكتوبر يفوق موضع شك، ويفوق من الواجب بحث هذه المسألة، بعيداً عن الخطب الرنانة، من أجل ثورات المستقبل.

على أن ثورة أكتوبر التي كانت تنكم منها أرواح التخلف الاقتصادي واجتماعي، كانت تعاني كذلك من ظرف عالمي غير موات. فالأزمة العادة التي دفعت إلى الثورات في أوروبا في أعقاب الحرب العالمية الأولى كانت مرتبطة بدورها بتلك الحرب. وكانت رغم نضج التكوين الاجتماعي - الاقتصادي للرأسمالي في الغرب تعبيراً عن تأثير الحرب وليس عن نضج وعمق النضال البروليتاري في سبيل انتصار الثورة الاشتراكية على مدى العقود السابقة لتلك الحرب. ولهذا فإن الأزمة لم تكن أزمة ١٩١٧ شاملة ولم تكن بالأخص أزمة ثورة اشتراكية. ذلك أن هذه الأزمة الأخيرة كانت تفترض من جانب نضج نمو التكوين الرأسمالي (الشرط الموضوعي للعاصم للثورة الاشتراكية) ومن الجانب الآخر نضج نمو النضال الاشتراكي (الشرط الذاتي للعاصم للثورة الاشتراكية). وهذه هي الثورة



الاشتراكية التي ترقمها ماركس في بداية الأمر: في قلاع الرأسمالية. غير أن التاريخ كان يدخر لكامل تاريخ الحركة الشيوعية المعاصرة مفاجأة غير متوقعة ولم تصبح أبداً إلا على المدى الطويل: نصبح التكوين الرأسمالي بوصفه عقبة في سبيل نصبح النضال الشيوعي طالما كانت الرأسمالية تمتلك ديناميات وآليات تجعلها قادرة على حفر واستيعاب ثورات تقنية جديدة من ناحية وعلى السيطرة الإمبريالية على العالم وعلى مقدراته الاقتصادية من ناحية أخرى، وعلى احتواء النضالات والأزمات وعرقلة نموها بالقدر المطلوب للثورات الاشتراكية وخلق واستغلال الأرستقراطية العمالية والشفوفينية من ناحية ثالثة، كنتيجة للباحثين الأولى والثانية. إن الشرط الموضوعي لا يسيّر هنا يدنا في يد مع شرط ذاتي مناظر، فالنظر ذاته غير وارد، حيث يستبعد الشرط الموضوعي الشرط الذاتي في مرحلة طويلة من التاريخ لا تزال مستمرة إلى الآن بصورة عامة، وإن كانت مقدمات نهايتها تتراكم باطراد خلال العقود الأخيرة. والحقيقة أن البلاشفة كانوا يطمنون أن ثورة أكتوبر (وقبلها ثورة ١٩٠٥) ثورة في أضعف حلقات السلسلة، وليست ثورة في أقوى حلقات السلسلة، في قلاع الرأسمالية، كما تنبأ ماركس. ولكنهم كانوا يطمنون مع ذلك بنبوءة ماركس بدليل أن أهمهم الوحيد في الانتصار الكامل للثورة في

روسيا كان يمثل في ثورة البروليتاريا الأوروبية، في قلاع للرأسمالية. ولكن كانت تجربة ماركس صحبته فإن توقع تحققها الرشيح أو القريب كان يعنى عدم إدراكه، وعدم إدراك لينين والبلاشفة، لحقيقة أن الشرط الموضوعي للثورة في الرأسمالية المتطورة يستبعد الشرط الذاتي طوال مرحلة تاريخية طويلة تتميز بأن تقاضيات الرأسمالية لم تدم بعد إلى الحد الذي يفتح الباب أمام تكامل وليس تعارض الشرط الموضوعي والذاتي للثورة.

ورغم أنني أطلعت في هذه النقطة فقد يكون من المفيد أن أضيف أن ماركس ذاته لم يستبعد الثورة الاشتراكية في بلدان متأخرة رأسمالياً، وكان رأيه عن روسيا بالذات أنها يمكن أن تنتقل من المشاعة الريفية إلى الاشتراكية دون أن تمرّ حتماً بكل مراحل الرأسمالية كافة التي كانت قد بدأت تنمو في روسيا بالفعل، بشرط أن تمتلك إنجازات للرأسمالية مع تقاضى ويلاتنا. ومن الجلى أن هذا الشرط الذي يعتبر بمثابة قانون عن تخطي المراحل لا يمكن أن يتحقق إلا بافتراض عملية ثورية عالمية أممية تشمل بلداناً متأخرة أو مختلفة وأخرى مستطورة للغاية (أو على الأقل بلداناً لديها متأخر والآخر متطور) حيث تقدم البلدان المتطورة العون المنهجي الشامل للبلدان المختلفة في مجال التحديث الجذري لقوامها الإنشائية وأسلوب

حياتها. وهذا تتضمن نقطة بالغة الأهمية فيما يتعلق بقضية طبيعة الثورة فهذه الطبيعة لا تتحدد بشكل إرادي داخل حدود بلد واحد مهما كان مختلفاً فهي بالأحرى قضية أممية، بمعنى أن بلداً مختلفاً يمكن أن يسير في طريق ثورة اشتراكية تتجاوز شروطها الداخلية بشرط أن تكون هذه العملية ضمن عملية أوسع تشمل بلداً متطوراً أو بلداناً متطورة بافتراض الإخاء الأممي والتعاون الأممي بلا حدود. والواقع أن هذا الشرط بالذات كان يقص ثورة أكتوبر التي انتظرت سدىً وبلا جدوى نجدة الثورة البروليتارية الأوروبية، وبدلاً من النجدة الأممية سيكون هناك التطويق الإمبريالي وبناء الاشتراكية في بلد واحد، كعقيدة أو فضيلة وليس كمجرد واقع أو اضطرار أو ضرورة.

وهكذا كان على ثورة أكتوبر أن تعاني محلياً من التخلف الروسي، الذي كان من شأنه أن يقود إلى نشوء أزمة ثورية بتأثير حرب عالمية أو غير عالمية أو بدون حرب على الإطلاق، لكن دون أن يتأخر هذا التخلف عن فرض شروطه كافة، وأن تعاني أممياً من التخلف الأوروبي الذي كان من شأنه أن يحول دون نشوء أزمة ثورية عميقة وشاملة، وأن يساعد على استيعابها حربياً ومدنياً إذا نشأت مراحل منها بتأثير الحرب. وهكذا كانت الأزمة الثورية المحلية والعالمية بالتأثير المباشر للحرب غير أنه

لم يكن بوسع متأثر الحرب أن تتجاوز خلق أو تعميق الأزمة، لا إلى إنقاذ الثورة الروسية من تخلف الأوضاع الروسية الأصلية، وبالتالي الحكم على الثورة بطبيعة محددة مهما كانت التصورات البلشفية الذاتية عنها (مادامت هذه الثورة معزولة ومحاصرة)، ولا إلى نجدها بثورة اشتراكية أوروبية انتصح فيما بعد أن ترقعها وعقد الآمال عليها لم يكن لهما مبرر حقيقي.

على أن هناك شرطاً ذاتياً قد يبدو أكثر رهافةً غير أنه حاسم مع ذلك في المسار الفعلي لتطور الثورة، وكان هذا الشرط الذاتي غائباً. فرغم أن البناء الاشتراكي ينطوي على جدل الموضوعي والذاتي الذي لا يمكن التنبؤ سلفاً بتفاصيله، إلا أن برنامج البناء الاشتراكي بخطوطه الحريضة لكن الحاسمة ينبغي أن يكون موجوداً ومستوعباً ومهضوماً سلفاً على أوسع نطاق من جانب قيادة وطليعة وجهامير الثورة، وإلا فكيف يمكننا أن نتصور قيام ديمقراطية مباشرة تمارس الجماهير من خلالها مهام الحكم وتخطيط الاقتصاد ممارسة فعلية، وليس في الكتابات الإنشائية والخطب الطنانة قبل أو بعد الثورة، وكان تحقيق البرنامج الذي تضمنه كتاب الدولة والثورة اللتين رمز وعنوان هذا الفياث لبرنامج البناء الاشتراكي.

وهكذا ولد المجتمع الانتقالي التالي للثورة ككتوير محاصراً من كل جانب،

وكان عليه أن يتصدى لتقيام بمهامه الجبارة وأن يخوض معاركه الطاحنة، ببطولة الشعب وبحكمة القيادة، لكن أيضاً مخفلاً بقدر هائل من نقاط الضعف والشروط الموضوعية والذاتية غير المواتية.

والواقع أن ذلك المجتمع الانتقالي كـ أن لا يملك ترف الشروع في تحقيق التحول الاشتراكي المستهدف بالشروع على الفور في تطوير القوى المنتجة ورفع مستوى معيشة الجماهير العاملة بصورة مطردة ومتوازنة، بل كان عليه، بدلا من البناء، أن يخوض للحرب سنوات (مع الاكتفاء بتدبير شوعية الحرب)، وكان عليه أن يطلق في تطوير الاقتصاد والقوى المنتجة (بعد لتحصار الثورة في الحرب الأهلية) ليس فقط من مستوى تخلف سنة ١٩١٣ أو ١٩١٤ (أي مستوى ما قبل بداية الحرب) بل مصافاً إليه دمار ست أو سبع سنوات من الحروب المتوعدة المتواصلة.



ماركس

على أن الحرب الأهلية الطاحنة على مدى سنوات لم تدمر الاقتصاد وحسب، بل أنهكت الثورة والمجتمع الانتقالي بوجه عام ودمرت وأفتت الطبقة العاملة وبالأخص ومن باب أولى طليعتها البلشفية. وكان هذا يعني أن يفرق الحزب البلشفي في بحار من الجماهير غير البروليتارية وغير المسيسة وغير المتدمجة مع الفكر الثوري، وكان كل هذا يعني بالتالي أن الاشتراكية المعلقة والمستهدفة ستبقى بدون اشتراكيين، بدون ماركسيين، وأن تصفح الحزب باعتباره حزب السلطة.

وإذا كان الطموح الهائل الكامن في ذلك المجتمع التطور العاصف للإرسمانية (في روسيا قبل الثورة) وبالأخص في البرنامج البلشفي إلى تطوير جذري للقوى المنتجة قد تلقى دفعة كبيرة من مجرد الإطاحة بالطبقات المالكة التقليدية لكي يفتتح له الباب أمام تطور جبار عاصف، فإن انطلاق هذا التطور من عقائه في ظل كل ذلك التخلف الاقتصادي والثقفي والحقائي، كان ينطوي على مشروع يعرض عن التخلف بأساليب التراكم البدائي (الاشتراكي) الوحشية التي لأحاجة إليها بطبيعة الحال عندما تكون نقطة انطلاق التحول الاشتراكي رأسمالية متطورة.

وتفشل الثورة في إقامة مؤسسات صحيحة للديمقراطية المباشرة للطبقة العاملة وجماهير العاملين، وينشأ نظام



الانهيار ومغزاه:

من الجلى أن هذا النموذج ينطوى فى داخله على جرثومة انهياره الأكيد، ليس الانهيار الذى ينتظر كل «نموذج» رأسمالى وحسب، بل الانهيار المرتبط بخصوصيته الدوعية، بوصفه رأسمالية دولة شاملة تعجز الاستثمار الرأسمالى الخاص.

ولعل من أبرز نقاط ضعف نظرية رأسمالية الدولة فى روسيا عند ثونى كليف وكريس هارمان وغيرهما من قادة حزب العمال الاشتراكى فى بريطانيا، هذا العجز العقلاى عن استشراف هذا الانهيار. وأعتقد أن هذا العجز ينبع من الإحجام عن تحليل تناقضات رأسمالية الدولة حتى النهاية، وكأن إثبات أن الاشتراكية المزعومة فى بلدان النموذج السوفيتى لم تكن فى واقع الأمر سوى رأسمالية دولة، يقتضى التسامى عن تناقضاتها وأزماتها وعن المسار المحتمل لتطور تلك التناقضات والأزمات!

والواقع أن كل أو تقريبا كل محاولات تفسير انهيار النموذج السوفيتى تركز على فكرة «ردة» رأسمالية راحلة (الخط السوفيتى، الأممية الرابعة، الجماعية البيروقراطية) أو قريبة العهد أى بعد ستالين والمؤتمر العشرين (الخط الماروى وكذلك «الطريق الثالث» المشار إليه سابقاً بالتبعية). ولكن هذه النظريات جميعا تواجه مأزق نظرية بالغة الصعوبة، فكيف يمكن تصديق حدوث ردة

مشروعا رأسماليا مهما كان نوعيا (رأسمالية الدولة البيروقراطية) ومهما استند إلى ملكية الدولة أو التخطيط أو الماركسية - اللينينية.

وإذا كان صعود الستالينية فى أواخر العشرينيات حركة كبرى من التراكم البدئى (الاشترائى)، والمصنف بقايا الديمقراطية فى المؤسسات كافة، وإرساء أسس للنظام الشمولى، وصعود البيروقراطية إلى مركز طبقة حاكمة فى طور التكوين، فإن المجرى العام لثورة أكتوبر والمجتمع الانتقالى المبكر، بكافة شروطه الموضوعية والذاتية غير المواتية، سيك مهمة المصنف بشرة أكتوبر باسمها وتبطل النموذج السوفيتى الذى تم فيما بعد تصديره واستيراده، والذى تمثلت خصائصه الرئيسية فى اقتصاد الدولة ملكية وإنتاج وتوزيعا وتخطيطا وسلطة بيروقراطية الدولة، التى اتخذت أشكالاً ديكتاتورية بوليسية لاملول لها فى التاريخ الحديث، والعلاقات الاستغلالية البيروقراطية، والماركسية - اللينينية التى تصبح بحمد النظام الاشتراكى المزعوم القائم ولا تبرز على نقده، والأممية اللغظية فى السياسة الخارجية التى قامت فى واقع الأمر على المصالح السياسية والاقتصادية الاستراتيجية.

إن للنموذج السوفيتى الذى لا يمكننا هنا أن نتابع كافة نواحي نشأته وتطوره ومرآله، وناهيك بتصديره واستيراده وغرسه فى بيئات أخرى ليس سوى رأسمالية دولة شمولى.

الحزب الواحد، وتفقد السوفيئات واللقابات دنيا مملكتها بصورة تدريجية فتدحط وتندهر.

ورغم تحول الماركسية إلى مذهب للدولة، فى التخطيط والإعلام والدعاية والحزب والعمل السياسى والجماهيرى والأبحاث والعلوم والآداب والفنون، فإن هؤلاء الأنصار الجدد لدن الدولة لن يؤمنوا عن دمار المناضلين البلاشفة فى الحرب حتى قبل التصنيفات الستالينية، وبصورة تدريجية يتبدل مشهد عملية بناء جدارة لكن بلاشورعيين حقيقين، وبلا مؤسسات عمالية ديمقراطية من أى نوع.

ورغم المذهب القائل أن الاشتراكية لا يمكن أن تكون إلا من صنع الجماهير، تصبح الاشتراكية وكل شيء آخر من اقتصاد أو تخطيط أو سياسة أو تنفيذ أو رقابة من صنع (وبطائف) بيروقراطية وأجهزة الدولة التى أصبح الحزب والسوفييت واللقابة فى عداد أجهزتها من الناحية الفعلية.

ويُدفع المجتمع السوفيتى فى تحقيق مشروع بناء مجتمع حديث يمتلك قوى منتجة متطورة على حساب استهلاك الجماهير العاملة، وبقيادة وسلطة وامتيازات البيروقراطية وبالاقتصاد على الأجهزة والأساليب البوليسية مع دور الحزب والسوفييتان واللقابات فى القمع الأيديولوجى والسيطرة على الجماهير. ومثل هذا المشروع لا يمكن إلا أن يكون

رأسمالية عن اشتراكية عالية التطور (الخط السوفييتي) أو حتى اشتراكية عهد ستالين (اللفظ الصيني) أو من اقتصاد انتقالي يفترض فيه نمو الجديد الاشتراكي على حساب القديم الرأسمالي على مدى عقود طويلة (ماندل والأممية الرابعة) أو عن تكوين اجتماعي - اقتصادي بعد رأسمالي جديد (شاختمان ونظرية الجماعة البيروقراطية) ؟

أما نظرية رأسمالية الدولة (توتى كليف) فلا مكان فيها للحديث عن ردة رأسمالية راهنة مع البيروميسريكا أو قريبة العهد مع المؤتمر العشرين . والردة الوحيدة الواردة عند هذا الاتجاه هي الردة الرأسمالية البيروقراطية الستالينية في أواخر العشرينيات عن ثورة أكتوبر وعن المجتمع الانتقالي الذي ازدهجت فيه بقايا التكوينات الموروثة عن روسيا القيصرية ومحاولات البناء الاشتراكي الأولى خلال قرابة العقد بعد الثورة . وإذا كانت هناك ردة راهنة فهي في نظر هذا الاتجاه ردة عن شكل للرأسمالية (رأسمالية الدولة) إلى شكل آخر للرأسمالية الواحدة نفسها (الرأسمالية عبر القومية) . وإذا كان هذا الاتجاه يقدم بالفعل نظرية متحققة مع الطبيعة الرأسمالية البيروقراطية للممزوج السوفييتي ، ويقدم بالتالي تفسيراً عاماً سليماً لمغزى التحولات الراهنة باعتبارها حركة ، ليس إلى الأمام وليس إلى الوراء ، بل في نفس المكان من حيث التكوين

الاجتماعي - الاقتصادي الرأسمالي الواحد المستمر ، فإن مسألة ما إذا كان تفسيره للأبعاد الهائلة والمفاجئة التي اتخذها انهيار الممزوج السوفييتي مقنعا وكافيا تظل مفتوحة للجدال .

لقد عاشت رأسمالية الدولة الشمولية ، رغم تناقضاتها وأزماتها ، عقوداً طويلة . وفي هذا الزمن الطويل نسبياً لم يكن لرأسمالية الدولة أن تعطى أروع ثمارها التي تتمثل في تطوير القوى المنتجة بمعدلات نمو لا تفوقها سوى معدلات نمو اليابان ، فحققت في عقود معدودة ما يحتاجه الرأسمالية في الغرب لتحقيقه إلى مئات السنين . وفي هذا الزمن الطويل نسبياً لم تكن لتناقضات وأزمات رأسمالية الدولة أن تتكاثف وتمتدحج وتنضج لتعطى بدورها أروع ثمارها التي تمثلت في كسر إطار الشمولية ، وفتح الأبواب والنوافذ أمام نضال الجماهير العاملة في سبيل حرياتها وحقوقها ومستويات معيشتها ونقاباتها وأحزابها وثوراتها .



ماو تسي تونغ

فهل هناك ما يدعو للمحج في أن تعيش رأسمالية الدولة الشمولية ، رغم تناقضاتها وأزماتها ، كل هذا الزمن الطويل ؟ والواقع أن التناقض الجوهرى الذى يخطو عليه هذا التكوين الاقتصادى - السياسى الشمولى ، الذى يحتاج إلى زمن طويل لإنضاج لفاعلاته المؤدية إلى تفكيت وتفجور هذا التكوين إلى شظايا مائل في صميم هذا التكوين الذى يتغلب عليه مع ذلك الزمن طويل بفعل العوامل البيئية والظرفية المؤدية إلى تأكيد وإطالة أسد دور الدولة . فالبيروقراطية الرأسمالية لا يمكن إلا أن تطعم إلى التحول إلى طبقة رأسمالية عادية تفتح أمامها أبواب الاستثمار الخاص مهما كان حجم ووزن اقتصاد الدولة والاستبداد الشمولى . وهذا عامل تفكيت لهذا التكوين على المدى البعيد . وليس صحيحاً أن البيروقراطية العليا لا يمكن أن تتحدر بالتخلي عن امتيازاتها الهائلة ، فهي لا تتخلى عنها في الحقيقة إلا لتصنيف إليها ، أو لتكسب بدلا منها ، كافة مزايا التحول إلى طبقة مالكة وحاكمة بلا قيود دولية . كما أن الجماهير العاملة المستغلة والمضطهدة أكثر مما في أى بلد رأسمالى ليبرالى لامتلاك كطبقة أو طبقات سوى الثورة ضد الإفقار والاضطهاد في ظل الحكم الشمولى . وهذا عامل تفكيت آخر لهذه الرأسمالية الشمولية ، لكن على المدى الطويل أيضا .



فما هي عوامل التماسك البنيوية والطرفية التي تتغلب، ولزمن طويل، على عوامل تفكيت هذا التكوين الشمولي ؟

هناك، أولاً، ذلك المشروع الهائل لتطوير القوى المنتجة والذي كان المزيد من إنجازاته وقفزاته بالتجتمع يؤكد دور ملكية وتخطيط وبيروقراطية وأشكال حكم الدولة. وطالما ظلت دينا مسببة ذلك المشروع مستمرة وأهدافه الاستراتيجية. غير متحققة بصورة كاملة، كان ذلك المشروع مغفرة الدولة الشمولية ومحور عملها وأساس تماسكها. وتتمثل مصالح البيروقراطية كطيفة، أو بالأحرى كطيفة في طور التكوين، في نجاح هذا المشروع، ويجري تليب المصالح الاستراتيجية للبيروقراطية في الاستحواذ على اقتصاد متطور بالغ التعقيد والحدائق على مصالحها المؤقتة المتمثلة في مزاياء التحول السريع إلى طبقة رأسمالية تستثمر وتستخدم العمل المأجور في مشروعات خاصة.

على أن هذا المشروع التحديثي العملاق لم يكن محصور وجود ونجاح ومستقبل البيروقراطية وحدها؛ بل كان كذلك محور واقع وأساطير حياة الجماهير العاملة التي كانت واقعة في إسار أوهام وعصوده، والتي كان الحكام يخشون غضبها ومقاومتها لأي ردة، عن دور الدولة التي كانت تعمل على قدم وساق على تحفيقه. كما أن الشرعية التي اغتصبتها البيروقراطية، شرعية ثورة

أكتوبر وديكتاتورية البروليتاريا، وكانت تركز ملكية الدولة وتخطيط الاقتصاد والأيديولوجية الماركسية - اللينينية التجريبية المنقحة، ولم يكن التحدي المباشر لتلك الشرعية تأمين العواقب. وهكذا كانت تلك الشرعية بدورها من عوامل تأكيد وتأييد دور رأسمالية الدولة الشمولية.

على أن الوضع الدولي، بشوايحه ومتغيراته، كان لا يتأخر عن استغلال وتحدي النموذج السوفييتي بأسباب متزايدة لاستمرار وتماسك دور الدولة.

ومنذ البداية، كما سبق أن رأينا، كان الغرب الرأسمالي الإمبريالي يحدو ثورة أكتوبر، بعيداً عن آمال أو أوهام وأساطير نجدة الثورة البروليتارية العالمية، بشروط الصلح مع ألمانيا، وبالتدخل الأجنبي المسلح، ثم بالتطويق الرأسمالي العالمي بعد ذلك. وكان على الدولة الجديدة ليس فقط أن تطور القوى المنتجة بسرعة مذهلة بل أن تطور كذلك وبالسريعة نفسها قوى الدمار دفاعاً عن النفس. ولم تتأخر اللافتية الهلثية عن الهجوم. وكان من المدهق أن تؤكد الحرب العالمية الثانية، بالدمار المفزع الذي حلّ بالاتحاد السوفييتي، دور رأسمالية الدولة من خلال ضرورات إعادة التعمير واستئناف مشروع التحديث العملاق والتحول إلى قوة عسكرية من الطراز الأول، دفاعاً عن النفس أمام أخطار مغزعة تأكدت بصعود وتفوق وعدوانية إمبريالية الولايات

المتحدة الأمريكية، وكذلك دفاعاً عن الإمبراطورية السوفييتية، وكأداة للتنافس العالمي على مناطق النفوذ. وأخذت تحديات سباق التسلح والحرب الباردة والدرجات العلمية والتكنية في الغرب تؤكد وتطيل أمد دور رأسمالية الدولة.

على أن هذه المواجهات والحروب الساخنة والباردة وأعباء الدفاع وأعباء الدولة العظمى وأعباء امتلاك وتطوير ترسانة أسلحة تعادل الترسانة الأمريكية، بالاستناد إلى اقتصاد لا يتجاوز نصف الاقتصاد الأمريكي، كان لابد أن تنتهي تراكمها إلى إنهاك الاتحاد السوفييتي وإلى تفاقم تناقضاته واستنفاد أزماته.

وفي عصر لم يعد ممكناً فيه حكم الشعب السوفييتي بالحديد والناز ومسكرات العمل، خاصة في ظل تراجع الاقتصاد ومستويات المعيشة، وفي عالم يتميز بأنه صار قرية إعلامية واحدة بإغرامات حقائق وأساطير مستويات المعيشة في الغرب، كان لا مفر من بروز تناقض بعيد. ذلك أن الاقتصاد المنظم على الأساس الجماعي يدخل في تناقض صارخ مع مجتمع تسوده القيم الفردية بعيداً عن ادعاءات القيم الجماعية والشيوعية. وفي غياب المبادرة الجماعية (كذلك التي سادت أيام القيم والمبادرات الجماعية الشيوعية التي أطلقتها ثورة أكتوبر) والتي لا تنسجم إلا مع السبأ الجماعي حقاً، شكلاً ومحتوى، في تنظيم الاقتصاد ومع سيادة القيم الجماعية

والشيوعية، وفي غياب المبدأ الفردي في تنظيم الاقتصاد والذي من شأنه أن يصيب الطبقات المالكة بحمى التراكم الخاص، وأن يقدم الأساس لرقابة فعالة على عملية العمل، وكذلك في غياب الإكراه الشمولي الصارم الذي يمكن أن يملأ الفجوة بين ضرورات التراكم الجماعي البيروقراطي (الرأسمالي بالطبع) من ناحية، وغياب الحوافز والفصالح الفردية والخاصة لدى طبقات المجتمع كافة من الناحية الأخرى، غدا من المستحيل تغاضي تدهور المجتمع وتدنّي الأداء الاقتصادي وإنهيار كل مسئولية إزاء اقتصاد وموارد البلاد أو الدولة وفقدان الاتجاه العام (وكابوس لقطار المتدفع بأقصى سرعته بلا سائق كما رآه جورباتشوف في يقظته)، فلا مناص إذن من أن يحدد البحث عن الاتجاه الصحيح والأداء الاقتصادي الفعال وسبل تغاضي التخلف النهائي عن الغرب وتردّي وإنهيار وانتفجار الوضع برمته. وإذا كانت المبادرة قد جاءت في الاقتصاد السوفييتي من أعلى (من جورباتشوف والبيريسسترويك والجلاسنوست) فهي لم تأت إلا في مناخ يتميز بالانفجارات المتكررة في بلدان «المنظومة» بعد سنوات من احتدام الصراعات الحاسمة في بولندا للتضامن وليخ فاونسنا، ولم تكتسب مبادرة جورباتشوف ديناميهاا المدمرة والحررة إلا من عوامل التخفّيت الاقتصادي والقومي والأيديولوجي التي كانت تختفي تحت السطح الجرائيني اللامع، فإذا بنا أمام معارك إعادة هيكلة الاقتصاد في

اتجاه الجمع بين الأشكال المتعومة للملكية للرأسمالية، والصراعات الطاحنة بين القوميات بعد عقود طويلة من الحل اللبنيي المزعوم في بلدان المنظومة، والتوصل من الاشتراكية والشيوعية والماركسية واللينينية وثورة أكتوبر والثورات اللاحقة وكل ثورة بعد عقود طويلة من الرفع المناقق عالياً لذلك الروايات الزائفة.

على أن لنهيار النموذج السوفييتي لا يضي أنهيار بلدانه كبلدان أو شعوب أو اقتصادات، وإذا ركزنا على روسيا، يمكن القول إن إنجازاتها في مجال تحديث وتطوير قواها المنتجة (البشرية والمادية والعلمية والتقنية) تؤهلها للتخطب على الأزمة التي رافقت انهيار النموذج وللخروج منها قوة اقتصادية ضخمة (وبالأخص قادرة على اللحاق بالغرب والتنافس معه على قدم المساواة)، تتبوأ مكانتها في صدارة نظام عالمي جديد متعدد الأقطاب إلى جانب الولايات المتحدة وأوروبا واليابان، أي كمنزواصيل في نادي الشمال الرأسمالي المتقدم.

وإذا كانت المصائر النظرية العامة لبلدان النموذج لا تخرج عن: أ: استمرار النموذج السوفييتي، ب: الثورة للثيورية، ج: الثورة الاشتراكية، فإن الانهيار الراهن للنموذج، وعلى أوسع نطاق، يدعو إلى التساؤل عن احتمالات المصائر الفعلية وهل من الوارد بينها إحياء هذا النموذج من جديد بعد هدوء العاصفة.

لقد رأينا كيف كان مشروع تحديث القوى المنتجة والقوة الدينامية الدافعة، قبيل وبعد وإلى جانب للدوافع الأيديولوجية والظرفية، وراء قيام واستمرار ورموخ النموذج السوفييتي في مسقط رأسه بالذات، فما هي تناقضات هذا الارتباط بين المشروع والنموذج؟ وما هي علاقة هذه التناقضات بمصائر اقتصادات وتنظم بلدان النموذج؟

وقد رأينا أن مشروع التحديث كان يؤكد دوماً دور نموذج رأسمالية الدولة. غير أن ضرورات السير بمشروع التحديث إلى نهايته المنطقية، إلى اللحاق الأكيد بالغرب، أخذت تتناقض مع استفسال تناقضات وأزمات النموذج وترهل النظم وتدهور الأداء الاقتصادي، مؤننة بضرورة إرسال النموذج إلى متحف التاريخ بعد أن وصل بالتحديث إلى مستوى يسهل تحقيق قفزات كبرى انطلاقاً منه بشرط التحرر من البيروقراطية الشمولية التي انقلبت إلى عائق كليب، والحقيقة أن معدلات النمو المتفوقة لهذا النموذج لا تمكن التفوق الاشتراكي على الرأسمالية فهذا ليس وارداً بالصبة لهذا النموذج، للرأسمالي بدوره. بل إن مقارنة هذه المعدلات مع المعدلات الرأسمالية الغربية المتواضعة مقارنة مضطلة وخادعة يجري الإحاح عليها لتكريس أسطورة التفوق السوفييتي الاشتراكي المزعوم. فالرأسمالية الغربية التي شبت تحديثاً للقوى المنتجة ليست بحاجة إلى مثل هذه المعدلات في النمو ولا تنوي الدخول في سباق عليها مع



أحد. والواقع أن نظامها الاجتماعي - الاقتصادي القائم على مبدأ الربح، وليس على التنمية الشاملة لمقدرات ومستويات معيشة الجماهير، يستبدد للرمب مثل هذه المعدلات التي تعنى في نهاية المطاف أزمة فيض الإنتاج، نتيجة لأزمة نقص الطلب «الفعال»، بل أصبحت لهذه المهمة الاقتصادية الأولى لهذا النظام تتمثل في كبح نمو القوى المنتجة ومواد الاستهلاك وليس في إطلاقه، اللهم إلا في حدود ومجالات معينة، الأمر الذي يعنى أن الرأسمالية الغربية المتطورة دخلت مرحلة الركود الزمن الذي لا يملك منه. أما معدلات النمو اليابانية التي تتفوق على المعدلات السوفيتية ذاتها فتدل بصورة قاطعة على أن تفوق المعدلات لا يرجع إلى تفوق رأسمالي أو تفوق اشتراكي بل يرجع على العكس من ذلك إلى مشروقات منه فجرة التخلف الروسي والياباني عن الغرب وينطبق الشيء نفسه على معدلات نمو الرأسمالية في روسيا القيصرية في العقود السابقة للثورة. وإنما يمكن المغزى الحقيقي لكل مقارنة في مدى منه فجرة التخلف، في مدى اللحاق بالغرب. وفي حين تختلف روسيا الاشتراكية المزعمرة عن الغرب تخلفا مغزعا من حيث إنتاجية العمل، نتيجة اليابان إلى تفوق حاسم، وإن كانت اليابان بدورها لا يمكنها بطبيعة الحال أن تفلت من التنازع الكثيرة لنمو تناقضات الرأسمالية على المدى الطويل.

ويدهي أن بلدان النموذج متفاوتة من حيث التحديث ومنها بلدان لم ترتبط

بالنموذج إلا عبر الارتباط بالاتحاد السوفيتي السابق أو بروسيا ضمن هذا الأخير، بمعنى تبنى أسوأ ما في النموذج (الحكم الشمولي) دون تحديث، اعتمادا على ما سماه السوفييت ذات يوم بالتقسيم الدولي الاشتراكي للعمل، فليس أمام هذه البلدان سوى اللحاق بالعالم الثالث.

وإذا ركزنا على أكثر هذه البلدان تحديا، لم يعد واردا استمرار أو إحياء النموذج، ليس فقط لأن الوصول بالتحديث إلى مستوى للتنافس مع الغرب على قدم المساواة أصبح يشترط التخلص من هذا النموذج، بل كذلك لأن تحول البيروقراطية إلى طبقة رأسمالية يشترط الشيء نفسه.

والحقيقة أن البيروقراطية مصابة في الصميم بتناقض جوهري بين المبدأ الفردي والخاص والمائلي كمثل أعلى للعلاقات الاستغلالية والمجتمع الاستغلالي من ناحية والتنظيم الجماعي لاقتصاد الدولة من الناحية الأخرى. ولا يمكن لهذه البيروقراطية أن تصبح طبقة رأسمالية، ولا حتى طبقة رأسمالية بيروقراطية، بالمعنى الصحيح للعبارة، إلا عندما تكون للعملية للرأسمالية سلسلة واحدة من الحلقات المتناسكة والمترتبة بحيث لا تغطي المصلحة الجماعية للطبقة في التراكم الرأسمالي البيروقراطي التلوي، بل توجد إلى جانبها مصالح التراكم الرأسمالي الفردي والخاص، التي لا ينبغي أبدا التقليل من شأنها والتي لا يمكن تأمينها على الإطلاق من خلال رأسمالية الدولة

الشمولية التي يمكن لمنطقها دائما وكلما اقتضى الأمر أن يعصف بموظفيها «الماليين»، مهما كانوا كبارا أو قسما سمانا أو نخبة بيروقراطية عليا. إن البيروقراطي الفرد مدفوع دوما إلى تأمين سواته للمجتمع من خلال إحلال أسس المبدأ الطبقي الفردي (الملكية الرأسمالية الخاصة وهي المحيط الطبيعي لازدهاره) محل المبدأ الطبقي الجماعي (ملكية وتخطيط الدولة ويحظر هذا المبدأ دوما على إمكانات المصنف البيروقراطي الفردي)، على أن هذا المبدأ الفردي ليس أبدا مصلحة فردية منعزلة أو مصلحة أفراد منعزلين بل مصلحة طبقية جماعية لأفراد الطبقة الذين لا يمكن تأمين فريديهم إلا بالجماعية كمطبقة ولا يمكن تأمين تماسك جماعيهم إلا بالحفاظ على مصالحهم الطبقة كأفراد.

وكانت الدورة الليبرالية الزاهنة التي هي محتوى أزمة وانهيار واختفاء النموذج السوفيتي هي الحل السعيد لتناقض هذا النموذج مع المزيد من سير هذه البلدان بالتحديث إلى الأمام وكذلك لتناقضه مع مصالح البيروقراطية في التحول إلى طبقة رأسمالية كاملة الأهلية. على أن الليبرالية الاقتصادية لن تفترض بالضرورة وفي الأحوال كافة ليبرالية في السياسة والحكم فلا جدال إذن في أن التحولات الجارية تكتنفها مخاوف تحول بعض هذه البلدان إلى بلدان فاشية باقتصاد رأسمالي خاص لتتجه حسب تركيزها الاجتماعي، الاقتصادي الحقيقي إلى الانضمام إلى العالم الثالث أو البقاء في ذيل قائمة بلدان الشمال الرأسمالي.

ولم يكن من الوارد، بطبيعة الحال، أن تتفعل ثورات اشتراكية بدلا من هذه الثورات الليبرالية. ذلك أن أحد مجالات نجاح النموذج السوفييتي كان يتصل في بلدانه كافة في تصفية الحياة السياسية وتفرغ الأشكال الحزبية والسوفييتية والنقابية من محتواها، باستثناء محتواها التفريفي ذاته. على أن تلك الارتباط بين هذه الدول من جانب والشيوعية من جانب آخر حدث تاريخي بكل معنى الكلمة، وهو يصدم غير أنه يجرى وبالتالي يدفع إلى الاتجاه الصحيح، اتجاه ثورات اشتراكية من طراز جديد.

على أن التعينات الجماهيرية الضخمة التي تدشّن بها الجماهير العاملة في هذه البلدان انتقالها من معاناة مزمنة إلى معاناة حادة مفزعة إنما هي تعينات الثورات الجماهيرية الليبرالية، فلا مجال إذن لأروها انقلابها فجأة إلى مقدمات ثورات اشتراكية.

نحو عالم بلا أساطير:

يخبين من الصفحات السابقة، في ضوء حقيقة أن النموذج السوفييتي لم يكن من حيث طبيعته الاجتماعية سوى رأسمالية دولة بيروقراطية، أن المفزى الحقيقي لانهايار واختفاء هذا النموذج من بلدانه ومن العالم يتمثل في اختفاء وتلاشي تناقض رئيسي في صفوف الرأسمالية العالمية، بالنتيجة المنطقية الجوهرية التالية: إستعادة وحدة الرأسمالية العالمية لتكون إزاء شمال رأسمالي واحد

موحد بشرقه وغربه، في مواجهة شعوب الشمال من ناحية وشعوب الجنوب التابع (العالم الثالث) من ناحية أخرى.

ويجيب أن مغزى وجود أو اختفاء هذا التناقض لا يختلف في جوهره، وليس في أبعاده بالضرورة، عن مغزى وجود أو اختفاء كل تناقض رئيسي في صفوف الرأسمالية العالمية. إنه ليس أكثر لكنه ليس أقل من ذلك أيضا.

ومن الجلى بطبيعة الحال أن التناقض الرئيسي في صفوف الرأسمالية العالمية قد يقود إلى أزمت مدمرة كالعرب العالمية الأولى أو الثانية؛ وكانت كل منهما انفجارا لتناقض رئيسي في صفوف الرأسمالية العالمية، بين مصالح الرأسماليات الإمبريالية الجديدة المحرومة من المستعمرات، خاصة ألمانيا في كل من الحربيين العالميّين، وبين مصالح بقية الرأسماليات الإمبريالية التي كانت قد أكملت اقتسام العالم من قبل، خاصة إنجلترا وفرنسا وروسيا (فيما يسمى بالاستعمار الداخلي).

على أن استعادة الوحدة في صفوف الرأسمالية العالمية، حرباً أو سلماً، لا تعني بالضرورة أن الوحدة صارت أبدية أو أنها غير قابلة للفقدان نتيجة لإعادة تكوين التناقض من جديد بين نفس المصالح الرأسمالية التي تناقضت من قبل (ألمانيا والبريان العالميّان) أو بين مصالح رأسمالية أخرى تتناقض حول محاور أخرى متوقعة أو مفاجئة (مثل نفوذ النموذج السوفييتي).

وتكجلى خطورة المرحلة التي يتجه إليها العالم الآن عندما ندرك حق الإدراك أن الرأسمالية الإمبريالية العالمية حبلت بالكوارث في الأحوال كافة، في أحوال وجود أو احتدام أو انفجار تناقضات كبرى في صفوفها، لكن أيضا في أحوال اختفاء هذه التناقضات الكبرى واستعادة الوحدة.

ورغم الكوارث التي يمكن للتناقضات الكبرى أن تقود إليها العالم، وقد كانت الشعوب وقودا لحربيين عالميين مدمرين تفصل بين نهاية الأولى وبداية الثانية قرابة عشرين سنة وحسب، يمكن القول بوجه عام أن هناك إمكانية لاستغلال الثغرات التي قد تفتحها تلك التناقضات لصالح الشعوب.

أما فترات اختفاء التناقضات الكبرى، واستعادة الوحدة، فلا يمكن إلا أن تكون وبالاعلى للشعوب خاصة في البلدان التابعة.

وإذا كان اختفاء النموذج السوفييتي يندرج كوارث تتطوى عليها فترات استعادة الوحدة الرأسمالية العالمية، فإن وجود هذا النموذج (في نشوئه وانتشاره ونموه واستقراره وانهاره ذاته) كان دائما في بؤرة الكوارث التي تقود إليها فترات احكام التناقضات الكبرى في صفوف الرأسمالية. وكان نشوء هذا النموذج وثيق الصلة بالتأثير المباشرين لتناقضات وكذلك باستغلال الثغرات التي تفتحها. وإذا كان نشوء هذه الأنظمة مرتبطا مباشرة باستغلال الثغرات (الحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر، الحرب



هذا الصراع غير المبرر على الغرب والشرق في آن معا.

وإذا كان كلامي هذا يصدمني، أنا نفسي، قبل أن يصدم غيري، لأنني تربيت كغيري على فكرة أن الطبقات الحاكمة تتحد سلوكها بما يتفق ويتطابق ويتصم مع مصالحها الاستراتيجية، فقد قاتلت كما فات غيري أن نتعلم أن الطبقات الحاكمة قد يغتربها إدراك مصالحها الاستراتيجية فتتخبط في سلوك مدحرم لمصالحها وربما أيضا لبقائها أصلا. وليتذكر القارئ الحرب العالمية الثانية، وليأمل مايلي: كيف حدث لحد من الدول الرأسمالية العالية التطور، بزعامة ألمانيا بالذات، أن أصابها الغرور بقوتها الاقتصادية والعربية المتفوقة فعلا، فحسمت أن مصالحها تقتضى خوض الحرب مع الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى (ومع الاتحاد السوفيتي)، وفي غضون سنوات معدودة من الحرب دمرت تلك الدول والطبقات الرأسمالية للعالم لكن أيضا نفسها، فقدت استقلالها الذي لم تستعده كاملا إلى يومنا هذا (ألمانيا واليابان)، والحقيقة أن سوء التفاهم الذي جعل تلك الدول الرأسمالية المتطورة الفاشية، عاجزة عن إدراك مصالحها ووسائل ومراحل تحقيقها زلغى ذلك للنحو المدمر ليس بلا سوابق في التاريخ ولم يكن سوء التفاهم المدمر الوحيد في التاريخ المعاصر.

ومن ناحية أخرى، يؤدي اجتفاء النموذج السوفيتي، وبالتالي انقسام العالم إلى شرق وغرب، إلى نتائج يتوقف على

هناك ممارسة على النطاق العالمي لتنافس استراتيجي قائم على المصالح، وليس على أي سوء تفاهم، من جانب الاتحاد السوفيتي بالذات.

وصحيح أيضا أن الغرب لم يهادن الاتحاد السوفيتي (وبقية بلدان النموذج قط، بل ناصبه العداء وطوّقه وحاصره وهاجمه عسكرياً) (الحرب العالمية الثانية بالذات) وتآمر ضده ووضعه الخطط الدووية لتدميره وشن ضده حرباً دعائية عالمية استمرت عدة عقود، وصحيح أن هذا الغرب هو الذي قسّض، بخطه العدواني، واعتقاداً منه أنه يحارب الشيوعية الدولية، على الاتحاد السوفيتي المسار الذي سلكه (تطوير القدرة العسكرية التقليدية والنووية، تأييد ومساعدة حركات التحرر الوطني ارامية إلى الاستقلال عن الغرب، الاندفاع في هجوم دعائي معاكس على النطاق العالمي بدوره). غير أنه صحيح أيضاً أن سوء التفاهم الغربي وبالتالي سلوكه العدواني المتعريف وحره الصليبية ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعية السوفييتية وواقع أن الغرب هو الذي «أخترع» الاتحاد السوفيتي بالخصائص التي أجبره على اكتسابها بدلا من أن تبقى التناقضات السوفيتية مع بقية الرأسمالية العالمية في حدود أقل حدة بما لايقاس،

صحيح أن كل هذه الأشياء لا تغوّر واقع أن تنافسا كبيرا تم خلقه وتعهده بالرعاية والعناية والتطوير والغرب الصليبية المتعددة الوسائل والمراحل، بالخسائر التاريخية الفادحة التي جلبها

العالمية الثانية وأوروبا الشرقية والصين وكوريا وفيتنام) فإن الوجود المستقر للنموذج المتناقض في صفوف الرأسمالية العالمية تتدخل مع تناقض للفاشية مع بقية الرأسمالية الاستعمارية (هجوم هنر على الاتحاد السوفيتي) واستقل بقراره التي اتخذت صورة الحرب الباردة والحروب الساخنة بالوكالة تتنافس على مناطق النفوذ ولم تتخذ هذا الشكل «الرحيم» من الكوارث الإقتصاد تطوير القدرة العسكرية السوفيتية التي كان يمكن على الأرجح لولاها أن يتعرض الاتحاد السوفيتي للهجوم الدوي الذي يبدو أن خطه كانت جافة.

صحيح أن تطورات ومعارك التناقض مع النموذج السوفيتي، والاتحاد السوفيتي بالذات، كانت متداخلة مع حركات التحرر الوطني الزامية إلى الاستقلال عن الاستعمار الغربي بالاستناد إلى تأييد وصون الاتحاد السوفيتي (ومعسكره) استغلا لتناقضه مع الغرب، وصحيح أن الغرب كان يمارس هذا التناقض من خلال الحرب الباردة والحروب المباشرة (كوريا وفيتنام) وبالوكالة، أي بالوسائل العسكرية التي لا يبررها سلوك عدواني من جانب الاتحاد السوفيتي ومعسكره، وذلك لاعتقاده (الغرب) أن المعسكر السوفيتي معسكر شيوعي، وليس منافسا رأسماليا مثل الفاشية الألمانية أو الإيطالية أو اليابانية في الحرب العالمية الثانية. غير أنه صحيح أيضا أنه، رغم الدور الاستثنائي الهائل لسوء التفاهم والأسطورة، كانت

فهمها واستيعابها تصوّر المستقبل القريب والبعيد للعالم بصورة موضوعية، كما هو في الواقع، بلا أساطير، وبالتالي التعامل معه بهذه الصفة. على أن الوحدة المستعانة في صفوف الرأسمالية العالمية ليست مستقرة بعد، فالعالم الآن في فترة من السيولة والتفاعلات وإعادة الترتيب لاستيعاب الوحدة المستعانة مع تفادي انشقاقات من شأنها التطور في اتجاه تناقضات كبرى جديدة تقود بدورها إلى كوارث جديدة.

ومن المنطقي بطبيعة الحال أن نتوقع فترة غير قصيرة من «توابع الزلازل السوفياتي» - ويزيد من حدة الزلازل وتوابعه وأقل أن اختفاء النموذج لم يتخذ شكلا هادئا حل فيه خيار أو نموذج محل خيار أو نموذج آخر، بل شكل الأزمة والزلازل والمصافة والانهيار بما يؤدي إلى فترة من الأوقات الصعبة وفقدان للتوازن لدى بلدان النموذج، على أنه كان لامناس، في الأحوال كافة، من السيولة والتفاعلات وإعادة الترتيب لأن الخطى المندى عن الشيوعية من جانب بلدان النموذج جعل الغرب يفقد فجأة عدوه اللدود؛ فسقطت فجأة بالتالي أساطيره عن هذا العدو الشيوعي المزعوم، وبالأخص أسطوريته عن التهديد أو الخطر أو الغزو السوفياتي، هذه الأشياء التي كانت ترفع قوى رأسمالية كبرى على الاحتماء بالغطاء الأمريكية. وسوف يعنى المزيد من استقرار التطورات السوفياتية والألمستنان إلى هذا الاستقرار إعادات ترتيب في أوضاع وتحالفات وسياسات القوى الرأسمالية الكبرى.

وإذا كانت التوازنات التي ظلت قائمة إلى عهد قريب قد فقدت استقرارها نتيجة للحركة الفجائية التي أصابت بعض عناصرها، أي نتيجة للانقلاب في العلاقات مع بلدان النموذج السوفياتي من ناحية ونتيجة لغيابها للنسب المفاجئ عن الحلبة الدولية لفترة من ناحية أخرى فإن التنبؤ بالصورة المستقبلية الدقيقة التي ستمتدح عليها العلاقات والتحالفات والتناقضات بين القوى الرأسمالية الكبرى يغزو بالغ الصعوبة. فمضى يحلّ عالم متعدد الأقطاب الرأسمالية محل هذه الفترة المؤقتة من العالم الأحادي القطب كما يقال الآن؟ وما هي هذه الأقطاب وما وزن كل قطب منها في ضوء تراجع القوة الاقتصادية الأمريكية مع بقاء قوتها العسكرية، وتداعى الاقتصاد الروسي مع بقاء القوة العسكرية الروسية، والقوة الاقتصادية الهائلة دون قوة عسكرية لكل من اليابان وألمانيا الموحدة أو أوروبا معاهدة ماستريخت الموحدة؟ وكيف سيحتمل هذا العالم مع أزمات واضطرابات وهجرات ومجاعات وكوارث وحروب العالم الثالث، بالإضافة إلى مغامرات قواه الإقليمية الطموحة التي تنفتح شهيداً مع التطورات الجديدة؟

والأسئلة التي من هذا القبيل لا نهاية لها من الناحية العملية، غير أن تحليلنا لمغزى وجود أو اختفاء النموذج السوفياتي لا يصحنا إزاء اختفاء عامل ثوري أو اشتراكي فعال في التوازن العالمي، بل إزاء استمرار القوى الرأسمالية الكبرى نفسها التي ظلت سائدة في العقود

السابقة على الحلبة الدولية بما في ذلك روسيا، التي كانت حقيقتها الرأسمالية تختفي تحت الاسم الاشتراكي للاتحاد السوفياتي السابق.

وإذا كان من الجلي أن عوامل انشقاقات وتناقضات جديدة في صفوف هذه القوى ليست معدومة (الحروب، للتجارية الأمريكية مع اليابان وأوروبا الغربية) فإن عوامل وحدتها ليست معدومة أيضا (علاج جراحات الانشقاق المتكهن، الأخطار الإكولوجية، اضطرابات العالم الثالث، إلخ).

وبعيداً عن محاولات التنبؤ وسط أجواء غائمة، يجعل بنا أن نلتفت إلى بعض خصائص عالم جرد الانهيار، صراعاته من أسطورة الاشتراكية السوفياتية وحزبها من كغير من التناقضات الأسطورية الأساطير المتناقضة المتولدة عن تلك الأسطورة.

ويوجه خاص فإن انهيار هذا النموذج لا يقود إلى انقلاب في انتهاء مجرى التاريخ المعاصر، اللهم إلا من وجهة نظر من يزعم أن ذلك للنموذج كان اشتراكيا (لخط السوفياتي) أو انتقاليا (ماندل). والواقع أن تأكيد أن انتهاء مجرى التاريخ المعاصر لم ينظف ليقدم عزاء لأحد. ذلك أن القوى الرأسمالية الكبرى نفسها التي كانت تسود طوال العقود السابقة تستظل تسوده في المستقبل المنظور. مع إضافة ذات نتائج متميزة ومعاصرة: إن اختفاء النموذج السوفياتي يسهم في خلق ظروف موضوعية غير مواتية لأنه



والجنوب الآن هو مكان التخلف وزمانه ورمزه، وقد وصلت التبعية الاستعمارية بالجنوب، بعد فترات من المحاولات المخفقة للتححر منها، إلى نقطة مفزعة. وصل الجنوب إلى نقطة الانهيار. ولا يتمثل هذا الانهيار في مجرد التأيد الهائى، فى المدى المنظور، للتبعية بعد إخفاق حركة التحرر الوطنى وتراجع آفاق الثورة الاشتراكية أو حتى أوهامها الجميلة، بل هو الانهيار المباشر. فبعد أن وصل الجنوب إلى أقصى تطور ممكن فى إطار التبعية ما بعد الكولونيالية، بدأ اليوم، بل أمس، الهبوط على الجانب الآخر من النل، فى اتجاه المجامعات والحروب والأهوية والمغامرات والفوضى والهجرات، وربما لن تهدأ عواصف العالم الثالث قبل انخفاض جذرى فى سكانه يهدد توازن السكان والموارد فى ظل نظم اجتماعية - اقتصادية مختلفة، ربما تهدأ المالتوسية فى قبرها.

ولم يستطع الشرق الأحمر، ولم يكن من شأنه ولم تكن قصيبته، أن ينقذ الجنوب. أما الغرب (الشمال) فهو الذى قاد ويقود الجنوب إلى هذا المصير. وعجز الجنوب عن الإفلات منه لأنه لم يتملك ولا يمتلك دينامية ذاتية منقذة.

على أن عجز العالم الثالث عن إنقاذ النفس، اعتمادا على النفس أو بعون من آخرين، لم يكن فقط عجزا عن تحقيق تحول إشتراكي، أى التحول إلى نظم اشتراكية حقيقية بعيدا عن ديكتاتوريات الاشتراكية القومية الفاشلة، بل كان كذلك

الدورة الاشتراكية الأممية التى تشمل على بلد أو أكثر من البلدان الرأسمالية المتطورة؛ لأن ثورات العالم الثالث عاجزة عن حماية نفسها ضد الحرب الصليبية التى تستهدفها الرأسمالية العالمية الموحدة ضدها، بحكم دهامة ضعفها وتخلفها، كما أن ثورتها عاجزة عن تحديث قواها المنتجة بلا عون بلا حدود من جانب بلدان اشتراكية متطورة.

والحقيقة أن الوضع الذى يجد الجنوب (العالم الثالث) فيه نفسه الآن، بعد عقود من محاولات الفكك من التبعية أو تمسين شروطها باستغلال للتناقضات بين المعسكرين، برهان مساطع على أن التناقض والمصراع بين المعسكرين لم يكن فى الواقع سوى تناقض وصراع بين كتلتين رأسماليتين. وكانت الآفاق التى يفتحها ذلك التناقض أمام شعوب العالم الثالث ألقا كاذبة، فالحقيقة التى تتضح الآن، بعد فوات الأوان، هى أنها لم تفتح أمام أى بلد أو شعب أو أمة فى العالم الثالث إمكانات لانتشار الثورة الاشتراكية والبناء الاشتراكي، ولم تصاعد إلى أفضل الأحوال إلا فى انتشار النموذج السوفيتى نفسه فى طبقاته الأكثر تخلفا والأكثر بعدا عن تحديث حقيقى (امتثانا إلى تقسيم العمل الدولى «الاشتراكي» للزعوم). وفى نهاية المطاف، تم إعلان رأسماليات الدولة الديكتاتورية ذات الأيديولوجيات القومية والمعادية لأية ماركسية، بما فى ذلك الماركسية السوفيتية، بشرط التعاون والصداقة مع الاتحاد السوفيتى نظما اشتراكية أو ذات توجه اشتراكي، وكانت للنتائج كارثة فى كل مكان.

عامل وحدة داخل صفوف الرأسمالية العالمية، لكنه يسهم أيضا فى خلق ظروف ذاتية مولدات لأنه فلك الارتباط بين الماركسية وبين قوى غريبة عليها ظلت تشوبها وتضطهد الجماهير باسمها وتتمثل الشيوعيين فى كل مكان فى العالم بنظريات تدعى تطويرها استنادا إليها.

فهل مازال العالم، رغم تقلباته وانهلاته وتكثف حقائقه، فى عصر الإمبريالية والفرقة البروليتارية؟

أعتقد أن الإجابة بالإيجاب، ولكن... بشرط فهم موضوعى، ثورى حقا، بعيدا عن الذخعة الإرادية للثورية، فهم لا يعتبر الثورات «الاشتراكية» طوال القرن العشرين ثورات بروليتارية كاملة الأهلية، يعنى إخفاقها وفشلها فى نهاية المطاف أن تشخيص طبيعة العصر كان خاطئا، بل ينطلق من المحدود الحقيقية لاشتراكية تلك الثورات، والشروط الموضوعية والذاتية التى تقتضيها الدورة الاشتراكية القابلة للحياة. وإذا كانت بروليتاريا البلدان الرأسمالية المتقدمة قادرة، بعد إغناء وتطوير ماركسيتها باستخلاص دروس التجارب المريرة، على إحياء واستئناف النضال الاشتراكي الثورى الأسمى فإن قضية الثورة الاشتراكية والاستقلال الوطنى فى البلدان التابعة (العالم الثالث) تغدو بالضرورة قضية واحدة فى إطار ثورة اشتراكية أممية، حيث يستحيل على بلد أو أكثر من بلدان العالم الثالث القيام بالثورة الاشتراكية وتأمين البناء الاشتراكي إلا فى إطار

عجزاً عن التحول الرأسمالي، أى التحول إلى بلدان رأسمالية حقيقية ذات بنية اجتماعية اقتصادية حديثة.

وتتبع استحالة التحول الاشتراكي في العالم الثالث من واقع أن العالم كان ولا يزال خالياً من الشرط الجوهرى لهذا التطور وهو وجود نظام اشتراكي عالمي أممي متطور أو عملية ثورية اشتراكية عالمية أممية. أما استحالة التحول الرأسمالي، فهي نابعة من واقع أن إنجازات الرأسمالية العالمية تسيطر عليها الرأسماليات الإمبريالية المتطورة وتسيطر بها على العالم الثالث ولا تسمح له بالوصول الحر إلى الإنجازات، أى بالتحول إلى رأسمالية عالية التطور، حرة ومستقلة، تنافسها على قدم المساواة.

وهكذا فإن بلدان العالم الثالث لن تتحول إلى بلدان رأسمالية بالمعنى الصحيح إلا كاستثناءات سعيدة تكتب القاعدة. أما النظرية المناقضة، نظرية «نهاية العالم الثالث»، عن طريق تحولها إلى رأسمالية كالنمور أو الثنائين الآسيوية (نابجول هاريس) فتقدم نظرية خيالية إذا أدركنا حق الإدراك واقع سيطرة الشمال (الغرب) على العالم مستخدماً إنجازاته التاريخية التي لا يريد أبداً الاكتفاء بتوزيعها هدياً على العالم الثالث، وكذلك العجز الكامن في البنية الاجتماعية - الاقتصادية والثقافية للتجعية.

ومحاصراً بين هاتين الاستحالتين، نيس أمام العالم الثالث (ومعه بطبيعة

الحال عالماً للعربى ومصر) سوى التدهور والمزيد من التدهور. وفي سياق هذا التدهور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والروحي، تنفتح أبواب الجحيم ليس فقط أمام المجاعات والحروب الطاحنة (الأهلية والخارجية) بل كذلك أمام تجارب كارثية لانهاية لها تتردى أشكال الأصالة والأصولية والسلفية والحكم الديني (وليس الاسلامي وحسب) ولن يكون هذا الحكم الديني، أياً كان الدين الذي يقام باسمه، سوى لغترات قصيرة، وإن يكون إنجازها القطعي سوى الصغار التي ستقام لأية قوى مستبدة أو طائفية أو ديمقراطية أو شيوعية أو لمعتنى أدیان اخرى، مساوية أو وثنية، وإن يكون كل هذا بعيداً عن مخططات الشمال أو تدخلاته أو مصالحه.

ومع انقسام العالم بصورة تقنية وأصحة، إلى شمال وجنوب، إمبريالية وتبعية، غنى وفقير، واستحالة إنقاذ العالم الثالث من دخله من خطر نهاية أخرى مناقضة تماماً لنهاية نابجول هاريس التي أشرنا إليها منذ قليل، يبدو أن أي تفكير في مخرج للجنوب لابد أن يجه إلى العلاقة شمال - جنوب.

غير أن هذه العلاقة ليست علاقة تعاون متكافئة لتتقذ أو تساعد في إنقاذ الجنوب، بل إن العلاقة إمبريالية - تبعية بين الشمال والجنوب لا تؤدي إلا إلى المزيد من تدهور الجنوب، حيث يزداد الغنى غنى والفقير فقراً، ولهذا الترابط

(الاستغلال) تأثيره المباشر المتواصل على هذا التدهور.

ولا شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن الشمال سيحرك ساكناً، صحيح أنه لا يمكن استبعاد دموع التماسيح ولا إرسال أعداد من طائرات المساعدة الإنسانية إلى مناطق المجاعات والهجرات والحروب الطاحنة، غير أن من غير الواجد على الإطلاق أن يهرع الغرب (أو الشمال) إلى إنقاذ العالم الثالث كما هرع منذ عهد قريب إلى تحرير الكويت من الاحتلال العراقي، ولن تكون أعمال كحرب الخليج الأمريكية واردة بعد استنزاف ونهب خامات العالم الثالث والتي سيفقد هذا الأخير دولتها نصف وربما كل أهميته للغرب، حيث أن ثورته السكانية سوف تحطم، في غياب الضامات، كل أساس اقتصادي لتبادلته التجاري مع الغرب أو لاستضافته لرساميله، وإن يأتي الشمال في هذه الحالة إلا لاغتصاب أراض تفلو من سكانها في الجنوب.

فهل هناك مخرج من نهاية العالم الثالث بالمعنى المناقض لمعنى نابجول هاريس من خلال أزمة للشمال يستغلها الجنوب أو تكون لغائته؟

من التفاؤل الساذج، بطبيعة الحال، تصور ثورة اشتراكية وشيكة أو قريبة في أوروبا أو الغرب أو الشمال، فهذه الثورة مرتبطة بصورة حاسمة برذ اعتبار الماركسية وأغاثتها بدروس التجارب القاسية وتطوير مفاهيمها عن الحزب



الوراء في الحياة القطعية، وباختصار: فاقدا بركوده الزمن المبرر لاستمرار أى نظام اجتماعى - اقتصادى (حيث يمثل هذا الركود الزمن بالذات ذروة التناقض بين طابع القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج، تلك القوى والعلاقات التى تنفل قبل ذلك متوافقة رغم التناقضات)؟ ثم: كيف يمكن لفوضى الزلازل الغربى أن تؤثر فى مصائر العالم الثالث؟ برغض الحداثة؟ بالعودة إلى الأصالة؟ باستغلال أزمة الغرب وترأخى قبضته على إنجازاته التاريخية بما يسمح بالحصول إلى الرأسمالية بالمعنى الذى يبشر به ناهجل هاريس؟ وكيف يكون ذلك؟ وهل من المحتمل أن يحسب الزلازل الغربى ضروحه قبل أن يغرق العالم الثالث تماما فى نهائيه بمعنى انهياره ودماره؟

ويالها من أسئلة ترد على أسئلة!!!!...

خاتمة

نهاية التاريخ:

رغم أن انفصال النظرية (الماركسية) عن تطبيقها المزعوم فى بلدان النموذج السوفييتى يمكن التوصل إليه بكل سهولة من أبسط مقارنة بين مبادئ تلك النظرية وأسس تلك الممارسة أى تطبيقها المزعوم، تتطرق وسائل الإعلام الغربية وكذلك أجهزة إسلام الحكام الجدد فى بلدان النموذج السوفييتى سابقا من ادعاء أن النموذج السوفييتى ليس من الناحية الجوهريه سوى الثمرة التاريخية الطبيعية للتطبيق الدقيق والأمين والصارم إلى حد

وتشريد للشعوب، وبغريه الذى لايزال متعاسكا، ربما فى ظاهر الأمر وحسب.

فما هو مبرر افتراض زلازل غربى؟ وماعى أن تكون طبيعته أو خصائصه؟ وكيف يمكنه أن يؤثر فى مصائر الجيوب؟

هل ينبغي افتراض الزلازل الغربى لأن عالما إريخا فما ويمر داخل ذلك العالم الأول رغم بريق سطحه، ولأنه ليس هناك ما يمنع أن تتفاقم أزماته فتتفجر (لوس أنجلوس)؟ أم ينبغي افتراضه لأن انهيار الشرق الرأسمالى (بلدان النموذج السوفييتى) يمكن أن يهز العالم كله بما فيه الغرب الرأسمالى، فيما يتحرك لاستيعاب الزلازل الشرقى وتوابعه؟ هل يتدخل وعى الشعوب الغربية، مهما كان بعيدا عن الوعي العلمى أو الشيوعى، بأن النظام الغربى يقوّد النمو الممكن لحياة هذه الشعوب، مكبّلا نمو القوى المنتجة، عاجزا عن التطبيق الإنتاجى الشامل للثروات العلمية التقنية، سائبا العلوم الجحة والتطبيقية إمكانات أى تطور جذرى عن طريق فصلها من الناحية الجوهريه عن الإنتاج، تاركا فى أجواء مدن الغرب وأريافه التى لم تعد أريافا الانطباع العام المرعب بأن النظام الغربى يهدد كافة الإمكانات التى يقدمها العصر لتقدم الصيرمان الغربى ذاته. وليس قطع المتخلفين المتكسبين فى عوالم أخرى بعيدة - بحيث تغدو كل خطوة علمية تفتح آفاقا جبارة أمام الإنسانية السبب المباشر لخطوات إلى

والثروة والبناء الاشتراكى واندماجها فى حركات وثورات جماهيرية قطعية من طراز لم يسبق له مثيل فى التاريخ الحديث (ثورات أفرى لا أضف حلفاء السلسلة، ثورات جماهيرية عميقة لا ثورات ألقليات اجتماعية أو سياسية، ثورات ضرورية لا ثورات مصادفة، ثورات قاعدة لا ثورات استثناء، الخ.).

وفى الوقت الذى لا تزال مثل هذه الثورات بعيدة، وعلى الأقل غير منظورة، بدأ بالفعل منحدر تدهور الجيوب، فهذه الثورات لا تملك إذن منع أو عرقلة هذا التدهور، رغم أنه لا ينبغي استبعاد دور قد تقوم به شعوب الشمال وطبقه العاملة وحركته الشيوعية فى مجال عرقلة تدهور العالم الثالث، بافتراض وعيها بكارثته وتماطفها معه. على أنه لا ينبغي، من جهة أخرى، المبالغة فى هذا الدور الذى يستحيل أن يتجاوز فى المدى المنظور قدرات هذه الشعوب إلى حد إجبار حكومات الشمال على منع تدهور العالم الثالث أو حتى منع أن يتخذ هذا التدهور تلك الأبعاد الكارثية المتوقعة.

وهناك افتراض لا ينبغي استبعاده تماما. إنه الزلازل الغربى - أى الفوضى الشاملة الناتجة عن الأزمة الهيوية الاستراتيجية للغرب، بالذات ضمن الشمال الرأسمالى، أو هذا الأخير - بشرقه الذى يعيش الآن فوضى انهياره، بأزماته الاقتصادية الطاحنة، وحروبه الأهلية،

الجمود العقائدى للنظرية الماركسية، ويقفزة واحدة يصل الفكر الغربى البرجوازى وتوابعه فى العالم الثالث إلى فكرة مؤدبها أن انهيار النموذج السوفييتى يساوى انهيار النموذج النظرى الماركسى واللينينى لبناء الاشتراكية والشيوعية، ولا تمثل نظرية نهاية التاريخ سوى صياغة مكثفة لهذه القفزة الواحدة السريعة المتصرة.

ومطبعة الحال، لن تعنى نهاية التاريخ شيئاً إن لم تكن تعنى نهاية الصراع التاريخى بين التكوينين الاجتماعيين - الاقتصاديين الأساسيين فى التاريخ الحديث والمعاصر أى الرأسمالية والاشتراكية.

ومن الجلى أن نموذج الصراع التاريخى كما تفهمه نظرية نهاية التاريخ يتخصل فى الصراع بين الرأسمالية والنموذج السوفييتى. وقد بدأ طراول عقود أن النموذج المذكور يمثل الاشتراكية والشيوعية والماركسية. وإذا كان مابداً هو الحقيقة المطلقة، إذا كان النموذج السوفييتى يساوى التجسيد الواقعى أو الثمرة الطبيعية للتطبيق الأورثوذكسى للنموذج النظرى الماركسى لبناء الاشتراكية أو الشيوعية، فلانما من التسليم بأن نهاية التاريخ حلت بالفعل. وهذا أمر يدهى فى نظر فوكرياما الذى لاشك عنده فى هذا التطابق الجوهرى بين النظرية الماركسية والتطبيق السوفييتى.

ومن المفارقات أن الخط السوفييتى الموسكوفى، الذى يسلم بهذا التطابق الجوهرى بين النظرية الماركسية - اللينينية والتطبيق «لخلق» فى بلدان «المنظومة» الاشتراكية، جدير بأن يقود إلى الاعتقاد بأن نهاية التاريخ حلت بالفعل لكن أنصاره يتشبثون بحل السهولة المتمثل فى الحديث الخادع عن «أخطاء» وسلبات، للتطبيق بما يبرىء النظرية من مسئولية ما حدث، والتغافل التاريخى العميق بجراح آخر لتطبيق هذه النظرية، ربما كما هى دون تطوير، مع تفتادى «أخطاء» وسلبات، الماضى فى التطبيق الخلاق فى المستقبل.

على أنه لم يعد من المستحيل أن تواصل تجاهنا ماركسيات متحارضة مع الماركسية السوفيجدية ظلت تنظر إلى النموذج السوفييتى على أنه لايمثل الاشتراكية والشيوعية والماركسية. فليس من الزائد إذن أن ينظر الماركسيون الحقيقيون إلى الصراع بين الشرق والغرب، بين الرأسمالية والنموذج السوفييتى، بين الرأسمالية والاشتراكية كما تحققت فى الواقع، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، بين حلف الأطلنطى وحلف وارسو، على أنه كان صراعاً ينتهى للتاريخ بلهائته، فهذا الصراع لم يكن بين التكوينين الاجتماعيين الاقتصاديين المتصارعين تاريخياً فى العصر الحديث : الرأسمالية والاشتراكية.

ولا يعنى هذا إنكار أن صراعاً تاريخياً دار ويدور منذ قرابة قرن ونصف قرن بين «التكوينين»، لا يعنى إنكار المركة الشيوعية أو حركة الطبقة العاملة أو حركات التحرر الوطنى الشعبية، لكنه يعنى أن هذا الصراع التاريخى لم يكن يتمثل فى صراع النموذج السوفييتى وبلدانه ضد الغرب وحلفائه، بل إن كل انتصار للنموذج السوفييتى فى أى بلد (قيام النظام الستالينى فى روسيا على سبيل المثال) كان يعنى بالتحديد هزيمة الاشتراكية والشيوعية والماركسية لصالح طبقة استغلالية جديدة صاعدة ترفع مع ذلك رايات الطبقة العاملة والشرورة والاشتراكية والشيوعية والماركسية - اللينينية. وإذا كانت الثورات الاشتراكية، ومحاولات السنوات الأولى كافة لبناء الاشتراكية تجسد ذروة الصراع بين «التكوينين»، فإن تبنى النموذج السوفييتى أو تطور الأحداث بحيث تؤدى إلى قيام هذا النموذج كان يعنى الجزر والانحسار والهزيمة. والحقيقة أن الصناعات والثروات والمحاولات التى تنتمى إلى الصراع بين «التكوينين»، لم تجسد فى مجتمعات اشتراكية بل فقط فى مجتمعات انتقالية فى الفترات الأولى التالية للثورات سرعان ماكان يجرى تصفيتاها فى كل مكان، تلك التصفية التى تجسدت فى التطور النظرى والعملى للنموذج السوفييتى الستالينى فى الاتحاد السوفييتى ثم فى تطبيقه من الناحية



الجوهرية، حتى رغم المصراعات الفكرية الصاخبة في بعض الأحوال، في التجارب اللاحقة. ورغم ما ظل يبدو على السطح عقوداً طويلة، لم يتخذ الصراع بين «التكويين» صورة صراع بين معسكرين، اشتراكي ورأسمالي، بل قام في واقع الأمر بمعسكران، شرقي وغربي، يلتزمان إلى تكوين اجتماعي-اقتصادي واحد هو التكوين الرأسمالي واحتدمت بينهما تناقضات المصلحة وسره النظام، كما سبق أن رأينا.

وإذا كان الصراع بين «التكويين» لم يتخذ شكل الصراع بين بلدان رأسمالية وبلدان اشتراكية، وإذا كان هذا يعني أن هذا الصراع التاريخي فشلت فيه الاشتراكية والشيوعية والماركسية، رغم نجاحاتها ونضالاتها وثوراتها، في تأسيس مجتمع اشتراكي، فليس هناك بالمقابل ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الصراع التاريخي قد انتهى. والقول بأن هذا الصراع سوف يواصل في المستقبل كما ظل قائماً في الماضي، لا يساوي أكثر من القول بأن المجتمع الرأسمالي ينطوي بحكم طبيعته الطبقية الاستغلالية على ضرورة نضال الطبقة العاملة، ليس فقط دفاعياً في إطار المجتمع الرأسمالي ذاته بل هجومياً في سبيل انتصار الثورة الاشتراكية لبناء الاشتراكية والشيوعية. كما أن الإخفاقات والهزائم المتكررة للماركسية وللنضال الشيوعي لا تمنع أن

هذا للفشل الطويل يساوي العجز الدائم في المستقبل أيضاً عن تطوير النظرية باستيعاب الدروس؛ بما يقود إلى قيام أحزاب وحركات وثورات شيوعية من طراز جديد بما ينقل الصراع التاريخي بين «التكويين» إلى مستوى تاريخي أعلى.

فقط عدد استنتاج مثل هذا العجز المستقبلي الدائم، أو عدد أخطاء المجتمعات التي انهارت كانت اشتراكية أو شيوعية، يمكن الحديث، دون تأنيب ضمير، عن نهاية التاريخ، لكن لا المجتمعات التي انهارت كانت اشتراكية ولا من الملامك الحديث عن عجز مستديم. إن مجرد الإيمان بوجود المجتمع الرأسمالي، بخصائصه التي أصبحت مفهومة بفضل النقد الماركسي لهذا المجتمع، يساوي الإيمان بأن الصراع قائم وإن كان في بداياته، رغم التاريخ الطويل من النضالات والثورات والحركات والنجاحات والإنجازات والانحسارات والإخفاقات والهزائم والإنهيارات، ويأنه سيستمر بالضرورة، لأن من خصائص المجتمع الرأسمالي أنه ينطوي في دلخه على طبقتين أساسيتين متعارضتين متعارضاً جوهرياً، وبالتالي على تكوينين اجتماعيين - اقتصاديين متعارضين جوهرياً.

وعندما يحقق النضال ضد المجتمع الرأسمالي تفويض أي المجتمع الاشتراكي،

سيكون من الممكن الحديث عن أن الصراع التاريخي بين «التكويين» تحقق فانتصهي بذلك. ويمكن لمن يحولنه أن يتحدث عن نهاية التاريخ بوصفها التحقق الفعلي للتاريخ. كما يمكن لمن شاء أن يعتبر نهاية التاريخ بداية التاريخ الحقيقي للإنسان باعتبار أن ماضي دالماً بالتاريخ ليس في الحقيقة سوى ما قبل تاريخ الإنسان (كارل ماركس). ■

هامش

• جرى تدخل تحالف دولي بقيادة الولايات المتحدة بغطاء من الأمم المتحدة، ووصف بأنه تدخل إنساني لإنقاذ الصومال من المجاعة والمزبأ الأهلية، على أن مثل هذا التدخل مشترك فيه من أكثر من ناحية:

- 1 - غموض الأهداف الاستراتيجية الأمريكية.
- 2 - لا يمكن تصور تدخلات مماثلة في أماكن أخرى من العالم الثالث في حالة تزامن المجاعات والمزبأ الأهلية على نطاق واسع
- 3 - الشمال الإمبريالي قد يملك لتطيف هذه المجاعات في المدى القريب غير أنه لا يملك قطعاً (ولا يريد أصلاً) إيقاف هذه الشعوب على أقدامها بحيث تنقل إلى نظام اجتماعي-اقتصادي حديث ومتطور يمكنه وحده منع مثل هذه الكوارث. وقد عبرت حتى صحافتنا «القومية» عن مثل هذه الشكوك والخاف والتهافتات (ملاحظة في ١٠ ديسمبر ١٩٩٢).

الفصول والغايات

لمن يعود سولجنتسين
لقبيل طر أم للكنيسة ؟

٢٢ سولجنتسين من ستالين إلى خورتشوف، رمسيس عوض.

٢٣ سولجنتسين والحقيقة في الفن، مكارم الغمري.

يـمـنـ

لـمـنـ



لقبصار أم لكنيسة ؟

المتعاطفين معه يتهمونه بضيق الأفق ويتحفظون على كثير من آرائه الرجعية والمحافظة .

ويتناول هذا البحث الاضطهاد المروع الذي تعرض له هذا الكاتب على يد النظام الستاليني كما يوضح تشجيع خروتشوف له على المروق والانشقاق على الستالينية حتى يفصحها أمام ضمير الشعب الروسى فلا غرو إذا رأينا هذا الزعيم السوفييتى يشجع سولجنتسين على نشر واحدة من أخطر القصص التى سطرها فى حياته على الإطلاق وهى «يوم واحد فى حياة إيفان دينيسوفتش» (١٩٦٢)، وهى رواية يعتبرها دارسو الأدب السوفييتى نقطة تحول فى كل تاريخه، ودلالة على الانفراج الذى عرفه الاتحاد السوفييتى فى عهد خروتشوف. ولكن من المؤسف أن هذا الانفراج لم يدم طويلا فسرعان ما تعرض سولجنتسين من جديد لصنوف العذاب والاضطهاد فى العهود التالية لخروتشوف. وفيما يلى جانباً من قصة هذا المنشق النبلى على الشيوعية .

فى عام ١٩٧٤م فتحت صحيفة البرافدا نيران مدفعيتها الثقيلة على صدر سولجنتسين فاتهمته بالخيانة والثورة المضادة والعمالة والعمل على عودة النظام الرأسمالى إلى آخر هذه الاتهامات المموجة. وأشارت وسائل الإعلام السوفيتية أنه لم يعد شخصا مرغوبا فيه فاضطر إلى مغادرة البلاد والسفر إلى الولايات المتحدة حيث استقر بها نحو عشرين عاماً. ومنذ أشهر قليلة قرر سولجنتسين العودة إلى روسيا، وما إن هبطت الطائرة على أرض الوطن الغالى حتى انحنى يقبل تراهبه. وهكذا تحققت نبوءة هذا الأديب الكبير الذى رأى فى النظام الشيوعى كل مظاهر السوء والشر المستطير فقد رأى بعينى رأسه هذا النظام يهار وكأنه بيت من الرمال.

وجدير بالذكر أن الغرب الذى قام بتكريم سولجنتسين وعبر عن بالغ تقديره له لا يقره على نزعاته الدينية والسلفية وعلى تعصبه الشديد للكنيسة الروسية الأرثوذكسية. ومعنى ذلك أن بعض

قا

عائلة متمردة شديدة
المراس :

سولجنتسين اسم نادر لا يحظى بالشعور بين الروس يرى البعض أنه مشتق من فعل Solgat ومعناه يكذب باللغة الروسية، الأمر الذي قد يوحي بأنه كنية عن الانتماء إلى عائلة من الكتابين. ولكن باحثا لغويا من مدينة فورونيز في المنطقة نفسها التي تنحدر منها العائلة آل على نفسه أن يستقصى جذور هذا الاسم

النادر فوصل إلى أنه مشتق من Solad وهو للملح أو الشعير المخمر الذي يحمل أن بعض أفراد العائلة كانوا يقومون بصناعته في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، كما توصل إلى أن هذا الاسم يستخدم في تلك المنطقة للدلالة على شدة المراس.

ولد ألكسندر إيزايفتش سولجنتسين في ١١ ديسمبر عام ١٩١٨ إبان الحرب الأهلية بين البلاشفة والروس البيض من

أنصار النظام القديم، وسط مذابح بشرية مروعة، وفوضى منارية أطلابها ونماء تسيل على كل جانب في متجمع صغير للاستشفاء اسمه كيسلوفودسك ومعناه «الماء المر» لم يزد تعداد سكانه آنذاك على عشرين ألف نسمة. وهو متجمع يقع في جبال القوقاز ويشتهر بطقسه البديع ومياهه المعدنية. وجباله الجميلة الخالية من الأشجار التي أحبها ميخائيل لورمونتوف (١٨١٤ - ١٨٤١) فصورها بحذب في روايته النفسية «بطل زماناء».

سولجنتسين



قا

ويبدو أن التمرد الذي يجرى في دمام عائلة سولجنيسين شيء متأصل فيها تنقلته الأسرة جيلا بعد جيل، واتسم أجداده لأبيه الذين عاشوا في منطقة فورونيز بالقوقاز بنزعتهم إلى الاستقلال، وأظهر أحد أجداده الأوائل - واسمه فيليب سولجنيسين - ميلا إلى التمرد عام ١٦٩٨م في عهد عاهل روسيا القيصر بطرس الأكبر الذي نفاه إلى فورونيز بتهمة الاستيلاء على أرض

بملكها بالقرب من موسكو وزراعتها دون تصريح منه، مما أثار حفيظة هذا القيصر عليه، فشن هجوماً عائلياً على القرية التي يسكنها فيليب وعشيرته ويحرقها حتى يرغمهم على اللجوء عنها، ولكن هذا لم يخمّد جذرة التمرد في نفوس عائلة سولجنيسين، فقد تكرر الشيء نفسه بعد انقضاء نحو مائة عام على تمردهم الأول، فقامت حكومة القيصر بنفي جد آخر بسبب اشتراكه في حركة عصيان أخزى.

ويذكر لنا مؤلفنا في كتاباته كيف ثار هذا الجدل على بعض أصحاب الأراضي أو المسؤولين في فورونيز مما أدى هذه المرة في المنطقة الشمالية الشرقية من القوقاز حيث حصل هذا الدائر وأسرت على كل ما يبخن من مزارع ومراع، ولكن أصل الأسرة غير القوقازي جعل القوقازيين وهم فريسان مقاتلون أشداء من أتباع القيصر ينظرون إليه وإلى عشيرته كغزراء ويماملونهم بشيء من الزراية

من ستالين إلى خروتشوف

رمسيس عوض

والاستعلاء أنهم مجرد فلاحين حتى ولو كانوا ميسوري الحال.

كان جد أيبينا الكبير لأبيه فلاحا اسمه سيميون يفتح الأرض التي يمتلكها بمعاونة ولديه الأكبر سنا الذين لوجهما من زوجته الأولى وهما كونستانتين وفساسولى. أما شقيقتهما الثالث ويدعى إيزاكى (والد أديب روسيا العظيم) فقد أعرض عن الفلاحة والزراعة. وأيضاً ألجب سيميون من زوجته الأولى ابنتين اسمهما القديس وأنتاسيا. ومن زوجته الثانية ألجب ذلك الرجل ولدا يدعى إليا وبناتا تدعى ماريا. وكان فارق السن بين أولاده كبيرا فعلى سبيل المثال كان عمر كونستانتين أكبر آبائهن من زوجته الأولى يريو على العشرين عند ولادة إيزاكى (أى إسحق) أصغر آبائهن منها. وبسبب اسمه للشبيه بأسماء اليهود قابل إيزاكى فى حياته شيئا من الملث فقد ظن البعض خطأ أنه يهودى. فى حين يبدو أن السبب فى هذه التسمية اليهودية يرجع بكل بساطة إلى ولادة الطفل فى اليوم نفسه الذى تكرسه الكنيسة الروسية الأرثوذكسية لذكرى إسحق بن إبراهيم.

وبخلاف كل أخوته استطاع إيزاكى أن يخال قسماً مورفورا من التحطيم، ففى حين اقتصر تعليمهم على مدرسة الأبرشية كما اقتصر علمهم على مساعدة والدهم فى فلاحه الأرض نجد أن إيزاكى يلتحق بالمدرسة الثانوية لواصل تعليمه فى معهد بياتيجورسك. وأعترض والده على ذلك لأنه لم يرد داعيا لأن يميز ابنه إيزاكى عن سائر أخوته. ورفض الأب رفضا باتا. لمدة عام كامل. أن يفتق درهماً واحداً على تعليمه، ولكنه اضطر فى نهاية الأمر أن يرضخ ويستسلم أمام عناده وإصراره. وفى عام ١٩١١م عاد الأب إلى الاعتراض مرة أخرى على رغبته وهو فى العشرين من عمره فى الالتحاق بجامعة خاركوف. غير أن

اعتراضه ذهب أدراج الرياح. ولكن إيزاكى لم يستمر فى الدراسة بهذه الجامعة الإقمية عندما أدرك ضعف مستواه العلمى. وفى عام ١٩١٢ استطاع إيزاكى أن يفرض إرادته ويسحق كل اعتراض يخبره وألده فالتحق بالكلية الفيلولوجية بجامعة موسكو حيث راقته له دراسة أدب ليرتولستوى وتمكن بفضل جده واجتهاده أن يصيب قدر كبيراً من العلم والثقافة ألحده عن جذوره الريفيه وقرنه من طبقة المثقفين من أهل المدن. غير أن هذا لم يجعله ينسى أصوله الريفيه بحال من الأحوال. وفى كتابه أغسطس ١٩١٤. الذى يتضمن جانباً من سيرة حياته. وذكر ألكسندر سولجنستين أن والده كان يعود إلى القرية فى فترات إجازاته للدراسة للعمل فى فلاحه الأرض مع بقية أفراد العائلة. ولكن مواصلة التحطيم انتهت به إلى الابتعاد شيئا لسيما عن أصوله الريفيه، مما حدا بأهل قريته إلى معادته وتذكيره بأنه لم يعد واحداً منهم، فهو يرتدى ملابس سكان المدينة كما أنه يذهب مذهب المثقفين الشعبين Populists الذين يطعنون من شأن عامة الناس ويبرزون ما لهم من فضل على الطبقة المثقفة. برغم أن أفكار الشعبين ومبادئ الأديب المعروف ليرتولستوى كانت آنذاك تعجز موضة قديمة فقد تركت فى نفس إيزاكى وأبيه ألكسندر من بعده أعماق الأثر.

يتيم منذ ولادته :

حين اندلعت الحرب بين روسيا وألمانيا فى أول أغسطس ١٩١٤ لم يكن هناك ما يضطر والد ألكسندر سولجنستين إلى الاشتراك فيها فقد كان حينذاك معفى من التجنيد بوصفه طالباً. ومما يزيد الأمر غرابة أن دعوة تولستوى إلى السلام والتآخى بين البشر التى أعجب بها إيزاكى لم تحل دون انخراطه فى هذه الحرب. ويروى لنا الأديب الكبير فى

كتابه أغسطس ١٩١٤، شيئا عن انخراط والده فيها. غير أن الأوراق الرسمية والسجلات المتعلقة بهذه الحرب لا تذكر لنا طبيعة الدور الذى لعبه إيزاكى فيها. قلل ما نعرفه فى هذا الشأن أن الحرب انتهت بمنحه ثلاث ميداليات نضام سفريه الأنداز فيما بعد أن تطلب زوجته بعد وفاته إلى ولدها الطفل ألكسندر أن يساعد على دفنها وإخفائها عن العيون حتى لا يظن أنصار النظام الشيوعى الجديد أن إيزاكى كان يتمتع بأى وضع مميز فى النظام القيسرى القديم.

فيمعطن فى اعتطاهما وإنزال المزيد من الخسف بها. أظهر إيزاكى تعاطفاً واضحاً نحو الجنود الذين كانوا تحت إمرته واستطاع أن يجعلهم يحبونه ويخافونه نائباً عنهم فى المجلس القومى الروسى الذى أنشئ حديثاً فى بتروجراد. ولكن شعبيته مع الجنود لم تق زوجته سوء معاملة النظام الجديد لها وأرتياقه فيها، لا لشيء سوى أنها تنكس إلى عائلة كانت قبل الثورة البشغيفه عريضة الغراء تملك المزارع والضياح ويعمل على خدمتها عشرون خادما وخادمة: عشرة منهم يقومون بخدمة الأسرة داخل الفيلا الفخمة التى تقيم فيها والعشرة الآخرون يتولون خدمتها من الخارج. فضلاً عن عشرات المرطفين والمحاسبين والكتبة والعمال والميكانيكيين الخ الذين يديرون شؤون المزارع. والضياح. وليس أدل على ثراء تلك العائلة من أنها كانت تملك سيارة روزل روسى هى واحدة من تسع سيارات فقط من هذا الطراز موجود فى جميع أرجاء روسيا قاطبة. ولم يرت زأخار شرباك رب العائلة كل هذا الجاه المعرض عن ذويه بل صنعوه وهو الفلاح الأوكرانى الفقير بجهد وعرقه.

تعرف إيزاكى فى موسكو على شريكة حياته تاسيا زأخاروفنا فى أثناء إجازة قصيرة أخذها من الجيش لوقتها

هناك حيث كانت تدرس العلوم الزراعية في أكاديمية جولسمين. قابلها إيزاكي في احتفالات الطلبة فوقع في غرامها من أول نظرة. وتم زواجه منها أثناء تجنيده في أغسطس ١٩١٧. ولكن سرعان ما ترك زوجته ليعود إلى جبهة القتال كي يزد عن شرف الوطن. هذا الشعور الوطني المتكبد أصبح جزءا من تراث العائلة، الأمر الذي ترك أعقق الأثر في تكوين أبنينا الكبير حتى بعد مرور عشرين سنة ولكن دون أدنى أية مقدمات ترك إيزاكي للخدمة العسكرية فجأة ليلاحق بزوجته التي كانت قد غادرت موسكو لتعيش مع أسرتهما في منتجع كوسلوفسك بمنطقة القوقاز حيث عاشت تاييسا مع أخيها الأكبر رومان المنزوح من قريبته إيرفا في بحيرة ويسار. وفي هذا المنتجع تعرف إيزاكي على حبيب زاهر وحامته إيدوركا الذين لم يكن قد رأها من قبل والذين اضطرتهمسا ظريف الليرة والمرب الأهلية إلى البقاء في ذلك المنتجع والاحتماء فيه. وأيضا عاشت في كوسلوفسك ماريأ أخت تاييسا الكبرى المتزوجة من رجل ثري من أصحاب المزارع والصناعة اسمه أيفانسي كابوشين الذي استضاف زاهر وزوجته ليحيا معه تحت سقف بيته.

ويبدو أن حياة الادة في ذلك المنتجع لم ترق في عيني إيزاكي الذي اعتاد - شأن كل عائلة سولجنستين - حياة البساطة والخشونة. كما يبدو أيضا أن خلافاته مع ترحبها عائلة زوجته السياسية بدأت تظهر. فقد كانت عائلة تاييسا زوجته تترك النظام الشيوعي الجديد الذي صادر يمتلكها في حين يبدو أن إيزاكي أظهر تماطلا معه. وفيهأة قرر إيزاكي أن يترك المنتجع الصغير وأن يأخذ زوجته الحامل ليعود بها إلى مزرعة والده البسيطة في سابايا. ولم يمض على وصوله إلى سابايا غير بضعة أسابيع حتى أصيب في حادث أودى بحياته على نحو مأساوي عنيف

في ١٥ يونيو ١٩١٨ قبل أن يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما بأربعة أيام وقبل ولادة ابنه بسنة أشهر. ولا شك أنه من المتفق أن نعلم أن عشرة إيزاكي لزواجه لم تستمر أكثر من ثلاثة أشهر. وهكذا ولد ألكسندر بيم الأب، الأمر الذي حز في نفسه وترك فيها أبلغ الأثر.

ولا تزال تفاصيل الحادث غامضة. ففي الثامن من يونيو ١٩١٨ خرج إيزاكي للتصيد مع صديق له. ويبدو أنه إيزاكي في لحظة إهمال ترك بندقيته إلى جانب للحرية التي يجربها للصمان (الكارثة) والتي كانت تله. وفيهأة تحرك الحصان في هياج شديد إذ يبدو أن ذبابة لدغته. فانطلقت رصاصة طائشة من البندقية لتشيب إيزاكي في الصدر والبطن. وبسرعة تم نقله إلى أقرب مستشفى حيث أجريت له عملية جراحية باءت بالفشل. وتولت جرحه مما أفضى إلى وفاته في غضون أسبوع واحد من دخوله المستشفى. وهكذا تزلت تاييسا الزوجة الشابة في ريمان الشباب، ومات والد ألكسندر في فترة عصيبة من أخرج الفسترات في التاريخ الروسي على الإطلاق، وهي فترة الصراع الدموي بين أنصار الثورة البلشفية وأعدائها. ومن حسن حظ تاييسا أنها استطاعت عقب الحادث أن تصدق أخاها رومان في مدينة كوسلوفسك على عجل فجاءها تصحبه زوجته إيرفا (وهي في الرقة نفسة قريبة حميمة لها) ليقتا بجوارها في محنتها. وكانت إيرفا نعم الصون والصديق فقد كرس حياتها لتربية الطفل اليتيم الأب ألكسندر سولجنستين. الأمر الذي ترك في هذا الأديب الروسي الكبير. كما أسلفنا - أثرا لا يمحى على مر الأيام.

عائلة ثرية ولكنها متدنية:

بسبب ثراء أسرتهما الغاير عاشت تاييسا عيشة كلها معاناة وضيق وكرب

فأصبحت وذوها لا يغادرون المنزل خوفا من هجوم الثوار عليهم. ولا يكون عن الصلاة ورس الصليب حتى يقبهم الله شرما في الغيب. ولكن هذا لم يحد دون وقوع الهلاء. فذات ليلة هاجمت عصابة من المسلحين البيت لتقتل القريض على رومان وتأخذ رهينة. وهو أمر يتطوى على المغارقة لأن رومان بالذات دون بقية أفراد عائلته كان أكثرهم تعبرا ولجبرالية وعطفا على النظام الجديد. فضلا عن شدة إعجابه بأفكار كل من ليونستري وماكسيم جوريكي وشدة مقته للنظام القيصري القديم. وزج به المهاجمون في زنزانه. ولولا إقدام زوجته إيرفا وجسارتها وتقديهما الرشوة لبعض رجال الحكم الجديد لم بالغل تنفيذ حكم الإعدام فيه. وعندما استولى البلاشفة على مدينة كوسلوفسك لم يتكفرو بمصادرة أملاك عائلة تاييسا بل تصمدوا إذلالها. وأسقط في يد الأملة الشابة قلم تصرف أين تذهب. ففهي ترى النظام الجديد بكل معانيتها من ناحية كما أنها من ناحية أخرى لا تستطيع - وهي في آخر أيام حملها - أن تلجؤ إلى عائلة زوجها التي تحيا حياة خشة لا عهد لها بها. ولم يكن موقف عائلة سولجنستين من الثورة البلشفية يمثل ما كان عليه موقف عائلة تاييسا من الرضوخ. فلا هي بشراء عائلة تاييسا بحيث تعمل الفت والمودة للنظام الجديد. ولا هي بالعمدة بحيث تقف مع الثورة البلشفية وتحمص لها. بل إنها كانت في واقع الأمر مرتاحة أو مستورة الحال. وأغلب الظن أن موقفها من النظام الجديد كان يتأرجح بين الرضخ والتقبول. وخاصة لأن التفرقات بين الموالين للنظام القديم كانوا كما أسلفنا يعاملونها بعجرفة واستعلاء. والجدير بالذكر أن انتشار الأوبئة عقب اندلاع الثورة البلشفية كان سببا في وفاة عدد كبير من عائلة ألكسندر سولجنستين مثل

جده لأبيه سيميون وزوجته الثانية مارفا ومثل عمه قاسيلي وصعته أنستاسيا.

كانت عائلة نايوسا متمسكة بالدين إلى أبعد الحدود فقد اشتهر أبوها زاخار وأمه إيفغينيا بشدة التقوى والورع والإيمان المطلق بقداليد الكنيسة الأرثوذكسية. كما كانت إيرينا شديدة الإيمان بالدين منذ نعومة أظفارها. غير أن موقف نايوسا والدة أدينا من الدين كان مختلفا. ففي موسكو حيث نلت نايوسا تعليمها اتجه المثقفون الروس إلى نبذ الدين والزراعة برجال الكنيسة. وساربت والدة سولجنستين هذه الموضة الفكرية المناهضة للدين في صدر شبابها. غير أن الأحوال التي شاهدها في أثناء الحرب الأهلية وتكول النظام الجديد بها سرعان ما جعلها تبتعد إلى حظيرة الدين. ففي ملتجم كيوسلوفسك وجدت نفسها وقد حاصرتها القوات البلشفية من كل جانب. وفي عام ١٩٢٠ تعرضت عائلتها للهلاك جوعا، الأمر الذي اضطرها إلى بيع أثاث بيتها حتى تشتري به مأكلا. وفي شتاء ١٩٢١ نددت نفوذ نايوسا تماما فاستطاعت بعد لأي أن تجد وظيفة سكرتيرة بعد أن تعلمت الاختزال والآلة الكاتبة في ظروف أشد ما تكون صعبة وقسوة.

ولعل الطفل ألكسندر كان الوحيد الذي لا يدرى طبيعة الأحوال المحيطة به. ومن ثم نراه لا يزال يتذكر إلى يومنا الزمان تلك الأيقونة المعلقة في ركن حجرته التي أدخلت في نفسه السمكة والطماطونية والبهودو وهي تطل عليه بوجهها القدسي المشرق. وعندما يبدأ العاص على مغالبته كان الطفل يشعر بالأيقونة المتحلبة وكأنها ملاك حارس يحلق فوق سريره ويحميه من كل الشرور. ولم يكن هذا الطفل بطبيعة الحال يدرى ما تتعرض له أمه من خسوف واضطهاد دون أي سبب واضح غير ثراء أهلها ونزوها مما دفعها

إلى مفادرة ملتجم كيوسلوفسك والاستقرار في مدينة كبيرة أوسع وأرحب هي مدينة روستوف. على الدين حتى تكفه في زحاما. كانت روستوف - على - الدين آنذاك مدينة صناعية مشهورة بإنتاج التبغ وصناعة الورق ولجلود ويبلغ تعداد سكانها ربع مليون نسمة. كما كانت مرفأ ومركزا ثقافيا وتعليميا فقد اشتملت جامعة روستوف في ذلك الوقت على أقسام الطبعة والثروة والعلوم الاجتماعية والفيزياء والرياضيات. وشهدت هذه المدينة إبان الحرب الأهلية قتالا دليما وأحداثا عنيفة بين الروس الحمر والروس البيض يضنها الأديبان الكبيران إسحق بابل في كتابه «الفرسان الحمر» وميخائيل شولوخوف في روايته «الدين الهادئ». وفي عام ١٩٢٠ تمكنت فرقة الفرسان الحمر بقيادة سيميون بوندي أن تستولي على هذه المدينة وتندرجها من قبضة الجيش الأبيض. ومن المؤسف أن والدة أدينا لم تنجح في أن تتوارى عن الأنظار لتجنب الخسوف والاضطهاد فقد ظل تحت السلطة الحاكمة الجديدة يلاحقها حتى في ذلك المرفأ الكبير، فرفضت إعطائها مسكنا رخيصا من مساكن الدولة، الأمر الذي اضطرها إلى استئجار منزل شديد التواضع من القطاع الخاص بأعلى الأسعار عاشت فيه نحو اثني عشر عاما في الفترة من ١٩٢٤ حتى ١٩٣٦. ولأن عملها كسكرتيرة في هذه المدينة لم يكن يدر عليها ما يكفيها من دخل فقد اضطرت إلى إنفاك بدنها في مراسلة العمل خارج البيت ودخلها حتى تتمكن من الوفاء بالحد الأدنى من مستحقات الحياة. ويجدر بنا في هذا المقام أن نؤكد أهمية مدينة روستوف التجارية في الفترة السابقة على الثورة البلشفية فقد كانت ميناء لتصدير الفائض من المنتجات الزراعية في روسيا الجنوبية واستيراد البضائع وجذب الاستثمارات من بلاد

أوروبا الغربية الغنية. ولكنها استطاعت عقب انتهاء الحرب الأهلية بين الروس الحمر والروس البيض أن تحتفظ بشيء من سائف نشاطها وأن تعود إلى حالتها الطبيعية. فلا غرو أن تعلق بها قلب الطفل ألكسندر وأحب فيها جوما الليبرالي المفتح الذي اختلطت فيه جسيات محددة قوقازية ويهودية ويونانية وأرمينية. وتميزت روستوف عن غيرها من المدن الروسية بتفانياتها واستقلالها وتنافسها التجاري وجنح أهلها إلى اغتنام مباحج الحياة. ولهذه الأسباب جميعا قامت هذه المدينة بشدة استيلاء البلاشفة عليها لدرجة أن الروس أطلقوا عليها اسم - مدينة الحرس الأبيض.

ونذكر لنا ألكسندر سولجنستين أنه في طفولته لم يجد له أبأ في العائلة فاستبدل به جده لأنه زاخار الذي يرى أنه ورث عنه ذلك الفيض الهائل من الطاقة. فضلا عن أنه تأثر لاهجته الأوكرانية التي لازمت أدينا حتى يومنا الزمان. وتعلق ألكسندر أيضا بجده لأنه التي وصفها بأنها امرأة لها قلب مفعم بالطيبة والحنان النادرين. أما إيرينا خالته فقد أرصعته عشقه الباكر للكنيسة الروسية الأرثوذكسية ويبتل له معنى وجمال طقوسها وتقاليده هذه الكنيسة العريقة التي استمرت موصولة عبر الزمن كما يبتل له أهمية الدور الذي لعبته في صياغة التاريخ الروسي كله؛ وهو تاريخ لا يمكن بحال من الأحوال فصله عن تاريخ روسيا القروية. غير أن الطفل وجد نفسه نهبا مقسما يقف حائرا بين أمه التي تزور عن الصامى وتسمى جامدة لدفعه وحرس زوجة خاله إيرين البالغ على إحباله وتأكيد روعته. فقد كانت نايوسا أيام الدراسة في موسكو متحررة في أفكارها الدينية ولكن الأحوال التي مرت بها في فترة للحرب الأهلية ردتها إلى حظيرة الإيمان.

سولجنستين بين الثقافتين الغربية والروسية:

والذى لا شك فيه أن مصراع والده قبل ولادته ساعده على التمتع بالحر والاعتماد على النفس واكتساب شخصية مستقلة وبمجرد أن أصبح الطفل واقعاً بدأ يحين أمه المنهكة فى قضاء حاجاتها والوقوف فى طوابير طويلة من أجل الحصول على الفيز، وبعض السلع الأخرى. ويرجع قسده على كافة أنواع السلطة ومقتها سواء كانت سلطة الأباء أو المعلمين أو السجانيين أو اتحاد الكتاب إلى استقلال شخصيته، ولعل السلطة الوحيدة التى رضى لها هى سلطة الله سبحانه وتعالى.

لقد كان بإمكان أمه الشابة أن تتزوج مرة ثانية وأحدا من الرجال الكثرين الذين جاءوا يخطبون ودها، ولكنها رفضتهم جميعا بزم أن مثل هذا الزواج سوف يكون عائقا أمام تربية ابنها ألكسندر تربية سليمة. قال سولجنستين فى سنى نضجه إن أمه أخطأت عندما رفضت الزواج مرة أخرى وإنها بالغت فى مخاوفها من مثل هذا الزواج دون مبرر، فالأمر عنده أن الطفل لا يضطره أن يعامله زوج أمه بشيء من العصب والجزم. وبالرغم من أن الأم طلبت من طفلها أن يساعدها فى إخفاء المذنبات الثلاث التى حصل عليها أبوه إبان الحرب الروسية الألمانية حتى لا تتعب الثورة البلشفية إلى أسوأها العائلية الاجتماعية المتميزة، فإنها لم تفل من أن تكرر على مسامع وحدها قصصا عن شجاعة والده وطولته، الأمر الذى سوف يجعل الابن يقتدى بابيه ويحذر حذره فى الحرب العالمية الثانية.

لم يكن ألكسندر فى بفاعته منطويا على نفسه عازفا عن الناس فقد شارك أقرانه اللعب والمرح. ولكنه بمجرد انتهائه

من اللعب كان يعيش فى عزلة كاملة يصرف فيها انصرافا تاما إلى القراءة والإطلاع يساعده على هذا أن خالته إيرينا تلك مكتبة كبيرة طالع فيها أعمال بوشكين وجوجل وتولستوى ودوستويفسكى وتورجنيف إلى جانب معظم الكلاسيكيات الروسية. وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد. يقول سولجنستين إنه قرأ الحرب والسلام وهو فى العاشرة من عمره. وأصبح تولستوى فى نظره للمثل الأعلى بين الكتاب الروس. وفى تلك الفترة من حياته قدمت إليه إيرينا نسخة من مجموعة «الأمثال الروسية» التى وضعها فلاديمير داهل والتى حازت إعجابه الشديد. وعبر أدبنا عن إعجابه الشديد أيضا بطائفة كبيرة من كتاب الغرب على رأسهم شكسبير وشيكل وديكنز إلى جانب جاك لندن الذى ذاع صيته بين الروس قبل الثورة البلشفية وبعدها. فلا غرو أن أحب سولجنستين إيرينا زوجة خاله أكثر مما أحب خاله نفسه فقد أرشعته الحب والامان، ولأنها لم تجبب اتخذته ابنا لها وشجعته على الاطلاع ورويت له غرائب القصص والحكايات وأزكت خياله وأضطت وطنيته وحبته فى الماضى الذى أجهزت عليه الثورة الشيوعية. وهكذا احتزن الصبى فى مخيلته صورة مهيبة ناصعة للماضى ظلت غائرة فى أعماقه نحو نصف قرن من الزمان لتظهر بعده فى أعماله الأدبية العظيمة.

تفوق دراسى مبهك:

سكين من يد غريمه فجرح نفسه وسال دمه وسقط مغشيا عليه فارتطمت جبهته بشدة على الأرض، مما تركه جرحا غائرا فيها مازلت آثاره باقية إلى يومنا الراهن. والغريب أنه كثيرا ما سقط مغشيا عليه لأتفه الأسباب. فعندما لاحق بالجيش كان لابد من تطعيمه. غور أنه غاب عن الرعى بمجرد إدخال القلاح فى

جمعه. ولم تحل أيام تلمذته من الشقاوة التى كادت تعرضه للطرده من المدرسة لولا إلهاف زملائه فى رجاها المدرس أن يفر عنه. فقد أخفى فى أحد الأيام سجل الفصل وراء دراب حتى لا تكشف المدرسة النقص السريه العديدة للموضوعة أمام اسمه بسبب كثرة هروبه.

والجدير بالذكر أنه بالرغم من كل ما حققه ألكسندر سولجنستين من ثراء فى حياته اللاحقة فإن الصعاب والجوع كان الثم الوحيد فى طفولته الذى لا يزال حيا فى ذاكرته. فعندما سأله صحفى فرنسى عن ذكرياته فى أيام الطفولة رد بقوله: «لا شيء غير الصعاب. فأنا فى حياتي لم أعرف حتى من الأربعين أى شيء سوى الإملاق الممتزج بالكرامة وعزة النفس... منذ نهاية عام ١٩١٨ هو عام مولدى حتى عام ١٩٢١. ولم يكن الشخص الوحيد الذى عانى من الجوع بطبيعة الحال. فقد أدت سياسة ستالين للفاسدة بالصنوع وإنشاء المزارع الجماعية إلى انتشار المجاعة فى أرجاء البلاد، فضلا عن النقص الشديد فى الملابس الذى جعل المواطن الروس يقف فى طوابير لا تنتهى وينتظر أحيانا سعة أشهر حتى يتمكن من الحصول على حذاء يلپسه. وبفمه إحساسه بالحر الأليم باليتم والفجل الشديد من جلوده اللطيفة الميسورة الحال إلى الطمرح الهامج والرغبة البامرة فى التفوق على أقرانه، كان فى طفولته يحلم بأن يصبح جنرالا أو قسا أوكائبا. وأظهر اهتماما وتوقا متساويا بالفنون والطوب معا. ولا سبيل إلى إنكار الدور المهم الذى لعبته والدته فى تعليمه. فقد كانت ترشده وتشرح له دروسه وتراقب إجابات تقدمه للدراسى، مما حفزه على التفوق فى جميع المواد باستثناء الرسم الذى كان ضعيفا فيه. ولكن هذا لم يمنعه من شحذ طاقاته واستخدام إرادته حتى استطاع فى النهاية ان يتغلب على هذا الضعف.

وفي المدرسة توفقت عرى الصداقة بينه وبين ثلاثة من أقرانه التلاميذ المتفوقين هم نيكولا فيرنغش وكيريل سيمونيان وليديا إزهرتس الذين لعبوا فيما بعد دورا بارزا في حياته. كان كيريل سيمونيان وهو من أصل أرمني يتمتع بالموهبة الموسيقية وينزع إلى التصوف ويسعى إلى الاتصال بالعالم الآخر، الأمر الذي كان سببا في اندماجه صديقه ألكسندر وأنهباره. وكذلك نشأ نيكولا وبنيما مثله فقد مات أبوه الموظف في الحكومة القيصريّة أثناء الحرب الأهلية. وكان ارتباط ألكسندر بـنيكولا أقوى من ارتباطه بصديقيه الآخرين. ويعكس شخصية كيريل العاطفية غير المستقرة اتسمت شخصية نيكولا بالتصميم والواقعية والاستقلال ويقدر من الانطوائية. أما الصديقة الثالثة فهي فتاة يهودية تتصف بالذكاء والحماسية والهدوء ومن طبعها أن شد يد العون إلى كل من يحتاج إليها.

كان حب الأدب يجمع بين هؤلاء الأصدقاء جميعا، فضلا عن أنه ربطهم بإنستاسيا جرونو مدرسة الأدب بالمدرسة. يقول كيريل في هذا الشأن - وهو قول يؤكد لنا سولجنتسين نفسه: «كنا نكتب المقالات عن شكسبير وبيرون وبوشكين ونرجع إلى كم هائل من الكتب والمراجع غير المقررة يحاول كل واحد منا أن يتفوق على الآخرين. وبالتدريج أصبح من الواضح أن المتفوقين منا في هذا الصغار هم ليديا إزهرتس وأنا. كنا في بادئ الأمر نكتب شعرا رديئا للغاية نلقد فيه تماما من سبقونا في عالم القريض ولم نتوقف عن كتابته إلا حين اقترحت علينا إنستاسيا سورجينا أن نحاول أن نشترك معا في تأليف رواية. وفي الوقت نفسه أخذنا تصور مجلة نهائية نشرنا فيها قصائد تضمن عبارات موزجة بلغة ساخرة من أنفسنا، وحتى من المدرسين

الذين علقوا عليها بقرلهم إنها قصائد تخلق من البديهة الحاضرة أو إنها تطوى على بديهة حاضرة ولكن الكياسة تنقصها الخ... وعندما وصلنا إلى الفصلين التاسع والعاشر أضفنا إلى هذا ولها بالمرشح. فقمنا بتنظيم ناد للدراما وعمل بروفات مسرحيات من تأليف أوستروفسكى وتشيكوف وروستاند. ويجدر بالذكر في هذا المصد أنه في نهاية الثلاثينيات أمرت السلطات السوفييتية المخرج المسرحي المعروف يورى زافانسكى بمغادرة موسكو والإقامة في ريستوف. على النون فانشأ هناك مدرسة مسرحية للهراف للتحق بها مؤلفنا في وقت فراغه. وشهد له زافانسكى أنه كوميدى موهوب غير أن لشغاله بدراسة العلوم صرفه عن هواياته المسرحية. كان سولجنتسين يعانى من التهاب مزمن في الحنجرة ولكن هذا لم يقل أبدا من اهتمامه بالمرشح. وكذلك ظهر شغفه بالمرشح في كثرة إشاراته له في كتاباته. فضلا عن أنه ألف بعض المسرحيات مثل: فتاة الهوى والهرىء، التي قبل مسرح سوف بمفول في موسكو تشيخاها في نهاية عام ١٩٢٧ غير أن السلطات حظرت فيما بعد تمثيلها.

وظل سولجنتسين يحتفظ لمدرسته إنستاسيا بالرد ويدين لها بالفصل في أنها غرست فيه حب الأدب حتى بعد أن ذاع صيته. ولم يكن حب كيريل للأدب يقل عن حب سولجنتسين له. بل إن سولجنتسين شعر بأن صديقه كيريل لا بد وأن يصبح يوما ما كاتباً مرموقاً. حتى إنستاسيا نفسها توسعت فيه موهبة أدبية تفوق موهبة سولجنتسين. ولكن الأيا فت في عصر كيريل فتوقف عن الكفاح والاستمرار في طريق الكتابة الشاق. واكتفى بمهنة الطب التي درسها. وانصرفت ليديا إلى دراسة الأدب بطريقة أكاديمية فتخصصت في الأدب الألماني وسطرت بعض الكتابات النقدية

الأكاديمية. أما نيكولا فيوتيكش فاهتم بالسياسة والفلسفة أكثر من اهتمامه بالأدب. وقبل أن نتناول بدايات سولجنتسين الأدبية والعقائدية، يجدر بنا أن نتناول بعض التجارب في صباه التي وضعه وجهها لوجه أمام جهاز أخبارات السوفييتية التي لم يبتئ آنذاك إلى بشاعة ممارساته ووحشيتها.

وجهها لوجه أمام بشاعة المخابرات:

في أوائل الثلاثينيات بدأت الوشائج التي تربط الصبي ألكسندر بخالته إيرينا وزوجها رومان تضعف بشكل واضح بسبب سوء حالتها المالية وتدهورها. واضطرارهما إلى الانتقال من منزلهما المريح في بيسك إلى شقة متواضعة، فضلا عن اضطرار رومان إلى العمل كسائق، لم يكن من الممكن وال حال هكذا أن ينزل الصبي في إجازاته ضيفا عليهما. ولهذا صاحبه أمه لزيارة أختها ماريا التي عاش زاحار أبوها وأساها في بيتها. وكانت تحضر زاحار (جد الصبي لأمه) سورة من الفصيح العامر بسبب مصادرته للثورة البلشفية لأملاكه. وكان على يقين لا يتزعزع رغم مرور اثني عشر عاما على هذه الثورة من أنها سوف تنتهى إلى زوال وأن روسيا سوف تعود إلى حالتها الطبيعية. ورأى الصبي مقدار ما يعانى منه جده من ضيق وكرب فسعى إلى التخفيف عنه دون أن يتعاطف مع أفكاره فقد بدأ يتأثر عن طريق المدرسة بالأيدولوجية الشيوعية التي تدفع الملكية الخاصة وتعتبرها أصل الشرور. وبسبب ما تعرض له الجده من ضيق نفسى رهيب نتيجة ضياع ماله وممتلكاته الشاسعة نراه يهذى فيقول إنه أصبح شديد القلق على مصير هذه الضياع والممتلكات وأن ابنه رومان لا يصلح لإدارتها. ومن ثم فإنه يلوى تسليما إلى حفيده ألكسندر سولجنتسين.

وأراد الصبي أن يهون على جده ما هو فيه من كرب فقال له: «لا تقلق بشأن هذا يا جدى. وأنا لا أريد ضيعتك على أية حال. ولو أنها جاءتني لرفضتها من حيث المبدأ».

وذاث يوم خرج الجد الطاعن فى السن لىوصل خلسة إلى الكنيسة وجاء نفر من رجال المخابرات إلى باب البيت وأخذوا يدفعون عليه بأفهم ويركلونه بأرجلهم من أجل الاستمرار فى استجواب زاخار عن الذهب الذى يتاجر فيه ويخفيه عن السلطات. وعندما لم يجدوه فى المنزل توجهوا إلى ابنته تاسيا ويدروها بالسجن إذا وجدوا فى حوزتها أى ذهب. وقاموا بتفتيشها دون أن يعلوا على أى شيء بطبيعة الحال، وأجبروها على التوقيع على بيان مفاده أنها لا تملك فى حوزتها أى ذهب بعد أن سلمتهم خاتم الزوجية وطلبوا منها أن تعثر لهم أيضا خاتم الزواج الخاص بزوجها المتوفى فاحضرتهم لهم. وحين عاد الجد إلى البيت وجد رجال المخابرات ينتظرونه فأخذوا يستجوبونه بذور عن الذهب الذى يخفيه فلم يعثرهم أدنى التفتيش بل انقضت من الحجر ركلًا قصبا وركع أمام أبقرته وأخذ يصلى، فأوقفوه على قدميه وبدؤوا فى تفتيشه فلما لم يجدوا معه أى ذهب خرجوا وهم يلعنونه ويوعدون به بالويل والدبور وعظام الأسود. وكذلك لم تسلم عائلة سولجنستين لأبيه من الأذى رغم أسوأها الاجتماعية المعاصية المتواضعة. ولم يمض وقت طويل حتى قامت السلطات بنفى عميه كونستانتين وإليا للعمل فى معسكرات العمل فى سيبيريا بتهمة انتمائهما إلى طبقة المزارعين الروس المعادين للثورة المعروفين باسم الكولاك.

وفى فبراير ١٩٣٦ توفت زوجة زاخار (جدة الكسندر لأمه) فأقامت ابنتها تاسيا قداسا تذكاريا على روحها فى كاتدرائية

روسستوف دون أن تأبه بمراقبة رجال المخابرات المترددين على الكنائس ودور العبادة. ولحسن حظ تاسيا أن أحدا لم يبلغ عنها. ولكن أحد التلاميذ الحاضرين من أقران الكسندر أبغى عنه فاستدعاه ناظر المدرسة ووجه إليه اللوم بسبب اشتراكه فى شعارات لاتنتق مع كونه عضوا فى تنظيم «الرواد الشباب». وفى العام التالى ١٩٣٧ مات زاخار نفسه فى ظروف غامضة. ويبدو أن ضمة وفاة زوجته وملاحقة رجال المخابرات له أدت إلى إصابته بالخل فى أخريات حياته. فقد علق كالتشاذين صليبا خشبيا كبيرا حول رقبتة وتوجه إلى العاملين بإدارة المخابرات فى بلدة أزمافير ليقول لهم: «إنكم سرقتم كل مالى وممتلكاتى. ولهذا تستطيعون الآن وضعى والاحتفاظ بى فى السجن».

وفى مارس ١٩٣٧ خاض الكسندر سولجنستين بنفسه أول تجربة مباشرة مع وحشية رجال المخابرات، لم يكتبه فى يفاعته إلى بشاعة مدلولها بسبب قلة خبرته من ناحية وتافله آنذاك بمستقبل المجتمع الشيوعى من ناحية أخرى. فقد ذهب كصادته ليزور عائلة فلاديمير فدروفسكى. وهو مهندس طاعن فى السن تزوج ابنة ناظرة المدرسة التى تعلمت فيها أنه تاسيا وأصبحت صديقة حميمة لها. وفى بادئ الأمر رحبت الثورة بهذا المهندس ثم ما لبثت أن قلبت له ظهر النجم مع انتشاء فترة للحرية التى صاحبت تنفيذ السياسة الاقتصادية الجديدة NEP. وهى السياسة التى سمحت للنظام الشيوعى بالتعاون مع الخبراء غير الشيوعيين. وما إن دخل الفلام الكسندر سولجنستين بيت المهندس فدروفسكى حتى هاله ما رأى: الأوراق مبعثرة على الأرض والكتب متناثرة وأدراج المكتاب والدواليب مفرغة من محتوياتها. وساعدته هذه التجربة فيما بعد على

تصوير منظر اقتحام منزل وإلقاء القبض على من فيه فى الصفحات الأولى من كتابه «أرخيبيل الجولاج». وإلى جانب ذلك عرف الكسندر فى يفاعته ما يحدث داخل زنازات السجن من مصدر آخر. ففى أثناء أوبته من المدرسة تعين عليه المرور بشارع حقيق يقع فيه الباب الخلفى لأحد سجون إدارة المخابرات حيث شاهد النسة الحريات وهن ينتظرن فى صمت فى طابور من أجل تسليم بعض اللنائف التى تصوى الطعام لذويهن من المسجونين أو المعتقلين. والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن كاتينا كان فى صباه يحمل للمهندسين الذين خالط بعضهم وعرفهم عن كثب حبا شديدا واحتراما فائقا، كما كان يثق بهم ثقة عمياء لحين طالع آنذاك فى صحيفة الأفسس عن محاكمة عدد كبير من المهندسين بتهمة القيام بأعمال التخريب أحس بالظرة أنها افتراء ولم يصدق أن المهندسين الذين عرفهم فى صباه عن طريق العائلة يمكن أن يكونوا مجرمين وخارجين على القانون، الأمر الذى يدل على قدرته منذ الصبا على الوصول إلى آراء وأحكام مستقلة.

إرهاصات أدبية :

كان سولجنستين فى يفاعته يحلم بأن يصبح ممثلا يلجلج صوته فوق خشبة المسرح. وكما أسلفنا قلعت زلفاندى آنذاك بموهبته الكوميديّة. ولكنه وجد أن حياته الصوتية ضعيفة لا تصلح للإلقاء المسرحى وترك ولعه بالهاك بالمسرح أثرا ملحوظا فيه، فألف أربع مسرحيات وسيناريو لميائين لفضل عن حبه لعطف للصومس. ونحن نراه فى أوج عظمتة فى موسكو لا يحب شيئا مثل قراءة أعماله بصوتية دافقة أمام جمع خاص من المحبين والأصدقاء. وعندما أصدرت السلطات السوفيتية أمرا بنفيه إلى الغرب عام ١٩٧٤ سجل بصوته نص قصيدته السردية الطويلة بعنوان «ليال بروسية».

وقد ظهر ميله للكتابة في التاسعة من عمره ولم يكف بعد ذلك عن مواصلة التأليف، كتب سولجنتسين أول قصة له بعنوان «القرصنة» عام ١٩٢٨، ثم أعقبها عام ١٩٢٩ بقصة أخرى بعنوان «السهم الأزرق» وقصة من الخيال العلمي. وفي تلك الفترة سطر أول صحيفة أدبية في حياته بعنوان «القرن العشرون» نشر فيها قصة طويلة متسلسلة بعنوان «القرصان الأخيرون». ولكن هذه الصحيفة ما لبثت أن توقفت عن الصدور حتى شهر يناير ١٩٣٧ عندما أصدر صحيفة أخرى بعنوان «الجازيت الأدبي» استمر صدورها لمدة عامين ونشر فيها مسرحية كوميدية في فصلين بعنوان «المأدبة» إلى جانب مغامرة من الخيال العلمي بعنوان «أشعة». وفي عام ١٩٣٤ كتب قصة أخرى بعنوان «ميخائيل سينجوف» تدور أحداثها حول أحد الممثلين. ونظم في الوقت نفسه عددا كبيرا من القصائد والأشعار جمعها في مجلد واحد أسماه «أشعار ١٩٣٦ - ١٩٣٦»، ثم أطلق عليه اسما آخر هو «أشعار مرحلة الشباب» الذي يضم بين دفتيه مجموعة من النكات والأقوال المرفوعة البليغة الذكية وبعض القصائد ذات الطابع الشخصي والمحميم للغاية. فضلا عن أنه جمع عددا من قصصه الباكرة بعنوان «الفرحاجيد ذات الأثر الصيق».

كان رومان - خال ألكسندر سولجنتسين - يمدح الأديب الكبير ماكسيم جوركي ويعتبره أعظم شائنا وموهبة من ليو تولستوى نفسه. وفي أواخر العشرينيات أعلن جوركي رأيا قويا رواجيا شعبيا كبيرا مفاده أن يعتقد كل إنسان أن يصبح أدبيا لو وجد الفرصة والتشجيع المناسبين، الأمر الذي جعل رسائل الأديباء الناشئين والرهافة تلهزم عليه. ونحو عام ١٩٣٢ أرسل الغلام ألكسندر إلى خاله رومان وزوجته إيرينا خطابا مطولا عن الرحلة التي قام بها مع تنظيم «الزود

الشبان» إلى شاطئ البحر الأسود وعن مشاهداته وانطباعاته هناك. فحاز هذا الخطاب إعجابهما فبعدا إلى ماكسيم جوركي ليقول رأيه فيه. وجاءهما رد مشجع من سكرتير جوركي فقواه أن الخطاب يدم عن الموهبة. وفي خريف ١٩٣٧ كتب «مذكرات ركيب دراجة» يصف فيها رحلة نامت شهرا قام بها مع ستة من أصدقائه في منطقة القوقاز. ومن الطريف كيف حصل الغلام ألكسندر على دراجته. ففي عام ١٩٣٦ رشحه ناظر مدرسته للحصول على إحدى جوائز التفوق الدراسي. وأبلغ الإدارة للتعليمية بشأن هذا الرشيع. غير أن اسمه سقط من قائمة المرشحين للجوائز التي أعدتها الجهات التعليمية المسئولة، الأمر الذي أثار حنق ناظر المدرسة وسخطه. فأرسل إليها احتجاج على تجاهل مرشحه. وأرادت الإدارة التعليمية تدarik هذا الخطأ فأرسلت إلى محلات بيع الدراجات في المنطقة التي يسكن فيها الغلام تأسرها بصرف دراجة بصفة استثنائية له. ولما كانت هذه المحلات تعاني من النقص الشديد في الدراجات وغورها من السلع فقد تعين عليه انتظار دوره لفترة طويلة حتى تصل شحنة جديدة من الدراجات. وأبلغه أحد معارفه في محل بيع الدراجات أن الشحنة الجديدة وصلت لشوها. فاتفق الغلام مع اثنين من أصدقائه الشبان أن يسيخوا ليلتهما أمام المحل ليكونوا أول الداخلين إليه في الصباح على رأس الطابور الطويل المنتظر. وهكذا حصل الغلام على هذه الهدية النادرة التي تجول بها عام ١٩٣٧ مع أصدقائه في منطقة جبال القوقاز بالقرب من تفليس.

وتد لنا «مذكرات ركيب دراجة» أنه في صدر شبابه قبل الأيديولوجية الشيوعية على علائها آمن بها إيمانا تاما. وتتضمن هذه المذكرات قدرا واضحا من الدعاية والمواقف الفكرية التي

تعرض لها هو وأصحابه وهم في الطريق إلى زيارة مسقط رأس ستالين في جوري جورجيا مثل إصابة إمار دراجته بالثقب أثناء انهماك المطر عليهم. وتدل المذكرات كذلك على ثقته بالقدرة على الكتابة على نحو عاطفي غنائي وعلى سعة اطلاعه فهو ينكر لقراءة الأماكن التي سبق أن زارها كبار الأديباء الروس: بوشكين وإيرمنتوف ولينوتستوى في تلك المنطقة. ونعترف من «مذكرات ركيب دراجة» أنه يحب زيارة المقابر لأنها تلمه الصدق مع النفس وتعيه من كل زيف. ويشرح لنا أسباب كتابة هذه المذكرات فيقول لنا إنه في فترة الإعداد لامتحانات الرياضيات وانكبابه على دراستها كان الضيق والسأم يعتريانه ويفسدان عليه مزاجه. فلم يجد ما يعينه على التغلب عليهما غير كتابة تلك المذكرات. وعندما أقدم سولجنتسين في يفاعته على كتابة أول رواية طويلة شعر بعجزه الكامل عن الانتهاء منها. ويجهد جهد لم يتمكن من أن يسطر غير عبارة واحدة منها ثم توقف القلم بعدها تماما. وهاله ما هو فيه من عجز فقرر ببنة وبين نفسه ألا يسمح لنفسه أبدا في المستقبل أن يبدأ بكتابة شيء دون أن يكمله حتى لو كان القارئ الوحيد لنفسه. وفي ١٨ نوفمبر ١٩٣٦ عندما كان في الثامنة عشرة من عمره قرر أن يكتب رواية كبيرة عن الثورة الروسية وهي فكرة أكثر قراضا وواقعية من طموحه الطفولي الباكر لنهم القرن العشرين واستكناه معناه. واضطرته كتابة هذه الرواية إلى البحث في بطون الكتب حول أهم المعارك العسكرية التي دارت بين الروس والألمان في الحرب العالمية الأولى. وسر اندحار الروس فيها. وتوصل الغلام إلى معركة حاسمة هي معركة تاننبرج فيما كان يسمى بروسيا الشرقية (ألمانيا الآن) التي شادت انهزام واحد من أشرف

الجنود الروس وأشجعهم وأكثرهم وطنية لا لمحب فيه ولكن بسبب فساد رؤسائه وعدم كفاءة الجيش الروسى من ناحية وفساد البلاط القيصرى من ناحية أخرى. وفى ١٩٣٧ أُلحِت عليه فكرة تأليف ملحمة روائية كبيرة من منظور شيوعى تدور أحداثها حول الثورة البلشفية على غرار رواية تولستوى المعروفة بالحرب والسلام. وفى حياته الأدبية اللاحقة استقى سولجنتسين من مسرودات هذه الرواية الباكورة من مظاهر ومواد هتمنها كتابة عن سيرة حياته المعروف باسم «أغسطس ١٩١٤»، وبفضل تفوقه فى المدارس أمكنه الالتحاق بالجامعة دون أن يتعين عليه اجتياز أى من امتحانات القبول التى كانت الجامعة تعقدتها فى المادة للطلبة الجدد. وأخفى الفتى عن المسؤولين فى الجامعة حقيقة أصل والده الاجتماعى فهو يقول فى هذا الشأن: «لم يكن بمقدورى أن أخبر أى واحد أن أبى كان ضابطا فى الجيش القيصرى الروسى لأن هذه تعتبر عارا».

بدايات أيديولوجية:

انصرف سولجنتسين إلى دراسة الرياضيات والفيزياء فى مرحلة الدراسة بالجامعة رغم شدة حبه للأدب. وتحصلت ظروف أمه فى العمل فى أخريات أيامها ولكن كثرة العمل والإجهاد أصابها بمرض السل. غير أن مرضها لم يحدل دون سعيها إلى بذل المزيد من الجهد. فكتبت تترك فراشها رغم ارتفاع درجة حرارتها وتخرج من البيت سعيًا وراء الرزق من أجل أن توفر لابنها شيئا من الأمان والراحة. وكثيرا ما كان الخلاف يذب بينهما بسبب نشاطه المتزايد فى منظمة الشباب الشيوعية المعروفة باسم (الكومسومول). فلا غرو فقد كان سولجنتسين فى شبابه يدين بالمبادئ الشيوعية. ومالت ظروف الجامعة الإقليمية فى روستوف دون دراسة الأدب

الذى لم يكن جزءا من مناهجها فقد اشتهرت هذه الجامعة بدراسة بناء السفن والهندسة والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والعلوم الفيزيائية. وكانت كلية المعلمين فى روستوف فى المكان الوحيد الذى يقوم بتدريس الأدب بهدف تخريج مدرسين يضطلعون بتدريسه فى المدارس. يقول كاتبها فى هذا الشأن إنه لم يكن لديه أية رغبة فى أن يصبح مدرسا للأدب لتلاميذ المدارس وأنه وجد أن تدريس الرياضيات والعلوم يوجه عام أسهل عليه بكثير من تدريس الأدب. وفى الجامعة أظهر تفوقا علميا واضحا. وحين بلغ السابعة عشرة من عمره انتقل من منظمة «الرواد الشباب» إلى منظمة الكومسومول حيث انكب على دراسة الماركسية اللينينية، التى فتن بها لفترة من الزمان. وهكذا أصبح سليل الجاه والشراء الذى نشأ وترعرع فى جو شديد التدين ينأصب النشيط فى العدا، واحدا من أشد المتحمسين للشيوعية. ويبدو أن حماسه الشيوعية فى تلك الفترة المبكرة من حياته بلغ حدا جعله يتجاهل ما يحدث حوله من بشاعات ومظالم مثل القبض على فلاديمير فينور فسكى صديق العائلة. ولم تكن الجامعة آنذاك بمنجى من أعمال القمع والاضطهاد التى تعرض لها كثير من الأساتذة على يد الحزب الشيوعى والطلبة الشيوعيين مثل البروفيسور مودخاى-بولتوفسكى عالم الرياضيات المعروف الذى أشار إليه سولجنتسين فى «الدائرة الأولى» باسم جورويابيندوف شاخوفسكى المعروف باستغلاله وتجاهله لتعاليم الحزب. يرى مؤلفنا عن هذا العالم أنه بينما كان يقوم بتدريس نظريات نيوتن الأثيرية إلى قلبه، وصلته ورقة تقول له: «إن ماركس كتب أن نيوتن يؤمن بالمذهب المادى فى حين أنك تقول عنه إنه مثالى فرد بقوله: «كل ما يمكنى قلبه إن ماركس كان مخطئا. فنوبت». شأنه

فى ذلك شأن العلماء العظام. كان يؤمن بوجود الله. وفى مرة أخرى أخبره طلبته أنهم قروا هيوما عليه فى مجلة الحائط فأجابهم بقوله: لقد تعلمت من مربيى إلا أقرأ ما يكتب على الجدران».

حتى سولجنتسين نفسه رغم انخراطه فى المنظمات الشيوعية ونشاطه الملحوظ فيها لم يكن يحال من الأحوال فى مأمن من الجور والخسف. فقد ألقى رجال الأمن القبض عليه أثناء وقوفه فى طابور فى انتظار الحصول على الخبز بزعم أنه واحد من مجموعة من المخربين الذين يسعون إلى إشاعة الأذعر فى نفوس الناس. ولكن سرعان ما أطلق سراحه. بل إن رموز النظام الجديد وأبرز شخصياته لم تسلم من الأذى وخاصة فى مرحلة المزارع الجماعية والتصنيع فى عهد ستالين. ففى عام ١٩٣٤ اغتيل كيروف أحد كبار المسؤولين فى الحزب الشيوعى بإيعاز من ستالين. وفى عام ١٩٣٥ قدم المسئولان الشيوعيان الكبيران كامينيف وزينوفيف للمحاكمة. وشاهد عام ١٩٣٦ محاكمة الرعي الأول من البلاشفة وعام ١٩٣٧ محاكمة بتياكوف وزاديك وعام ١٩٣٨ محاكمة ريكوف وبوخارين وجميعهم من زعماء الحركة الشيوعية. وعندما يستعرض سولجنتسين شروط حياته المأساوية نراه يفرغ لمقدار ما كان لديه من أثر وأثنية فى صدر شبابه وتجاهله المشين لكل مظاهر الظلم والخسف التى رأى ما حوله. كان- على حد قوله- يعيش وسط الطاعون دون أن يدرك ذلك. ورغم هذا فهناك فى كتابه «الدائرة الأولى» دلائل تشير إلى أنه منذ مطلع حياته لم يكن يصدق كل ما يقال عن جوزيف ستالين من عبارات التعظيم والمجد. وفى خريف عام ١٩٣٨ أعطته إدارة البوليس السرى المعروف بـ NKVD فرصة الالتحاق بها. ولكنه لم يقبل هذا على نفسه وأبى أن يتحول إلى عميل

للبرويس السرى رغم ما يجلبه عليه ذلك من المتعجبات امتيازات مادية واجتماعية قد يحسد كثيرون عليها. كان سولجنتسين حتى في شبابه متقشفا بطبعه بأخذ نفسه بالخشونة والشدّة ويتعبد عن مخالطة الجنس اللطيف كما يحلو لمعظم الشباب أن يفعل ويكرس كل وقته للقراءة والاطلاع على ماركس وهيجل وإنجلز ولينين. وفضل بصيرته النافذة ونضجه الباكر ومطالعته الكثيرة استطاع للفنى أن يكشف قبل غيره انتهازيه سخايلن السياسية التي لا تعرف الرحمة وطبيعته الدكتاتورية الغاشمة. فضلا عن زرايته بمنظره الغليظ الجلف وضغفه النغوى الواضح في كل ما يكتب. ولم يجرؤ اللتى بطبيعة الحال على الجرح لأحد بهذه الأفكار استثناء ثلاثة من أسدقائه الذين يشاركونه الرأى نفسه وهم نيكولاى غيرنفتش وكيريل سومونيان وليوديا إزهرس. ولكن زرايتهم جميعا باستاين لم تحل دون شدة إعجابهم بلينين الذى رآوا في العوده إلى مبادئه السبيل إلى تطهير البلاد من فساد ستاين ومثاليه. وهو ما نادى به خروتشوف بعد مرور عشرين سنة على أقل تقدير.

ظروف زواج الطالب سولجنتسين:

في صيف عام ١٩٣٩ عندما كان سولجنتسين وصاحبه نيكولاى وكيريل في آخر عام دراسى في جامعة روستوف الإقليمية اقترح أديبا عليها الالتحاق كطالبة من الخارج في معهد موسكو للفلسفة والآداب والتاريخ. وهو أعلى معهد لدراسة العلوم الإنسانية في جميع أنحاء البلاد. وبالفعل تقدم الأسقفاه الثلاثة - الذين كانوا يسمون أنفسهم للفرسان الثلاثة بطنايات الحقاق لطلاب سولجنتسين دراسة الأدب ونيكولاى الفلسفة واختار كيريل دراسة الأدب المقارن. ويقضى نظام الدراسة من الخارج أن يقوم المعهد بإرسال المقررات والمناهج الدراسية

بالبريد ثم يرسل إليه بالبريد أيضا بعض الأسئلة للإجابة عنها. ولكن المعهد اشترط على الطالب من الخارج الحضور إلى موسكو مرتين في السنة (مرة في عطلة الشتاء ومرة أخرى في عطلة الصيف) من أجل الانظام فى حضور دورية المحاضرات وأداء امتحان فى مقررات سنة الأشهر السابقة (وهى الامتحانات نفسها التى يؤديها طالب المعهد للنظامى) يحصل بعده الطالب على دبلوم مساو للشهادة التى يمنحها المعهد لطلابه النظاميين.

كان سولجنتسين فى العشرين من عمره عندما حضر مع أهز أسدقائه نيكولاى إلى موسكو كى يسجل اسميهما للدراسة من الخارج وأرادا أن ينتهزا هذه الفرصة لزيارة بعض المناطق المجاورة والاستماع بالمناظر الطبيعية الخلابة التى تزين بها هذه المناطق، فاشتريا مركبا قديما سار بهما فى مياه نهر الفولجا لنتوقفا على ضفاف النهر الكبير كلما عن لهما ذلك. وبحلول الليل كانا يبيتان على كومة من القش فى قاع المركب. ونسبا فى غمار شباهما المتوقد لسعة البرودة فى النهر فكانا يجدان متعة بالغة فى أن يقرعا عاريتين للسباحة فى ماء النهر ويسابقا فى تبحر أو يتصارعا على الشط حتى ينفج بفخاهما من البلى ويدب الضياء فى أطرافهما الباردة. وكانا يمولان فى شراء الأطعمة على بعض القرى أثناء مرورهما بها. ولكن خاب أمتهما عندما وجداهما خاليتين تماما من الطعام. فاكنتيا بشراء كمية من الدفاح المتوفر بسعر زهيد. ويمجد انتهاء الرحلة استرد الشبان ثمن التقارب تقريبا ببعيه. واستبد الشرق بسولجنتسين للعودة إلى روستوف حيث ترك حبيبته ناتاليا ريشكوفسكايا التى زاملته فى الدراسة والتي تعرف إليها عن طريق صديقه للمحم نيكولاى (لذى كان أيضا يكن

مشاعر الحب لها) خلال عام ١٩٣٦ وهو العام الأول من دخولهما جامعة روستوف. تميزت ناتاليا بموهبتها الموسيقية التى ورثتها عن والدتها وأجابت العزف على البيانو. واستطاع سولجنتسين أن ينفرد بعبها وخاصة بعد أن تزوّجت صلاتهما وتكرر اشتراكهما فى الرقص وحضور الحفلات والمسرح والسليما. ولم تكن ناتاليا الفتاة الوحيدة التى أولاهما اهتمامه فى تلك الفترة من حياته، فقد كان يميل أيضا إلى فتاة أخرى معروفة باسم «الفجورية الصغيرة». ورغم أنه فى النهاية فضل ناتاليا عليها فقد شعر عند فشل زواجه منها أنه يحدّر به أن يختار «الفجورية الصغيرة» شريكة لحياته.

وفى ٢ يولية من صيف ١٩٣٨ تقدم سولجنتسين إلى خطبة ناتاليا التى أحبها برومانسية شديدة. ولكن يبدو أن المفاجأة أربكتها فظهرت شيئا من الإحجام والتردد رغم أنها كانت تبادل الحب، الأمر الذى كان سببا فى أن يعزى الفتر علاقتهم. غير أن هذا الفتر سرعان ما انتهى إلى زوال. وساعد على إعادة المياه إلى مجاريها أن الظروف التى نشأ فيها سولجنتسين تشبه إلى حد كبير الظروف التى نشأت فيها ناتاليا. فكلاهما عرف اليتيم منذ نعومة أظفارهما. وكلاهما عمل والده فى الجيش. فقد كان أبوكى أبوها. وهو من أصل قوقازى. يعمل ضابطا فى للحرب العالمية الأولى غير أنه حارب فى صفوف البيض خلال الحرب الأهلية. وحين رأى الجيش الأبيض يندحر أمام الجيش الأحمر لاذ بالفرار مع غيره من المقاتلين المتطوعين خارج البلاد، تاركا وراءه ابنته ناتاليا التى لم يتجاوز عمرها آنذاك عشرة أشهر كما ترك زوجته وأخواته البنات الثلاث.

راقت ناتاليا فى عين سولجنتسين بسبب موهبتها الموسيقية وجمال جسمها

وحسن هئامها وسلوكها المذهب الرقيق على المستويين الشخصي والاجتماعي. وفي ٢٧ أبريل ١٩٤٠ تزوج سولجنستين منها في هدوء تام وبدون أي حفل مناسج، وهما في الواحد والعشرين من عمرهما. لم يتعجل العروسان الزواج بسبب صديق ذات اليد وعجزهما عن استئجار مسكن مستقل. كان مؤلفنا لا يرغب في إجناب الأطفال لإدراكه أنه سوف يقف عائقا في سبيل تحقيق طموحه، الأمر الذي كان فيما بعد سببا في إثارة الخلاف بينهما. وتعرف ناتاليا بشفة قلقه على انصرام الوقت فقد كان يورقه صياحه دون أن يستثمره في الدرس والتحصيل. ولهذا كان يتصرف ويرتب مواعيده معها بطريقة تدعو للغرابة. ففي فترة خطوبتهما في شتاء ١٩٣٩ - ١٩٤٠ تعدد أن يضرب مواعيد اللقاء بها في تمام العاشرة مساء بعد أن تكون المكتبة قد أغلقت أبوابها، فإذا حضرت ناتاليا إليه خمس دقائق مبكرا رفض أن يغادر المكتبة معها إلا بعد انتهاء موعد المكتبة. منخلًا بأنه لا تزال أمامه خمس دقائق للاستزادة والاطلاخ. وحين كان يرافقتها إلى المسرح أو حفل موسيقي اعتاد أثناء وقوفهما على محطة التروولي ياس أن يطلب إليها أن تخبئ به في بعض المعلومات التي استقاما من المكتبة ودونها على كروت. وتزوج العروسان في صمت دون أية مراسم أو احتفالات، أو حتى دون أن يخبرا أحدا به. واكتفيا بتسجيل زواجهما في مكتب مدني. وحدثت حادثة اعتبرها سولجنستين - كما يبدو في روايته لها فيما بعد - نذير سوء. فعلمنا غصمت ناتاليا الريشة في المحبرة (دواية الحبر) كي توقع على سجل الزواج المدني طارت الريشة من يدها في الهواء لتستقر على جبهته فتلطخ ببغمة حبر كبيرة.

عاش الزوجان بمعزل عن أحدهما الآخر بسبب عجزهما عن تدبير بيت

للزوجية. ومن الواضح أن سولجنستين لم يكن لديه متسع من الوقت يقضيه مع ناتاليا حتى بعد زواجه منها بسبب انشغاله باستكمال دراسته وأداء الامتحانات فيها. ولكن هذا على أية حال لم يمنعهما من قضاء شهر العمل في موسكو من أن يتقابلا لمشاهدة معالم العاصمة والتدبر في حديثها، هي تعيش مع خالتها وهو في بيت الطلبة. ويوجه عام كانت حياتهما الزوجية في تلك الفترة سعيدة إلى أن حدث ما يكر صفوها. فقد أصيبت ناتاليا بشفة برد شديدة كانت توجبها أن اللحد في رقبته تضخمت بطريقة مؤلمة. فتدخلت طبيبة قريبة لها لدى أحد أصدقائها الجراحين ليجري لها عملية جراحية في بطنها بعيدا عن قدرة المستشفيات الحكومية وإهمالها. وهو أمر كان محظورا حظرا تاما.

وفي موسكو لم يثأر سولجنستين بأحد ملما تأثر بأحد أقرىبه زوجته هو الناقد والمؤرخ السينمائي المعروف فالنتين تيركن الذي اقترح على العروسين أن يقضيا شهر العمل في منتج تاروسا الريفي الجميل. واستطاع العروسان الطور على شاليه متواضع للغاية في أطراف غابة ويوحدا من سائر الشاليهات الفخمة وتتاسب مع دخلهما المحدود كطالبة في المعاهد والجامعات. وهال الشا أن يرى بعيديه حياة الذعة والبذخ التي يحياها أهل القمة في ذلك المنتجع الهادئ فهم يأكلون كل ما لذ وطاب ويحصدون أفخر أنواع الشراب بصورة تتناقص على نحو صارخ مع الفقر العام المنتشر في كل مكان ومع القرية القاحلة المجنبة التي سبق أن زارها مع صديقه نيكولاى فلم يجد فيها من الفخريات ما يسد الرمق سوى بعض النباتات الشوطانية. ويصور لنا مؤلفنا ما رآه في حياة الدعة والارغد في تاروسا بعد مرور سنوات عديدة في بعض أعماله اللاحقة مثل أول مسرحية

منشورة له بعنوان «شمعة في مهب الريح» ثم في قصيدته «الطريق». وفي هذا المنتجع لم يسمح لهما صديق ذات اليد بارتداء محلات السورماركت الفاخرة، فدخلهما الضئيل يكفيهما بالكاد لشراء الضرورات من بقالة القرية الفارغة من السلع والعامرة بالذباب. ولكن فكر سولجنستين على أية حال كان في الأساس مشغولا بالاستعداد مقدما لتحصيل المنهج الذي تقدم لدراسه من الخارج. وكان يقرأ لزوجته أحيانا قصائد من شعر باسدين وصفحات من رواية تولستوى «الحرب والسلام». وفي تلك الفترة اهتم بدراسة التاريخ وخاصة الإصلاحات الجهرية التي أنخلها بطرس الأعظم في روسيا من أجل تحديثها. وهي إصلاحات أثارت مقته وكراهيته رغم أنه كان من المفترض. باعتباره آنذاك ماركسيا ملحد أن يحمس لها كإصلاحات حديثة تقدمية. ويبدو في التحليل الأخير أن الأثر العميق الذي تركته خالته إيرينا بأفكارها القديمة ومعتقداتها التقليدية يفوق أثر النظام البلشفي فيها. فقد عجز هذا النظام عن اقتلاع عشقه لروسيا القديمة وتقاليدها المتوارثة. بما في ذلك تقاليد الكنيسة الروسية القديمة التي أرمضه إيرينا حبها العام.

وفي شهر العمل كانت العروس تصوم من نورها لجد مكان زوجهما في القراش خاليا وأنه انصرف عنها ليتكبد على قراءة نسخة مائسة بالحواسي والتفسيرات من كتاب كارل ماركس المعروف «رأس المال». ولم تبلغ العروس أهلها بزواجها إلا في أثناء وجودها في منتج تاروسا. أما للعريس فقد سبقها بإبلاغ الخبر إلى أمه تايسيا أثناء وجوده في موسكو. ونقلت تايسيا بدورها هذا الخبر إلى خالته إيرينا وماريا اللتين لم يغفرا له قط زواجه المدني خارج الكنيسة

ورفضا الاعتراف بشرعيته. وساعد هذا بطبيعة الحال على تعميق إحساسه بالغربة عن أهله وذويه. وهال خالتيه أيضا أن زواجه تم سرا. ولعل هذا يفسر لنا لماذا أشارت إيريدا في الحديث الذي أجرته معها مجلة شترن في عام ١٩٧١ إلى ناثاليا على أنها عشيقته وليست زوجته. وكانت فجعية صديقه نيكولاى كبيرة عندما علم بالخبر فقد كان يأمل فى إقناع ناثاليا بالزواج منه. غير أن هذا لم يؤثر فى علاقته بسولجنستين. ودون أن تنجر بالشكرى تحكى لنا ناثاليا انصرفت زوجها شبه الكامل عنها فى الفترة الأولى من زواجهما وانشغاله بالمطالعة والقراءة. وتذكر لنا أنهما استطاعا فهما بعد أن يستأجرا حجرة مريحة قريبة من ممكن حماته وحماها، الأمر الذى سهل عليهما تلبية عروة أمه وأمهات لتناول الوجبات فى بيوتهما. وانفتحت حماته على أن يتنولوا الغذاء كل أيام الأسبوع فى تمام الساعة الثالثة. وكانت تتضايق من تأخر زوج ابنتها باستمرار فى تناول الغذاء فى الوقت المحدد رغم كثرة تديبها له. فضلا عن أنه كان يشغل عن تناول الطعام بإخراج البطاقات التى يسجل عليها المعلومات حتى نقرم زوجته باختياره فيها. وما إن يفرغ من الغذاء حتى يكون قد هرب إلى المكتبة ليستمر فى المذاكرة بعد عودته منها حتى الثانية صباحا دون أن يرحم نفسه من الصداع الذى يصيب رأسه بسبب شدة الجهد.

وأخيرا تمكنت أحوال سولجنستين المالية بحصوله على إحدى منح ستالين الدراسية بسبب تفوقه الدراسى من ناحية ونشاطه السياسى والاجتماعى فى منظمة الشباب (الكومسومول) من ناحية أخرى. وتتلخص أبرز إنجازاته الطلابية فى تلك المرحلة فى إصدار مجلة حائط بشكل مشرق للغاية وبصفة دورية مرة كل أسبوع بدلا من مرة كل ستة أشهر.

واستطاع أن يحققها بدم جديد بعد أن أصابها العوات فامتلات صفحاتها على يديه بالفكاهة الطلية والأخبار الجامعية الطازجة والهجوم الساخر على بعض الأساتذة والطلبة معا. وفى هذا يتضح أنه كان بإمكانه لو أراد الصعود إلى قمة الهرم الاجتماعى مساعدته فى ذلك دون شك تخصصه فى الرياضيات والفيزياء وهى من التخصصات التى كانت الثروة البلشفية تحضنها. غير أن مثاليته التى ترفض الانتهازية وهرطقته السياسية ضد ستالين وإيمانه الراسخ بضرورة عودة للنظام البلشفى. إلى المبادئ اللينينية للحقة حال دون هذا. أضف إلى ذلك ميله الشديد للكتابة الأدبية. ولعلنا نذكر فى هذا الصدد أن الزواج لم يشغله قط عن مواصلة الكتابة فسر فى كراسات بحثا بعنوان «ملاحظات حول المادية الجدلية والفرن» بالإضافة إلى عدد من المجموعات القصصية مثل «التجربة للصغيرة» (١٩٣٨) و«عامل فيكولاييسكى» (١٩٣٩) ونقاط على النهر» (١٩٤٠) ومهمة بالخارج» (١٩٤١) بجانب ديوانه «أشعار للشباب» التى سبق لنا أن أشرنا إليه.

سولجنستين فى جبهة القتال :

بعد أن أكمل سولجنستين دراسة الرياضيات والفيزياء بجامعة روستوف فى يونيو ١٩٤١ ألح على زوجته أن يشدا للرخال إلى موسكو بحجة أن روستوف هى أسوأ مكان لحلم اللغة الروسية. وأنه لولا الجهد المسمى الذى بذله فى تعلمها فى روستوف لظل جالسا بأسراره ولا يعرف كيف يكتب بها. أضف إلى هذا أنه أراد السفر إلى موسكو بسبب رغبته فى اجتياز امتحان العام الثانى من منهج الدراسة من الخارج الذى يعقد هناك. ولكن حظه العائر شاء أن يصل إليها فى ٢٣ يونيو عام ١٩٤١، وهو اليوم نفسه الذى أعلنت فيه ألمانيا الحرب على روسيا

فحدث الفوضى فى أرجائها وألغيت الامتحانات وفتح باب التطوع للخدمة العسكرية. وأراد سولجنستين التطوع لكن البيروقراطية العسكرية السوفيتية أسرت على ضرورة عودته إلى روستوف للتطوع هناك. غير أن إدارة التجنيد فى روستوف قررت إعفائه من الخدمة العسكرية بعد إجراء الكشف الطبى عليه فقد اكتشف الأطباء وجود عيب بسيط فى فخذ له يكم ملحوظا كان أحد الأسباب فى إصابته فيما بعد بمرض السرطان. وأبلغته إدارة التجنيد أنه يحين عليه الانتظار فى بيوتته لحين ومسور ردها عليه. وطال انتظاره دون أن يصله الرد المرتقب فغمره إحساس عارم بالإحباط بعد أن علم أن الجيش قبل تجنيد كل زملائه فى الدراسة ليعطوا بشرف الذود عن البلاد ضد البربرية النازية. وصدرت التعليمات بالاستفادة من جهود سولجنستين فى قطاع التعليم فتم تعيينه فى سبتمبر ١٩٤١ مدرسا للرياضيات والفلك فى مدرسة إحدى القرى فى مستعمرة مويزوفسك التوقازية وهى المدرسة نفسها التى عينت فيها زوجته ناثاليا لتدريس الكيمياء ومبادئ الداروينية. وتعرف سولجنستين فى تلك القرية على مهندس اسمه برونيفتسكى كانت سلطات الأمن قد أثقت القبض عليه فى الثلاثينيات وأودعته مسكر اعتقال فى ظروف لا حد لقسوتها. وكما سبق أن ذكرنا كان أديبنا حتى ذلك الوقت يرى مظاهر التنكس والخصف والاضطهاد فلا يعيرها التفاتا لإيمانه حينذاك بقدرة النظام الشيوعى على تصحيح مساره فى نهاية الأمر وثقة خبرته وتوجيهه فى الحياة. فضلا عن أتانية الشباب التى تمنعه فى كثير من الأحيان عن التوقف أمام بؤس الآخرين وشقاظهم. ولكنه شيئا فشيئا بدأت عيانه تتفتحان لبشاعة النظام الستالينى بفصل قصص البؤس التى

رواها له المهندس برونوفسكى. وفي تلك الفترة من حياة سولجنستين اكتسحت جيوش هتلر الأراضي الروسية فلم تجد السلطات السوفيتية مناصباً من تجنيد كل احتياطها. ومن ثم قُبلت تجنيده وهو في الثالثة والعشرين من عمره وأرسلته ليقاوم أعداء البلاد من الألمان. ولم يدر مؤلفنا آنذاك أنه لن يعود من الخدمة العسكرية إلا بعد مرور خمس عشرة سنة بالكمال والتمتع بسبب ما تعرض له من سجون واعتقال.

بدأت حياة سولجنستين العسكرية كمهزلة وانتهت كعاشق، فقد كان حلم حياته أن يكون في مقدمة الجيش وإذا بالجيش يضعه في المؤخرة. فضلاً عن أنه وجد نفسه بين مجندين تقدم بهم العمر واعتلت صحتهم. ومما زاد الطينة بلة أنه عين بإدارة النقل والركبات (على بعد نحو مائة وخمسين ميلاً من الشمال الغربى لستالينجراد) دون أن تكون لديه أدنى خبرة أو معرفة بالخيول: كيف يروضها أو مجرد كيف يركبها. ودون أن يدرى آثار حفيظة رايحه جاويز عليه لا نشئ. إلا لأنه رأى يدخل الشكايات لأول مرة وفي يده حقيبة لحفظ الأوراق. فغضب هذا الجاويز لإذلاله بأن طلب إليه أن يقدّم الخيول إلى المراعى لإطعامها. فأنسط في يده ويات من الواضح أنه لو فعل هذا لركضت الخيل جميعاً ولأنت بالهروب. ولذا أخذ سولجنستين يستعطف للجاويز كي يعطيه أى عمل آخر فقبل وأسد إليه أمراً بتطليغها، وهو الأمر الذى شرس به واكتسب فيه بمرور الأيام خبرة ودراية كبيرة. وسجل مؤلفنا هذه التجربة فيما بعد في عمله الأدبى «الدائرة الأولى». وتعلم ركوب الخيل. كانت حياته العسكرية سهلة لينة تخلو من للتدريبات الشاقة ومسؤولية الحفاظ على الأسلحة والعناية بها. غير أن إحساسه بالمرارة لوضعه فى مؤخرة الجيش ظل يلازمه،

الأمر الذى جعله يكتب إلى زوجته شاكيا بقوله: «إذا قبض للمرة أن يعيش فى روسيا فى ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ لما استطاع أن يصبح كاتباً روسيا عظيماً إذا لم يكن مكانه على الجبهة فى المقدمة، ولهذا ظل ستة أشهر يلحف فى رجاء رؤسائه أن ينقلوه إلى المقدمة ولكن رجاءه ذهب أدراج الرياح. ولبست له الحظ فجأة فى مارس ١٩٤٢ حين جاءه قوميسار جديد درس الترياضيات فى جامعة ريستوف نفسها فاستمع إلى شكواه بالاهتمام وأراد أن يعطيه فرصة أوسع للتعرف على الترسانات الأكبر فى للقيادة العليا بستانلنجراد. فعهد إليه بمهمة حمل طرد صغير لتوصيله إليها. ثم صادف قبل رحيله أن قابله ضابط دبابات جريح لم يتمكن بسبب الفوضى والارتباك الذين حلا بوحده فى تبليغ رؤسائه بالقيادة العسكرية فى ستالنجراد بمكان وجوده فطلب هذا الضابط إليه أن يحمل رسالة أخرى إليهم يخبرهم فيها بمكانه وأنه يماثل للشقاء، الأمر الذى جعلهم يفرحون ويتهللون. وأراد أديبنا اغتنام فرصة قربه من قيادات الجيش لهجرب حظه فى أمر قبوله سلاح المدفعية، رغبة منه فى الاقتداء بولده واقتناعاً منه بأنه السلاح المناسب له بحكم تخصصه فى الرياضيات. ونجحاً سولجنستين ودخل إلى الضباط الكبار فى مكائهم وعبر لهم عن رغبته فى الالتحاق بسلاح المدفعية وشرح لهم أنه متخرج فى الجامعة. ولم يغضب هؤلاء الضباط منه كما كان يتوقع بل أنصتوا إلى مطلبه بالاهتمام واستجابوا له على الفور، وولفقا على إرساله للتدريب على البطاريات فى مركز تدريب تابع لسلاح المدفعية. غير أن رحلته إلى مركز التدريب كانت تحفها المخاطر والأهوال. فقد بدأ لعينان أن للقوات النازية دحرت للقوات السوفيتية وأنها لم تكف فى ربيع ١٩٤٢ بالتوغل

نحو ألف ميل فى الأراضي الروسية بل تقدمت نحو ستالينجراد. وفى الطريق إلى مركز التدريب رأى سولجنستين آلاف المشردين واللاجئين والجنود المتفكرين. وحتى عندما استطاعت القوات السوفيتية السندحة أن توقف من تفكيرها خسر للشعب الروس ملايين الضحايا. لقد أدى حصار لستالينجراد وحده إلى هلاك مليون مواطن روسي وتشورهم جوعاً. وفى عام ١٩٦٢ ضمن مشاهداته هذه فى قصة قصيرة نشرها بعنوان «حادثة فى محطة كريشتوفسكا». التى تدور حداثها فى ١٩٤١. ولا تصالج هذه القصة موضوع الحرب بقدر ما تتابع المظالم الستالينية التى سبق أن وضع أصبعه عليها فى أيام السلم. فلما جاءت الحرب ضد النازية ترسخ اقتناعه بفساد النظام الستالينى الذى أظهر عدم كفاءة عسكرية يندى لها الجبين وخاصة من جانب ستالين نفسه وقواده الذين يطمعون بحظوته. وهى عدم كفاءة تمتد أسبابها إلى حركة التطهير الكبرى التى أجراها ستالين فى الجيش الأحمر فى الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٣٩ لتتسمر وتتسفل بظهور عبادة ستالين أو ما اصطلح على تسميته بمبدأ عبادة الفرد. يقول المؤلف فى قصته «كريشتوفسكا، ساخرًا من ستالين وانحمار قواته: «إنه لأمر مشين وإهانة للولائد والمعلم والعلم بكل شيء وللقادر على كل شيء، الساهر فى موقعه دوماً والذي يسبق الأحداث فيورى كل شيء قبل وقوعه ويؤكد بالتأكيد كل الإجراءات اللازمة فى الوقت المناسب والذي لن يسمح بمثل هذا أن يحدث أبداً».

وانتظم سولجنستين فى حضور دورة تدريب المدفعية التى نظمها أكاديمية لستالينجراد العسكرية فى سيمبورف. واستطاع بسهولة أن يتعوب الجانب الألفى فى الدراسة اتقالم على الرياضيات

ولكنه تبين أن هذه الدورة لم تكن أصلاً مخصصة لأمثاله المبدئين الذين لم يسبق لهم أن تلقوا أية تدريبات عسكرية في حياتهم على الإطلاق بل للضباط المدربين برتبة نقيب أو ملازم، واكتشف المسؤولون عن الدورة هذا النقص المعبى فيه فأرسلوه إلى مدرسة أخرى تتناسب مع قدراته حيث ساعدته معرفته بالرياضيات في دراسة منهج أدخله للمدرسة ضمن برامجها هو اكتشاف مواقع بطاريات العدو عن طريق تسجيل وتحليل موجاتها الصوتية. ولم يرق له نظام الجيش الصارم القائم على سياسة القهر دين مبرر، فانسرف في وقت فراغه إلى القراءة والكتابة. وكان يحمل دائماً في يده حقيبته صغيرة (حافظة أوراق) قديمة ومتهرلة ملأها بالكتب كان منظرها وحده سبباً في إثارة حق رئيسه عليه، فأمره بإخفاء الكتب عن نظره ووصف لكتابه عليها بأنه نوع من الصبغيات التي تطلق النعان لأهلها. وفي عام ١٩٤٢ عجز عن الاتصال بزوجته ناناليا بسبب كثرة انتقالاته تحت وطأة التسرب من مكان إلى مكان. وعندما تمكن في النهاية من الاتصال بها لم يخطر بباله أن يسألها عن شيء سوى أرباحه ومخططاته وكراساته التي سطر فيها أولى تجاربه الأدبية، مما يدل على أنه لم ينس قط شغفه بالقراءة والكتابة.

وفي نهاية أكتوبر عام ١٩٤٢ وبعد القضاء أكثر من ثلاثة أشهر تخرج في مركز تدريب المدفعية ليحصل على رتبة ملازم ثان. وتم تعيينه نائباً لقائد وحدة البطاريات في موقع صغير للغاية في روسيا الوسطى لا يزيد عن ثلاثة بيوت تتوسط حقلاً منبسطاً. وبالرغم من كل ما رآه حوله من انهيار شامل، وحتى عندما كانت سناالجراد على وشك الوقوع في أيدي الألمان، فإن إيمانه لم يتزعزع بقدرته بلاده على النصر في نهاية

المطاف. وانتظر بصبر فارغ أن يشارك في معركة الدفاع عن شرف البلاد وكرامتها في ساحة الوغى. ولكن انتظاره طال بلا طائل، فلم يجد غير الكتابة يسرى بها عن نفسه المحزنة. وكتب آنذاك قصة بعنوان «الملازم الثاني، استمد مادتها من تجاربه. وفي عام ١٩٤٢ بدأت غمة الاحتلال النازي تنقطع. ولكن ظروفه الشخصية السيئة شهدت تدهوراً في صحة والدته تحت اشتداد وطأة اللبس عليها بشكل يندب بالخطر إلى جانب المذاب الذي قاست منه في حياتها اليومية. فقد دمرت قوات الاحتلال تدميراً كاملاً بيتها المتواضع للغاية في مدينة روستوف بما فيها من متاح قليل. وتعين عليها وهي المصدرة أن تعمل جرادل الماء إلى حوزتها الخالية من الماء والكهرباء في أحد الأتوار العليا.

وتدل قصيدته «الطريق» على رقة إحساسه نحو بلاده التي رآها جميلة في حزنها وفاتنة في محلتها واستسلامها لصروف الزمان. ورغم أن الحرب باعدت روحاً من الزمان بينه وبين أعز أصدقائه نيكولاي فيكوفتش الذي اكتشف سولجنتسين بمحض المصادفة أنه يعمل في إحدى وحدات الجيش القريبة من وحدته فأخذ كل منهما يزور الآخر في وحدته ويجانبان أطراف الحديث مظماً كأنهما يغلان في الماضي. وأيقن الصديقان أكثر من أي وقت مضى من تطابق نظريتهما إلى كل ما يحيط بهما من أمور، فجلسا عن اشتراكهما في للشارب والطبشاع. وفي «الطريق» يصف سولجنتسين العلاقة بينهما بأنها «قوله وإنقسمت نصفين». ورغم ذلك فقد كان بينهما فارق واحد هو أن نيكولاي استسلم لضغوط أمه عليه وقبل الانضمام إلى الحزب الشيوعي في حين رفض سولجنتسين الانضمام إليه. وانتهت المناقشات وتبادل الآراء بينهما إلى سطر

بيان سياسي أطلقاً عليه «القرار رقم ١» مكتوب من وجهة نظر ماركسية ويحتوي على تحليل للظروف السياسية وبرنامج عمل من أجل تغيير ما قعد فيها. وفيما بعد وصف سولجنتسين هذا البيان بأنه «وثيقة لينينية». وهو يقول لنا في هذا الشأن:

خطونا، كـولاً (نيكولاي) وأنا، خطوات واسعة إلى الأمام. والذي قطعناه هو في جوهره تأسيس نوع من الحزب السياسي الجديد. قمنا بكتابة وثيقة أسسها القرار رقم ١ بدانها بمقدمة وصفية ووصفاً فيها النظام السوفيتي بأنه يتسم بكل خصائص النظام الاجتماعي القائم على الاستغلال في حياتنا. ثم وصفاً أثر هذا النظام على الاقتصاد... كيف أنه خلق التطور الاقتصادي كما خلق الأدب والثقافة وكل شيء في حياتنا اليومية. وقلنا إنه ينبغي علينا محاربته وأنه يستحيل علينا أن نضطلع بكل هذه المهام دون تكوين تنظيم. تلك كانت أهم نقطة توصلنا إليها وهي أن تكوين تنظيم أمر جوهري تماماً. ومعنى هذا أننا كنا في واقع الأمر ننادي بخلق حزب جديد.

ويطبعة الحال كان مجرد التصريح بهذه الأفكار نوعاً من الانتحار. ومن ثم اقتضت الحكمة منهما الاحتفاظ بها سرا بينهما. ولكنهما تعاهدا بأن يحتفظ كل منهما بنسخة من هذا البيان في مكان آمن لا ينبغي عن بصره. فوضع نيكولاي نسخه في مقبض الكمامة الراقية من الغزازات السامة في حين وضع سولجنتسين نسخه في الحافظة التي تحوي الخريطة التي يسترشد بها في تحركاته. ولم يمنعه صغله على النظام الساتلاني من أن يستمتع بحياته العسكرية الجديدة التي وفرت له قدراً كبيراً من الحرية والاستقلال بحكم ما كان يشعر به من ضيق وإذلال عقب تجوذه مباشرة.

وفى تلك الفترة بدأ فى تدخين السجائر فكتب إلى زوجته يقول إن التدخين أصبح يساعده على الكتابة كما أنه استمتع بشرب كميات الفودكا التى كان الجيش يصرفها له مجاناً. وبذل الصديقان يتزاربان فى فترات الاسترخاء ولكن زيارتهما توقفت باشتراكهما الخطى فى القتال. وعندما التقى الصديقان آخر مرة فى ١ يولية ١٩٤٣ أمضى نيكولاى الليلة بطولها فى الخندق الذى تخندق فيه سرولجنتسين وذلك قبل يومين لسط من اشتراكه وحديثهما فى معركة تعرف بمعركة أوريل التى كانت نقطة تحول فى مجرى الحرب بين الروس والألمان. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يذوق فيها كاتبنا طعم القتال الحقيقى. وبعد قتال عنيف مع العدو دام ثلاثة أسابيع استطاع سرولجنتسين فى ٥ أغسطس ١٩٤٣ أن يدخل مع وحدته ظافراً بلدة أوريل. ولم يعض على انتصاره أكثر من عشرة أيام حتى منحته السلطات السوفيتية وسام الحرب الوطنية من الدرجة الثانية وتمت ترقية من ملازم ثان إلى ملازم أول.

والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن ستالين أثناء محنة الحرب ضد القوات النازية الغازية لم ينجأ إلى الماركسية اللينينية يستنهض بها حمية الروس القروسية وعزتهم الوطنية بل سعى ما وسعه السعى إلى إنكاء روح الوطنية الفائرة فى أعماقهم ولذى توارثوه عن الآباء والأجداد منذ عهد القيصرية فى القرنين الوسطى عندما خاضوا حرباً مقدسة لرد أعدائهم من التتار وقبائل الليتونيون على أعقابهم. ورغم إدراك سرولجنتسين لما تنطوى عليه سياسة ستالين من خديعة ولزم ورغبة فى استغلال شعبه فقد استجاب عن طيب خاطر لهذا الجانب التقليدى المحافظ فى دعابة ستالين للحرب.

وعندما تقدم سرولجنتسين على رأس وحدته إلى مدينة ستاروداب الصغيرة

الواقعة غرب أوريل وجد مكتبة المدينة فى حالة يرثى لها بسبب الاحتلال الألمانى فقد تناثرت أورلقها وتبعثرت كتبها على الأرض فاقترح على قائد وحدته أن يقوم بانتقاء عشرات الكتب ليقرأها للجنود الروس فى فترات الهدوء التى يترقب فيها القتال. ولم يكن هدفة من ذلك تثقيف هؤلاء الجنود فحسب بل كان يرغب فى الأساس فى أن يضمن يقطتهم على مدار الأربعة والعشرين ساعة. كانت الوحدة موزعة على مواقع كثيرة متباعدة يربطها سويش (لوحه تحويلات) عبر أسلاك التليفونات. ومن ثم أمكن بث قراءات من الأدب الروسى عن طريق عامل السريش يسمعها كل أفراد الوحدة فى مواقعهم. ونجحت هذه التجربة الإذاعية الأدبية نجاحاً عظيماً دله على مدى الحب العميق الذى حمله الجنود لرواية تولستوى المعروفة «الحرب والسلام». فقد أحبوا فى هذه الرواية نطقها وأصالتها وقدرتها على تصوير الواقع وعلى نقل طعم المعارك الحقيقية إلى الجنود على جبهة القتال، فضلاً عن إعجابهم بسفيرة الرواية من خيلاء الضباط وزهوم الزائف. واكتشف سرولجنتسين أيضاً إقبال الجنود على قصيدة الشاعر ألكسندر تفاردرفسكى الهجائية الساخرة المعروفة بعنوان «فاسولى تيوركين» التى بلغ إعجاب سرولجنتسين بها حدا جعله يكتب إلى زوجته: «شامت لمصادقات مؤخر أن أقرأ أول كتاب صادق (بالعنى الذى أفهمه) عن الحرب وهو بطوان فاسولى تيوركين الذى ألفه تفاردرفسكى. فلأنك قرأت للتصيدة بنائية فأنك قمينة بأن تجدى فيها أشياء كثيرة لم يعالجها أحد من قبل. وبوجه عام فإن تفاردرفسكى واحد من أحن الشعراء الروس إن لم يكن أحسنهم جميعاً. وسوف أرسل إليه فى يوم من الأيام خطاباً أخبر فيه عن تقديرى».

وبحلول عام ١٩٤٤ توقف الألمان عن القتال وتخندقوا بالقرب من مدينة صغيرة اسمها زلوبين فاعتصمت القوات الروسية هذه الفرصة لاجتماع قواها شهيداً لتقدمها ومطاردة القوات النازية حتى عقر دارها داخل الأراضى الألمانية نفسها والتهز سرولجنتسين فرصة توقف القتال فى زلوبين ليصرف إلى كتابة البوميات وبعض القصص مثل «السلام» وفى مدينة «م» والخطاب رقم ٧٥٤، ومحاكاة امرأة، والبستان، وبالرغم من أنه استفاد من تجارب الحرب فقد ضاق بها ويصف المدايع وفرقة السلاح التى كانت تحول بينه وبين الكتابة. وكثيراً ما عبر عن قلقه حول مصير مخطوطاته القصصية. ولم يهدأ له بال أو يشعر بالاطمئنان إلا حين أكدت له زوجته أنها تحتفظ بكل مخطوطاته فى أمان. وأراد أن يطمئن أيضاً على مستوى كتاباته فأرسل فى عام ١٩٤١ ثلاثاً من قصصه الباكورة فى مهمة بالخارج، ونقاط على النهر، وعائلة نيكولاىفسكى، إلى اثنين من الكتاب الروس المعروفين الذين يحمل لهما ألقاب العجائب هما الروائى كونستانتين فيدين والكتّاب الروائى والمصري بريس لافريف. ولكنه لم يثقل منهما رداً بسبب ظروف الحرب التى حالت دون اتصالهما به. وكان لا يزال على اتصال بليديا زهرتس صديقه وزميلته فى الدراسة فى روستوف والتى كانت آنذاك تواصل دراساتها العليا فى الأدب الألمانى بجامعة موسكو. وحرصت عليه ليهدي أن تحاول الاتصال مرة أخرى بالادبيين الكبار لتسألهم عن رأيهم فى أحدث إنتاجه وتذكرهما فى الوقت نفسه بإنتاجه القديم الذى سبق أن أرسله إليهما. وكان أخشى ما يخشاه سرولجنتسين أن يصل إليه الرد بخطو كتاباته من الموهبة لأنه اعتبر هذا بمثابة حكم بالإعدام عليه. وفى مارس ١٩٤٤

النوع الذى لا يوافق على وجود السيدات فى صفوف الجنود، وعادت ناتاليا إلى جامعة روستوف للعمل بصفة مؤقتة فى وظيفة مساعد معلم، ويبدو أن بعد زوجها عنها لفترات طويلة أبرز شقة الخلاف بين الزوجين فقد قالت له أثناء وجودها معه على الجبهة قبل أن تغادرها لتعود إلى روستوف إنها لا تستطيع أن تتصور حياتها معه دون أن ينجب أطفالاً، الأمر الذى جعله يكتب إليها فى سبتمبر ١٩٤٤ خطاباً يقول فيه إن باستطاعة كل إنسان تقريباً أن ينجب أطفالاً ولكن ربما ليس هناك إنسان غيره يستطيع إن يصيغ الأحداث التى تلت ثورة أكتوبر ١٩١٧ فى عمل أدبى، ثم يحفظ فيوسف أن جسامته هذه السهمة قد تحتاج إلى معونة شخص آخر يساعده على إتمامها، وبذل هذا الخطاب على شدة إيمانه آنذاك بالثيودورية. فهو يقول فى هذا الصدد: «ما عسائى أن أقفل من أجل المذهب الثيودورينى؟ وكيف يمكنى ترتيب حياتى لهذه الغاية؟»

وفى يونيو عام ١٩٤٤ تمت ترقية سولجنتسين إلى رتبة نقيب، وتعد مؤلفنا أن يوجب السن والبلدان الصغيرة فى أوقات الهدوء بهدف استقصاء مشاعر بنى جلنته نحو جيش الاحتلال وفى تجواله اكتشف العجب العجائب، اكتشف أن جيش الاحتلال فى مدينة ستاروباد التى سبق أن أخذ بعض الكتب من مكتبته يتكون من الجنود المجريين وليس من الألمان وأن هؤلاء المجريين استطاعوا فى فترة بقائهم فى المدينة أن يكسبوا شعبية هائلة بين نساها، اللائى ذرفن الدمع سخياً وهن يودعنهم عند رحيلهم عنها أكثر مما ذرفن الدمع على أزواجهن وهم فى طريقهم إلى ميدان القتال.

ومن الأمور التى استوقفت نظره ذلك الموقف الرسمى من الروس الذين

إلى زوجته، ولم يطم برفاة والدته إلا بعد مرور بضعة أشهر على دفنها. فقد أرسل إليها كالمعتاد مبلغاً من المال ولكن خطابه ارتد إليه وقد كتب عليه: لم يسم إلى صاحبة الخطاب لوفاتها، ولأن الهدوء دام بعض الوقت على جبهة القتال. فقد استطاع أفراد الوحدة أن يحولوا خنادقهم إلى أماكن مريحة نسبياً، وكان يأمل أن يستمر زوجته فى الجيش معه بعد أن تم تعيينها فى الفصيل المصائب المنوط به فحص وتحليل الشرجات للصربية لطائرات الأعداء لتحديد مواقعها ومسافاتها، وفى أوقات الفراغ علم مؤلفنا زوجته استخدام المسدس كما كان يقرأ لها بعضاً من كتاباته أو قصة حياة ما تلى كوزيمياك، ماكسيم جوركى الذى اعتبره آنذاك أعظم كاتب دون مذازع. غير أن الحياة المدنية التى عاشتها زوجته بعيداً عن المعارك وجبهة القتال جعلت من العصور عليها أن تكمل مشاق الحياة العسكرية وصعابها وخشونة الطعام الذى يتناولونه الجنود وقطاعة اللبسة التى يستخدمونها. ووجدت ناتاليا للنظام العسكري مقبلاً فأبت أن تعامل زوجها بالاحترام الرسمى نفسه الذى تعامل به زملاءه من الضباط، فقد أبت الوقوف أمامه (انتباه) كلما مر عليها أثناء عملها ورأت أن هذا وضع مسنحك، فى حين رأى زوجها أن عدم حضورها للأوامر العسكرية يهدم النظام فى الوحدة بأسرها.

وانتهت تجربة سولجنتسين للجيش فى الوحدة نفسها مع زوجته بالفشل، ومما ساعده على هذا الفشل انصرافه الدائم إلى أداء واجباته العسكرية وإلى الكتابة عن الجبهة كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، الأمر الذى زاد من ضيق زوجته بالحياة العسكرية الجافة. ولاحظ قائد الوحدة برهما ففصل بأسباب وجيهة للاستغناء عن خدماتها، ومن بين هذه الأسباب قرب انضمام الوحدة إلى لواء يرأسه ضابط من

استطاع مؤلفنا أن يتقن قائد وحدته المتمركزة فى زلويون بإعطائه إجازة لمدة عشرة أيام يزور فيها صديقه كيريل وصديقه ليديا وزوجته ناتاليا، وعندما التقى بصديقه القديم أخذاً وجدالاً الآراء فى شؤون البلاد، وبالرغم من تشاؤم نظرة كيريل السياسية وأن مقته للنظام الستالينى لم يكن يقل عن مقت صديقه له، فإنه لم يبد أدنى اهتمام بالقرار رقم ١ الذى سطره سولجنتسين بالتعاون مع صديقه نيكولاى والذى ينادى بضرورة إجراء التغييرات الجوهرية فى النظام السياسى للاتحاد السوفيتى. وأخيراً تلتق ليديا رداً من الأديب لافريديف بصفت قصص سولجنتسين بأنها لطيفة وترقى له، وأخبرها لافريديف أنه أرسلها بتوصية للنشر فى مجلة «العلم، الأدبية». وعندما علم مؤلفنا هذا دخله شعور بالاغتراب المحفوظ فقد كان ينتظر من لافريديف بدلاً من رأيه المستمر أن يوافيه برأى مفصل فى مستوى كتاباته. وفى خلال إجازته شامت الظروف أن يفسل فى الانتقاء بزوجه كما كان يأمل، ولهذا التما إلى حيلة تمكنها من طريق تزويدها ببعض الأوراق الرسمية الموزرة التى تعمل خاتم الجيش من الالتحاق بوحدته نفسها، ولم يكن هذا بالأمر الغريب أو غير متألوف. فقد فعل قائد هذه الوحدة وبعض أفرادها الشيء نفسه بل إن بعض الجنود الذين تصرفوا إلى بعض النساء ذهورهن للملاقى بهم فى الوحدة. ففى بعض الأحيان كانت الوحدات تستعين بالنساء فى أعمال التمريض والمراسلة.

وفى ١٧ يناير عام ١٩٤٤ لفظت تاتيسيا والدة مؤلفنا أنفاسها الأخيرة فأصابه غم شديد واعتبر أنه مسئول عن موتها لأنه تركها تعاني من شظف العيش إلى جانب الشدائد وطأة المرض عليها. فقد كان يرسل إليها جانباً ضئيلاً من راتبه من الجيش ويرسل الجانب الأكبر

يتعاونون مع أعدائهم الألمان. صحيح أنه تفهم موقف الاشتراكيين من غدرهم وخيانتهم. غير أن نظريته الفاحصة المتعمقة لم تكف بمجردهم ردود الفعل الرسمية نحو هؤلاء البؤساء مثل استنكار أفعالهم وإنزال أشد العقاب بهم. ففي أحد الأيام دعاه بعض المسؤولين في الجيش لحضور إعدام اثنين من المتعاونين مع الأعداء وسط جمع من الجنود والضباط والعمرضات والنساء والبنات اللائي جئن خصيصا من القرى المجاورة من أجل هذه المناسبة. وهاله أن الحاضرين بعد انتهائهم عملية الإعدام يتحدثون هذه الفرصة للتعبير عن ابتهاجهم والإفراط في المأكول والشراب والرقص وكأنهم يشربون في إقامة الاحتفالات. وفي الهزيع الأخير من الليل نصحه أحد زملائه أن يجد لنفسه امرأة يضاجعها. ولكن نفسه الحماسة عافت أن يفعل ذلك ويفضل أن يلوك إلى خندقه يخلو فيه إلى نفسه. واكتشف سولجنتسين أن بعض السوفييت الروس الذين يحاربون في صفوف أعدائهم من الألمان كانوا تحت قيادة جنرال روسي اسمه الجنرال فلاسوف، وهو الأمر الذي أشار إليه مؤلفنا فيما بعد في قصيدته «الطريق». فقد وقع في يده وهو في انتظار دخول معركة أبريل إعلان عليه صورة هذا الجنرال يقول إنه تم في عام ١٩٤٢ تكوين لجنة هدفها الاستعانة بالألمان للإطاحة بساتلين وإقامة دولة روسية غير شيوعية. والأخطر من هذا أنه اكتشف في معركة أبريل وجود بعض الروس الذين يحاربون مع الألمان ضد بنى جيلتهم بحضراوة تفوق شراسة الجنود الألمان أنفسهم ليس حبا في النازية ولكن كراهية في النظام الشيوعي. وبالرغم من اشتداد كاتبتنا من خيانة هؤلاء المتعاونين مع الروس فإنه أثمانا كذلك من أسلوب معالجة السلطات السوفيتية لهم دون أدنى رحمة أو هوانة.

فدلت يوم سمع أثناء سيره في الطريق صوت رجل في ملابس المجندين الألمان يستعطفه بلغة روسية لا ريب فيها قائلا له: «سيدى النقيب..... سيدى النقيب». والتفت سولجنتسين إليه فوجد نفسه الأعلى عاريا والدم يغطي كل وجهه وصدره وكنتفه وظهره وأحد رجال الأمن فوق جوار يدهى بالسوط على جسده وفي اللحظة نفسها يدفع حصانه إلى (دهسه).

وفي نهاية عام ١٩٤٤ تمكن سولجنتسين وجنوده من دخول بولندا شهيدا لغزو الأراضي الألمانية نفسها. وفي تلك الفترة وصله عن طريق صديقته لوبدا رأى الأديب لافريتييف في مستوى أعماله القديم منها والحديث. قال لافريتييف إن القصص القديمة التي سبق إرسالها إليه في عام ١٩٤١ تدل على «مهارته الأولية في صياغة أفكاره وملاحظاته في قالب أدبي». ثم قال عن أعماله الحديثة إنها تدل على أن المؤلف بلغ مرحلة النضج وأنه خطا بفته خطوات واسعة إلى الأمام. ولهذا يمكن أن نتوقع منه إنتاجا أدبيا جديرا بأن يسمى أدبا. وأضاف قائلا: «لا يخامرني أدنى شك في استحسان المؤلف للعمل الأدبي». وأعتقد أنه عندما يسود الهدوء بعد أن تضع الحرب أوزارها وعندما يتمكن المؤلف من تكريس وقته تماما للعمل الذي من الواضح أنه يحبه فإنه سوف يتمكن أيضا من بلوغ النجاح. ورغم ما يطوى عليه هذا الكلام من تشجيع فقد استعجزه سولجنتسين كلاما غامضا لأنه يتحدث عنه كأديب واعد يرمي من قلمه الخير وليس كأديب أنجز بالفعل عملا له قيمته. وعلى أية حال رغبت مجلة «العلم» حينذاك نشر قصصه رغم توصية لافريتييف بنشرها. ولعل هذا يرجع إلى أن نوعية القصص التي يكتبها لا تتماشى مع السياسة الدعائية التقليدية للدولة السوفيتية. ففي قصة «النقيب» نرى أن

مجرد ضابط احتياط يلجج في إنقاذ ضابط محترف برتبة نقيب من برائن الموت، مما قد يثير حق الدوائر الأدبية الرسمية عليه. كما أن قصته «في مدينة» تدل على سعي المؤلف جامدا إلى فهم نوازع الروس الذين يقبلون على أنفسهم التحارب مع الأعداء، بدلا من الاكتفاء بتصويرهم على النهج التقليدي بأنهم طغمة من الفئوة الذين يستأملن العقاب. وربما كان هذا سببا في إهمال الأدب المعروف فيديون عن السلوك على قصصه.

وتدل الخطابات التي أرسلها سولجنتسين حينذاك إلى زوجته على اتساع هوة الخلاف بينهما. ففي أحد هذه الخطابات كتب إليها يقول: «في ربيع عام ١٩٤٤ رأيت مدى ما يطوى عليه حبك من تفكير دائم في الذات ومدى امتلاكك بالتحيزات حول موضوع الحياة العائلية... فأنت تصورين مستقبلنا على أنه الحياة معا بلا عواطف أو شواوب واستلام المنزل بالآثاث وشقة مريحة وزيارات منتظمة من الضيوف والذهاب إلى المسارح في المساء. وأغلب الظن أن شيئا من كل هذا لن يحدث. فقد نعيش حياة غير مستقرة ننقل فيها من مكان إلى مكان. وسوف نمتلك أشياء لتخلص منها باليسر نفسه الذي حصلنا به عليها. ورغم هذا فقد كان سولجنتسين حتى ذلك الوقت لا يزال يحب زوجته.

وفي تلك الفترة أيضا كان سولجنتسين يحس بروهه قلوب في روح نيكولاي فينكتش رغم استشهاده مؤخرا أن شيئا من التغيير بدأ يطرأ على موقف صديقه الراقص ساتلين. والساحر منه، فقد ذهب إلى القول إنه من الجائز أن ساتلين ليس بالسوء الذي يظنانه به. وظلت العلاقة بينهما وطيدة واستمر في تبادل الرسائل غير مبالين بالرقابة العسكرية التي كانت تحجزها دون أن

يدريا، غير أنهما لاحظا أن خطابات كل منهما للأخير لم تعد تصل إليهما بالكمرة نفسها التي كانت تصل بها فيما مضى، وشاوت المصادفات أن يحسرف سولجنتسين بنقيب بحرى اسمه ليونيد فلاسوف ظن من انتقاده لما وصل إليه المجتمع السوفيتي من تدهور وفساد أنه يعترض على سياسة ستالين ونظام حكمه، ولكنه فوجئ بخطاب منه يدعى ستالين من كل ما يشوب المجتمع السوفيتي من عيوب ومثالب إذ قال فيه: «لقد فكرت في هذا الأمر كثيرا ووصلت إلى اقتناع بأن ستالين رجل عظيم وأنه لم يرتكب خطأ في أى شيء، إنه للشخص الذى نعينه حيادنا».

وفى أثناء زحف الجيش السوفيتي صوب برلين خاض مولفنا لأول مرة فى حياته تجربة جديدة تلخص فى أن الكل أصبح واحدا، فقد ثابت الوحدة الصغيرة التى تأثر بأمره فى كيان عسكري كبير، أى فى جيش عرمرم كثير العدد والعدة يتحرك مهاجما ومناكرا ليكتسح كل شيء فى طريقه. ولم تكتبه قيادة الجيش السوفيتي الزاحف نحو برلين إلى بعض الأخطار المحدقة به والتي تتمثل فى وجود بعض جنود الأعداء خلف خطوط القتال وفى ليلة ٢٦ يناير ١٩٤٥ فوجئ سولجنتسين برجاله يصاقون إلى مركز الأعداء يحيطون بهم ويعزلونهم عن بقية جيشهم المتقدم، وعندما أبلغ سولجنتسين للقيادة العسكرية العليا بهذا الأمر رفضت أن تصدقه إلا بعد أن انقطعت وسائل الاتصال التى تربطها بوحدها المختلفة، وعندئذ تعرض سولجنتسين لوابل من رصاص البنادق. الأمر الذى اضطره إلى الاحتماة بغابة قريبة، ويتضمن عملاء الأوكيان «الليالى البروسية» وأعضاء «١٩١٤» إشارات لهذه التجربة، وتصف «الليالى البروسية» عمليات النهب والسلب المصنوعة التى قام بها الجيش السوفيتي بتشجيع من قيادته العسكرية والسياسية.

ويعترف لنا سولجنتسين بنفسه باشتراكه فى هذه العمليات أثناء وجوده فى بولندا ولكن بصورة أرقى من أسلوب بقتية الضباط والجنود فى السلب والنهب، ففى بولندا قام مولفنا بالاستيلاء على مجموعة من الكتب الروسية للنادرة التى يرجع كثير منها إلى فترة الثورة وإلى العشرينيات التى أصبح تداولها محظورا فى الاتحاد السوفيتي. واستطاع أن يخبئ هذه الكتب للنادرة فى حافظة المدفع أى فى غلافه، ونحن نراه يعترف أيضا فى «الليالى البروسية» بارتكاب حادث سطر آخر، فقد دخل مكتب بريد أماني ليجد مجموعة من الأوراق والأقلام والندابيس الفاخرة التى لم يستطع مقاومة إغرائها فاستولى عليها لنفسه. فلاخرو إذا رأينا كاتبنا يعالج فى أدبه هذا الجانب السيئ والدمر من الحرب.

القبض على سولجنتسين :

فى ٩ فبراير من عام ١٩٤٥ حدث لسولجنتسين ما لم يكن فى الحسبان، فقد أبلغته القيادة العسكرية بضرورة التوجه فوراً لمقابلة القائد العام الجنرال ترافكين. وعندما دخل مكتبه وجد مجموعة من الضباط ينتظرون فى أحد أركان الحجرة. وأمره ترافكين أن يخطو إلى الأمام ويسلمه مسدسه، فقام بخلمه من القابض وسلمه إلى الجنرال ترافكين الذى أخذ منه ولفه ببطء ووضع فى درج المكتب ثم التفت إلى سولجنتسين ليقول له بصوت خفيض: «حسنًا، يجب عليك الانصراف الآن». وتوهم سولجنتسين أنه وقع عليه الاختيار لإرساله فى مهمة خاصة. وهنا تقدم إليه اثنان من الضباط العاملين فى قلم مكافحة التجسس وقالوا له: «أنت مقبوض عليك، فسالهما سولجنتسين بصوت راه ضعيف: «أنا؟ لماذا؟» وبدلاً من الرد عليه قاما بنزع الشارة العسكرية من كتفه والتجمة من فوق الكاب الذى يلبسه وانتزعا حافظة للخريطة من يده

وأمره القائد بالانصراف من الحجرة وسط حراسة مشددة. ولكن الجنرال ترافكين طلب إليه الرجوع فعاد لوسانه الجنرال بطريقة لها مغزاهما إذا كان له صديق فى الجهة الأكرانية، فدخل ضابطا المشابرات ونهرا الجنرال وقالوا له إن ما فعله يعتبر مخالفة للوائح والتعليمات، وفهم سولجنتسين من سؤال الجنرال أنه يلحق إلى صديقه نيكولاى وفى بطنه نهض الجنرال الجالس إلى مكتبه ليأخذ يد مولفنا ويهزها بحرارة مبالغ فيها قائلا له: «أمنى لك السعادة أيها النقيب»، وهزته تحية الجنرال الحارة باليد له من الأعماق لدرجة أنه وصفها فيما بعد بأنها أشجع عمل شاهد فى فترة الحرب على الإطلاق. فالقبض عليه كان معناه أنه أصبح فى نظر الدولة السوفيتية عدوا للطبقة الكادحة، وفى أثناء إقنياده إلى مركز القيادة تساقطت بعض القنابل بالقرب منه غير أنه كان مشغولا بأفقه الأمور وأصغرها مثل ضياح هيبته أمام جنوده عندما يرين الشارة العسكرية وقد انتزعت منه. وأمر رجال المشابرات الجارحين إلإا سولومين بإحضار حقيبة ملابس رئيسه الضابط سولجنتسين الذى كان قد اصطفاه فى يوم ما ليكون فى استقبال زوجته ناتاليا عند وصولها إلى الوحدة ليرافقها إلى مقرها. ولكن سولومين الذى كانت تربطه بسولجنتسين علاقة طيبة تعمد ألا يحضر الكتب المملوكة للضابط فى غلاف المدفع. كما أنه أغفل أن يحضر لهم أوراقه الخاصة ومن بينها بعض خطابات زوجته إليه، فقد لحظت بها ليقوم بتسليمها إليها فيما بعد، وعندما أوصله الحراس فى سيارة إلى مركز القيادة قاموا بفتيشه وتفتيش حقيبته ثم ردوا إليه. ولكن أحدهم أفر الاحتياط فى جيبه بحافظة سجاير كان مولفنا قد استولى عليها من الألمان. وبعد تعقيد يديه بالأغلال دفعا به إلى السيارة

التي انطلقت على الطريق الأسفلتي في الزيف الألماني. وداعبه خياله فتصور أنهم سوف يأخذونه إلى حضرة ستالين نفسه وأنه سوف يتقدم هذه الفرصة ليقول له رأييه بصراحة في نظامه الفاسد ويشرح له برنامجا للإصلاح. ولكنه أفاق إلى الحقيقة المرة عندما أدرك أن السيارة التي ضلت الطريق لا تتطرق به في اتجاه روسيا بل تتوغل في الاتجاه المضاد في الأراضي الألمانية، ورأى الجنود الألمان في ظلام الليل أضواء السيارة فأطلقوا نيرانهم وقذائفهم عليها. وخشى الحراس على حياتهم فترقفوا عن السير وغادروا السيارة. واختار سولجنتسين هل بينهم إلى خطئهم أم يتركهم على عماهم. وأخيرا قرر توبيخهم فسلموه خريطة المكان ليذهبهم على الطريق الصحيح. وأراد رجل المخابرات أن يظلمف معه فأصاأ إليه إلى التفتيش. وهكذا اضطرته مفارقات الحياة أن يلهم إلى الطريق المؤدى إلى السجن الذى سوف يردعونه فيه. وبعد وصوله إلى مركز قيادة الجيش السادس والأربعين فى مدينة أوسترود البروسية الصغيرة تم للمرة الثانية تفتيش ملابسه وحقيبته، كما تمت للمرة الثانية مصادرة حافظة سجايره. ثم أقيأ إلى زنزانه تحت الأرض يرقد على كومة من القش فوق أرضيتها المصنوعة من الأمست المسلح ثلاثة سجناء آخرين. وفى الصباح تعرض سولجنتسين للإذلال عندما حضر إلى السجناء رقيب أول ليأمرهم بالصعود إلى الفناء ليقضوا فيه حاجتهم فى وقت واحد تحت مرأى الحراس الذين يحملون الدافع الرشاشة. وفى ذلك اليوم نفسه اصطف أدبيينا مع سبعة سجناء آخرين كانوا من المجددين الروس الذين شاء حظهم المائر أن يقفوا فى أسر القوات الألمانية لفترات طويلة قد تصل إلى أعوام، الأمر الذى جعل السلطات السوفيتية تنتظر اليهم بعين

الريبة وتشك فى ولاكهم لها. ومن ثم تقوم لأسباب أمنية باستدعائهم إلى روسيا تحسبا لأى عدم ولاء وطنى قد يظهرهونه: واصطف بجوار سولجنتسين سجين ثامن مندى جنسيته ألمانية. وعز على أدبيينا أن يمتحن شرفه المسمى إلى حد المساواة بينه وبين العدو، فأصر أن يقوم السجن الألماني بحمل حقيبته ففعل وظل هذا السجن الألماني يحمل هذه الحقيبة حتى سقط من الإغواء فقتلوا به حملها السجناء السبعة الآخرين الذين كانوا مجرد أنفار. وقطع السجناء الطريق مشيا على الأقدام لمدة يومين فى جو قارس شديد البرودة يلهم فيه التلويح فيجمد أطرافهم. ولغقت بزة سولجنتسين العسكرية بأزرارها الذهبية اللالعة أنظار بعض سائقى المركبات على الطريق فظنوا أنه أحد الخونة المتعاونين مع العدو من أتباع الجنرال فلاسوف فصاحوا فيه وسفروا منه ووجهوا سبلا من الإهانات إليه، فابتسم فى وجوههم فعلا صياهم وزادت إهاناتهم له. وفى بلدة برونكيس أودع الحراس سجناءهم الزنزانة حيث مكث مؤلنا فى إحداهما ثلاثة أيام. وهناك سمع لأول مرة فى حياته ما يتحرض له السجناء من تكليل وتمذيب واستجواب. وبعد انقضاء هذه الأيام الثلاثة خرج سولجنتسين من زنزانه تحت حراسة تقيب وجاريتين حمل كل منهما إلى جانب أسلحه الأوتوماتيكية حقيبتيه مقلتين بغلالمهم وأسلاب استولى عليها بعض رؤسائهم من الضباط الذين طلبوا منهم توصيلها إلى موسكو سالمة. وفهم سولجنتسين من كلام حراسه أنهم يجهبون شطر موسكو. وقطع أدبيينا المرحلة الأولى من رحلته إلى موسكو فى قطار بضائع تملأ عرباته بحشد من النساء والفتيات اللاتي حامت شرك السطات السوفيتية حول ولاكن لها لا لشيء إلا لأن قنهن شاء لهن أن يعشن

فى ظل الاحتلال الألماني. وعند وصول قطار البضاعة إلى الحدود الروسية قامت السلطات المحلية بحجزهن تسهيدا لاستجوابهن. ولكنها سمحت له بمواصلة رحلته التي استمرت أربعة أيام فى قطار سريع ومرح بعض الشيء يتجه إلى موسكو. وبدأ نوع من الألفة يربط بينه وبين حراسه الذين رفقوا على سجنهم الحرج، فظفأروا بأنه ليس مقبوضا عليه. وقدم إليه الضابط الفودكا وسمح له بالمشى فى طرقات القطار تحت حراسه حارس واحد فقط. ويصور لنا سولجنتسين فى قصيدته «الطريق» رحلة عودته من ألمانيا إلى موسكو التي شبيهها بعودة الشاعر وإيم كوتشليكر صديق بورشكين إلى روسيا فى عهد القيصرية فى ظروف مماثلة.

لم تثر تأثرة سولجنتسين من جزاء معاملة السلطات السوفيتية السهلة له بل قبلها واستسلم لها. ولا غرو فقد كان رغم شكوكه فى ستالين لا يزال مؤمنا بالنظام السوفيتى وفيما له يرى أنه يمكن تغييره بالوسائل السلمية والديمقراطية. وخطر له أن يبلغ زوجته ناتاليا بما حدث له.. فهذه تفكيره إلى التقرب إلى وفاة جميلة من ركاب القطار استجابت لكلامه معها على الفور. ولا حظ الحراس هذا الاستطاف فابتعد عنهما حتى يخلو لهما الجو ولا يحرجهما فأغتم سولجنتسين هذه الفرصة السانحة ومال إلى الفتاة وهمس إليها أنه سجين تحت الحراسة وكرر أمامها عنوان زوجته وطلب منها أن تحفظه. ولكن الفتاة ابتعدت على الفور وأشاحت بوجهها عنه. وظن الحارس أن أدبيينا عرض عليها عرضا يخذل الحياة فازيرت عنه. وحين وصل القطار الذى يستقلونه إلى موسكو اتضح له أن حراسه أسقط فى أيديهم وأنهم يحتاجون إلى إرشاده إذ لم يسبق لهم قط زيارة موسكو. وللمرة الثانية لعب سولجنتسين دور

المُرشد لحراسه ولبهم على الطريق إلى سجن لوبيانكا المعروف الذى وصل إليه فى ٢٠ فبراير ١٩٤٥. ويصجل سولجنتسين هذه التجربة فى الصفحات الأخيرة من كتابه «الدائرة الأولى».

سجون ومسكرات عمل فى حياته : سجن لوبيانكا :

عندما وصل سولجنتسين إلى سجن لوبيانكا الشهير رز به السجناء فى زنزانة يحدلى من سقفها ضوء باهر لا يتناسب مطلقاً مع ضيقها الذى لم يسمح له بمجرد تمديد رجليه. واقتحم عليه الزنزانة رجل يلبس معطفاً رمادياً سألته عن اسمه وطلب إليه أن يخلع ملابسه ويضعها على الأرض. وعندما صار سولجنتسين عارياً كما ولدته أمه اقترى به منه الرجل وطلب منه أن يفتح فمه ويقول (آه) وأن يرفع لسانه إلى سقف حلقه. وأدخل الرجل أصابعه فى فمه المستوح وتحنس خديه. ثم أفلز جنى السجون السائرين وحقن إليهما دافعاً برأسه إلى الوراء، فاستقر الضوء الساطع على فمى أنفه. وبعد أن تحنن بأصابعه أذنيه أمره أن يمسك يده ويرفع ذراعيه ليتأكد من أنه لا يخلو شيئاً تحت إبطه. كل هذا فعله الرجل فى صمت مطبق وبوجه جامد خال من التعبير. ثم طلب إلى السجنين أن يمسك بقصبيبه ويقلب غرلته ويحركها ذات اليمين وذات الشمال وأن يفتح رجليه كالبرجل بقدر ما يستطيع بغية فحص ما بينهما فحصاً دقيقاً. ثم عاد وطلب منه الانحناء وأن يبعد بيديه كل ردف عن الآخر حتى يضمن فيما بينهما. وأخيراً طلب منه أن يقف ويجلس القرفصاء مراراً وتكراراً حتى يطمئن إلى دقة فحصه لجسد السجنين. وأشار إليه - رغم أن أسنانه كانت تصطك من شدة البرد - أن يجلس وهو عار على مقعد قصير بدون مقعد. وبعد ذلك أنبه الرجل ذو المصلف

الرمادى إلى كومة الملابس الملقاة على الأرض فحصبهما فى الضوء قطعة قطعة... سروله... قائلته... جواربه قبل أن يقذف بها عند قدميه ويطلب إليه ارتداها. ثم انقلب هذا السجنين ذا الرقبة للطلولة وهزه باحتقار ليسقط منه بعض أجزاء قلم رصاص صغير كان يأمل فى إخفائه. وأمسك بمطوية نزع بها كعب الحذاء وقام بفحص سترته بعناية شديدة بعد أن خلع بطانتها، كما أخرج حشو معطفه ليرى ما عسى أن يكون بداخله. واستغرق هذا التفتيش ساعة كاملة تمزقت فيها ثياب سولجنتسين وبخاؤه وتحوّلت إلى خرق وأسمال. وزاد الطينة بلة أن تطايرت أزهار بطلونه مما جعله عاجزاً عن رفعه. فلما شكا إلى الحارس أشار إليه بالقتضاب شديد أن يستخدم قطعة من الدوبار ليمنع البصلون من أن يتحدلى. وتصور «الدائرة الأولى» وقع هذا النوع من التفتيش عليه، فقد أصابه بنوع من العجز عن الكلام أو المناقشة إذ كان يتوقع أن يتبادل الرأى مع المحقق ويقارعه بالحجة بالحجة. وأدرك سولجنتسين بالفريضة أن مثلاً هذا النوع من التفتيش ليس له سوى هدف واحد هو تعطيل إرادة السجنين. وفى هذا الصدد كتب مؤلفنا فى وقت آخر يقول: «وهكذا تتلاشى بسرعة عادة الإنسان الحر فى التفكير فى عواقب أى شيء قبل الإتيان به»، كما أن مثل هذه الإجراءات كسيلة بأن «تهتهن السجنين وتجله فى حالة من الذل والخذل وتحرمه من التمتع وسلامة الإدراك ومن إرادة المقاومة».

ثم دخل عليه للمرة الثانية سجان آخر وطلب إليه أن يخلع ملابسه وأن يجلس على المقعد ودون أن يذبس يديته شفة امتدت يده إلى رأسه ليحلق كل شعره فيها ويجعلها صلعاء تماماً. وكذلك أزال الشعر تحت إبطيه وفى مواضع أخرى. وبعد الحلاق جاءه الطبيب ليطالب منه

أيضاً خلع ملابسه ويسأله إذا كان يعانى من أية أمراض تناسلية أو البهرس أو غيره من الأمراض. وبعد الطبيب جاءه سجان آخر ليرافقه إلى الحمام ليأخذ نشاً. واكتشف بعد خروجه منه أن الحراس أخذوا ثيابه لتحقيقها ثم أعادوا إليه بعد مضى بعض الوقت رطبة مكرشة تتلمع من شدة حرارتها. ثم اصطحبوه عبر ممرات ودهاليز كثيرة إلى غرفة التصوير حيث أخذوا له صوراً فوتوغرافية للرجل والجنب كما أخذوا بصماته فى بياضه قبل أن يحوطوه إلى زنزانه. وفى كل مرة يخرج منها أو يدخل إليها يسأله السجان عن اسمه واسم أبيه وجده وتاريخه ومكان ميلاده. وحاول الفلور للدم فى زنزانه ولكن الحارس أوقفه وطلب إليه ارتداء ملابسه ليرافقه عبر ممرات ودهاليز ومالام وأغنية إلى حجرة كبيرة أحتوت على غير العادة بنكا خشبياً طويلاً مثبتاً فى الحائط يمكن للدم عليه. وفيها فرجى السجنين بسجانه يمسكه مرتبة وملاءة وبطانية ومخدة وكيس مخدة حتى ينام. ولكن لم يكد يغمض له جفن حتى دخل عليه السجان فى عنف ليخبره أن للتطيمات تقتضى منه أن ينام بشرط أن يخرج ذراعيه من تحت البطانية. ورغم بساطة هذا الشرط فقد كان كفيلاً بأن يطير اللوم من عيديه. وظل يقلب طوال الليل فى فراشه رغم شدة إنهاكه. ولم يثق اللوم إلا على نحو متقطع للغاية. ولم يدر بخده أنهم كانوا بذلك يعدونه للثقل أمام المحقق الذى استمر للتحقيق معه أربعة أيام بلياليها أمكن من خلالها حرمانه من اللوم بحيلة غاية فى البساطة. فتطيمات السجن تقتضى من السجنين ألا ينام بعد الساعة السادسة صباحاً. ولهذا كان التحقيق معه يستمر طوال الليل حتى مطلع الفجر بحيث لا يستطيع اللوم حسب المواقيت التى تعددها لوائح السجن. وكان التحقيق يتم

معه في غرفة واسعة عالية السقف ملحق على أحد جدرانها صورة ضخمة لمتنائين على يد "حقوق اسمه آي. آي. إيزيروف" الذي بدأ بكتابة الاتهامات ضده والقوانين التي يحاكم بموجبها، الأمر الذي يوحى بتوفر أقصى درجات المحاكمة، ويتلخص هذه الاتهامات في أمرين أولهما التشهير بالاتحاد السوفيتي وثانيهما وهو الأخطر التآمر لقلب نظام الحكم. واعتمد المحقق في اتهاماته على نسخ للرسائل التي تبادلها سولجنتسين مع نيكولاى وكيريل وإليدا وزوجته ناتاليا في الفترة من إبريل ١٩٤٤ حتى فبراير ١٩٤٥ وواجهه المحقق بنسخة من القرار رقم ١ الذى كان يخفيه في حافظة خريطته. فرد عليه سولجنتسين بأن التهمة التي يحاول إصاهاها به غير صحيحة. فهو وزوجته وأصدقائه الثلاثة يؤمنون بولنتهم والنظام السوفيتي وأنهم لا يهتفون إلى الإطاحة به بل مجرد إدخال بعض التعديلات والإصلاحات عليه وذلك بالعودة إلى الأسس الليبيرالية السليمة. والغريب أن أدبيته ظل حتى تلك اللحظة يعتقد أن النظام السوفيتي في جوهره يسعى إلى إقامة العدل بين الناس، ولكن ثقته في هذا النظام بدأت تتزعزع عندما أدرك أن مظالم النظام ليست فردية ولكنها جماعية. فبعد أن قام المحقق بحبسها انفراديا لمدة أربعة أيام أمر بإيداعه في زنزانة عامة، وجد فيها ثلاثة مسجونين في مثل حالته تماما فتهلل لمرأهم وأصع يوشائج القرى تربطه بهم. يقول مؤلفنا في هذا الصدد في "أرخيبل الكولاج"، إن السجنين عندما يقابل في سجنه زملاء له يشاركونه المصير نفسه يلزمه شعور مدى الحياة بأنهم أصبحوا أفرادا في عائلته، وأصع سولجنتسين يوشائج القرى تربطه أكثر وأكثر بولاد من الزنزلاء الثلاثة وهو رجل ممن اسمه أناتولى إيليش فاستكو، كان بشقيا قديما قبض عليه في ظل النظام القيصري عام

١٩٠٤، ولعب دورا في إشعال ثورة ١٩٠٥ الأمر الذى أدى إلى الحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة ثمانية أعوام وبالنفي أيضا. غير أنه استطاع للهرب خارج روسيا إلى كندا والولايات المتحدة ليعود أخيرا إلى بلاده بعد قيام ثورة أكتوبر ١٩١٧. وزاد اهتمام سولجنتسين بهذا الرجل عندما أدرك أنه كان يعرف لينين معرفة شخصية. ودفن أدبيته كثيرا عندما ألح على فاستكو أن يروي له حكايات وينادي عن لينين العظيم فوجده غير مكثرت تماما بهذا الموضوع، الأمر الذى اعتبره مؤلفنا انتهاكا للمقدمات، فقد كان لينين لا يزال في نظره الرجل العظيم الذى أسس الدولة السوفيتية. فضلا عن أنه تضايق من أن اسم زميله النزيل وهو إيليش هو الاسم نفسه الذى كان محبوا لينين ينادونه به، وأن زميله السجوني الآخرين كانا يناديان فاستكو به في سياق أبعد ما يكون عن الهبة والكرامة مثل قولهما له: «إيليش، للدور عليك في حمل جردل الدبول للخارج». وعرف سولجنتسين من فاستكو أن سبب القبض عليه في عهد ستالين يرجع إلى أنهم وجدوا في حوزته مسنما قديما. وأظهر فاستكو سخطه عندما لاحظ أن أدبيته يكن للتبجيل والإجلال للينين في حين أنه يحتقر خلفه ستالين موجبا بذلك أن كلا الرجلين سواء. ونصحه فاستكو بوصفه متخصصا في الرياضيات أن يطبق مذهب ديكارت في الشك في كل مقولة يسمعا أو يقرأها، كما نصحه بالاستماع عن قراءة روايات وأعمال مكسيم جوركى باستثناء عمل واحد غير معروف له بعنوان «أفكار في غير وقتها» يتضمن خريطة وشكا في البلاشفة كان جوركى قد نشره كسلسلة من المقالات في جريدة الحياة الجديدة الصادرة في تروجراد وذلك في الفترة من مايو ١٩١٧ حتى يوليو ١٩١٨. ولكن الاتحاد السوفيتي حظر إعادة نشرها.

وأظهر سولجنتسين درجة أقل من الاهتمام بحمام أوروبي في منتصف العمر من أستونيا اسمه سوسى، تلقى تعليمه في جامعة بتروجراد وينفق إلى جانب لغته الأم وهى الأستونية ثلاث لغات يتحدثها بطلاقة هى الروسية والألمانية والإنجليزية. وتحتن سولجنتسين فسحة التريض لمدة عشرين دقيقة المسطاة للمساجين ليتعرف على آراء هذا المحامى الأوروبى ومواقفه السياسية، فأعجبه تحمسه الشديد لبلده أستونيا وحديثه الطلى حول انقطاع عن روعة نظام حكمها الديموقراطى، وهو نظام استمد البرلمان الأستونى دستور من أرقى النساتير الأوروبية وأرفعها شأنًا. ورغم أن مؤلفنا لم يقتنع بهذا الكلام عن الديموقراطية قرر سماعه له، فقد غار في وجدانه واستقر فيه ليجد في نفسه صدى له فيما بعد.

واكتشف سولجنتسين أن إدارة السجن دست عليهم في الزنزانة نفسها سجنًا ثالثا اسمه كرامارنكو لتستقى منه أخبار بقية الزملاء وردد فطهم تجاه جلسات التحقيق معهم بهدف تدمير روحهم المعنوية. وشعر أدبيته بالفقر من هذا الرجل منذ اللحظة الأولى التى رآه فيها. وأدرك من التجربة أنه ليس هناك زنزانة في سجون الاتحاد السوفيتى تغلو من وجود مخبر أو جاسوس ينقل أخبار المسجونين إلى المسئولين.

ثم انضم إلى الزنزانة نزيل خامس أطلق عليه سولجنتسين فى "أرخيبل الكولاج"، اسم ليونيد زد، وهو مهندس وابن فلاح كان في بفاعته يسير حافى القدمين ولكنه استطاع بفضل التغييرات التى أدخلتها الثورة البلاشفية على نظام التعليم الروسى أن يتدرا أعلى المناصب ويتمتع بأعلى الدخل. ولم يتحمل هذا الرجل صدمة السجن فانهار وأصبح داللب الحبيب والذكاء. وفي حزنه البالغ كان

يذكر النعمة التي ولت عنه، ويتحدث بزهو وفخر عن غزواته الجنسية الماضية. وأحصى الفتيات اللاتي فُض بكارتهم فوجد أن عددهن يصل إلى مائتين وتسعين، ويبدو أن لفلات لسانه كان السبب في بلاءه. فضلا عن تفاقم المشاكل على رأسه عندما أثار حلق البوليس السرى عليه برفضه أن يعطى للمدعى العام مواد البناء بالمانح ليني بها الفيلال الخاصة به.

وفي سجن لوبيانكا كانت القيود المفروضة على السجناء كثيرة كما كان الطعام الذي يوزع عليهم قليلا لا يسن أو يغنى من جوع. ومع هذا كانت هناك ميزة حيث إن المكتبة نُفرت بالكتب المحظورة التي لم تكتلف إدارة السجن إلى وجورها، الأمر الذي يدل على أن باب التجار مغل. فقد كانت سلطات الأمن حريصة كل الحرص على حظر مثل هذه الكتب. وساعد هذا الإهمال مؤلفنا على قراءة أعمال كثير من المشفقين أمثال زامياتن وميلنيك وباتوليومون ورومانوف إلى جانب أعمال ميريز كوفسكى الكاملة ومؤلفات دريس باسويس التي قرأها لأول مرة أثناء تجمده في لوبيانكا. وأمكن له أن يشغل ريقه بالقراءة مستفيدا من حرص إدارة السجن على توفير كتاب واحد لكل نزيل بصفة دورية (بصرف النظر عن عنوانه أو مضمونه) ومن ثم كان لدى النزلاء في زنزانه واحدة باستمرار ما يقرءونه.

ثم وصل نزيل سادس اسمه يورى واى وهو ضابط روسى سقط أسيرا فى أيدى الألمان لمدة سنتين. وشرح يورى لزملائه المسجونين السبب فى سوء المعاملة التي تلقاها الأسرى الروس بالذات على أيدى الألمان دون تقييد الأسرى من الجنسيات الأخرى. فقد رفض ستالين الاعتراف بمعاهدة الهاج الخاصة بمعاملة أسرى الحرب كما رفض

الاعتراف بمنظمة الصليب الأحمر للدولية، ولرغبته فى أن يكون حرا فى معاملة أسرى الحرب فى بلاده على النحو الذى يشاء دون أن يتقيد بأية موثيق دولية. وبسبب ما لاقاه يورى من معاملة سيئة على أيدى الألمان تحول من مواطن سوفيتى يحب بلاده ويؤدو عنها إلى عدو لدود للنظام البلشفي وعمل للأعداء الألمان فقد تطوع فى صفوف جيش الجنرال فلانكوف من أجل تحرير روسيا من قبضة الشيوعيين. وسامم يورى فى تنظيم وإدارة مدرسة للتجسس على ينى جلده. ولكن المخابرات السوفيتية استدرجته حتى وقع فى فخاخها، فقد وعدته بالعفو عنه لو أنه أمدّها بالمعلومات اللازمة عن هذه المدرسة. وبعد تردد شديد قبل يورى هذا العرض وعبر الحدود إلى بلاده وأخبر إدارة مكافحة التجسس الروسية بكل ما يعرف، ليكتشف غفلة وأن المخابرات السوفيتية خدعته وغررت به ليقع فى قبضتها. ورغم استنكار سولجنستين وتقرّزه من خيانة يورى فقد أعجبته شخصيته الواضحة الصريحة. ولم تطل مدة بقاء يورى فى الزنزانة أكثر من ثلاثة أسابيع قضاهما أدينا فى الفأش معه وتبادل الرأى، وكثيرا ما احترم للخلاف بينهما، فالرأى عند يورى أن البلاشفة الزواد ليسوا بالبطولة أو الذبل الذى يحلو لسولجنستين أن يصورهم به. فهم من طينة سفالين نفسها. وعندما امتدح مؤلفنا الثورة البلشفية نظر إليه يورى بإشفاق شديد. ولما كالم أدينا المديح لمكسيم جوركى قال يورى إن جوركى ليس سوى أكذوبة ومخلوق مضحك ممل اخترع نفسه مضحا لخرع شخصيات روياته وأنشأ أن ليوتولستوى هو الأديب للحق الذى يترعب فوق عرش الأدب الروسى.

ثم غادر يورى الزنزانة، ليأخذ مكانه سجين آخر يبدو الشحوب والبراءة على وجهه ويرتدى بذلة زرقاء رخيصة،

وطاقيه زرقاء فوق رأسه، وسأل السجناء النزيل الجديد عن سبب القبض عليه فأجاب أنه كان يكتب بياناً إلى الشعب الروسى. واعتراهم الذهول عندما أجاب على سؤالهم عن السبب الذى حدا به إلى كتابة هذا البيان، فقد أسر إليهم فى حياء إنه الامبراطور ميخائيل رومانوف. فصق سولجنستين من هول المفاجأة.

ثم انضم إلى سجن لوبيانكا رجل اسمه فكتور أكسينتش بيلوف كان السائق الخصوصى لخروتشوف فى الفترة ما بين ١٩٣٥ و ١٩٣٨ وللمارشال بليوكر وبعض الشخصيات البارزة الأخرى. ووصف هذا السائق لنزلاء السجن البذخ الذى عاشه قادة الكرملين فى حياتهم الخاصة واستمتاعهم بتعيم الدنيا وأطبايبيها. وروى لهم قصته المفرطة الغرابة التى تدعو إلى الضحك بقدر ما تدعو إلى الرثاء. كان بيلوف يعيش تحت سقف واحد مع أمه العجوز. وفى يوم من الأيام زاره فى بيته رجل وقودو لمية بوضاء. وبعد أن رسم إشارة الصليب أمام الأقونة المعلقة فى البيت قال إن فكتور رجل مبارك وأن القدر يخفى له مستقبل باهرا فسوف يطرأ على نظام الحكم السوفيتى تغير جوهري. وتنبأ أنزائر لهذا السائق بأن يصبح امبراطورا على البلاد. ومن ثم فبتحسين عليه أن يهوى نفسه لهذا الحدث الكبير. ولعبت هذه النبوءة برأس فيكتور وتعمل فيما يبدو تحقيقها فكتب فى خريف ١٩٤٣ بياناً بهذا الشأن اطلع عليه أربعة من زملائه العاملين فى قطاع صناعة البترول فى موسكو. وفى العام التالى كتب بياناً مائلا عرضه على عشرة عمال وقياتين من زملائه. فأخفى زملاؤه الرجال سره ولكن اللتاتين سارعتا إلى إفشائه إلى رجال البوليس السرى، الأمر الذى أدى إلى الزج به فى سجن لوبيانكا. ورأى سولجنستين فى مثل هذه الحكايات التى لا تنلهى والنسى

بروبيا السجاء عن أنفسهم وعن زملائهم معينا لا يخطب. كما رأى أنها تنطوى على أممية بالغة بما في ذلك الحكايات الموعلة في الخيال، بل إنه اعتقد أن مثل هذه الحكايات الموعلة في الخيال تنفوق في دلالتها الحكايات التي تنسم بالواقعية. وهكذا أصبحت الزنزانة المدرسة الحقيقية التي تعلم فيها كثيرا من الحياة في بلاده.

ورغم انقضاء فترة طويلة على التحقيق الأول مع سولجنستين أماد المحقق النقيب إيزيبيوف فتح ملفه مدحيا أنه بعد أن فرغ من إثبات تهمة التشهير بالوطن على المتهم وفقا للمادة ٥٨ فقرة ١٠ من القانون السوفييتي، فسوف يقوم بإثبات التهمة الأخرى عليه وهي تهمة تكوين تنظيم معاد للدولة طبقا للفقرة ١١ من هذا القانون التي اعتمد في إثباتها على الرسائل التي تبادلها سولجنستين مع زوجته ناتاليا وأصدقائه الثلاثة نيكولاى وكيريل ولهديا. وقرأ المحقق بعض التعبيرات الواردة في هذه الرسائل رغم ما قد تنطوى عليه من هزل واضح بطريقة تجعلها تحمل شتى المعارف والتأويلات، مثل الإشارة إلى «عقد مؤتمر الاثنين الكبار» والحرب بعد توقف الحرب، والحاجة إلى تكوين «تنظيم جديد» وفشل المحقق في الأوراق فوجد نسخا من مخطوطات القصص التي ألفها أديبنا أثناء وجوده على الجبهة، وهي القصص التي أصبحت الصحف عن نشرها لخروجهها على التقاليد الأدبية السوفيتية المألوفة التي تركز على الإنجازات والبطولات في ظل النظام البلشفي، وعثر المحقق في حوزته أيضا على مجموعة كبيرة من الصور الصغيرة للغاية في حجم طابع البريد كانت قد أعجبت مؤلفنا فاستولى عليها لنفسه أثناء وجوده في ألمانيا. وترك المحقق كل الصور واستبقى منها اثنين فقط هما صورتا القيصر وتروتمسكى، ليستند إليهما في توجيه هذا السؤال

للمتهم: «قل لى يا سولجنستين . لماذا كنت تحمل صورة القيصر نيكولا الثانى وصورة تروتمسكى في حقبيتك؟» وطلب منه المحقق أن يورد بذكرته إلى عام ١٩٤٠ ليخبره بالموضوعات التي دار حديثه عنها مع زملائه أيام الدراسة في الجامعة. وتظاهر سولجنستين بالسليمان فاعتصرت المحقق ثورة غضب عارمة وأخذ يهدده بالويل والثبور وعظائم الأمور. وأراد مؤلفنا أن يخلص من زيقته، فادعى أن أحاديثهم كانت تدور حول موضوعات غاية في الثقافة مثل الطقس والألعاب الرياضية. واعترض المحقق على أسلوبه المتعرب من الإجابة. فاستبدت الحيرة به. ما عصاه أن يقول للمحقق وهو لا يدري إذا كان زملاؤه وزوجته قد تم القبض عليهم أم لا. وأصح للمحقق أنه سوف يواجههم بهم. واعتبر مؤلفنا أن كيريل أكثر أصدقائه تعرضا للمخاطر بسبب هروب والده من البلاد بطريقة غير مشروعة، فمثلا عن أن كيريل في أحاديثه مع أصدقائه كان أكثرهم سرحلة في انتقاد النظام السوفيتي رغم أنه كان أشدهم تخففا في رسائله المكتوبة. واستبد بسولجنستين قلق أكبر خشية أن يكون المحقق قد اكتشف في حوزته تلك اليوميات والمذكرات التي كتبها والتي تتضمن وصفا دقيقا للحياة العسكرية في جبهة القتال وتسجيلا مفصلا رديقا لكل ما سمعه من الجنود والجناب عن البؤس والشقاء اللذين عانى منهما الشعب الروسى أيام الحروب والسجاعات وإنشاء المزارع الجماعية. وبلغت اليوميات والمذكرات من الدقة حدا فائقا لدرجة أنها كانت لا تسجل الوقعة وتاريخ حدوثها فحسب بل اسم الراوى لها كذلك. وخشى مؤلفنا أن تقع اليوميات والمذكرات في يد المحقق فنكون سببا في توريط الذين يأحوا بهذه الوقائع له. ويبدو أن المحقق اكتفى بما لديه من رسائل

للإثبات التهمة الموجهة منده بتكوين تنظيم معاد للنظام. ومن ثم لم يشأ أن يتجشم عناء قراءة المذكرات التي كتبها بالقم الرصاص بشكل غير واضح وخط منمذ صغير. ويخبرنا سولجنستين في «أرخييل الكولاج» إن هذا المحقق نفسه قام أثناء التحقيق معه برفع سماعة التليفون ليحتد لزوجه عن تأخيرها بسبب انشغاله بعمل مهم ثم ليخبر عشيقته أنه سيكون عندها في غضون ساعة. وانضح لمؤلفنا أن الإنكار لن يجدى فليلا، فهناه تفكيره إلى محاولة تصوير الرسائل المتبادلة على أنها مجرد لغو تلاميذ وعبيث صبية. ولكن هذا الموقف المتعرب به بالمثل وانتبه به إلى أن يقضى للمحقق بما أراداه من معلومات، ومن بينها أن سولجنستين وزملاءه كانوا يعترضون على سياسة فرض رسوم دراسية على التعليم العالي. ويرر مؤلفنا هذا الاعتراض بقوله إن مثل هذه السياسة من شأنها أن تجرد نظام التعليم السوفيتي عن لسان الطبق الشيوعية المولمة مبهنا المساواة بين البشر. ويوجد بنا أن ننكر في هذا المقام أن كثيرا من الطلبة الأبرياء تعرضوا للسجن في مصحات الاعتقال لمجرد جأرمهم والشكرى من فرض رسوم على التعليم العالي. وسأله المحقق إذا كان أيضا يعترض على تخفيض الأجر الذي يتقاضاه العامل عن الإنتاج بالقطعة، فرد بقوله إن هذا الخفض لا يحقق العدالة للعامل. ولكنه عاد إلى تبرير مواقفه بقوله إنها ترجع إلى صغر سنه وعدم خبرته والتفكير المتمركز في الذات وعدم فهم نوايا الحزب فهما كافيا. ولكن هذا لم ينفع أو يشفع له ولم يمنع المحقق من أن يسجل في تقريره أنه «حاول تكوين تنظيم غير مشروع... وقام منذ ١٩٤٠ فصاعدا بدعاية منظمة لمناهضة النظام السوفييتي... ووضع خططا تفصيلية تهدف إلى استخدام القوة لتغيير سياسة

الحزب والدولة، فضلاً عن أنه اطلع بسوء قصد سبعة سناطين، وفى هذه الجولة مع المحقق لم يتمكن مؤلفنا بأسلوب إجابته من إحراز أى شيء ذى بال اللهم إلا مكسب محدود للغاية يتمثل فى نجاحه فى إبعاد زوجته ناتاليا وصديقه كبريل وصديقته ليليدا عن دائرة الاتهام. وفى الشهر الرابع من دخوله سجن لوبيانكا قامت إدارة السجن بإلقاء جميع يومياته ومذكراته فى القرن لثكنتهما اللذين، مما سبب له كرباً شديداً لفقدانه الأساس الذى كان يزمع أن يبنى عليه قصصه عن الحرب على نحو ما فعل تولستوى فى «الحرب والسلام»، وعندما طلب منه المسئولون عن السجن التوقيع على ورقة تؤكد قيامهم بإحراق هذه اليوميات والمذكرات لأنه ليست لها أية علاقة بموضوع الاتهام تخلص شيفاً من الصعده وزال عنه شيء من كربيه.

وفى أول مايو ١٩٤٥ لاحظ سولجنتسين أن سجن لوبيانكا يسرده هدوء غير عادى، فضلاً عن اختفاء للمحققين من ممراته وأروقته، ولا غرو فقد وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وكان يوم ٩ مايو فى الثامن نفسه يوماً مشهوداً فى موسكو خرج فيه الملايين ليهازل ويرقصوا فى الميدان الأحمر ابتهاجاً بانتصارهم النهائي على أعدائهم الألمان. ومن وراء قصبان زرقائته. رأى مؤلفنا الألعاب النارية المنطلقة فى سماء موسكو فشارك فى الفرحه التى غمرت القلوب. وفى ذلك اليوم المشهود تخفف للسجن للعديد على غير العادة من بعض قيوده كما أن إيلارته صرقت رغبة مضاعفة للزلا.

ثم مرت بضعة أيام استعصى سولجنتسين بعدها لمقابلة المقدم كوتوف السوط به الإشراف على حمن سير المدالة ولإستكمال التحقيق معه دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن القضية. فتداول كوتوف الملف الخاص بها وأخذ يتصفح

محتوياته لمدة ربع ساعة يحاول فيها أن يلم بأطراف الموضوع. وتطلع سولجنتسين إليه فأدرك أنه لا خير يرتجى منه وأن شهاب الدين أسوأ من أخيه. ولكن هذا لم يمنعه من الاحتجاج بعدم صحة الاتهام الموجه ضده والخاص بتكوين تنظيم مناهض للدولة السوفيتية. متغذاً إياه بقوله إن اثنين لا يكفيان لتكوين تنظيم. وأستمع إليه كوتوف فى صمت ثم تنهد ليقول: «ماذا عسانا أن نقول؟ إن الشخص الواحد لا يخرج عن كونه فرداً، ولكن الشخصين فى عدل الجماعة».

ولم يمض وقت طویل حتى استدعاه القديب إيزيدوف وهو المحقق نفسه الذى أجرى التحقيق معه عند دخوله السجن ليطالب منه أن يقرأ ما سبق أن أدلى به من شهادة قبل التوقيع عليها تفغنياً للمادة ٢٠٦ من القانون. ودفع إليه بالملف الخاص به فوقعت عيناه على الحقوق التى يكفلها القانون السوفيتى له ولأمثاله من المتهمين ومنها حق المتهم فى الاعتراض على سير التحقيق معه وفى تسجيل هذا الاعتراض. وعن له أن يحاول ممارسة حقه بأن يرفض التوقيع على صحة الاتهامات الموجهة ضده وبالحذات الاتهام الخاص بتكوين تنظيم مناهض للدولة. ولم يهتز المحقق أو يتحرك له ساكن بل ببساطة قال له إنه يتعين فى هذه الحالة أن يبدأ التحقيق معه من جديد، وهذا باحتجازه فى المكان الذى يودع فيه المتعاونون مع الأعداء، وخشى سولجنتسين من مغبة إغضبائ المحقق فقام وهو صاغر بالتوقيع على صحة الاتهامات الموجهة ضده.

سجن بيوتركى :

فى نهاية يونيو ١٩٤٥ تم نقل سولجنتسين من سجن لوبيانكا الشهير إلى سجن عادى فى موسكو اسمه بيوتركى حيث وجد نفسه وسط عدد كبير من الفلاحين والعمال الروس للذين رحلتهم

للقوات النازية إلى ألمانيا للعمل هناك، أو للروس الذين حاربوا بقيادة الجنرال فلاسوف فى صفوف الألمان للإطاحة بالنظام الشيوعى. ولعل أدبيتنا تذكر الأيام الأولى من إلقاء القبض عليه حين استهزأ به بلو جلده واعتبروه واحداً من الخونة من أتباع الجنرال فلاسوف. ومن ثم شعر أكثر من أى وقت مضى برغبة ملحة فى أن يحاول فهم نفسية هؤلاء الذين ارتضوا لأنفسهم أو اضطرتهم ظروفهم المتعصبة (وهو ما عجز سناطين عن التمييز بينهما) للتعاون مع الأعداء. لقد خفى عليه أن سناطين كان يرى أن مجرد احتكاك أى مواطن روسى بالعالم الخارجى - سواء أكان عالم الأعداء من الألمان أو عالم الحلفاء من الأمريكان والإنجليز والفرنسيين - سبب كاف للشك فيه. فهذا الاحتكاك قمين بأن يجعل مثل هذا المواطن يقارن بين الأحوال فى بلاده والأحوال فى البلاد الأوربية. وفى سجن بيوتركى نبهته حكايات المساجين إلى هذا البعد الخافى عليه فى السياسة الساتلية. وهنا تذكر بورى وای زميله القديم فى سجن لوبيانكا الذى ألقى عليه باللائمة عندما سمعه يعبر عن شدة إشمزازه من مسلك الروس المتعاونين مع الألمان، وشعر سولجنتسين بأن زميله معه شيء من الحق ومن ثم أصبح أكثر فهماً وعطفاً على هؤلاء البؤساء الذين اضطرتهم ظروفهم إلى الخيانة.

والشيء الآخر الذى استرعى انتباهه فى سجن بيوتركى هو الوضع المأساوى الذى وجد آلاف المهاجرين الروس أنفسهم فيه عندما تركوا بلادهم بسبب مكهم للبلاشفة للعمل فى البلاد الأوربية المختلفة، فقد شاء حظ بعضهم المآل أن يسقطوا فى يد القوات السوفيتية الزاحفة على أوروبا وأن يسلمهم للفرد لكمة سائلة للحكومة السوفيتية إتهاماً لمرضاة سناطين. وبادرت السلطات السوفيتية

بتقديمهم إلى المحاكمة والزوج بهم في السجن حيث اكتشف سولجنتسين عن طريق الاختلاط بكثيرين منهم أن حبهم لبلادهم التي تركوها ليعودوا إليها عنوة واقتداراً أمر لا يرقى إليه الشك.

وفي يوم ٢٧ يونيو ١٩٤٥ تزامت إلى أسماعه أنغام الموسيقى الصاخبة احتفالاً بمرور أربعة أعوام على بدء الحرب التي خرج منها الاتحاد السوفيتي ظافراً. وانتشرت شائعات بين النزلاء أن يوم الإفراج عنهم قريب. وبالفعل أعلنت الحكومة السوفيتية يوم ٧ يولية ١٩٤٥ عفوها عن المسجونين. ولكن هذا العفو كان قاصراً على المجرمين والمهاجرين من الخدمة العسكرية وحفنة من السجناء السياسيين الذين صدرت منهم أحكام نكل عن ثلاثة أعوام، وهو شرط لم يطبق على حالة سولجنتسين. وفي يوم ٢٧ يولية ١٩٤٥ استدعته إدارة السجن مع زميل له من الزنزانة. فطن زملاهما أن ساعة الإفراج عنهما وشيكة فتهللا وفرحا لزميليهما. وسبق الزميلان مع نحو عشرين سجيناً آخر إلى زنزانة فضيحة واسعة ظلوا فيها ثلاث ساعات استدعهم إدارة السجن واحداً بعد الآخر. ولما جاء نور سولجنتسين وجد نفسه في الغرفة المستخدمة لاستقبال المساجين للجدد أمام ضابط برتبة رائد يجلس في منضدة صغيرة ويقلب في برص شديد مله ويبلغه دون أدنى اكتراث وفي عجلة شديدة أنه صدر منه حكم بالسجن لمدة ثمانية أعوام. فلم يفهم أديباً في بادئ الأمر كيف صدر الحكم ومن أصدره ضده دون أن يملك أمام أية محكمة أو هيئة قضائية. وعندما طلب الرائد منه التوقيع بالعلم قال سولجنتسين له: «كلا، لا بد أن أقرأ الحكم بنفسى». فأجاب الرائد بقوله: «هل تظن حقيقة أنى أخذحك». ولكنه أضاف أن فى إمكانه الاطلاع على الحكم إذا شاء. وألقى مؤلفنا نظرة على

الورقة المقدمة إليه فوجدها عبارة عن استمارة خالية من بعض البيانات مثل اسم المتهم وتاريخ ومكان ولادته ومكثوب عليها أنه تم سماع أقوال المتهم وثبت عليه تهمة القيام بدعاية مناهضة للدولة السوفيتية ومحاولة تكوين تنظيم للإطاحة بها. ومن ثم صدر الحكم عليه بثمانية أعوام يقضيهها فى معسكرات عمل إصلاحية. ولم يجد سولجنتسين ما يقوله غير «ولكن هذا قطعاً ثمانية أعوام. لماذا؟ ولكن الرائد كان فى عجلة من أمره ويريد الانتهاء من الإجراءات فطلب إليه التوقيع فلم يجد مناصاً أن يوقع. غير أنه قال: «فى هذه الحالة أسمح لى الآن أن أكتب طلباً بالاستئناف». فهذا الحكم غير عادل». فأمر الرائد برأسه ليقول له: «يمكنك أن تفعل هذا عندما يحين الوقت».... ولكن هذا الوقت لم يحن قط.

كان من المفترض أن يتم الاستئناف عن طريق ما يعرف بالهيئة الخاصة التي باشرت عملها فى سرية تامة ويترجمه مباشر من المخابرات وسنالك نفسه. ولكن وجودها كان نظرياً. فحيث إن هذه الهيئة لم يكن لها وجود فى مواد القانون فقد تعذر على المتهم المشول فى حضرتها أو توكيل محام للدفاع عنه أمامها. وهكذا لم تعد وهذه الهيئة أن تكون إجراءً إندياً. وكان من حقها أن تقوم بمحاكمة الأشخاص الخطيرين من الناحية الاجتماعية دون اللجوء إلى المحاكم بناء على تقارير البوليس السرى، الأمر الذى مكثها من محاكمة المتهمين غيباً. وكانت الأحكام التى تصدرها الهيئة الخاصة أقصى بكثير من الأحكام التى تصدرها للمحاكم والجهات القضائية التى لا تتجاوز مدة أحكامها عادة خمس سنوات تنتهى بالإفراج عن المتهم فى حين تراوحت أحكام الهيئة الخاصة من خمسة أعوام إلى خمسة وعشرين عاماً.

واستند جهاز المخابرات السوفيتى المعروف بـ GPU (فى الثلاثينيات) على هذه الهيئة الخاصة فى إصدار أحكام بالجملة أثناء حملات التطهير على كل من اشتبه فيه النظام الستالينى. وفى عام ١٩٦٥ بعد إنشاء الهيئة الخاصة اعترفت صحيفة القضاء السوفيتى أن هذه الهيئة كانت فى البادة تنظر فى القضايا التى لا تتوفر فيها الأدلة الكافية ومن ثم يصعب على القضاء السوفيتى أن ينظر فيها.

ثم تم نقل سولجنتسين إلى كنيسة سجن بيوتركى. (تحوّلت هذه الكنيسة إلى سجن مؤقت لا يمكث فيه النزلاء غير بضعة أيام). وهن مؤلفنا لمرافق للمسجونين الذين عاش بينهم لفترات طويلة تربطهم روح المودة وروشالاج الألفة. وفى سجن الكنيسة لم تربطه عرى الصداقة بغير اثنين من مخفى موسكو هما بريس جاميروف الذى سبق أن تعرف إليه فى سجن بيوتركى والذى دارت بينهما مناقشات عديدة حامية الوطيس فى السياسة والأدب. اشترك جاميروف فى معارك للعرب العالمية الثانية ضد الألمان وأصيب فى رلكته، مما جعل السلطات السوفيتية تعفيه من الخدمة العسكرية، فالتحق بقسم الأحياء فى جامعة موسكو وبدأ يسهويه إقراض الشعر واشترك مع الطلبة بضابط ملحوظ فى الدورات والحلقات. وكان ذلك السبب المباشر فى القبض عليه. وفى المناقشات التى احتمت بينهما نهش سولجنتسين من أن جاميروف يجر بحرقه عن إيمانه بالله ويقر مؤلفنا لزيارته بالدين. وتعجب سولجنتسين كيف يمكن لجاميروف الذى ولد بعد الثورة عام ١٩٢٣ أن يحتفظ بالإيمان بالمسيحية فى حين أنه هو نفسه الذى ولد وتعمد بالمسيحية فى وقت كان الدين المسيحى يسود البلاد من أقصاها إلى أنداها ينبذ الدين ويصرح بكفره والحاده.

أما صديق سولجنتسين الآخر في سجنه الجديد فهو جورجي إنجال الذي كان يتمتع بسهولة أدبية جليلة وتعميذا للروائي والنقاد الشكلي يوري تيبانوف الذي تعرض للخصف وتكثيف النظام السوفييتي به. وفي جنازة تيبانوف عام ١٩٤٣ وقف التلميذ إنجال بجوار قبر أستاذه ليحدث بصراحة ودون مواربة عما تعرض له العقيد من جور واضطهاد، الأمر الذي أغضب السلطات السوفيتية منه، فألقت القبض عليه وأصدرت ضده حكما بالسجن لمدة ثمانية أعوام. وفي المناقشات الدائرة انضم إنجال إلى جاميسروف فلهمجرم على معبود سولجنتسين الأدب المعروف ترأسوى الذى أنحى عليه وباللأمة موقفه الرافض للكنيسة. وكان لهجومهما وقع شديد على سولجنتسين لدرجة أنه بدأ يعود للنظر في أفكاره ومعتقداته السابقة. ولفت إنجال وجاميسروف نظره إلى روعة شعر باسترنالك الذى لم يقرأ له أدبنا سوى النثر اليسير.

وفي سجن بيوتركى أخذت ظروف سولجنتسين تكتمن بعض الشيء. فقد سمحت له إدارة السجن بتلقى الطرود والطلبات التى تحوى الأطعمة والملابس من الخارج، الأمر الذى أتاح أمامه فرصة الاتصال بالعالم الخارجى وأن يبلغ أهله بمكانه ويأمله لا يزال حيا يرزق. فقد كانت زوجته ناتاليا بعد أن انقطعت أخباره تظن أنه لقي حتفه فى الحرب، الأمر الذى جعلها ترسل خطابا إلى الجاويش سولومين تستفسر فيه عن مصير زوجها. ولم يرق سولومين بالرد عليها مباشرة ولكنه أرسل خطابا إلى والدتها فى الأسبوع الثانى من شهر أبريل ١٩٤٥ مفاده أن سولجنتسين حي يرزق دون أن يروى أى شيء مما حدث له. وفي الوقت نفسه انقطعت أخبار نيكولاى الذى توقف عن إرسال الخطابات إلى أهله وإلى ناتاليا.

ثم بعث الجاويش سولومين برسالة أخرى أقل حذرا وحرصا من رسالته الأولى مفادها أن سولجنتسين فى وضع لا يسمح له بالكتابة وأن من المصلحة عدم الاستفسار عنه. وعندما سألت إدارة السجن مؤلفا عن اسم وعنوان الشخص الذى سيتولى إرسال الطرود والطلبات إليه ذكر اسم وعنوان فيرونكا خالة زوجته حيث إنها كانت تعيش فى موسكو. واتصلت الخالة بزوجته (بنت أختها) فى روسوف لتخبرها أنها قامت بصلم لفاقة إلى زوجها. وبهذا تأكدت ناتاليا للمرة الأولى منذ انتصاف سنة أشهر على القبض عليه أنه نزيل أحد السجون فى موسكو. ولم يكن باستطاعتها أن تسافر على الفور إلى موسكو لارتباطها بالعمل فى معامل جامعة روسوف. غير أنه كان من حسن حظها أن الأستاذ المشرف على دراساتها العليا فى قسم الكيمياء الطبيعية بهذه الجامعة عرض عليها أن تواصل دراساتها العليا فى جامعة موسكو. فرحبت ناتاليا بهذا العرض الذى سيمكنها من أن تعيش على مقربة من زوجها السجن، الذى احتفظت بأمر القبض عليه سرا لا تروج به حتى لا تتعرض بدورها إلى المضايقات أو الاضطهاد. وفى موسكو عجزت فى بادئ الأمر عن الالتحاق بالجامعة. غير أن أحد الأساتذة واسمه البروفيسور كيربوزيف وافق فيما بعد على قبول الإشراف عليها. وعادت ناتاليا إلى روسوف لإنهاء الاجراءات الخاصة بانتقالها إلى موسكو. وفى تلك الأثناء حدث شيء لم يكن فى حسابها. فقد تم نقل زوجها من سجن بيوتركى إلى سجن آخر فى موسكو اسمه كراسنايا بريسيا شهيدا لإرساله إلى أحد معسكرات العمل.

سجن كراسنايا بريسيا :

كان سجن كراسنايا بريسيا بمثابة القلب فى شبكة السجون الكثيرة المنتشرة فى طول الاتحاد السوفيتى وعرضه.

ويكاد كل سجين سوفيتى أن يكون قد مر عليه لأنه لا سبيل إلى الوصول إلى معظم السجون السوفيتية الأخرى إلا عن طريقه. وفى هذا السجن الجديد شعر سولجنتسين بالوحشة والأسى لوجوده وسط جماعة من عداة القتل والسفاحين والمجرمين الذين يلجأون إلى أساليب البلطجة لفرض سيطرتهم على بقية النزلاء، فى حين كان جميع النزلاء فى سجن بيوتركى من أصحاب الفكر الذين فقدوا حريتهم بسبب مواقفهم السياسية للمعارضة. حتى حراس السجن الجديد كانوا يشاركون المساجين ممتلكاتهم الثقيلة عنوة واقتدارا. وحين وصل جميع المسجونين فى سيارة مقللة إلى سجنهم الجديد ترامت إلى أسماعهم أصوات صادرة من نوافذ الزنزانات تحذرهم من أن السجناء المتعاونين مع إدارة السجن والمطاط بهم أمر تفتيشهم سوف يستولون على كل ما يمتلكون من تبغ وشاى وسكر. ولهذا نصصهم أصحاب هذه الأصوات الصادرة من قباب الزنزانات بقذف كل هذه الأشياء من خلال نوافذها لاحتفظوا لهم بها فى الحفظ والصون ثم يعيدونها إليهم بعد الانتهاء من إجراءات التفتيش. ولكنه اتضح للنزلاء الجدد أنها مجرد خدعة بلجأ إليها المسجونون للقدامى للاستيلاء على ممتلكات النزلاء الجدد.

كانت إدارة السجن تأبى أن تسمى أى سجين سياسى بارتيف عدد مخاطبته كما كانت تعظر عليه أن يخاطب الآخرين بهذا اللقب فاستعمل كلمة رفيق عدد مخاطبة أى شخص معناه وجود وشائج تربط بينه وبين النظام السوفيتى. ولهذا كان الحراس والمضباط يسمون السجن السياسى بالسيد أو المواطن للدلالة على غريبته عن المجتمع، كما كانت إدارة السجن تشجع المجرمين العاديين على التطاول على السجناء السياسيين ورميهم

بالفاشية لأنها ترى أن السرقة والقتل أمون شأننا من الخروج على النظام السياسي.

وعندما دخل سولجنستين وزميله السجين السياسي فالنتين زنتلنهما رجدا أنها شديدة الصغر ونزجهم بالجرمين. واقتضت الأعراف السائدة، بين نزلاء السجون أن ينام أقدمهم في أعلى الأسرة المثبتة بالجدران بالقرب من النافذة، في حين ينام النزلاء الحديثون على الأسرة السفلى. وهكذا دواليك بحيث ينام النزلاء الأكثر حداثة في أسرة تقع فوق أرضية الغرفة مباشرة. فإذا وفد عليهم سجناء جدد تعين عليهم اقتراض الأرضية حتى تغلو لهم أماكن على الأسرة السفلى ثم انعلوا كل بحسب ترتيب أقدميته. وأجال سولجنستين وفالنتين بصرهما في الغرفة فوجدنا أن هناك مكانين خاليين تحت سريرين سفليين يبعدان عن جردل البراز والكتول الذي تغرح منه الروائح الكريهة. وبصعوبة استطاعا أن يحشرا نفسيهما تحت هذين السريرين. وما أن فعلا هذا حتى أعطى أحد النزلاء من مكانه العالي المتميز بالقرب من النافذة إشارة إلى أنبأه لهجوم عليهما. وبسرعة خاطفة وفى لمح البصر هم ستة من الأضواء المفتولى العضلات عليهما مغتلبين فرصة انحسارهما تحت الأسرة واستولوا على صرتيهما الملتصقتين بالطعام. وعز عليهما أن يفندا كل ما لديهم من طعام فى خمسة عين وفون أدنى مقارمة. فكمشا جسميهما حتى استطاعا للخروج زحفا من تحت الأسرة. وألقى سولجنستين نظرة على اللصوص فوجدهم فتية أشداء يرأسهم مجرم قوى مشوه الوجه من كثرة المراك والمشاجرات فأدركه مغبة يذل أية محاولة من جانبه لاستعادة ممتلكاته. فقال للصومص حافظا على ماء وجهه إن المعدل يقتضى أن ينام هو وزميله على الأسرة مقابل الطعام الذى فقده. وما أن

اقترح سولجنستين هذا حتى شمر بالفرى لاستسلامه للباطلة والدجانه إلى مثل هذه المساومة الرخيصة. ومما زاده شعورا بالخجل من نفسه أن زعيم العصاة وافق على اقتراحه وأرغم اثنين من النزلاء السياسيين على التنازل عن سريريهما له ولزميله وعلى اقتراض الأرض بدلا منهما.

وفى سجنه الجديد تعلم سولجنستين دروسا جديدة تختلف عما سبق أن تعلمه فى السجون السابقة. فعندما ألقى القبض عليه فى ألمانيا ظن أن أسوأ شيء يمكن أن يحدث هو أن ينام أربعة مساجين فى زنتانة ضيقة شديدة البرودة تحت الأرض أو أن يسير الإنسان لمدة يومين مستائلين يلسعه الريح القارس والمطر البارد. وفى سجن لوبيانكا اكتشف عذاب الحبس الانفرادى والعذاب النفسى والعقلى اللذان من إجراءات التحقيق. وفى سجن بويرتكي عرف الأمل الكاذب للخداع فى قرب الإفراج عنه ليكتشف أنه صدر ضده حكم بالحبس لمدة ثمانية أعوام، وأنه ينام فى زنتانة واحدة مع مائتى سجين آخرين. أما سجن كراسنايا بريسيا فقد عرف فيه الصقيع والريح الذى تهمد بروعته لأطراف الإنسان، الأمر الذى مهدد للذى فى جو سيبيريا القارس. وعرف سولجنستين أن زوجته وصديقيه كيريل وإيديا بخور فقمه فرح عظيم. وشمر بالخجل من نفسه لما أظهر من فظاظة نحو زوجته. وحتى لا يكون مصدرا لمتاعبتها عرض عليها حرية الطلاق منه والزواج من رجل آخر.

وفى سجن كراسنايا بريسيا كان من المستحيل على سولجنستين أن يحصل على الهدوء الذى يحلم به فقد كان هذا السجن بمثابة معبر يمر بحركة السجناء الفادين والزائحين. وبالنظر إلى قصر الفترة التى يقضيها للنزلاء فيه (فقد كانوا غالبا لا يمكثون هناك أكثر من يومين) لم

يكن هناك متسع من الوقت كي يتعرف للنزلاء إلى زملائهم كما كان الحدوث بينهم نريما وخاطفا. ولكنا على أية حال اتسم بالصدق والصراحة للمناحية وهم يروون مأسى حياتهم. وكان بينهم سجين مخضرم متقدم فى السن مخصص فى الإنشاءات، ألفت حوله بقية السجناء ليعطيهم خلاصة تجاربه فى السجون السوفيتية فلصحبهم بعدم تصديق أى مخلوق فى السجن فأنلك بسبب الأثرة والأنانية على استعئاد أن يدوس على أعتاق الآخرين. كما نصحبهم ما أمكنهم ذلك تجلب العمل فى معسكرات العمل لأنه كثيرا ما يفضى إلى الموت بسبب الإجهاد وسوء التغذية. وزعم هذا قرر سولجنستين أن يطرح فى حمل خشب الأشجار من نهر موسكو. وهو عمل مجهد وشاق. حتى يهرب من جو زنتانته الضائق ويشتق نسمة هواء مستجدة ويهرب من الرطابة اللثة ودرجة حرارة الصيف المائلة.

معسكر (أورشليم الجديدة) :

شاعت للمساندة أن تقع عينا فيرونيكا خالة زوجته ناتاليا عليه أثناء عمله فى حمل الأخشاب فأسرعت بالكتابة إلى ابنة أختها كي تطمئنه عليه. ولكنها بالغت فى وصف حالته الصحية والمضوية الجيدة حتى تهذى إلى قلق قد يسارها عليه. وفى خطابه إلى زوجته لم تستطع أن تشير إلى اسم زوجها سولجنستين صراحة خفية أن يقع فى يد الرقيب. ومن ثم تواصلت على هذا بأن أشارت إليه باستفهام أقرب اسم مؤثت له حتى لا يكشف الرقيب عن نتحدث. وقيما بعد ضمن مؤلفنا هذه الحادثة فى «الناترة الأولى» بعد أن أدخل عليها بعض التغييرات الطفيفة. وفى الوقت نفسه تلقت ناتاليا رسالة أخرى من زوجها بحث بها من السجن. (كانت ناتاليا فى ذلك الوقت قد اجتازت بنجاح امتحانات

الكيمياء الصيفية في روستوف وتستعد للسفر إلى موسكو حتى تكبر بالقرب من زوجها. (ولم يكن هذا بالأمر السهل فقد تعين عليها إقناع السلطات بالموافقة على تغيير محل إقامتها وإعطائها تصريحاً بالإقامة في موسكو). ثم جاءها خطاب آخر من فيرونكا خالتها تخبرها فيه بطريقة مثوية عن نقل زوجها إلى معسكر عمل جديد أسمته للتعمية أورشليم الجديدة. وأضافت إلى ذلك قولها إن ناتاليا امرأة محظوظة لأنها تستطيع السفر كل يوم أحد من موسكو إلى أورشليم الجديدة ذات المناظر الجميلة للخلابة الواقعة في قلب الريف والتي تسمى «سويسرا الروسية».

في يوم ١٤ أغسطس ١٩٤٥ قامت عريتا لوري بنقل سولجنستين مع ستين سجناء سياسياً إلى هذا المعسكر الجديد الواقع في منطقة زيفندجوزود فوجدوا الشوارع والطرق تزدان بالأعلام فعرفوا أن اليابان استسلمت أخيراً وأن الحرب العالمية الثانية انتهت تماماً. وكان للمارة يخرجون على السجاء القابعين في اللوريات المكشوفة فيصرخون في وجوههم قائلين «الفاشيون وصلوا». وعند وصول أدينا إلى المعسكر بدأ له مريحا على غير حقيقته. وراقت له المناظر الطبيعية الخلابة والهواء الطلق. ومن خلال الأسلاك الشائكة رأى التلال الجميلة وخضرة الريف الروسي الممتدة.

كانت الزنزانة التي زج فيها سولجنستين تحوى على أربعة أسرة متراسة الواحد فوق الآخر مكونة من أسياخ أو قضبان حديدية غير ثابتة عليها ألواح خشبية عارية تماماً حتى من مرتبة من القش. وحاول مؤلفنا. كما طلب إليه. أن ينام على سريره بحذائه وكامل ملابسه. فلم تفضل له عين لأن أدنى حركة من جانب أي من زملائه النائمين كانت كافية بأن تهز سريره هزاً يوقظه

من نومه. وفي الفجر في الساعة الرابعة والربع قبل أن يأخذ أدينا أي قسط من النوم قام الحراس بإيقاظه مع غيره من المساجين ثم ساقوهم في الظلام إلى السبب ليتمسكوا بمعيته من الطعام المقرز الذي تعافى النفس. وبدأ نور النهار في البروز في السادسة صباحاً. وجاء دور توزيع الأعمال على المساجين فتذكر نصيحة زميلهم المخضرم بأن يجنب كل منهم قدر استطاعته أداء ما يسمى بالواجبات العامة في معسكرات العمل لأنها - كما أسلفنا - مضنية إلى حد الموت. ومن ثم دخل على المسئول عن توزيع العمل وهو يرتدي بزة العسكرية، الأمر الذي ترك في نفس هذا المسئول أثراً طويلاً جعله يعهد إليه بمهمة الإشراف على العمل بالاشتراك مع زميل له اسمه كيموف. ولكن لسوء حظ سولجنستين وصلت إلى المعسكر أثناء الوردية التي أشرف عليها مجموعة جديدة من السجناء تتكون من عصابة اللصوص والمجرمين الذين رفضوا الانصياع لأوامره ورفضوا القيام بأي عمل واكتفوا بأن يمددوا على الحشائش. وعندما حاول مؤلفنا أن يحفزهم للعمل ضحكوا منه ساخرين. لقد سبق أن تعلم في سجن كرانسا بريشيا للنتائج الرخيصة الناجمة عن الاحتكاك بمثل هؤلاء المجرمين. وكان موعد انتهاء الوردية قد اقترب فتركهم وشأنهم. أما زميله كيموف فكان أسوأ حظاً فعندما فعل هؤلاء اللطيفة معه الشيء نفسه ذهب ليشكو إلى رئيسه الذي أمره على ضرورة إرغامهم على العمل عن طريق استخدام اللشدة معهم، مما أدى إلى ثورتهم عليه وضربه بقضيب من حديد ضربة أفضت إلى تهتك كايته، الأمر الذي اقتضى نقله على الفور إلى المستشفى ليخضع من المعسكر إلى الأبد.

كان في ذلك المعسكر لعمل مصنع لإنتاج الطوب يقع بالقرب من منجم لاستخراج الطظة اللازمة لتصنيعه.

ويخلص عمل المساجين في رفع الطظة بالجاروف من المنجم إلى عربات نقل صغيرة تتحرك على قضبان عبر وديان صغيرة ليقيم ونقل برقيها ثم دفعها إلى المصنع. ولاحظ أدينا أن مساعده وهو رجل من موسكو اسمه يارنوف يستمر على تكامل عماله وتراخيه دون أن يبدو عليه أنه يفعل ذلك. ونظراً لأن هذا الرجل كان مخضرم في الموقع ويعرف كل كبيرة وصغيرة عن طبيعة العمل فيه فقد استطاع بهدوء ومكر أن يستغل أدينا ذلاً بلا حدود وذلك بسؤاله عن بعض الجوانب الفنية في العمل التي يجدها سولجنستين مستهدفاً لإحراجها والسخرية منه أمام الجميع. فعلى سبيل المثال سأله عما عساه أن يفعل عندما يتفعل الرئش أو جرى أي شيء لعربات النقل. فإذا ن سولجنستين أن يفتي برأى في هذا الشأن بادر الرجل بتسفيه هذا الرأي أمام الملأ معتمداً في ذلك على خبرته الطويلة بالموقع والعمل فيه. وكانت هناك رئيسة على سولجنستين اسمها أولجا ماترونينا أعدمت السلطات السوفيتية زوجها الشبوعي في الثلاثينيات وحكمت عليها دون سبب واضح بالحبس لمدة ثمانية أعوام. غير أن هذا الحبس لم يقل قط من تمسها المتأجج للنظام وولائته الشديد له. وطلبت هذه المرأة من سولجنستين أن يقوم بإرغام العمال على مضاعفة الإنتاج فأسقط في يده فهو عاجز تماماً عن السيطرة على مرءوسيه ومساعدته يارنوف كما أنه يعرف أن العمال مكثرون ويوشكون أن يتصربوا جوعاً. وطبيعة الحال عجز سولجنستين عن تحقيق ما طلبته منه ماترونينا. فحضرت بنفسها لتهاز به. ومن عدم كفايته أمام العمال وأمام مساعده يارنوف الذي أُلحج صدره هذا الاستهزاء برئيسه. وأمرت ماترونينا بتجنيد مؤلفنا عن وظيفته وتحويله إلى مجرد عامل عادي يستخرج الطظة وتعين مرءوسه يارنوف مكانه.

وإسكاننا في إزالته التفتت إلى باريكوف لتقول له: «اعطه عتلة ولا تجعل نظرك يفتيب عنه أبداً وتأكد من أنه يملأ ست عريات في كل وردية. واجعله يتصعب عرقاً».

وشر سولجنتسين بالتحاسة والاككتاب وعدم القدرة على التركيز. ورغم أنه كتب إلى زوجته ناتاليا يطلب إليها أن ترسل له ورقاً وأقلاماً وحبراً وبعض الكتب لتحسين مستواه في اللغة الإنجليزية والتخط على حالة الاكتاب التي أصابته فقد أخفق في ذلك. كما أن زحام المعسكر وضوضاءه منعاه من كتابة أي شيء خلاق. أما زميله إنجال وجاميروف فكانا أسد حالاً فقد استطاعا التخط على مشاكل المعسكر بالانصراف إلى الكتابة والتأليف ونظم الأشعار. وبلغت أحوال المساجين في مصنع الطوب درجة من السوء تمزق ثياب القلوب. فقد رأى مؤلفنا بعض عمال المصنع الحيواك يأكلون صلصال البحر (وهو نوع من الطفلة لا ينفج جسم الإنسان أو يضره) حتى يترهموا أنهم شعروا وأن بطونهم الخاوية قد امتلأت.

معسكر بواية كالوجا :

في ٩ سبتمبر ١٩٤٥ نقل سولجنتسين من معسكر أوريلوم الجديدة إلى سجن بواية كالوجا في موسكو بعد صدور الأوامر بإخلاء هذا المعسكر من أجل استيعاب فريق من أسرى الحرب الألمان. وكان مؤلفنا محفوظاً هذه المرة فهو لم ينقل إلى مناطق نائية مثل الأورال وسيبيريا وآسيا السقرى شأن كثيرين من زملائه، بل إلى موسكو حيث التحق بمعسكر اسمه بواية كالوجا تحت إدارة نقيب اسمه فلزين. وفي المقابلة التي أجراها هذا النقيب مع المساجين لتوزيعهم على الأعمال المختلفة قرر سولجنتسين بيته وبين نفسه ألا يرجع مرة أخرى إلى

الخدمة العامة، أي ألا يكون عاملاً من عمال السخرة: واستطاع مؤلفنا أثناء المقابلة التي أجريت معه أن يكسب ثقة قائد المعسكر الذي عونه في وظيفة متميزة للغاية استحدثها خصيصاً من أجله، وهي وظيفة مشرف إنتاج، مما جعله في مركز أعلى من القيادات العمالية الأخرى بل أعلى حتى من السجناء المتعاونين مع السلطة وأصحاب الحظوة لديها. وبسبب تميزه الوظيفي أصبح لأول مرة منذ القبض عليه يعيش في راحة وزفاهية أكثر من أي وقت مضى. فهو الآن ينام في ججرة مخصصة لسنة أشخاص فقط هما لوران وطبيب ومهندس وفلاح كان رئيساً لأحد المجالس السوفيتية، كما أنه الآن يحصل على حصته من الطعام ببسر وليس بحاجة إلى الاصطاف مرتين في اليوم من أجل الحصول عليها. وكان مسلحاً أحد هذين اللورين - وهو اللور طيار ألكسندر بلابايف - ملحقاً للأنظار. فقد اتهمت كل تصرفاته بالعموم والظلمة تساعده على ذلك قامته الطويلة وروامته غير العادية. ورغم أن سولجنتسين كان رئيسه في العمل فإن مرموسه أسر أن يظهر نحوه الاحترام اللائق ويقتبه باللوراء. ولم يجد أدبيته غضاضة في أن يفعل هذا وإن وجد فيه غرابة شديدة. فهو أول سجين يقابله في معسكرات العمل يحتفظ بقلبه للمعسكر. واستطاع هذا السجين بتعاليه أن يتأقن من كل المحيطين به ويشعرهم أنه ليس واحداً منهم بل فوقهم جميعاً. ولحب هذا اللوراء أن يذهب إلى المقصف لتسلم تعينه من الطعام. وهو فخور بأنه لا يعرف الطريق إلى بابه. وكانت زوجته تأتي إلى باب المعسكر كل يوم بانتظام في تمام الساعة الواحدة بعد الظهر حاملة معها وجبة طازجة ساخنة وتناولها في حجرته أمام زملاكه مع قطعة الخبز التي بصرفها المعسكر يحملها إليه زميله الفلاح

فيقوم اللوراء بتقطيع جوانبها واستيعادها حتى يضمن ألا يدخل قمه شيء قد تكون أصابع الآخرين قد لمسته. وبخل هذا اللوراء السجن بتهمة الفساد والاختلاس وهي التهمة نفسها الموجهة ضد اللوراء الثاني بافيل زيفوفيف. كانت زوجة زيفوفيف وابنته تحضران له الطعام كل يوم كذلك. غير أنه من الواضح أنه لم يكن على قدر زميله بلابايف نفسه من اليسار. وكان الزميل الثالث الذكور برافدين طبيب أعصاب في نحو السبعين من عمره حكم عليه بالسجن لمدة ثمانية أعوام مثل سولجنتسين وبتهمة نفسها وهي القيام بدعاية مناهضة للدولة. وكان الزميل الرابع المهندس أورانشيفسكى الذي يتميز بإخلاصه الشديد للعمل. وكذلك الفلاح بروخروف. موضع مقت اللورين وكراهيتهما. وكان اللوراء بلابايف على وجه الخصوص يضمن في إزال الفلاح الذي انضطر إلى تحمل معاملة السيئة بسبب عدم كفاية الطعام الذي يصرفه له المعسكر مما جعله يأخذ حساء هذا اللوراء وعصيديته. ويرجع السبب في الزج بهذا الفلاح إلى السجن إلى اتهامه بالمحسوبية فقد كان يصرف كويونات توين زائدة إلى أهل قريته الجواك مكافأة لهم لإعادة انتخابه رئيساً لمجلس القرية السوفيتي.

ولكن تعيين سولجنتسين في وظيفة مشرف على العمال في هذا السجن الجديد لم يدم طويلاً بعد أن تم استبعاد ضابط المعسكر المتعاطف معه النقيب نيفيرين بتهمة الاختلاس وسرقة مراد البناء واستبداله بالنقيب جورنوف الذي رأى في أدبيته سذاجة ورخاوة وجنوحاً إلى التساهل مع السجناء، الأمر الذي أدى إلى انخفاض معدلات الإنتاج. ونتيجة لهذا تحول سولجنتسين مرة أخرى إلى سجين عادي من سجناء السخرة. ولكن تعيينه في فرقة الطلاب أعفاه من العمل

المعنى للشاق. كما أنه لم يفقد امتيازَه في النوم في إحدى الغرف المخصصة للمعتقلين مع إدارة السجن. ولعله من المفيد أن نذكر في هذا السند أنه قبيل نقل سولجنستين إلى معسكر بوباي كالوجا تمكنت زوجته ناتاليا من الانتهاء من الإجراءات المعقدة الخاصة بالحصول على تصاريح الإقامة في موسكو ومقابلة زوجها الذي فوجئت بنقله من معسكر أورغلام الجديدة إلى سجن كالوجا حيث تمكنت من زيارته بحضور واحد من الحراس. فوجدت أن تغيراً طرأ عليه. فقد أصبح أكثر حساسية للآلام الآخرين عن ذي قبل. وعبر لها عن شديد أسفه بل وخجله من نفسه لأنه كتب إليها في ألسانيا بعض العبارات التي تنم عن القسوة. وتصور روايته «الدائرة الأولى» هذا التغير الذي طرأ عليه. وعندما التقى الرجل بزوجته كرر لها استعداده للموافقة على طلاقها منه إذا كانت ترغب في ذلك. ورغم أن الشك بدأ يساورها في رغبته من الخلاص منها فقد أكدت له إخلاصها كما أكدت استعدادها الكامل للانتظار لمدة ثمانية أعوام حتى يخرج من السجن. ورغم الصعاب التي أحاطت به فإن الأمل في حصوله على عفو لم يفارقه آنذاك أبداً. فكان يصعد إلى قمة العمارة التي يقوم المساجين ببنائها ويسبح ببصره إلى عالم الحرية والانطلاق خارج الأسوار فيوحيا. دون طائل. أنه لم يلق العفو من جديد. غير أن الكيل قاض به في نهاية الأمر فالتمس من المسؤولين فيه في أية بقعة في الاتحاد السوفييتي مدى الحياة دون أن يدري أن الحكم الصادر ضده يتضمن حكماً بالسجن والنفى معاً. ولحسن حظه تمكنت ظروفه بعد نقل الجنرال بليابيف الذي كان يشغل وظيفة مساعد مشرف إنتاج في سجن بوباي كالوجا إلى سجن بيوتركي فقد حل محل الجنرال المنقول.

وأبعدته كثيراً هذه اللترقية إلى صفوف المعتقلين مع إدارة السجن، فخلع ملابس السجن ليزهو في بزته العسكرية. مظهرها حرصه البالغ على استرضاء القائمين بأمر المعسكر.

ثم بدأ أحد المسؤولين عن إدارة السجن واسمه سينين يتردد على غرفته ليتحدث إلى نزالانها عن الأدب وأحدث الأفلام التي شاهدتها. وفي إحدى زيارته أشار هذا المسؤول إليه بالخروج من الغرفة ليخرج في أثره بعد دقائق معدودات. وطلب إليه سينين التوجه لمقابلة ضابط الأمن في مكتبه فافص قلبه في جنباته وتوقع شراً مستطيراً. ودخل سولجنستين غرفة ضابط الأمن فوجدها مريحة وتعدوى على أثاث وثير وسمع صوت الموسيقى الكلاسيكية تنبث من مزياح. ففزع بنبض الحياة المتدفق خارج أسوار السجن. واهترته دهشة. عندما رأى ضابط الأمن يعامله بأدب شديد ورقة بالغة ويسأله عن أحواله في السجن. هل هو مرتاح لم أن هناك ما يضائقه. وهل زائنه حياة السجن مرارة بحقنا على النظام السوفييتي. ثم سأله إذا كان لا يزال يؤمن بهذا النظام معلماً كان يؤمن به في صدر شبابه. وحاول أدبيانا أن يجنب استنارة غضبه فقال له إنه لا يزال يؤمن بالاشتراكية والنظام السوفييتي. فطلب إليه ضابط الأمن ألا يدخل عليه بالتعاون معه ماداماً يشتركان في الإيمان والأيدولوجية والأهداف نفسها. وأضاف أن سولجنستين هو الشخص النموذجي الذي يمكنه الاعتماد عليه. والإعتماد عليه في نقل كل ما يدور بين السجناء إليه. وأسقط في يد أدبيانا وحاول أنه غير كفاء لها ويحاوره وينلوه لمدة أسبوعين. فقبلاً رجل الأمن يستخدم معه لغة تطوى على التهديد. وأخيراً قال له إنه سمع عنه أنه يتناسب للمجرمين الماعدين العدا ويوقف لهم

بالمرصاد وأنه لا يحب أن يراههم يسبحون على مقدرات المواطنين الأبرياء يحلون فيهم قتلاً وسلباً واغتصاباً. وطلب منه أن يقوم بالتبليغ عما يدور بينهم من أحداث وعن أية محاولة قد يذللونها أو يفكرون فيها للهرب من السجن. فلم يجد غضاضة في الموافقة على ذلك. ولكن المشكلة التي واجهته أنه كان ينأى بنفسه عن مخالطة هؤلاء المجرمين. وبالتالي فإنه لم يكن يعرف الكثير عنهم. وفي لمح البصر اقتلص ضابط الأمن هذه الموافقة من جانبه وطلب منه التوقيع على تعهد بتبليغ إدارة السجن بأية محاولة يذللها السجناء للهرب. وتردد سولجنستين في بادئ الأمر في التوقيع بحجة أن التعهد لا ينص على السجناء المجرمين فقط. ولكنه عاد ووافق على التوقيع عندما طمأنه رجل الأمن بأن المجرمين وحدهم هم المقصرون في هذا التعهد. ثم أخرج له تعهداً آخر طلب منه التوقيع عليه مفاده أنه يتعهد بالمحافظة على سر التعهد الأول وعدم إفشائه لأحد. وحتى يكتمل إذلال سولجنستين الذي شعر أنه انحدر إلى أسفل سافلين اختار له ضابط الأمن اسماً جاسوسياً مستعاراً هو فيتروف يوقع به على الأوراق. وهكذا تحول أدبيانا الكبير في مطلع حياته إلى مخبر أو جاسوس يعمل لحساب إدارة السجن. لقد كان في إمكانه أن يخفي هذا العمل الشائن عن الناس ولكنه اعترف به في شجاعة بعد مضي نحو ثلاثين عاماً على الإتيان به رغم أن هذا الاعتراف يساعد كثيراً على تمكين أعدائه منه. وكان سولجنستين أمينا مع نفسه عندما اعترف لنا أيضاً أن تدهوره المعزى لا يرجع إلى إدارة السجن بقدر ما يرجع إلى طبيعته النطوطة التي تتأجج رغبة في الوصول إلى القمة. وفي أن يصنع واحداً من هبة السجن الحاكمة، فصلاً عن أن نفوره

الشديد من أن يكون مجرد سجين عامل يكبح ويضبط حفزه إلى استرخاء السلطة المسلوطة عن إدارة السجن.

وبسبب فشله في مهمة التخابير والتجسس على المساجين كلفته إدارة المعسكر بأداء الواجبات العامة المضنية غير أن اشتراكه في أنشطة المعسكر الثقافية والتعليمية أتاح له فرص القراءة والتمثيل ومخاطبة النساء المهمات بالفنون بطريقة طبيعية. وفي يوم من الأيام نسي نفسه وهو يمثل دوره في مسرحية أثيرة إلى قلبه بعنوان الدليل لمصاحب الدعاية الذكسية، للكاتب جروبيو ديوفو فارفع صوته قائلاً: «من هم أباء الوطن؟ أليسا هم الذين يقومون بتكديس السفام والأسلاب؟ وما أن سمع المسؤول عن السجن هذا حتى انتهره وأمره بالنزول من فوق خشبة المسرح. وساعده تخفيض رتبته وتحويله إلى الخدمة العامة بسبب فشله في التبليغ عن زملائه على التعرف على مراكز السلطة والنفوذ الحقيقي في المعسكر وعلى أساليب استغلال الأقوياء للضعفاء فيه، وراضح له أن المرأة المسجونة أكثر تعرضاً للضبط والاستغلال من الرجل فهي مطمع لظهور رؤسائها الجنسية.

وتزامى إلى سماعه أن بعض المسكرات تضم فرقا مسرحية كاملة من الممثلين والممثلات والراقصات المحترفين والمحترفات وأن إدارة السجن تعطينهم من أداه أي عمل حتى يفرغوا تفرغاً كاملاً للتعب، فانبهروا لهذا وأخذ يحلم بالانضمام إلى إحدى هذه الفرق. وسرت شائعة بين المساجين أن وزارة الداخلية السوفيتية في الثلاثينات كانت تحتضن المواهب التمثيلية وتسعى إلى اجتذابها من السجن السوفيتية كافة تماماً مثلاً كان أصحاب الأراضي في روسيا في القرن التاسع عشر يندافسون في اجتذاب الموهوبين في التمثيل بين رفيق الأرض

من مختلف المناطق في البلاد، لتكوين فرقة مسرحية يزدهن بها. ويكثر ما كان النشاط المسرحي يخفف من كربه بقدر ما كان يزيد أحياناً من هذا الكرب. فقد كان قائد المعسكر يؤوب إلى المعسكر في حالة سكر، بين وفي ساعة متأخرة من الليل ليطلب إلى الفرقة المسرحية أن تقدم إليه أحد عروضها. فيحضر أعضاؤها البائسون إلى الاستيقاظ من عز للرم ليمثلوا في مسرح خال من النظارة باستثناء القائد المكبر ويضعة من الحراس.

وفي معسكر بوابة كالرجا أسمى مؤلفنا تسعة أشهر بغضوة وسنها بأنها فترة من الفشل الرومي وصلت فيها حالته إلى الحضيض. وفي يوم ١٨ يولية ١٩٤٦ قوبحيه سولجنتسين باستدعاءه على عجل إلى حجرة للحراس وسعه كل ممتلكاته. واستبدت به الحيرة والتلق لهذا الاستدعاء المفاجيء فلم يعرف إذا كان لنذر شلوم أو بشير خير. وتم تبليغه بصدر أمر ينقله إلى سجن بيوتركي الذي سبق أن دخله ثم عرف أنه سوف ينقل إليه كمجين ذي مهمة خاصة دون أن يبين طبيعة هذه المهمة الخاصة.

مراكز أبحاث داخل أسوار السجون :

نسى سولجنتسين أنه في يوم من الأيام ملأ استمارة وزعت على المساجين بهدف حصر كفاءاتهم العلمية والاستفادة من تخصصاتهم المختلفة. وزعم مؤلفنا في هذه الاستمارة أنه عالم من علماء الذرة أصلاً في أن تحسن الدولة معاملته وتلحقه بمعهد أبحاث تابع لأحد السجون. ولم يدركه أن المسؤولين في وزارة الداخلية سوف يقبلون زعمه على عراشه دون فحص أو تحقيق، واستغرقت إجراءات إعادته إلى سجن بيوتركي نحو أحد عشر ساعة في التدفيس وحمامات

البخار وحمامات الماء والأسفلت الروتينية عن اسمه ومكان وتاريخ ولادته .. إلخ: وعندما دخل الغرفة وجد نفسه في زنزانة شديدة الحرارة والعفن (بسبب وجود خزان البراز فيها) لاتسع أكثر من عشرين شخصاً فاحتشر فيها مع ما يقرب من ثمانين رجلاً. وجد سولجنتسين نفسه وسط حشد كبير من الطعام والباهين في التخصصات كافة، في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والهندسة والتصميمات.. خامره شعور بأنه دعى ليس له مكان بين هؤلاء الطعام. وسرعان ما اقترب منه رجل وقور عرف نفسه بأنه البروفيسور تيموفيفف - سوفسكي رئيس الجمعية العلمية للزنزانة رقم ٧٥ وطلب منه رئيس الجمعية أن يلقى محاضرة على أعضائها الذين يجتمعون كل صباح تحت النافذة من ناحية اليسار بعد توزيع حصص الخبز عليهم، وأسقط في يده فهو مجرد خريج من الجامعة درس الرياضيات والفيزياء والاحد له بالدراسات العليا. ولكن الحيلة أسعفته فقد كان قد انتهى من قراءة ترجمة لتقرير أعدته الحكومة الأمريكية بشأن الآثار المترتبة على انفجار أول قنبلة ذرية، فتبادر إلى ذهنه أن يلقى محاضرة في هذا الموضوع ووافق البروفيسور تيموفيفف على اقتراحه ورغم أنه اتضح له عدد إلقاء المحاضرة أن تيموفيفف كان يعرف عن الموضوع الذي يتحدث فيه أكثر مما يعرف هو شخصياً فقد استقبل المجتتمعين محاضرة بالانصاف بوجه عام. الأمر الذي أدى إلى قبوله عضواً في جمعيتهم، وأتاح له انضمامه إلى هذه الجمعية فرصة الاشتراك مع أعضائها في لعب الشطرنج والقراءة للمتعة وحضور الحفلات الموسيقية والمحاضرات والندوات. ورغم العلاقات الطيبة الودية التي كانت تربطه بأعضاء الجمعية فقد لحتم الخلاف بينه وبين في أرلوكسكي

من أعضائها حول المذهب الماركسي الذي كان حتى ذلك الوقت لا يزال مؤمنا به . ورغم أن حماسه الماركسية لم يعد بالدرجة نفسها من القوة والحرارة السابقة فإنه دافع عنها بشيء من الحماس ضد هجوم هذا الفس الضارى عليها . وبمثل حيوية المناقشات التي دارت بين أعضاء الجمعية في مؤلدا الرغبة في ثلاثة أشهر وإقراضه قتل عليهم بعض فصادق ياسلين الأثرية إلى قلبه . كما ألف مجموعة من القصائد عن حياة السجون مثل "أول طرد نسلته" ، و"إلى زوجتي" ، و"إلى ولدي" .

عندما أدركت السلطات السوفيتية مدى ما أصاب للتقنية السوفيتية من تأخر وانهيار نتيجة الزج بالخبراء والعلماء والمهندسين في غياهب السجون فكرت في الثلاثينيات في الاستفادة من تخصصات المساجين المتنوعة عن طريق إنشاء مراكز للبحث العلمي داخل أسوار السجون ويحتر معهد الأبحاث الذي أقامه البروفيسور لوبنيد رامزين من أول هذه المعاهد وأفضلها . وهين البروفيسور رامزين الذي كان يتعاون تعاوناً وثيقاً مع أجهزة وزارة الداخلية رئيساً لمعهد دراسة الكهرباء المركزية ضم إليه نخبة من السجدة الخبراء . واستطاع رامزين أن يحرص في مجال الكهرباء الحرارية إلى اختراع اعترفت بأهميته الدوائر العلمية والصناعية ، الأمر الذي دفع الدولة السوفيتية إلى العفر عنه ومنحه جائزة . وفي مجال الهندسة استطاع المساجين المهندسون أن يدخلوا سلسلة من التطويرات على قاطرات السكة الحديد وفي صناعة المدافع والدبابات . ولكن أعظم إنجازاتهم على الإطلاق يتمثل في الدور الكبير الذي لعبه في تطوير صناعة الطائرات في فترة محاكمات التطهير بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ عندما ألقى القبض على عدد كبير جداً من مهندسي الطيران ومسمى الطائرات وعلى رأسهم

المهندس النابغة أندريه تومويوف الذي اتهمته السلطات السوفيتية ببيع بعض تصميمات الطائرات للأعداء ، الألمان . ونجم عن هذه السواسة للابغية أن انهارت صناعة الطائرات في الاتحاد السوفيتي فلم يجد المسولون مناصاً من إقامة مصانع الطائرات ومعاهد أبحاثها داخل أسوار السجون ومعسكرات العمل وإسناد الإشراف عليها إلى المتخصصين من بين المسجولين واستدعى المسولون المهندس توبولوف وطلبوا منه أن يعد كشافاً بأسماء مهندسي الطيران الذين يعرفهم وأن يرأس فريقاً بحثياً معهم . ويمكن هذا الفريق من العطاء من تطوير صناعة الطائرات خاصة الطائرات العسكرية قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . وفي صيف عام ١٩٤١ تم إطلاق سراح توبولوف ومن بعده عدد آخر من المهندسين بسبب الخدمات الجيدة التي قدموها لصناعة للطائرات . وفي نهاية الحرب تم نهالها إغلاق معهد أبحاث الطائرات الذي يعملون فيه بالقرب من موسكو .

ولكن هذا لم يكن معناه بحالٍ من الأحوال نهاية إنشاء مراكز الأبحاث داخل السجون السوفيتية فبعد انتهاء الحرب أقام السوفيت . على بعد نحو مائة وستين ميلاً من الشمال الشرقي لموسكو معهداً يعرف باسم "بولشايو" لتطوير تكنولوجيا الصواريخ . وفي سبتمبر ١٩٤٦ عين سولجنستين في ذلك القسم من المعهد الذي تخصص في إنتاج محركات الطائرات النفاثة حيث مكث هناك خمسة أشهر . وأبلغه المسولون أن يستعد للانتقال إلى معهد آخر سوف يفتح قريباً في زاجورسك . وبطبيعة الحال رافق له هذه الحياة الجديدة في معاهد السجون فقد تحسنت ظروفه المعيشية تحسناً ملحوظاً فأصبح الآن يتمتع بقدر أكبر من الراحة ونوع أفضل من الطعام . وفي زاجورسك تم تعيينه أميناً للمكتبة ، وهناك تعرف إلى ضابط بحري برتبة ققيب استطاع

عن طريق النصب والادعاء أن يقنع إدارة السجون بأنه مخترع عظيم حتى تنتقله من عمله المصنفي في أداء الراجبات العامة إلى حياة فيها شيء من الراحة والذعة . فكان هذا الدعي يقترح القيام بأبحاث علمية تنتهي دائماً بالإخفاق والفشل بغية تفتادى - بقدر الإمكان - العودة إلى أداء الراجبات المصنفة ومن بين مشروعاته العلمية الغاشقة استحداث اختراع من شأنه تحويل أشعة الرادار عن مسارها . وكان سولجنستين مكلفاً بأن يعمل له الحسابات الرياضية اللازمة لاختراعه الوهمي . ورغم هذا فإن مثل هذا الأسلوب الذي اتبعه السلطات السوفيتية مع المساجين العلميين حفز الكثير منهم على إظهار مواهب طمعا في أن ينجو بنفسه من مشقة العمل المصنفي في معسكرات العمل .

وكذلك استفاد الاحتلال السوفيتي من احتلاله لألمانيا الشرقية فخلق منها مصانع بأكملها إلى الأراضي السوفيتية . وعن طريق تقليد الصناعات الألمانية عرف السوفيت لأول مرة صناعة الساعات الدقيقة وساعات الحائط والكاميرات الحساسة ، وأحدث صيحة في صنع أجهزة التسجيل والراديو إلخ ...

فضلا عن أنهم نقروا إلى بدهم مالا يقل عن ستة آلاف ألماني مع عائلاتهم إلى روسيا لإنتاج الصواريخ والعمل في مجال تكنولوجيا الفضاء . وحتى تستفيد السلطات السوفيتية من أسرى الحرب من المهندسين إلى أقصى حد ممكن وزعت عليهم استبيانات عن تخصصاتهم الدقيقة والوظائف التي كانوا يحتلونها قبل وقوعهم في الأسر . وعهد إلى سولجنستين بترجمة هذه الاستبيانات وتقييمها . ولكن يبدو أن هذه الفكرة لم يكتب لها النجاح لأن أسرى الحرب الألمان تمعدوا تمثيل السوفيت وإخفاء المعلومات الصحيحة عنهم .

ولم أهم حدث في حياة سولجنستين في فترة بقائه القصيرة في زاجورسك اكتشافه على رغوف المكتبة ، وجود المعجم الذي وضعه فلاديمير داهل في أربعة أجزاء في القرن التاسع عشر (والذي كانت خالته إيرينا أمته نسخة منه في مفلوسك) . والمدهش أن هذا المعجم اللحية في اللغة الروسية من وضع رجل يهجر من أصل دانتيمارسكي نذر حياته لتقنية اللغة الروسية من أية روافد عليها سواء أكانت لاتينية أو فرنسية أو ألمانية . ومن ثم تفرس على دراسة الفولكلور الروسي والأمثال الروسية التي تدرى على أسئلة الناس . ومن فرط إعجاب مؤلفنا بهذا المعجم قرر أن يطالع صفحة أو صفحتين منه كل يوم ، ثم يقوم باستظهار ما فيه من تعبيرات ولفاظ غير مأثورة كلوع من ممارسة الرياضة الأدبية بل يمكن بهمه حفظ الكلمات في حد ذاته بل سعى إلى استيعاب روح اللغة الروسية والانغماس فيها . وذهب إلى حد نقل بعض أجزاء هذا المعجم في كراسات كاملة سماها «مفترقات من داهل» .

ويعد زاجورسك أعيد سولجنستين في أوائل يولية ١٩٤٧ إلى سجن بيوتركي الذي انتقل منه وأعيد إليه أربع مرات ، ليملك فيه آخر مرة فترة وجيزة قبل نقله في ٩ يولية من العام نفسه إلى سجن ماريفيتو في منوالحي موسكو للشمالية حيث أودع في «السجن الخاص رقم ١٦» كان ماريفيتو قبل تحويله إلى سجن ، ديرا قديما للسلك والعبادة (صوره سولجنستين تحت اسم ماريفيتو في روايته «الدائرة الأولى») ، ولشاك أن مؤلفنا كان محظوظا في ذلك السجن الجديد ، فهو أكثر راحة من أي سجن آخر عرفه حتى الآن ، وأتيح له فرصة للتجول بحرية فيه والرقاد على حشايشه والسمع بوضوح لمحطة ال جي جي سي . البريطانية لأن التشويش على المحطات الإذاعية لم يكن معروفا حينذاك وفوق هذا كله احتفظ

مؤلفنا في سجنه الجديد بوظيفة أمين للمكتبة . واستغرق إعداد معهد سجن ماريفيتو للعامل اللازمة للأبحاث فيه نحو ستة أشهر . وأحضر للسوفيت كل معدته وأثاثه خصوصا من ألمانيا واضطلع سولجنستين بمهمة فرز مجموعة الكتب والمجلات الفنية المنشورة باللغات الروسية والإنجليزية والألمانية المتصلة بعمل هذا المعهد ، وتولى تصنيفها إلى جانب القيام بترجمة بعض منها ، واضطلع المعهد في بدليته بمشروع يحثى يهدف إلى اختراع جهاز لاسلكي متحرك يمكن لرجال الشرطة استخدامه وفي أبحاثه التي مؤلفنا يراجين تركا أكثر لا ينحى فيه وأصبعا من أعز أصيقاته وهما ديمتري بانين ولوف كورليف . يقول المهندس بانين أنه أحب سولجنستين من أول مقابلة معه قبل أن يتبادلا الحديث مما فقد أحب فيه وجهه الواضح الصريح وعينيهِ الزرقاوين الجريكتين . ولم يلبس بانين قط أول عبارة تقوله بها مؤلفنا أمامه إذا قال له : في أثناء هبوطي للدرج ماذا كان يمكنني أن أرى في ظلام المسالة غير وجه أيقونة تحمل صورة مخلصنا يسوع المسيح . وتصور رواية «الدائرة الأولى» شخصية بانين بقامته للمدينة ووجهه الوسيم الذي يشبه فارسا من القرون الوسطى بانين الذي يكرس سولجنستين بست سنوات - قطاعات الحرب الأهلية في طفولته ، فلا غرو أنه كره النظام البلشفي من سويدها قلبه . ومما زاد من كراهيته له مارا من اضطهاد معظم للمهندسين في أوائل الثلاثينيات ، ويبدو أن واحدا من زملائه للمهندسين وشي به لدى السلطات الأمر الذي أدى إلى الحكم عليه عام ١٩٤٠ بالحبس لمدة خمسة أعوام في معسكر للعمل ثم صدر حكم آخر ضده عام ١٩٤٣ يقضى باستمرار حبسه عشرة أعوام أخرى بتهمة نشر الدعاية الانهزامية .

كان بانين قد أمضى في معسكرات العمل في القلعة الشمالية سبعة أعوام قبل أن يلتقي بسولجنستين وزعم الأوهال التي مر بها في هذه المعسكرات فإنه استطاع أن يتحملها ويخرج منه سليم الجسد والعقل معا .

أما السجن الآخر ليف كورليف (الذي رسمه مؤلفنا في شخصية ليف روين في «الدائرة الأولى») فكان على النقيض من بانين فهو عضو في الحزب الشيوعي يؤمن بالماركسية إيمانا شديدا ويؤازر النظام مؤازرة كاملة . ومع ذلك فقد ألقى القبض عليه في جبهة القتال نفسها وفي الظروف والتهمة نفسها التي قبض فيها على سولجنستين ولم يفت السجن في عضده بل زاده تمسما للنظام الشيوعي وولاه له وتقالا بالاستقبال واقتناعا بأن سلسلة الاعتقالات ومعامك التطوير التي تحدث أمام عينيه لا تتعد أن تكون سحابة سيف عما قريب لنقش . عرف بانين وكورليف بعضهما البعض في سجن بيوتركي حيث تقابلا لأول مرة وهناك استطاع كورليف - رغم الدبابان الواضح في آرائهما - أن يفلح حزب بانين له ، وأن يلمس شفاف قلبه بكرمه وبذل أخلاقه فعندما تعلم كورليف من أهله طرعا يحتوى على شيء نادر هو رغبة من الخبز الأبيض كسره هذا الرجل نصفيين واحتفظ لنفسه بالنصف وأعطى لبانين النصف الآخر . فلا غرو إذا رأياه يلح على قائد سجن ماريفيتو أن يستدعي كورليف من سجن بيوتركي للاستفادة به في المعهد رغم أنه ليست له أية صلة بالجانب الفنية أو التقنية اللازمة للعمل فيه ، فهو بحكم تخصصه مؤرخ أدبي وفقه لغوي يتقن عدة لغات من بينها اللغة الألمانية ، وفي فترة التحاقه بالجيش السوفيتي تولى كورليف مهمة القيام بدعاية مناهضة للنازية خلف خطوط الجيش الألماني من أجل تحطيم مطوياته

ويرجع السبب في القبض عليه إلى اعتراضه على السياسة القسرية التي انتهجتها القوات السوفيتية في الأراضي الألمانية المحتلة ومقاومة أعمال الإرهاب والنهب والسطو التي تمارسها هذه القوات، الأمر الذي جعل بني جلته يتهمونه بالثب والرخاوة مع العدو. وفي بادئ الأمر لم يصدق سولجنتسين أن ظروف هذا الرجل تصل في تشابهها مع ظروفه إلى حد الخطأ، فظن أن كوريلوف مدسوس عليه لمرافقته والتبليغ عنه. غير أن الشك الذي ملأ قلبه سرعان ما تبدد وساعد مقت الربن المشترك لأعمال العنف والنهب في الأراضي الألمانية المحتلة على أيدي الجنود السوفيت على تقوية روابط الود والصداقة بينهما واستمع مؤلفنا للحكايات التي رواها كوريلوف له عن هذه الأعمال البغيضة في قصيدته السردية «لبل بروسية» وتوثقت علاقة الرجلين أكثر وأكثر بسبب شغفهما المشترك بقراءة الصحف والإنتاج الأدبي. كان كوريلوف محاضراً شاباً في معهد موسكو للفلسفة والأدب والتاريخ في الفترة نفسها التي كان سولجنتسين طالباً بالمراسلة فيه. وعندما اكتشف كوريلوف في ماريغينو حماس مؤلفنا لمعجم داهل وتاريخ اللغة الروسية ساعد المكتبة على اقتناء مجموعة كاملة من هذا المعجم، وعندما انتقل سولجنتسين إلى آسيا الوسطى حرص على أن يأخذ معه الجزء الثاني من هذا المعجم في حين احتفظ صديقه كوريلوف بالأجزاء الثلاثة الأخرى، وعندما اجتمع شمل هذين الصديقين في الخمسينيات سلمها كوريلوف إلى سولجنتسين حتى يحتفظ بالمجموعة كاملة. وزاد من قرب هذين الصديقين والتصاقهما إيمان كليهما بالحزب الشيوعي والماركسية اللينينية وأعفادهما أن القبض عليهما لا يرجع إلى فساد النظام البلشفي بل إلى فساد بعض أجهزته

والقائمين عليها. ولم يكف كوريلوف أن يحلم بقرب موعد العفو عنه في حين أن سولجنتسين الذي اتسم بواقعية أكثر من مثل هذه الأحلام. أما بانين الذي فاق مؤلفنا في نظارته الواقعية فقد بلغ حد التشاؤم المطلق وأمن أن النظام السوفيتي لن يسمح لهم بالخروج حتى يخفي أسرار معسكرات العمل وما يدور فيها عن العالم الخارجي. كتب سولجنتسين إلى زوجته ناناليا يقول: «كلما بدموا يتحدثون عن العفو العام ترسم على وجهي ابتسامة ملثوية وإبتعد عنهم».

وهكذا وجد سولجنتسين نفسه متجنبا نحو مجالين مغاطسيين لمعارضين كل التعارض. فصديقه كوريلوف يرضى فيه الرغبة في التصديق والإيمان بسلامة النظام البلشفي في حين كان صديقه بانين يستعته لشك في سلامته مستخدما في سبيل ذلك منها عقلايتها باردا في الاستقصاء والتحليل والاستدلال ويات من الواضح أن خبرة بانين في السجن ومعسكرات العمل خبرة نادرة ليس لها نظير فقد عرف سجون الشرق الأقصى والشمال القطبي والأورال وروسيا الأوروبية. وهناك نقطة أخرى راقت له في بانين هي حرصه البالغ على الوصول باللغة الروسية إلى أقصى درجة من النقاوة بالنسبة إلى استعمال كل ما يشوبها من أنفاظ أجنبية وافدة عليها من اللغات الأخرى وبمعنى هذا أن بانين آمن بالسلافية في مجال اللغة الروسية حتى انتهت وصلوا بها إلى أعلى درجة من الوضوح والدقة في التعبير وهو شيء قريب مما جذب مؤلفنا إلى التوفر على دراسة معجم داهل وإلى اهتمامات صديقه كوريلوف الفيلولوجية، ورغم أن مؤلفنا يهتم على نظريات بانين في اللغة ويعارضها في روايته «الذاكرة الأولى» فإنه يفعل ذلك بشيء من العطف وعلى أية حال لم يكن بانين متخصصا في اللغة

الروسية مثلما كان كوريلوف متخصصا فيها، وتلاوب سولجنتسين وكوريلوف في تلاوة الشعر ومنه بعض قصائد مايكوفسكي وإسين التي ألغاهما أدبيتا على نحو مؤثر. وتكتب بانين منذ البداية إلى ما في طبيعة سولجنتسين من تناقض فهو منذ طفولته يتسم بالرغبة العقلانية في مشاركة الناس اهتماماتهم ومخاطبة الرجال في منحاكتهم المتعالية وصخبهم الشديد، ولكنه في الوقت نفسه يلزم إلى الزهد والتشقق وقهر النفس، يقول بانين عن مؤلفنا إنه حين يترك نفسه على سجيته كان يفيض بالحبورية المتدفقة ويطلق النكات الطليعة غير أن إحساسه بالدعابة كان يلاشى عندما يتقلب عليه ذلك الجانب البيروقراطي في طبيعته فيحزن على أنه يضع وقتا فيما لا يجدي أو يفيد، وكان يقول في كثير من الأحيان إلى الانفراد التام بنفسه ويكره أن يقطع عليه أحد خلوته، وكان من عادة الأصديق الثلاثة سولجنتسين وبانين وكوريلوف - الذين سما أنفسهم الفرسان الثلاثة - أن يتناولوا اثنا مناهمما للحويلة دون أن يتحكم أحد خلوة زميلها الثالث. وفي ماريغينو استعاد سولجنتسين رغبته في الكتابة الخلاقة وإعادة التفكير في وضع الرواية التي كان في صدر حياته يحلم بتأليفها عن قصة الثورة البلشفية. ولكن ثقته بالباكرة بنفسه وفي عظمة هذه الثورة بدأت تزال به، فأصبح الآن أكثر شكا في قدراته الأدبية وفي روعة الثورة البلشفية والتجأ إلى كوريلوف للوقوف على المزيد من المصطرمات عن هذه الثورة لأنه عرفها عن كذب وخبر أحداثها. وليس أدل على أنه بدأ يشك في عظمة الثورة من أنه طلب إلى صديقه كوريلوف أن يروي له الحقائق كاملة دون نقص أو زيادة بلا مبالغة أو تزويق، حتى صورة ليدن الناصعة بدأت تهتز أمامه فهد الآن يتساءل: هل صحيح أن ستالين

وجده هو المسئول عن كل ما حدث من أخطاء؟ وهل صحيح أنه لو قُضِيَّ للذين أن يعيشوا لما حدثت المجاعات والمزارع الجماعية ولما أبدحت طبقة الكولاك؟ واختلف سولجنتسين مع كرونيف في نظريته إلى ستالين فقد لاحظ مؤلفنا أن صديقه يحمل إعجابا عظيما به لأسباب استعمارية محضة، فاحترامه لستالين رجع إلى أنه إله الحاكم القوي الذي استطاع أن يعيد إلى روسيا سالف عظمتها وإنشائها. ورفض سولجنتسين أن يقر زميله على هذه النعرة القومية والزهو الاستعماري ومن جهة أخرى بدلت الشكوك ترواد مؤلفنا في سلامة فكرة التسمية التاريخية وهي إحدى ركائز التفكير الماركسي بالرغم من هذا كله فإنه لم يخطر على بال مؤلفنا أن يرفض المذهب الشيوعي أو الفكر الشيوعي بزمته ولهذا نراه يقف في صف كرونيف ضد صديقهما الثالث باتون الذي رفض الفكر الماركسي والثورة البلشفية من أسماها.

وأراد سولجنتسين أن يجد مخرجاً لمحتة الناجمة عن شكوكه في الشيوعية فالتجأ إلى فلسفة الشرق وحكمائه مثل لائسي الفيلسوف البخاري الصيني (الذي سبق دعوته إلى السحاحة ومقابلة الشر بالخير دعوة المسيحية لها) ويتمس لديهم الحكمه والحجى ولهذا فقد كان يصطب معه باستمرار بعيداً عن أنظار زملائه ككتابا يتحتمن بعض مآثورات هؤلاء الحكماء وتعاليمهم، ونهب سولجنتسين إلى أن الماركسية فشلت في أن تشد من أزرستالين في مقاومة الغزو الألماني. فقد اضطر إلى التخلي عن الدعاية البلشفية والتجأ إلى الشعور الوطني الفائق في نفوس الروس وليس إلى المبادئ الماركسية ودعوتها المزعومة إلى الدولية الزائفة فضلاً عن أنه بدأ يشكك في الدور السيئ الذي لعبه اليهود والأجانب من غير الروس في السياسة التي انتهجها

الحزب الشيوعي يقول كرونيف إن سولجنتسين آمن أن كل الثروستكيين في العشريات والثلاثينيات كانوا من اليهود في حين أن أنصار بوخارين كانوا من الروس. وعلى أية حال بلغ إعجاب مؤلفنا بكل من صديقيه مؤلفنا جعله يكتب إلى زوجته قائلاً: «إنه من الطيبيين أن يترك من كانوا في مثل عقليتهما وتطليعهما ويخبرتهما أنثراً عميقاً في شاب لا يدور بوجه عام أن يكون رفيقاً ذا خبرة متدبلة بالحياة. ويعترف بجمليهما عليه فيقول إنه تطم على يديهما أكثر مما تطم في جامعه روستوف واعتبر سولجنتسين السجون والمعسكرات مدرسته الحقيقية وأسعده أن يعيش بين هؤلاء المساجين المتعلمين لأنه ناقش معهم أخطر الموضوعات بمسراحة وحرية تامة مثل، محاكم التطهرو والمزارع الجماعية، في حين أنه لو كان يعيش خارج الأسوار لما تجسراً أن يعالجها بمثل هذه الصرية والصراحة.

كانت القيود المفروضة على معهد السجون في ماريون أقل بكثير من القيود المفروضة على غيره من السجون فزلاوه من ذويهم يمزون بعد مرورهم على رقيب السجون فضلاً عن القرب الشديد لهذا السجون من مدينة موسكو حيث انتقلت ناناليا لاستكمال دراستها العليا في الكيمياء. وشعر مؤلفنا بالإحباط لعدم قدرته على رؤية زوجته بعد وصوله مباشرة إلى سجون ماريون في يولييه ١٩٤٧. وحيث أن السلطات السوفيتية كانت ترغب في الاحتفاظ بمكان وتشاط هذا السجون سرا فإنها لم تسمح للسجناء بمقابلة ذويهم فيه. بل كانت تسمح لهم بهذه المقابلات في سجون آخر في موسكو اسمه سجون باجانكا بعد أن يكلموا ملابس السجون ليبرندوا الملابس المعدنية وهو ما تنصروه لنا روابيته «الذكرة الأولى» ورغم أنه كان محظوراً على السجناء أن

يدلوا بأية معلومات عن مكان هذا السجن الجديد فإن زوجات المساجين ومن يذهبن ناناليا كن على علم بمكانه ومن ثم تراها ترافق أليجنديا زوجة باتون التي تعرفت إليها أثناء وجودهما معاً في غرفة الانتظار إلى حديقة مجاورة للسجن على أمل أن ترى كل من الزوجين زوجها وهو يمشي أو يسريش أو يلعب الكرة الطائرة في ملعب السجن. وكان أول لقاء بين سولجنتسين وزوجته بفيس عشوية ورقة ويمضي عام كامل قبل أن تصمح السلطات لناناليا أن ترى زوجها للمرة الثانية.

في أول لقاء مع زوجها في صيف ١٩٤٧ كانت ناناليا تستكمل رسالة الدكتوراه في الكيمياء التي حصلت بفضلها بعد مرور عام تقريبا على هذه الدرجة العلمية. ولكن هذا النصر الأكاديمي لم يمنحها من إشباع هوايتها الأصلية للموسيقى والعزف على البيانو بوجه خاص. وبالرغم من أن زوار مؤلفنا السابق عن الموسيقي فقد بدأ في ماريون يستهويه سماعها هجر الأثير إلى الحد الذي جعله من وراء الأسوار يلح على زوجته كي تخفف بعض الشيء من اهتمامها بالكيمياء وتزيد اهتمامها بالموسيقى التي نصحتها باحترافها وفي تلك الفترة من حياتها شعر الزوجان - رغم بعدهما عن بعض من الناحية الجنسية - أنهم أشد ما يكونان قرباً والصحاف فلا غرو إذا رأينا سولجنتسين قبل مقابلة الثانية مع زوجته في يولييه ١٩٤٨ (أي قبل مناقشتها رسالة الدكتوراه بثلاثة أيام فقط) يستعد لهذا اللقاء كما شق ولهان يتحرق شوقاً للقاء حبيبته ويحرص على تصفيف شعره وتلميع حذائه. وفي لقاءهما الثاني عام ١٩٤٨ ذكر مؤلفنا لزوجته إنه فرح بوسول صديقهما القديم نيكولاى فيكتفسن الذي ألقى القبض عليه في إبريل ١٩٤٥

(عقب القبض على سولجنستين) وصدر صده حكم من محكمة عسكرية بالسجن لمدة عشر أعوام وبات من الواضح رغم كل ما يجمعهما من تردد مشترك على النظام السوفييتي أن طريقتهما لم يعد واحداً، ففي حين ظل مؤلفنا مشغولاً بقضايا الاشتراكية والماركسية والدور الذي لعبه كل من لينين وستالين أصبح نيكولايفيتش رغم مقته للسلاطينية ومظاهر الحياة السوفييتية لا يطمع في شيء سوى أن يميل حياته الخاصة في هدوء وسكينة بعيداً عن خصم السياسة وتقلباتها.

ولاحظ مؤلفنا أن شعار نيكولايف في الحياة أصبح (نحن نعيش الحياة مرة واحدة فلماذا لا نعيشها) ولينذهب كل شيء آخر إلى الجحيم) ولاحظ أيضاً أن رغبته في الحياة الهادئة جعلته يميل إلى شخصية كوريلوف ولا تروق له شخصية بانين المغالية التي تتسم بالتمرد والرفض اللذين يجذران في عقابهما أرواح العواقب وعلى العكس من ذلك شعر مؤلفنا أن ميله السابق لشخصية كوريلوف قد تغير عن ذي قبل فقد صار الآن يميل إلى شخصية بانين التي أخذت دينا ميكيته وقدرتها على الصمود والتحدى في مجالات الفكر والسياسة تروق له. ويحدثنا أديبنا عن هذا التغير الحوي الذي طرأ عليه بقوله:

«من ناحيتي لم أكن قط قادراً على الابتعاد عن السياسة أو التخلي عن معتقداتي. أصبح أنني تمردت للدفاع عن الماركسية في الأيام الأولى من سجنه ولكنه اتضح لي عجزه عن ذلك فقد أثرت عندي حاجات قوية للغاية كما جاءتني اعتراضات من أناس يتمتعون بالخبرة العميقة، الأمر الذي جعل الدفاع عن الماركسية أمراً مستحيلاً وكانوا يهزمونني في كل مرة فأقارهم بالحجة بالحجة. وهكذا بدأت بالتدريج أبعد عن الماركسية وكنت في سجن

الأخير أعبر عن تشككي فيها في حين أن الواقع أني لم أعد أؤمن بها أصلاً. وعلى أية حال شعرت بالارتياح لاتخاذني هذا الموقف: التزكسني وشأنني فلست أؤمن بشيء كما أني لا أعرف أي شيء وأثناء وجودي في سجنه الأخير أخذت أنفلي تدريجياً عن تشككي كما أني في حقيقة الأمر بدأت بالتدريج في العودة إلى المفاهيم الأصلية التي تكونت لدى في طفولتي. ومن خلال قراءة ديستوفسكي بدأت بالفعل أنصرك ببطء وثبات في المقام الأول نحو موقف يقسم بالمثالية كما يسمونها... أي نحو الإيمان بسيادة الروح على المادة، وهو موقف وطني وديني في المقام الثاني. ومعنى آخر حدث بالتدريج وفي بطء إلى أن رأيت السالفة كافة وأفكارى الباكسة.

وإذا كانت جذوة علاقة سولجنستين بصديقه القديم نيكولايف خدمت بحيث لم تترك أية بصمات واضحة على روايته «الدائرة الأولى»، فقد نشأت علاقة جديدة شديدة الشفاء بينه وبين رسام أودعته السلطات سجن مارفينو إسمه سيرجي إيفاشوف موساتوف حتى يرسم صورة كل شهر لتزنان بها جدران السجن.

ويرجع السبب في الحكم عليه لمدة خمسة وعشرين عاماً إلى أن السلطات ضبطته متلبساً باستماع قراءات من رواية مناهضة للنظام السوفييتي ألفها دانييل أندرييف، وتدل «الدائرة الأولى»، على أن الطابع الديني .. للوحات هذا الصديق اللذان راق له رغم عدم ارتباطه لاقرافته في العاطفية وجنوحه إلى الرومانسية. وكذلك توثقت علاقة مؤلفنا بالمهندس نيكولايف سيمونوف (واسمه بروتوبوف في الرواية المشار إليها) الذي كان واحداً من المسئولين عن إقامة محطة دانيير الشهيرة للطاقة الهيدروإلكتريكية في عهد ستالين. ورغم أن ولأه هذا المهندس للنظام الستاليني أمراً لا يرقى إليه شك،

وأته رفض رفضاً باتاً أن يتعاون مع الألمان عندما وقع في أسرهم، فقد اتهمه السوفييت عند عودته إلى بلده بالخيانة وإفشاء الأسرار للمعد. وصدر عليه حكم بالسجن لمدة عشرة أعوام. والجدير بالذكر في هذا الصدد أن سولجنستين لم يجد في تلك الفترة من حياته غضاضة في الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع الذين يخلفون معه من الناحية السياسية ويؤيدون النظام السوفييتي المقيت. فقد بدأ يهتم بالوإحيى السياسية، كما أنه سعى إلى توثيق صلاته بسجن آخر وهو رجل بسيط اسمه سيبيريدون الذي تولي مهمة قطع الأخشاب من أجل تدفئة المساجين. فهو من ناحية يرى في مثل هذه العلاقة سبيله إلى اكتساب الحكمة على أيدي العاديين والبسطاء من البشر، وهو من ناحية أخرى يتشمع عن طريقه اللغة الروسية النقية الأصلية كما يستغنى بها عن حياتهم اليومية، وهو ما نراه بجلاء في بعض صفحات روايته «الدائرة الأولى»، التي تصور سيرة حياة سيبيريدون من خلال استخدام هذه الحياة الأدبية نفسها في روايته «يوم في حياة دينستوفسكي».

وفي سجن مارفينو أكمل سولجنستين قراءة «الحرب والسلام» لتولستوي التي عاب عليها أسلوبها الذي عفا عليه الزمن. ولحسن حظه أن امتلأت مكتبة السجن بالكتب ودواوين الشعر التي قرأها بنهم شديد ومن بينها أعمال دارين وتورجنوف وألكسي تولستوي وتوتوفشوف وفيت ومايكوف وبرولونسكي وبلوك وإف ويتشوف وأنداتول فرانز وفيسودور ديستوفسكي الذي اكتشف روعته عندما أعاد قراءته. وفي تلك الفترة من حياته توفر على نظم كثير من القصائد بتشجيع من صديقه كوريلوف الذي يقول: إنه قرأ وناقش معه قصائد أبروشكين وجميلوف وباسترناك وسيمونوف. ولكن مؤلفنا تأثر

تأثيرا خاصا وعميقا بثلاثة شعراء هم نيكولا نكراسوف والكسندر تفارديوفسكى وباسيلين . وأيضا استمتع هذان الصديقان بالاستماع عبر الأثير إلى نقر كيبور من الموسيقيين الرومانسيين أمثال شوبان وجنكا وماسورجسكى وتشايكوفسكى ويتهويفن الذين فضلهم على الكلاسيكيين من مؤلفي الموسيقى . وأنفس مؤلفنا في مفاهيمه الأفلام التي يعرضها السجن على نزلائه . ويبدو أن تهوية السجن جعلته مغرطا في حساسيته لآلام الآخرين وعذابهم . فهو يقول في هذا الصدد: «المنون تجري نعم تجري . ولكن إذا تحسن قلب الإنسان نتجبه ما يقاسيه من عذاب وشقاء . ويظهر بهما فإن هذه السجون لم تضع هداه مطروا » .

ويعد عيد ميلاده الثلاثين بفترة وجيزة سمحت له السلطات السوفييتية أن يقابل زوجته في ١٩ ديسمبر ١٩٤٨ ففرحت له القيد الثقيلة الجديدة التي بدأت إدارة السجن في فرضها حتى تضمن سرية التجارب التي يجريها الباحثون في المعامل التابعة لها . وطلبت الجامعة من الباحثين فيها ومن بينهم ناتاليا أن يملأوا استمارة عن أهلهم وذريهم ولأن ناتاليا ذكرت الحقيقة أو اسم زوجها لقامت الجامعة بطردها . لهذا فكرت في السفر إلى مدينة أخرى بعيدا عن موسكو لتحذون في الاستمارة أنها غير متزوجة وشرحت ناتاليا لزوجها بأبعاد هذه الحجة الجديدة التي تحيشتها فتفهم موقفها وتعاطف معها وأعاد طرح فكرة الطلاق التي سبق أن رفضتها وقالت له ناتاليا إنه سوف يكون مجرد إجراء شكلي لن يؤثر بحال من الأحوال على عواطفهما أو علاقتهما ورغم هذا فقد اجتاحه ألم ممض وقائمة مظلمة أصابته في الصميم ، وهو ما تصوره لنا رواية «الدائرة الأولى» ، وخرجا من ورطتها كحيث ناتاليا في الاستمارة أنها زوجة سابقة وتقدمت

بطلب الطلاق من سولجنستين . واستمرت علاقتهما رغم ذلك كالسمن على العسل ويتبادلان العواطف الدافئة كالمادة وسره أن يسمع زوجته تشترك في العزف في حفل موسيقى في الراديو تصانف لإذاعته في تكرى مرور تسعة أعوام على زواجهما (في ٢٦ أبريل ١٩٤٨) ودق قلبه من فرط فرحه وانفعاله . وبعد مرور ما يقرب من شهر استطاعت ناتاليا أن تقابل زوجها مرة أخرى في ٢٩ مايو ١٩٤٨ .

وفي الفترة التي سارت فيها ناتاليا في إجراءات الطلاق من زوجها تغير الإشراف على سجن مارفينو وأسند إلى الكولونيل أنتون فاسيلوف الذي نجد بعض جوانبه وسماته متمثلة في شخصية ياكوفوف في «الدائرة الأولى» . وانصرفت جهود السجناء إلى اختراع تليفون متقل يستخدمه ستالين وكبار معاونيه ولهذا كان فاسيلوف مدير السجن مستولا مسئولية مباشرة عن المصنى قدام بهذا الاختراع أمام بريا رئيس المخابرات السوفييتية . وبعد فترة من السماح والحرية أصبحت إجراءات الأمن في سجن مارفينو أكثر تشددا من ذي قبل وارتفعت ساعات عمل المساجين من ثمان ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة ، كما انخفضت ساعات التمرينات والرياض اليومية . وأعيد تنظيم العمل فعمد إلى بادين بوضع التسميمات الخاصة باختراع التليفون للمتقل كما عهد إلى سولجنستين وكوبليف (الذين تركا عملهما كأمينين للمكتب) بعمل دراسة إحصائية للخصائص الصوتية في اللغة الروسية . وتولى كوبليف الجانب للفون والصوتي من هذه الدراسة في حين اضطلع سولجنستين بجانبها الإحصائي وحتى يتمكنوا من إجراء أبحاثهما على الوجه الأكمل كانت أمية المكتبة التي عيبت حديثا بدلا منهما تحصل لهما على ما

يشاءان من كتب ومراجع ونصوص أدبية من مكتبة لينين وأكاديمية العلوم ، مما أعطاهما فرصة لقراءة الكثير من الأعمال الأدبية لأبناء مثل فكتور نكراسوف وكازاليفتش ونيقولا بابافسكى إلى جانب سيمونوف وفيرنا «سوفرونوف» وألج صدر مدير السجن فاسيلوف أن مؤلفنا وزميليه استطاعا أن يحقوا تقدم ملموسا في أبحاثهم فأمر بتقلهم إلى معمل لدراسة توزيع الأصوات . وفي هذا السمل استطاع للصديقان سولجنستين وكوبليف الالتقاء جانبا في ركن هادئ حيث تمكنا بسبب استخدامهما المستدر للساعات بحكم عملهما أن يستمعا إلى محطة الإذاعة البريطانية الموجهة باللغة الروسية من خلال مذيعا مثبت مؤشرا على هذه المحطة بساعة دالمة دون أن يلقا أنظار الآخرين إليهما . كما أنهما كانا أحيانا يستمعان إلى الموسيقى الكلاسيكية أصف إلى ذلك أن إدارة السجن عيبت بعض للنسوة مراقبة المساجين ، وكان معظمهن يعاملن المساجين معاملة رسمية تماما غير أن البعض ملعن لم يجدن غضاضة في التودد إليهم وتبادل العواطف معهم . وأظهر كوبليف عاطفة متاجبة نحو زوجة أهد المضابط أهلها زوجها كما أن سولجنستين وقع في غرام رومانسي مع حارسة أخرى يطلق عليها اسم سيموكا في «الدائرة الأولى» . غير أنه أوقف علاقته بها قبل أن تتطور كما أن إدارة السجن جندت بعض المساجين للتبليغ عن زملائهم ومن بين الذين جندتهم لهذا الغرض دارس الرياضيات اسمه هرتزنبرج لعب دور العميل المزدوج ففسر فقة إدارة السجن وثقة زملائه فيه غير أن علاقة سولجنستين به لم تنقطع رغم علمه بطبيعة الدور التجسسي الذي يقوم به وبعد الإفراج عنها استمرت الصداقة بين الرجلين حتى أوائل الستينيات وأصبح هرتزنبرج واحدا من

مصادر مؤلفنا عن حياة السجون والمعتقلات السوفيتية في أرخبيل الكولا، فضلا عن أنه ضمن نشاط هذا المخبر في التجسس في «الدائرة الأولى».

وفي عام ١٩٤٩ بدأ النظام الستاليني في اتخاذ المزيد من الإجراءات المشددة مع نزلاء السجون وتضييق الخناق عليهم للقضاء على كل ما قد يعترض سبيله من عوائق بعد أن فرغ من القضاء على أعدائه الألمان وفي تلك الفترة دس أحد زملاء ناتاليا لها لدى مسؤولي الأمن في جامعة موسكو فأصدرت قرارا بالتحصل منها الأمر الذي اضطرها إلى السعي للحصول على وظيفة محاضر في جامعة ريازان القريبة نسبيا من موسكو وراودتها فكرة احتراف الموسيقى وأرسل إليها زوجها يشجعها على هذا غير أنها أضلت أن تستمر في الاشتغال بتدريس الكيمياء وفي تلك المرحلة اجتاح سولجنتسين احساس بالذنب لحرمها وأنه المسؤول عن كل ما تتعرض له من متاعب ورغم أنه كان يشجعها على طلب الطلاق منه فقد كان يثرب شوقا إلى أن يعيش حياته الأسرية تحت سقف واحد فقد كتب إليها آنذاك خطابا يقول فيه: «يغمرني لأول مرة بعد مرور كل هذه الأعوام الإحساس الرائع بأن الحياة العائلية تنظرني في مكان ما خارج الأسوار ولا يمكن لهذه الحياة العائلية أن تقوم لها قائمة بتوذك والبيت ليس له وجود بدون أن تكوني ربة فهر موجود حيلما تعيش».

ورغم أن باتون استطاع أن يتوصل إلى نتائج إيجابية بشأن اختراع النيفون المتفك فإنه احتفظ بها سرا لنفسه وأقدم على إحراق التصميمات حتى يمنع السلطات السوفيتية من الانتفاع بها، مستمعا بذلك بغرس الإفراج عنه. ويصور سولجنتسين موقف باتون الرافض للتعاون مع السلطة والمحتقر لها ولكل ما يمكن أن تتبج الساجين وتكافئهم به في

«الدائرة الأولى» وأعجب مؤلفنا بهذا الموقف الشجاع واحتذى به فلم يعد يهمه أن ترضى عنه إدارة السجن أو تزور. وتحول سولجنتسين إلى سجون مشاغب يعتمد بالإصرار على المطالبة بحقه إخراج هذه الإدارة فطلى سبيل المثال تقضى لوائح السجن بصرف خمسة جرامات من الدقيق يوميا تضاف إلى حسائه وجار مؤلفنا بالشكوى من أن حساهه يخلو من الدقيق فاضطرت إدارة السجن إلى تنفيذ للوائح والاستجابة إليه. ورسم له الفنان ليفاشوف - موساتوف داخل أسوار سجن مارفينو بورتيها بالقلم تميز بأن حنيوه تشعان بنظرات الحمدي.

وفي تلك الفترة من حياته أيقن مؤلفنا أن الحكم عليه بالظن بعد إنهائه مدة السجن لن يتغير أو يخلف، فاستسلم لقدره ومصيره ونفض عن نفسه الأوهام ومن بينها الوهم الزائف بأن له زوجة تخلص له وحياة عائلية تنعطره، فعاد من جديد يؤكد لها ضرورة أن تعمل على الطلاق منه وبعد انتقالها للعمل في جامعة ريازان قابلت ناتاليا زوجها لأول مرة في مارس ١٩٥٠ وكانت ناتاليا من ناحيتها تخفى عن المسئولين أنها متزوجة وتحتاضى إرسال الخطابات إلى زوجها حتى تتجنب ما قد يجر عليها ذلك من مشاكل وانشغلت بعملها الجديد في تدريس الكيمياء بالجامعة وكذلك انشغلت بالاشتراك في إقامة بعض الحفلات الموسيقية وشار عملها السهلي على ما يرام فعملت رئيسا لقسم الكيمياء بالجامعة. وتحدثت متاعب سولجنتسين التي انتهت بطرده في ربيع ١٩٥٠ حين قام خبراء سجن مارفينو ومن بينهم سولجنتسين باختبار نتائج التجارب التي أجراها مدير السجن الكولونيل فاسيليف على بعض الخطوط التليفونية التي استحدثتها فقد وجدوا أنها عميقة ولا تنقل الصوت بقوة ولم يسكت سولجنتسين على هذا العيب

الفني وأسن في الحط من شأن صاحبها العلني أمام الملأ... وعبثا حاول صديقه كورنييف أن يرده إلى صوابه ويديه إلى طيشه ويزقه ولكن مؤلفنا استمر في إهانة مدير السجن فلما منه أنه يأمن من أي عقاب أو أدنى بسبب كفافته في العمل للشهود لها واعتقاده بشدة حاجة أبحاث المعهد إليه، غير أن الأمر صدر بنقله من القسم الذي يعمل فيه إلى قسم آخر. وكان يمكن لهذه المتاعب أن تنتهي عند هذا الحد لو أنه رضى بإقحام بعمله الجديد في الشفرة دون اعتراض أو منحيج فقد تصادف أن زار السجن آنذاك أحد أساتذة سولجنتسين القدامى في جامعة روستوف لتقييم الأبحاث والتجارب التي تجري فيها، وما علم الأستاذ بوجود تلميذه استدعاء للدراسة وتوسط معه في الحديث الأمر الذي شجع سولجنتسين على رفض القيام بالعمل الجديد المسند إليه والمطالبة بالعودة إلى عمله القديم الذي قال إنه برع فيه ولا يمكن الاستغناء عنه وفوجئ مؤلفنا وباتون مع المفبر برترز هرتزنجير باستدعائهم على عجل إلى مكتب الأمن حيث تم نقلهم إلى سجن بيوتركي قبل ترحيلهم في ٢٤ يونيو ١٩٥٠ إلى جهة غير معلومة كل ما عرفه سولجنتسين أنهم كانوا يتحركون به في عربة مقفولة تتجه نحو الشرق.

وليس من شك أن الفترة التي أمضاها مؤلفنا في سجن مارفينو وهي قرابة ثلاثة أعوام كانت أكثر فترات سجنه راحة وامتناء والأهم من هذا أنها ساعدته على البقاء على قيد الحياة، فمن المؤكد أن عذاب السجون الأخرى كان كفيلا بالإجهاد عليه.

الطريق إلى خازاخستان وذاكرة من جديد :

قامت السلطات السوفيتية بنقل المساجين ومن بينهم سولجنتسين وباتون

بالقطار في عربة مختلطة لا تختلف في مظهرها الخارجي عن أية عربة عفش حتى لا يعرف الأتالي من بداخلها وكانت هذه العربات مقسمة إلى مقصورات أو دواوين تطل على ممرات القطارات ويقوم الحراس بتكديس المسجونين فيها ويرصونهم كعاب السريدن على نحو غير آدمي ، وفي الطريق إلى سجون كيوتشيف الموثت تصور بعض المساجين جوعا ومات بعضهم الآخر مفتكدا وفي زيميرير للشاه مات البعض من البرد وانتشر العفن في المقصورات لأن المساجين كانوا يتبولون ويشترزون بداخلها ولم تكن حصصهم اليومية من الماء تكفي لرى طعامهم وخاصة لأن طعامهم اليومي كان من السمك المملح ، الأمر الذي زاد من عطشهم . ويبلغ نصف الحراس مبلغا جهم لا يسمحون لهم بالتبول أكثر من مرة في اليوم ، مما أدى إلى عدم تحكم البعض في أنفسهم ، ولكن مؤلفنا وزميله بائين كانا أكثر حظا من زملائهما ، فقد كانت مقصورتهما أقل تكديسا من غيرها وسمح لهما بزيارة دورة المياه مرتين يوميا مرة في الصباح ومرة في المساء ، كما أن الحراس فتحوا نوافذ عربتهم حتى يدخلها الهواء النقي ولاحظ سولجنستين أن المساجين الذين صدرت عنهم أحكام بالسجن المؤبد يلتقون النظام السوفيتي بجراء وضراوة مذهلة ، فهؤلاء المساكين خسروا كل شيء ولم يعد لديهم شيء يكون عليه .

كان بين هؤلاء المساجين عدد كبير من الأوكرانيين للمطالين بالاستقلال في طريقهم إلى الصفي في سيبيريا كما كان بينهم عدد كبير من سكان أستونيا ولتوانيا ولاتفيا وهي البلاد الصغيرة التي ابتلعها الاتحاد السوفيتي في أعقاب الحرب العالمية الثانية وضمتها عنوة واقتدارا إليه ، وشعر سولجنستين بالعطف عليهم لأن

بني جلدته للسوفيت حرموهم ظلما وعدوانا من حياتهم الوديعه المستقلة الهادئة ليس بجرم ارتكبهوه ولكن موقع بلادهم الجغرافي حال دون أطماع السوفيت في الوصول إلى البحر ، ورأى مؤلفنا أن مشكلة أوكرانيا أكثر المشاكل صعوبة وتعقيدا وإلحاحا على نحو مباشر ، ولا غرو أن يربطها كل هذا الاهتمام فنصف مئاته تحدث من أصل أوكراني . وهو يقول في هذا الشأن في السجل الثالث من أرخبيل الكولاج : « إن روسيا وأوكرانيا تسريان في دمي وقلبي وفكري ، ولهذا كان على استعداد أن يسلم على محض بأن من حق أوكرانيا أن تصلح عن الاتحاد السوفيتي وتكون دولة مستقلة إذا شاعت ذلك ، غير أن الأمل كان يوما يحدوه في أنه حتى إذا حدث هذا فسوف تعود أوكرانيا طراعية وباختيارها إلى الاتحاد مع روسيا في كيان واحد .

وفي أغسطس ١٩٥٠ بعد أن أمضى سولجنستين شهرا في كيوتشيف تم نقله مع بائين وعدد من المسجونين إلى شرق أومسك وهو المكان نفسه الذي سبق أن نفي فيه الكاتب الروسي الكبير فيودور ديستوفسكي قبل قرن من الزمان في ديار ١٨٥٠ ليقتضى هناك مدة عقوبته ، ولكن شأن الفرق بين معاملة النظام القيصري لديستوفسكي ومعاملة النظام السوفيتي لسولجنستين . فقد وجد ديستوفسكي بعض السبلات في انتظاره ليعمل على راحته ويقدم إليه الهدايا ويوصين حراسه خيرا به فيستجيبون لتوصيته في حين أن حراس سولجنستين وزملائه هددوهم بالضرب بالرصاص إذا حاولوا الاتصال بالأتالي . بينما كان عدد المسجونين السواسيين أيام ديستوفسكي لا يتجاوز ثلاثة في المائة أصبحت الغالبية العظمى من المساجين أيام سولجنستين من السواسيين بحيث لا يتجاوز عدد

المتوصون بينهم أصابع اليد ولكن سجن أومسك لم يتغير منذ أيام ديستوفسكي فهو السجن الرهيب ذاته الذي أقامته القيصرة كاترين العظمى بقبابه وزناناته المخوفة تحت الأرض . ومن أومسك تم نقل مؤلفنا وزملائه إلى بافروبار ثم عبر صحراء خازاخستان في آسيا الوسطى حيث بنى ستالين عام ١٩٤٨ مجمع سجون يعرف باسم أكيباستوز أودع فيه في أوقات الذروة ستين ألف سجين . ولقد التزم به أو التخفيف أطلق المستولون على بعض هذه السجون أسماء شاعرية تخفي طبيعتها ففسن أكيباستوز على سبيل المثال كان يعرف باسم «معسكر المرامي» والغريب في الأمر أن يتولى المساجين استكمال مجمع السجون بأيديهم ويساهمون في تطويرها ونسقا لأفكار ستالين وخططه .

ولا شك أنها مفارقة أن يبنى هؤلاء المساجين السورلج والأسوار وأبراج المراقبة والأسلاك الشائكة التي تمنعهم من التفكير في الهرب ، وصهنت إدارة المجمع إلى سولجنستين وجماعة الأوكرانيين بمهمة البناء نظرا لمهارة الكتوريين منهم في مثل هذا العمل ونظم مؤلفنا قصيدة بعنوان «البناء» تحدث فيها عن عمله في تلويح الحجارة لئبني بها للسجون في سيبيريا أي في إقامة نظام للكرولاج أو معسكرات العمل والجديد في «معسكر المرامي» أن السجود لم يعودوا يمرقون بأسمائهم بل ينادي عليهم بأرقامهم التي حيكمت على ملابس السجن ، ويسلمنا كاتبنا وصفا تفصيليا لهذا الإجراء غير الأدمي في الجزء الثالث من «أرخبيل الكولاج» وفي هذه الفترة من حياته تحول إلى إنسان مؤمن بالقسمة والنصيب واستسلم لقدره وإدراك أن تفكيره السابق في قدرته على تغيير مسار حياته ليس سوى ضرب من السخف يرقى إلى مرتبة الكفر . وساعده

قصيدته «البناء» من ورقة مكتوبة ففوجئ باستدعاء قومندان السجن له فجعل بكرمشة الورقة ولقائها على الأرض ولم يدم طيلة الليل خوفاً من أن يكون الحراس قد عثروا عليها، وابتلث إلى الله كي يستر عليه ويصون سره وفي الصباح الباكر تسلم للبحث عن الورقة الملقاة وسط ريع عاتية قدمت بالحصى والرمول في وجهه فلم يجدها وحانت منه اللقاة فوجد الورقة على مقربة من نفس المكان الذي ألقاها فيه فحمد الله كثيراً. ويدلنا هذا على أن سولجنتسين كان يتمتع بذاكرة حديدية يندر أن نجد لها نظيراً كما يدلنا على أنه يجد في الله مأمناً وملاذاً عند المحن والشدائد.

وفي سجن إكيباستوز قابل سولجنتسين عدداً من الشعراء من بينهم أناتولي سيلين الذي يدين بالذهب المسمداني ويستمع بمقدرة مخفلة على حفظ الشعر، فضلاً عن أنه أثار إعجاب مؤلفنا بشخصيته الوديمة المتواضعة والشديدة اللدني. نظم سيلين قصائد دينية طويلة أصعبت مؤلفنا إلى الحد الذي جملة فيما بعد يذكر بعضاً من أبياتها في «أرخبيل الكولاچ» وفي شعره عبر سيلين على قدرة الألم على تطهير الإنسان من الأرواش وقدره الحب على الرقي به إلى درجة الكمال.

وحدث تغير ملموس في أحوال سجن إكيباستوز عندما حلت فيه قافلة من اللشيان الأشداء المومنين بتقويميتهم الأوكرانية جاءت بهم السلطات إلى إكيباستوز بسبب عصيانهم وإحراق سجنهم السابق في ديوبوكا، غير أنهم لم يردعوا في سجنهم الجديد واستمروا في شق عصا الطاعة ولم يقف هؤلاء الأوكرانيون مكتوفي الأيدي أمام نشاط الجواسيس الذين يتشمخ بإدارة السجن وسطهم بل قاموا بتعقيهم والاعتداء على حياتهم واحداً تلو الآخر في وضع النهار وأسماء عيني القومندان واستطاعوا

بالمخاطر ففي إحدى المرات ضبط الحارس معه ورقة مكتوبة فادعى مؤلفنا أنها محاولة من جانبه لأن يتحكر عن طريق الكتابة أغنية عن تقدم الجيش السوفيتي داخل ألمانيا الشرقية وساعده على هذه الفرية ظن الورقة من أية أفاظ تورطه. وفي مرة أخرى زعم أن الورقة المضبوطة معه (والتي سطر فيها ستين بيتاً من مسرحيته الشعرية «عيد المتصلرين») جزء من مسرحية ينوي تقديمها على خشبة مسرح السجن فقام الحارس بنزعها وأرجعها له وعندما ضبط معه جزءاً من الفصل التاسع من مسرحية «الليالي البروسية» ادعى أنها جزء من قصيدة تفاردرفسكي (فاسيلي تيوريكن، ذات الطابع الوطني التي كان الجلود السوفيت على جبهة القتال يتغنون بها).

وقيل ذلك لا حظ مؤلفنا عندما كان في سجن كيويشيف الموقت أن المساجين الكاثوليك من لوانيا يصنعون لأنفسهم حيات المسابح التي يتلون عليها صلواتهم من حبيبة الخبز الطري المغطى بالزمن مختلفة يجفونها على حافة النافذة، فذهب إليهم وزعم أنه مظهر يريد الصلاة على مسبحة تحتوي مائة حبة ورجاهم أن يصنموا له مسبحة بهذا العدد من الحبات بحيث يصنعون بعد كل تسع حبات مستديرة حبة عاشرة مكعبة وبحيث تكون الحبة للخمسين والحبة المائة لهما مجلس خاص يتميزان به وتعاطف هؤلاء اللوانيون مع نزعتهم نحو الدين وتضافروا لعمل المسبحة التي يريدونها وكان يحمل هذه المسبحة في كل مكان ينهب إليه تحت قفاز من القماش يلبسه ويستعين بها في عد الآيات التي ينظمها وفي استظهارها وفي بعض الأحيان عثر الحراس على هذه المسبحة فلم يعلقوا عليها أية أهمية فلما منهم أنه يستخدمها للصلاة ذلك مرة خرج ليستظهر

الاستسلام لمصيره على أن يجد في عمله كجنداء الذي دام لمدة عام تقريباً في سجن أكيباستوز - لذة وسعادة وأن يتم بهدوء الهال الذي حرص عليه حرصاً بالغاً آنذاك لأنه مكث أثناء رحلته الطويلة إلى هذا السجن أن ينظم جانباً كبيراً من قصيدته «الطريق» التي تتضمن سيرة حياته وهو يقول في هذا الصدد: «أحياناً كانت أبيات الشعر والأخيلة تلح بشدة وتزجج في رأسي أثناء أدائي للعمل والحراس يصرخون من حولي مسكيناً بمدافعهم الرشاشة لدرجة أنني شعرت بنفسي وأنا أطير في الهواء وأنفختي الطابور مندفعاً إلى مبنى المسكر لأجد ركناً أكتب فيه. في تلك اللحظات شعرت بالصرية والسعادة معاً». والغريب أنه يستخدم هذا لفظ «أكتب» مما يتعارض مع قوله في موضع آخر أنه كان يستظهر أشراره، ولعله استخدم كلا الأسلوبين معاً ففي مسكر أكيباستوز ألجأ شاعرنا إلى حفظ أبياته بأسلوب لطيف فقد قام بجمع أصوات الكبريت المكسورة وحمل منها صفيحاً كل صفيح منها من عشرة أعواد يضمها جميعاً على حافظة سجاكره ويصل النصف الأول العشرات في حين يصل النصف الثاني الوجدات وكان بعد أن يحفظ في سريته كل بيت من تأليفه يحرك عوداً في خانة الوجدات فإذا تم له استظهار عشرة أبيات يقوم بتحريك عود في صف العشرات وهكذا دواليك وبعد أن يحفظ القصيدة بأكملها يقوم باستظهارها مرة كل شهر حتى يتأكد من سلامة حفظه لها. وكان من حسن حظه أن سجن أكيباستوز يسمح لسجنائه باستخدام القلم والورق ولكنه يطالبهم بعرض ما يكتبونه على إدارة السجن ولهذا كان سولجنتسين يكثف بكتابة مالا يزيد عن عشرين بيتاً في قصاصة ورق صغيرة ثم يقوم بعد استظهارها بحرقها في موقد السجن لكن هذه الطريقة كانت مخفوفة

التخلص من خمسة وأربعين مخبراً في المعسكر في مدة لا تتجاوز ثمانية أعوام. وعجزت إدارة السجون عن السيطرة عليهم فرفضوا الامتثال لأوامرها حتى تقوم بتحسين أحوالهم وبإلاستجابة إلى مطالبهم ومن بينها تقليل مقدار وساعات العمل وزيادة حصة الغداء المنصرفة لهم إلى أقصى حد ممكن، فشلت كل وسائل الإدارة في الضغط عليهم وإرهابهم، الأمر الذي شجعهم على المطالبة بمزيد من الحقوق ومنها إخراج خزانات البراز من داخل زنازينهم والسماح لهم بكتابة اثني عشر خطاً في السنة بدلا من خطابين فقط وقرر السجناء الأوكرانيون الإضراب عن الطعام. ولكن الإدارة باندرت بهاجمتهم في ٦ يناير ١٩٥٢ واستطاعت أن تفاجئهم وتلصقهم على غيرة وتسوقهم خارج الزنازين وتعزلهم عن بعضهم البعض حتى تمكنت في نهاية الأمر من السيطرة عليهم تماما وتشفي فيهم أودعتهم في الزنازين التي فر إليها الجواسيس هربا بجلدتهم فقاموا هؤلاء الجواسيس بالفك بهم دين أن يستطيع زملاؤهم الأوكرانيون أن يخفوا لتجنبهم فضلا عن أن إدارة السجون استطاعت عزل القوميين الأوكرانيين وعددهم نحو ألفي سجين عن بقية المساجين وعددهم نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سجين، وكانت مستشفى السجن في الجزء الذي تم فيه عزل الأوكرانيين عن بقية السجناء.

الألم طريقه إلى الله:

لكن انتصار المسجونين على إدارة السجن كان مؤقتا ففي ٢٢ يناير ١٩٥٢ جمع بعضهم وقاموا بشن هجوم على زنازين السجناء المخبرين في عيشهم التي أودعوا فيها بقصد الانتقام منهم، ولكن قضبان الزنازانات حالت بينهم وبين ما يريدون فخرجوا إلى المخبز وأحضرنا منه برميلا من الزيت وملأوا بعض الجرارل بالزيت وزفرو به للزنازانات مهددين لإشعال النار

فيها وقبل أن يتمكنوا من ذلك بادر الحراس بإطلاق النار عليهم من أبراج المراقبة، فقتلوا اثني عشر سجيناً. الأمر الذي أثار حفيظة زملائهم فقرر جميع المساجين الإضراب عن الطعام والعمل. ولم يفهم سولجنستين وزميله بانين الوضع على حقيقته فلم يلتزم بهذا القرار بدافع الجبن والخوف ولكنهم لاما نفسيهما بعد ذلك على هذا التقاعس، واعتصم المسجونون في عيشهم لا يفادرونها ويرفضون الطعام المقدم إليهم وأحست إدارة السجن أنها لم تعد قادرة على السيطرة فاضطرت إلى إبلاغ القيادة العليا وهو ما كانت تتحاشاه فجاء النائب العام في كاخستان بنفسه وحاول استرضاهم حتى يضع حدا لتمردهم وبات من الواضح أن إدارة السجن تستسلم لهم يقول مؤلفنا في هذا الشأن في الجزء الثالث من «أرخبيفيل الكولا»: «طلبت إدارة المعسكر... من السجناء أن يتناولوا طعامهم ووعدهم بقبول شكواهم وفحصها وإزالة أسباب الصراع القائم بين الإدارة والسجناء وتشاور زعماء السجناء مع زملائهم فأبدى الكثير منهم استعداده لإنهاء الإضراب ولكن بانين وقف بينهم خطيبا مقفوا واستطاع إقناعهم بضرورة مواصلة الإضراب للضغط على الإدارة الأمر الذي أثار إعجاب سولجنستين به ولكن هذا الاقتناع بضرورة الاستمرار في الإضراب سرعان ما تبدد، فلم يمض غير يوم واحد على خطبة بانين حتى خرج نزلاء العشة رقم ٩ الذين عاشوا طوال فترة الإضراب التي دامت أربعة أيام مع جثث زملائهم من منحأيا الإضراب في الزنازين نفسها متوجهين إلى المطبخ لتسلم حصصهم من الطعام وبذلك تفككت تضامن السجناء على صخرة الجوع والهزال واعتبر سولجنستين ما حدث هزيمة للسجناء رغم حصولهم على بعض المكاسب المؤقتة مثل

متأخراتهم من حصص الطعام والسماح لهم بالتجول في أرجاء المعسكر وعقد المسجونون اجتماعا حضرته السجورلون برغم الاستماع إلى شكرام فتهيب معظم الحاضرين من مواجهة الإدارة وعجزوا عن التعبير الصريح عما يشعرون به حتى سولجنستين نفسه قرر أن يخلط كلماته بغلاف من الحرس والحيطة وهكذا فشل السجناء في استسلام ما لديهم من نواحي القوة ولم يمض وقت طويل حتى كثرت إدارة السجن عن أنسابها وقلبت للمسجونين ظهر المجن، فقبضت على زعمائهم وقامت باستجوابهم وعزل المساجين عن بعضهم البعض ولم يسلم بانين من الانتقام فتم نقله إلى سجن سيباك بعد مرور أسابيع قليلة.

وفي اليوم التالي على استجوابه دخل سولجنستين مستشفى السجن فقد لاحظ وجود دم في فحده الأيمن عند التقلبه بالبطن وتجاهله في بادئ الأمر غير أنه أخذ يلتمس تدريجيا حتى أصبح في حجم الليمونة وبنمو هذا اليوم اشتد عليه المرض وخاصة أثناء الإضراب عن الطعام. وبعد فحصه قرر الأطباء أنه مصاب بالسرطان ونصحوا بإجراء عملية له فوراً. وعند وصوله إلى المستشفى لاحظ أن بعض السجناء ماتوا من تعذيب الحراس وضربهم بالسيف لهم، ومرة بعد أيام قبل أن يقوم سجين/ جراح بإجراء العملية له على مدى نصف ساعة تقريبا في يوم ١٢ فبراير ١٩٥٢ بعد أن تم تخديره تخدير موضعيا. وحرمانه من الامتيازات في سجنه الجديد شعر سولجنستين بأنه أكثر قوة من الناحية الروحية وأكثر قدرة على تحمل الألم لنفسه عن ذي قبل، وكان هذا مراكبا لتوجهه إلى حظيرة الذين لقد سبق له في إحدى رسائله إلى ناتاليا أن حذلها عن إيمانه بالقدر والمسير وربما كان هذا الإيمان بالدين، غير أن الطريق الذي

تعين عليه أن يملكه كان طويلا قبل أن يصل إلى افتتاح بالإيمان بالله.

وكان للحادثة التالية تأثير واضح على تفكيره واقتراحه من الله في أثناء رحلة الشفاء من عملية السرطان التي أجريت له زاره طبيب اسمه الدكتور بوريس كورنفيلد جلس بجواره وروى له قصة تحوله من اليهودية إلى المسيحية وامتدح في حماس شديد ما في المسيحية من قيم روحانية رفيعة، واعترف لمولفنا الذي كان يشك في أنه مخبر يتعاون مع إدارة السجن بأنه يؤمن أن مامن عقاب ينزل بأي إنسان إلا وسببه جريمة ارتكبتها في وقت أواخر من حياته وفي بادئ الأمر لم يأخذ سولجنتسين هذا الكلام مأخذ الجد حتى جاء يوم سمع فيه جلية شديدة رأى الدكتور بوريس كورنفيلد منقولا إلى المستشفى بعد أن منعه عامل محاربة على أم رأسه بالمطرفة وأجريت له عملية جراحية، ولكنه لفت أنفاسه الأخيرة ففكر مولفنا كلماته المشوكة قبل وفاته ويبدو أن سولجنتسين اهتدى إلى الله في الفترة التي أجريت له عملية للسرطان بالمستشفى فغلبها توصل إلى «الإيمان بمشيئة الله ورحمته» وأن هذا الإيمان يزيل كل مخاوفه وقلقه مما قد يحدث له. وفي تلك الفترة عاد إليه يقينه القديم وهو طفل بوجود الله وأدرك أن إلهاده الماركسي إن هو إلا نتيجة السفسة والفر الذين تلمسهم من الكتب فلا غرو إذا رأيناه في ختام الجزء الرابع من الفصل الأول في «أرخيبيل الكولاج» ينظم قصيدة دينية تنتهي بالأبيات التالية:

الآن وقد عاد إلى الكأس

أهل من ماء الحياة

باللهي القادر على كل شيء أنا أؤمن

بك!

فأنت موجود في الوقت الذي أنكرتك

فيه

ويعد أن ذليله تأثير الماركسية فيه بدأ يؤمن بأفضلية جميع الأديان وتفرقها على الأيديولوجية لأن الأديان في رأيه تقارم الشر داخل الإنسان في حين تقضي فقط على الذين يحملون بداخلهم جرائم الشر وقت حدوثه، ولكنها في الوقت ذاته تترك للشر نفسه بدرجة أعظم. وبدأ سولجنتسين يشعر بالامتنان للسجن وما لقيه فيه من ألم وعذاب علماء نقاط للصف فيه كما علمه أن يعرف نفسه بنفسه.

ويعد أن استأصل الأطباء الورم أرسوله للتخايل فاكشفوا أنه من النوع للخيث ولكن من حسن حظه أنه ترقف عن الدم، الأمر الذي جعلهم يرون أنه ليس هناك أي سبب للالزجاج واستيعبته إدارة السجن من عمله كبناء كنوع من العقاب فيما يبدو وتبقى لو أنه تعلم التجارة في السجن ولكنهم المقوه بالمصك ليعمل في سهر المعادن وكان هذا أشق وأقسى عمل قبض له أن يقوم به خلال فترات سجنه الطويلة.

وفي أراذل عام ١٩٥٢ أدخل المسئولون بعض الإصلاحات على نظام السجن والمعسكرات ومنها تحويل كل سجن ومعسكر إلى وحدة اقتصادية قائمة بذاتها وأصبح من حق المساجين العاملين أن يتقاضوا أجورا عن عملهم حسب إنتاجهم بحيث لا تتجاوز ٤٥ ٪ من قيمة هذا الإنتاج في حين تتولى الدولة تخصيص النسبة الباقية وهي ٥٥ ٪ من قيمة هذا الإنتاج، غير أن السجناء لم يحصلوا على كل حقوقهم في النسبة المقررة لهم بل كانت السلطات تخصم منها نحو ٧٠ ٪ لدفع نفقات الصيانة والحراسة والأمن والطعام والملابس إلخ، فلا يتبقى للسجناء في نهاية المطاف إلا ما يقرب من ١٣ ٪. فقط من مستحقاتهم. وكانت إدارة السجن تحتفظ بنصف هذه النسبة لتسلمه إلى السجن عند خروجه وتصرف له النصف الأخر في شكل كوپونات لشراء أشياء

إضافية من الكائنات مثل الحلوى واللبن والسيكيت. وفي تلك الفترة من حياة مولفنا في سجن إكيباستوز لم تنقطع صلة زوجته ناتاليا به فقد دومت على إرسال الطرود إليه والتي احتوت على الطعام وعلى الكتب التي توفر على قراءتها بنهم شديد فضلا عن أنها أرسلت إليه بالأقلام والورق والكراسات. ومن الكتب التي أرسلتها إليه أعمال ألكسي تولستوي وأستروفسكي وبلوك. وفي إكيباستوز قرأ كاتبا أيضا كثيرا من الشعر إلى جانب أعمال هرزن وجونشاروف وتشيكوف وسولتيكوف. ششدرين ويلي كوليز. وسير سولجنتسين لزوجته عن امتدانه العميق لما ترسله إليه من أشياء، خاصة ذلك النوع الممتاز من التبغ الذي وجد متعة بالغة في تدخينه. ولاحظ مولفنا أن زوجته كادت أن تتوقف عن الكتابة إليه شامسا ويبدو أن الوحدة والوحشة التي عاشت فيها لسنوات طوال كانتا فوق طاقتها. فأحبت زميلا لها له ولدان من زوجته السابقة ويعمل محاضر في مادة تخصصها وهي الكيمياء. ولم تشأ ناتاليا أن تزيد من متاعب زوجها بعد إجراء العملية الجراحية له فامتنت عن تبليغه بأمر زواجها الذي تم بطريقة الشهر للشفرى بعيدا عن الرسميات. وبطبيعة الحال اضطرها هذا إلى إنهاء إجراءات فسخ زواجها كما تقضي القوانين بذلك. وفي سبتمبر عام ١٩٥٢ أوجت ناتاليا إلى الخالة نينا بأن تبذل سولجنتسين بأمر زواجها بعد أن رفضت ماريا أمها أن تفعل ذلك، فكثرت إليه الخالة نينا عبارة مبسرة للغاية جاء فيها: «طلبت مني ناتاليا أن أخبرك أنه عليك أن ترتب حياتك في استقلال عنها ... وزاد غموض هذه العبارة من قلقة وتوتره لأنه كان في قرارة نفسه متمسكا بها رغم أنه أعطاها حرية الطلاق منه والزواج من

رجل آخر. واستغفر سولجنتسين عن معنى هذه العبارة الغامضة فاضطرت زوجته إلى إخباره بالحقبة المروجة. واستبد الغضب والغيرة به إلى الحد الذي جعله يصف زوجها الجديد: «إنه وغد أغرى بالزواج امرأة متزوجة لا يزال زوجها حيا يزق». وبلغ تفاوله المارم إلى الأمل في الإفراج عنه. ولكنه سرعان ما تذكر أن نهاية مدة العقوبة لا تحي بالضرورة نهاية مدة السجن وأن الحكم الصادر ضده يعنى بنفيه نفيًا دائمًا. وحتى يسي همه كتب إلى الخالة نينا كي ترسل له كتبًا في الهندسة والرياضيات فقد كان يحلم بممارسة التدريس في مدرسة في إحدى القرى الروسية النائية.

وفي إبريل ١٩٥٢ فُـسـِـحَ سولجنتسين لاستدعائه إلى مكتب الأمن وطلب إليه مسئول الأمن أن يؤكد سابق شهادته بأن صديقه كيريل الذي أصبح جراحًا مشهورًا بكفافته وقواتًا في نشاط معاد للدولة السوفيتية. ولكنه أبى وأكد أن صديقه مثال للولاء للوطن والوفاء فيه. فالتجأ رجل الأمن إلى الفكر والخديعة وقرأ على كيريل شهادة سولجنتسين السابقة التي أدلى بها فور إلقاء القبض عليه حتى يكتفه بخيانة صديقه وغدره. وانطلقت الحملة على كيريل الذي بدأ التحقيق معه هذه المرة بتهمة الشذوذ الجنسي.

وفي فترة عمله بالمسبك نظم سولجنتسين في نهاية عام ١٩٥٢ قصيدة بعنوان «روسيا، استعذت من وراها الفوس في الزوح الروسية واستجلاء معالمها وما تنصف به من فضائل، ورزائل ونهب شاعرنا في هذه القصيدة إلى أن انشغلنا روسيا بالحروب والغزوات لا يعود عليها بالنفع بل بالضرر وأن قوة روسيا وقوتها سبب في شقاء الدول الضعيفة المجاورة وفي الذفمة نفسها التي شاعت في قصيدته السابقة «الطريق» يقول سولجنتسين في قصيدته «روسيا»:

إن وجمة الانتار التي لا تنمحى والتي تلازم الروس منذ ولادتهم وقذارة الوسخ للسائلي تدمنا جميعًا.
فاسم روسيا ملعون بالثلاث من الآن فصاعداً.

وهكذا أمضى سولجنتسين في السجن والمعسكرات ثمانية أعوام وفي سجن إكيبا ستوز ثلاثة أعوام انتهت رسميًا في ٩ فبراير ١٩٥٣. وكثيرًا ما راوده حلم المنفى الذي اعتجره جلته المرتقب، حيث يمكنه الحركة بحرية ملما يتحرك الآثمون. لكن عندما حلت لحظة الانتقال إلى منفا المجهول شعر أنه يرحل بجسده فقط وأنه يترك روحه وراءه تطلق فوق السجن والمعسكرات التي شاهدت آلامه وعذابه.

في المنفى:

تحرك السجناء في لوريات وشاحنات في طريقهم إلى المنفى دون أن يعرفوا وجهتهم. وأخيرًا تعلم سولجنتسين من الضابط ورقة بلية اللون تفيدته بنفيه بصفة مستديمة في قرية كوك تريك الواقعة على الحافة الجنوبية من صحراء كازخستان الفسيحة المعروفة باسم بت باك دالا، كما تهدده بالسجن لمدة خمس وعشرين سنة مع الأشغال الشاقة إذا عُن له أن يغادر المنفى دون إذن من السلطات، وفي حالة رغبته في مفادرة منطقة منفا في كوك تريك لأي سبب من الأسباب، فله أن يستخرج تصريحًا خاصًا بذلك مبيدًا المكان الذي يريد الذهاب إليه وتواريخ سفره وعودته منها ومحل إقامته في فترة رحلته. وتم التنبية عليه بضرورة الحضور إلى وزارة الداخلية مرتين كل شهر للتبليغ عن نفسه. وفي منفا لم يصدق نفسه وهو يتجول حرًا طليقًا دون وجود حارس بجواره أو خلفه يصوب مدفعه للراشاش نحوه.. وكان أول شيء فعله في منفا أنه توجه إلى المنطقة التعليمية حيث قابل

بعض المفتشين وطلب منهم تعيينه كمدرس رياضيات أو علوم في إحدى المدارس، فقت للذهبة وجهرهم وأظهروا تخوفًا منه وسألوه عن السرفي ويجوده في ذلك المكان النائي القصى فاعترف لهم بأنه منفي. وعند سؤاله عن السبب زعم أنه حكم عليه بالنفي لسر من أسرار الدولة وأنه ليس في حل أن يروج به. ورفض المسئولون عن المنطقة التعليمية لعدم وجود وظائف خالية للمدرسين الرياضيات والطوب، ولكن سكرتيرة المنطقة التعليمية رقت لحاله وأقترحت أن مدارس المنطقة في ميس الساجبة إلى مدرسين في كلا هذين الفرعين الأمر الذي شجعه على إعادة المحاولة. فطلبوا منه الانتظار حتى يصله رد المنطقة التعليمية بوجود وظائف خالية..

وفي المنفى ذاق سولجنتسين طعم الحرية لأول مرة منذ ثمانية أعوام فانتشى به. ولم يمانع الضابط والحراس في أن ينام دون أدنى قيود تحت قبة السماء التي انتشرت فيها اللجوم. وقد سجل هذه التجربة الشيعة للغاية في روائتيه، «عبر السرطان»، و «أرخبيل الكولاج»، وراق له الجو الريفي الخالص الذي أحاط به وأصوات حيوانات القرية التي تلحج صوته سماعها. وبحث عن سكن خاص فلم يجد غير حجرة صغيرة مبنية بالطون ورواطة إلى درجة لا تسمح له بالوقوف، وثلت هذه الحجرة حتى من مصباح زيت فسادها الظلام الدامس الذي استمد منه راحة وسوى بعد أن تعب من أضواء السجن الباهرة التي تسلم ليلا ونهارًا. وفي اليوم التالي الموافق ٦ مارس ١٩٥٣ جامعة المحوز صاحبة الغرفة في حالة اضطراب شديد وأيقظته من نومه لطلب منه الذهاب إلى المبدان ليسمع ما تذيع الميكروفونات في الناس ولما سأله عن السبب همست إليه

بأنها تخشى أن تسرح له به، فخرج سولجنتسين ليستطلع بنفسه الخبر فأتضح له أن ستالين مات واستقبل معظم الناس هذا الخبر بالفرح والبهجة. أما هو فأراد أن يفتز من فرحته غير أنه سعى جاهدا لإخفاها وقفل راجعا إلى حجرته لينظم قصيدة بطوان «الخامس من مارس» لإحياء ذكرى هذه المناسبة. ثم انتقل إلى مسكن آخر متواضع ولكنه أكثر راحة واتساعا وتروى لنا صاحبة هذا المسكن لحظة دخول سولجنتسين البيت حاملا حقيبته التي وضعها أمام الباب للخارج، ولفت نظرها إليه سلوكه المهنئ، فاطمعت المليحة. وأراد زوجها أن يساعده فحمل عنه الحقيبة فوجدما ثقيلة فسأله إذا كان قد حشاهما بالكذب فأجابته بالإيجاب. ولا حظت صاحبة البيت أيضا أنه يستهلك كمية كبيرة من وقود الزيت وأنه يسهر لساعات طويلة ويقرأ ويكتب، وأصابتها الذعر عندما قدمت إليه البطاطس مسلوقة بشرها فقد رأته ينقطع واحدة منها ويقضمها بقشرها فنبهته صاحبة البيت بقولها: «ما الذي تفعله يا ساسا؟ انزع القشرة أولا». فلم يفه بكلمة واحدة بل انكفى بأن ابتسم لها بطريقة تدل على أنه يستمتع شريط حياته في السجن والمسكرات.

وعندما فشل تهريب الإدارة التعليمية في حربه وإيماده عليها لجأت إلى المسؤولين لإصدار منشور مفاده أن مدارسها ليست بحاجة لأي مدرسين في الرياضيات والعلوم، ولأن الحياة علمته شدة الحرص والاقتصاد فقد استطاع أن يعيش لفترة طويلة على النقود التي صرفها المعسكر له عند خروجه منه. وذات يوم بينما كان يسير في الطريق جاءه رجل من وزارة الداخلية ليقتاده إلى الجمعية التعاونية بالقرية وطلب منه أن يعمل محاسبا فيها لقرب حلول موعد الأوكازيونات المرتب فائق كل أحلامه

وهو ٤٥٠ روبلا في الشهر. وحتى ينتهي المحاسبون من عمل التخفيضات على السلع في فترة الأوكازيون وضبط الحسابات المتعلقة به أصدر رئيس الجمعية أمرا متصفا باستمرارهم في العمل لمدة سبع عشرة ساعة يوميا، واستناد مؤلفنا من تجارب السجن فلم يجار بالشكرى من هذا التعمف بل عمد إلى التزييف من العمل في صمت فلاحظ رئيس الجمع تزييفه وهدد بإتزال أقسى عقاب عليه فارتفعت فرائص سولجنتسين ولحسن الحظ أنه لم ينفذ تهديده لأن موت ستالين فيما يبدو كان إيذنا بحلول جو جديد من الساحة النسيبة.

وبعد أن أمضى مؤلفنا نحو شهر في الجمع الاستهلاكي جاءته الفرصة التي ظل يحرق شوقا لتحقيقها وهي أن يصبح مدرسا فقد أعجب بشخصيته واحد من أقطاب الحزب المحليين والعاملين في مجال التعليم اسمه سيموميتوف الذي تخصص لتعليمه في وظيفة مدرس رياضيات وعلوم وفلك، توسط له هذا الرجل لدى مدير التعليم للمام وأقنعه أنه ليس من المعقول أن يكون بين ظهرانيهم رجل يحمل مثل مؤهلاته العلمية دون الاستفادة منه لرفع مستوى التعليم المكثني بالمنطقة، ووافق المدير العام على هذا الرأي متجاوزا بذلك للجهات التعليمية الأدنى التي قررت رفضه وكان هذا التعيين أكبر فرحة عرفها سولجنتسين في تلك الفترة من حياته فقد ردت إليه بعد طول مهانة ولذلال احترامه لنفسه وأتميته ورغبة منه في رفع مستوى طلبته العلمي لتأهيلهم لأداء امتحاناتهم بنجاح فكان في عمله وأصطاهم حصصا إضافية مكثفة فاستجابوا إليه وجاموا إلى قصوره في التقوية جماعات وزرافات ويبدو أن ربيبه سيموميتوف في لحظة ما انتابه شك في أن تكون سلوكات السجن والمسكرات أنسته الرياضيات والعلوم

فطلب منه قبل موعد الامتحان بيومين أن يفتح الخزانة التي يحسب على الأسطة التي أرسلتها الوزارة المركزية في موسكو وأن يقوم بحل المسائل التي سوف يمتحن فيها الطلبة ولم يهدأ للرجل بال إلا بعد أن تأكد من قدرة سولجنتسين على حلها بسهولة ويسر. وليس أدل على فساد النظام التعليمي السوفيتي وتدنیه من أن كثيرا من زملائه في المنطقة عجزوا عن حل الأسطة ولجأوا إليه بشرحها لهم. وبلغ الفساد مبلغا جعل نظار المدارس ومديرها يفرضون الأتوات على المدرسين ويقتطعون جزءا من رواتبهم كسلفة لا ترد، ورفض سولجنتسين الاستسلام لهذا الابتزاز كما رفض إعطاء بعض الطلبة المزمعي عنهم درجات لا يستحقونها ملما كانت العادة. والزم مؤلفنا قدر ما يستطيع بموقف الاعتراض الصامت على هذا الفساد. ويرجع السبب في هذا إلى رغبته في الاستفادة بكل دقيقة من وقته في هذا السبيل.

وفي مناه استرجع سولجنتسين قصائد الشعر التي سبق له أن نظمها في سجن كيباستوز وعلى رأسها قصيدة «الطريق» التي كان قد لجأ إلى استظهارها وإعدام مخطوطاتها حتى لا تقع في أيدي زبانية السجن ومما يثير تركز الدهشة أنه استطاع استظهارها رغم طولها غير العادي فهي تتكون من عشرة آلاف بيت من الشعر، الأمر الذي يجعل استظهارها عملا ضخما جبارا يدل على مانتع به مؤلفنا من ذاكرة من حديد. والجدير بالذكر أن هذه القصيدة منظومة على غرار قصيدة تيوركن، التي ألّفها الشاعر ألكسندر تفارودوفسكي كما أشرنا من قبل ونحن نقرأ في فاتحة القصيدة أو البرولوج وصفا لحياة اللصب والحاء التي عاشها في زنازين السجون دون أن تفلح في أن تقتل فيه الرغبة الملحة في الكتابة نوبة عن الملايين من ضحايا ستالين فقد نذر نفسه في كتاباته للشعرية والتثنية على

حد سواه للتعبير عن آلامهم وعذابهم ابتداء من عمله الروائي الأول «يوم في حياة إيفان دينيسوفيتش» حتى «أرخبيل الكولاج» بمجلداته الثلاثة. ولكن يبدو أن شهره لم يرق إلى مستوى ثلثه فعندما أجاد صياغة بعض أجزاء قصيدة «الطريق» وسمى إلى نشرها في المجلة السوفيتية المنحرة «العالم الجديد» اعترض رئيس تحريرها فغاردوفسكي على نشرها ونصح بالاكْتفاء بنشرها في ذيل أعماله الكاملة (عند إعادة نشرها بطبعة الحال). وفي عام ١٩٦٣ قرأ مؤلفنا هذه القصيدة على الشاعرة المعروفة أنا أختافوا فصنحته بعدم نشرها والاكتفاء على الكتابة الثرية التي ترقى فيها. وإلى جانب «الطريق» أصدر جمع مؤلفنا أيضا المسرحية للشعيرة التي ألفها في سجن إكيبا ستورز بطهران «عيد المنتصرين» وهي تتكون من ألفي وخمسمائة بيت على غرار المسرحية الكرميدية «الويل من الذكاء» التي ألفها جريبيودوف في القرن التاسع عشر وتدور هذه المسرحية حول ماضي روسيا وحاضرها وسلبات الثورة البلشفية وإيجابياتها والصراع المحتدم بين القيم الشيوعية الثورية والقيم الإنسانية والأخلاقية الأصيلة. فضلا عن أنها تتناول بعض التهمات التي أصبحت فيما بعد الموضوعات الرئيسية التي تعالجها كتاباته مثل إفلاس الأيدولوجية الماركسية والمواقف الخويفة للمزارع الجماعية وتركيز السلطة في يد سلطات الأمن، وثورة ستالين الناجمة عن شعوره بالانضهاد وأدائه المزرى للفاشل كقاتل عام للقوات المسلحة في بداية للحرب العالمية الثانية والدور الحاسم الذي لعبته الوطنية الروسية في كسب هذه الحرب. وفي منفاه في كوك تيريك أكمل سولجنتسين مسرحية أخرى له بعنوان «ديسمبريون بدون ديسمبر» التي غير

عنوانها فيما بعد إلى «الأصري» وهي أطول وأكثر طموحا من مسرحيته الأولى عيد المنتصرين» وينقل فيها المؤلف من الشعر إلى النثر وتحتوى مسرحية «ديسمبريون» على عدة شخصيات تظهر فيما بعد في أعماله اللاحقة مثل «أغسطس ١٩١٤» و«الدائرة الأولى» وحاول مؤلفنا أن يحشرها بكل تجاربه في السجون ومعسكرات العمل. وتتضمن «ديسمبريون» الأفكار نفسها التي سبق لمؤلفنا أن عالجه في «عيد المنتصرين» ولكن بتفصيل أكبر. ولعل الجديد في هذه المسرحية أنها تعالج موضوعات الروس البيض والروس الذين اختاروا البقاء مع الألمان على العودة إلى بلادهم؛ والرأى عدد سولجنتسين أن للتاريخ ينف في صفهم لأنهم أكثر وطنية من البلاشفة المنتصرين وأن للثورة البلشفية كانت وبالا على الشعب الروسي. وهذه آراء واضحة الخطورة ولو أن هذه المسرحية وقعت في أيدي المخابرات السوفيتية كان لها شأن آخر مع صاحبها ولم يعرف العالم بوجودها إلا بعد هجرته للغرب ولا ماض من القول إن أعماله المسرحية التي ألفها معها ديوانى الشعر اللذين نظمتهما عن حياة السجون والمعسكرات (وهما: «القلب تحت الجاكطة البهيفة بمادة مطاطية» و«عندما يفتنون أثر الصلوات») لا تمدوان أن تكونا مجرد تدريبات أدبية يبدأ بها كل أديب حتى يصل إلى مرحلة التمتع.

وأخيرا تمكن سولجنتسين من استئجار سكن هادئ يعزل فيه إلى نفسه، ففي سبتمبر استأجر كوخا أو عشة غير مفروشة من الطين تتكون من غرفة ومطبخ في ضواحي كوك تيريك واستطاع مؤلفنا أن يصنع سريرا من صناديق الخشب وضع فوقه مرتبة محشوة بالقش ونشارة الخشب. وساعد زميل أوكراني مطلق في صنع منضدة

وكرسى من أفرع الشجر، ولأن حوائط الكوخ كانت تتآكل بسرعة فقد تبن عليه كل أسبوع أن يقوم بإضافة طبقة من الطين والروث إليها ولكن كمية هائلة من الدواب كانت تسقط من الطين والروث بمجرد جفافها الأمر الذي اضطره إلى إزالته بصفة متكررة.

ثم وصلة خطاب من ناتاليا لفرحت عليه فيه بسخابة أن يستمر في التراسل كثرع من التواصل الأفلاطوني البشري، وفهم سولجنتسين من هذا الاقتراح الغريب أن زوجته لا تزال تحبه وتريد أن تعود إليه فحرب بهذه العودة شريطة أن تتفصل عن زوجها الثاني فأرسلت إليه تخبره بأنه أساء فهمها وأنها لا تترى أن تترك زوجها الثاني وختمت رسالتها بكلمات الوداع والتعنيات الطيبة له وفي تلك الفترة من حياته ساءت حالته الصحية فقد عانى من مغص شديد لم يستطع الأطباء المعالجون تشخيصه والوقوف على أسبابه فقصصه طبيب سوين أن يعرض نفسه على متخصص في زامبول وبعد الكشف عليه بأشعة إكس اكتشف الأطباء وجرد ورم في حجم قبضة اليد في تجريف البطن من الداخل. ولم يعرف سولجنتسين إذا كان الورم القديم الذى عولج منه قد عاد للانتشار أو أنه ورم جديد تماما ليس له بالورم القديم أية علاقة؛ وللصالح من هذا الورم تبين عليه النزحيل إلى مستشفى يبعد مئات الأميال في طشقند ولم يكن من السهل عليه بسبب نفية لأسباب سياسية الحصول على إذن بالانتقال إلى هناك غير أن هذا لم يمنعه من البدء في السور في إجراءات الحصول على مثل هذا الإذن وسمع بوجود رجل عجوز قادر على معالجة مرض السرطان بالأعشاب والأدوية الطبيعية فراق له هذا النوع من العلاج وحاول أن يجريه ولكن حالته الصحية تدهورت بشكل واضح وأصبح قاص قوسين أو أدنى من الموت أذى مهد نفسه

لاستقباله، وأصبح قلته يتركز على شيء واحد هو: مصبور مخطوطاته بعد وفاته. وخاصة بعد توقف المراسلات بينه وبين زوجته السابقة ناناليا، الأمر الذي جعله يقوم بنسخ مخطوطاته بخط صغير للغاية خبأها ملفوفة في أسطوانات خزفية ضيقة ثم حشرها في زجاجة شمبانيا ودفن هذه الزجاجة في حديقته.

وأخيرا وبعد لأي تمكن مؤلفنا من الحصول على إذن من وزارة الداخلية يسفره إلى طشقند وتصادف أن تكون ليلة رأس سنة ١٩٥٣ مصادفة ليوم سفره بالقطار في اتجاه طشقند، وفي فقرة انقطار مجيء القطار الذي يقفه تعين عليه أن يسلم بطاقة تحقيق شخصيته إلى ناظر المحطة حتى يسمح له بالبيت بإحدى حجراتها ولكن ناظر المحطة نسي أمره تماما فقد أخذ يشرب في احتفالات رأس السنة حتى فقد وعيه فاضطر السيطرون به إلى نقله ومعه تحقيق شخصية سولجنستين الذي أسقط في يده ولم يكن باستطاعته السفرون أن يحمل معه هذه البطاقة. وبالمصادفة شاهد مؤلفنا واحدا يعرفه من رجال الأمن فشرع له المشكلة وأراد للرجل أن يساعده فكتب له بخط يده إذنا بالسماح له بالسفر إلى طشقند، وعندما وصل مؤلفنا بعد رحلة شاقة ومضنية إلى طشقند رفض مسئولون طشقند استقباله فيه لأنه لا يحمل معه إثبات شخصية فأصر سولجنستين على عدم مفادرة حجرة انتظار المستشفى على الدوم فيه حتى يقوم الأطباء بالكشف عليه وتدخلت الطبية المناط بها علاجه في الأمر وقبلته بالمستشفى على مسئوليتها دون أوراق تحقيق الشخصية.

عطير السرطان في مستشفى طشقند:

دخل سولجنستين مستشفى طشقند في ٤ يناير ١٩٥٤ بقسم الأشعة حتى بدأت الذكورة إيديا دوناييفا علاجه في اليوم

التالي لدخوله واكتشفت للطبيبة أنه يعاني من وجود ورم سرطاني نادر يعرف في الطب بالورم الملوي. ورأت هذه الطبيبة علاجه عن طريق الأشعة وليس عن طريق الجراحة. واستمر علاجه ستة أسابيع تعرض فيها لخمس وخمسين جلسة أشعة مدة كل منها نصف ساعة. وهو ما يصفه في روايته «عطير السرطان» وفي بداية الأمر تصمت حالته وأخذ يستلم الحياة من جديد بعد أن عادت إليه شهيته وارتفعت روحه المعنوية. وزايله الألم المعض الذي كان يعاني منه. ولم يمض أسبوعان على بدء العلاج بالأشعة حتى انكمش الورم. غير أن تعرض المريض المركز لأشعة إكس جعله يشعر بالرغبة في الله، ويفقد الشهية. ووصف مؤلفنا تماثله للشقاء في إحدى قصصه القصيرة «اليد الملوي» التي تقع أحداثها في طشقند بعد أن ساءت حالته لدرجة أن صغرة الموت اعتلت بشرته. فضلا عن شعوره بالإنهاك الشديد والحاجة إلى الراحة كلما خطا بضع خطوات. ويرسم المؤلف في روايته «عطير السرطان» صورة ودية ومحبة لإيرينا ميكي الطبية التي سمحت له بدخول المستشفى رغم عدم وجود أوراق تحقيق الشخصية في حوزته، وإيديا دوناييفا الطبية التي باشرت علاجه. ولم يكن سولجنستين مريضا سهلا أو طمعا بل كان صعب العراس وعتيذا ورغم خلفيته الطنية فقد كان يغافل أطباءه ويمالج نفسه بالأعشاب والنباتات الطبيعية. فضلا عن أنه رأى في تناول كمية كبيرة من هذه الأعشاب والنباتات وسيلته في الخلاص من حياته إذ تشدد عليه الألم وأصبح لا يطاق، ولكن صحته تحسنت بشكل ملحوظ ولم يكف بالمشي داخل المستشفى بل تجاوز حدودها أحيانا. وفي منتصف مارس ١٩٥٤ صدرت التطومات بخروجه من المستشفى على أن يعود إليها في يونيو

من العام نفسه لإعادة الكشف عليه واستمرار علاجه بالأشعة. وقبل أن يغادر طشقند عائدًا إلى منفاه في كوك تبريك دخل مؤلفنا قلب مدينة طشقند فوجد أبواب كنيسيتها مفتوحة أمامه الأمر الذي أثار فيه الدهشة والاستغراب. ففي روستوف حيث نشأ وترعرع أغلقت كل الكنائس أبوابها في عام ١٩٣٤ فدخل الكنيسة للمفوحة لأول مرة في حياته منذ طفولته وشكر الله على أنه من عليه بالشفاء. ومن حسن حظه أن نوع السرطان الذي أصيب به كان يمكن علاجه عن طريق الإشعاعات وهذا. وفي مرة من المرات نسب سولجنستين شفاؤه منه إلى إرادة الحياة القوية فيه. ولكنه فسر في مرة أخرى بأنه معجزة من لدن الله. والجدير بالذكر على أية حال أن عودته إلى حظيرة الإيمان تزامنت مع شفاؤه من السرطان. ففي المرة الأولى نجح التدخل الجراحي في إزالة الورم السرطاني في حين تم علاجه في المرة الثانية عن طريق الإشعاعات، الأمر الذي ألقته بأن النهاية الإلهية تقوم على حراسه. وبعد إيلاله من مرضه كرس مؤلفنا كل وقته وجهده للتدريس الذي أحبه وأدخل على قلبه السرور رغم قسوة الحياة في المنفى. وهو يصف هذه الفترة من حياته بأنها أسعد الفترات التي عرفها. وكان تلاميذه من أبناء المفلتين الذين كتب عليهم دون جريرة ارتكبوها ألا تملأ أقدامهم أرضا غير أرض المنفى. وإنهر سولجنستين بإقبال هؤلاء الأطفال على التعليم ورغبتهم النهمة إليه فأناشأ لهم ناديا يعلمهم علم تقسيم الأرض كما علمهم الفلك ومواقع الأجرام السماوية. واحتفظ بمفكرة يسجل فيها سلوك كل تلميذ من تلاميذه ما يحب وما يكره والمواد التي يميل إلى دراستها وإهتماماته في أوقات الفراغ. وبعد لأي استطاع مؤلفنا اقتناء آلة تصوير بالتوقيت الذاتي

صور بها نفسه سرا بملابس السجن التي تمكن من تهريبها معه إلى المنفى كما أنه حملها معه في رحلاته مع التلاميذ واستخدمها في عمل ميكرو أفلام لكتاباته أخفاها في أغلفة المدارس. وأخذت حياته في المنفى وهو في الخامسة والثلاثين من عمره في الانتظام والاستقرار فاشترى الكوخ الذي كان يستأجره. وياشر التدريس في المدرسة صباحا واعتلى بتلاميذه في الصبر وانتصرف إلى الكتابة في المساء. وبدا كما لو كان راضيا عن حياته ولكنه في واقع الأمر كان ساخطا عليها، ولم يصادق سولجنتسين في المنفى سوى زويوف وزوجته. وزويوف هو طبيب النساء الذي أسدى له النصح بعلاج الورم الذي يشكو منه. واستمتع مؤلفنا بدمه العلاقة التي تربطه بزويوف وزوجته (الذين يظهران كسائلة كادامين، في «عبر السرطان»)، وأنزلهما في منزلة الولاد والوالدة.. ويلفت ثقته بهما مبلغا جعله يطعمهما على مخطوطاته فضعها على المنفى في الكتابة.

رحلة الشتاء والحرية:

وفي يونيو عام ١٩٥٤ عاد سولجنتسين إلى طشقند بناء على تعليمات الأطباء. وبدا عليه تحسن ملموس في صحته كما ازداد وزنه زيادة واضحة. وفي مستشفى طشقند مكث نحو شهرين لاستكمال العلاج فقد لاحظ الأطباء أنه يعاني من انخفاض ملحوظ في عدد الكرات البيضاء الموجودة في دمه. وفي خلال فترة استكمال العلاج انكب على قراءة سلسلة من المقالات النقدية حول المؤلفين السوفيت. ويبدو أنه تأثر بوجه خاص بمقال معروف نشره فلاديمير بوميرا تسديف في مجلة «العالم الجديد» بعنوان عن الإخلاص في الأدب، بهاجم الستالينية وينقد الرافعية الاشتراكية. (والجدير بالذكر أن السوفيين قاموا بطرد رئيس تحرير المجلة الشاعر ألكسندر تشاروفسكي لسماحه بنشر هذا المقال).

وتتضمن رواية «عبر السرطان» إشارة إلى الأثر العميق الذي تركته قراءة هذا المقال في إحدى شخصيات هذه الرواية. وبعد خروجه من المستشفى لم يغادر مؤلفنا طشقند إلا بعد قيامه بزيارة حديقة الحيوان فيها حاملا آلة التصوير. في ذلك اليوم خطر له أن يكتب «عبر السرطان» التي لم يشرع في كتابتها بالفعل إلا بعد انقضاء ثمانية أعوام. ولفت نظره في تلك الفترة أن معاملة الضباط ورجال الأمن والمخابرات له بدأت تتغير وأنها أصبحت أكثر رقة وتحمرا عن ذي قبل فأدرك أن ريح التغيير بدلت تهب على البلاد.

وبعد عودته إلى منفاه في كوك توريك استرد سولجنتسين صحته وعافيته تماما وخامره شعور قوي بأنه حزب يعيش شبابه من جديد في سن الخامسة والثلاثين ويتمتع بمطلق الحرية في أن يتزوج. وراقت له فتاة روسية استقرت عائلتها في إقليم خازستان، وأوشك في عام ١٩٥٥ على الاقتران بها. ولكن ملحه من ذلك أنه لاحظ أن فئاته كانت شديدة الارتباط بمنظمة الشباب الشيوعية المعروفة باسم الكو مسمول ولا تكف عن ترديد أغانيها والتمسكة بأناشيدها، فخشى أن يكون ولائها للنظام السوفيتي يفوق ولائها له فأقر الارتفاع عنها. ورغم هذا فقد ظل يبحث لنفسه عن زوجة تؤنس وحشة لمدة ثلاثة أعوام بعد أن أمضى في السجون والمعسكرات ثمانية أعوام كاملة. وأخيرا قرر أن يصرف نظره عن الزواج خشية ألا يجد الزوجة الوفية التي تصون أسرارها. فقد كان جل ما يخشاه أن تقع كتاباته ومخطوطاته في أيدي غير موثوق بها، فيؤدي ذلك إلى الحكم عليه بالحبس من جديد.

أقر سولجنتسين أن يصرف عن الزواج ويكرس وقته لتأليف مسرحية

بعنوان «جمهورية العمل» تتناول حياة السجن والمعسكرات ضمنها تجاربه المستقاة من سجن أورشليم الجديد كما ضمنها وقائع وشخصيات استمدتها من سجن بوابة كالويجا وسجن أكيباستوز. ولم يخف مؤلفنا سعاته أثناء كتابة هذه المسرحية الجديدة لأنه في المنفى - بخلاف السجن والمعسكر - لم يكن بحاجة إلى حرق أسرارها بعد استظهارها. فضلا عن أن السعادة غمرته وهو يقوم بتفتيح مسودتها وإعادة نسخها. ولم يعجبه «جمهورية العمل» كطرائف أعاد صياغتها بعنوان «العاهرة والتابع» التي تدور أحداثها حول شخصية روبيون نيموف التي تمثل جانباً من سيرة حياة مؤلفها منذ اللحظة التي وصل فيها إلى المعسكر حتى وقت دخوله المستشفى. وتعالج هذه المسرحية البطلة والفساد الذي يسود حياة السجن والمعسكرات، الأمر الذي يؤدي إلى اعتلاء القمة أخط أنواع البشر ويستقر في اتقاق أفصلها. وتروي لنا المسرحية قصة الغرام المتبادل بين بطليها نيموف وطلتها نوبيا التي تصل بين جذباتها قلباً زكياً طيباً غير أنها تتحول إلى عاهرة بالرغم منها بسبب ظروفيها القاهرة وتهديد طبيب المعسكر بالذئبل بها. وللجدير بالذكر أنها المرة الأولى التي وُلف فيها سولجنتسين مسرحياته بأسلوب نثرى الأمر الذي ملحه قدراً كبيراً من الحرية في تناول موضوعاته لم توفره له صياغة المسرح الشعرية. قرأ مؤلفنا في يونيو ١٩٥٥ مسرحية الأخيرة على كل من سديقه زويوف وزوجته فكانا بذلك أول المازفين بوجودها.

وتعتبر فترة السجن والمعسكرات لم المنفى فترة التدريب الأنيبي الذي كان سولجنتسين في أمس الحاجة إليه حتى يتمرس بالكتابة ويصل بها إلى درجة اللصق والإتقان. فضلا عن أنها كانت

بمخابرة المطهر الذى ساعده على تنقية مشاعره وتهدئة عواطفه المكبوتة الهائجة حتى يصفو قلبه وعقله لمعالجة المواضيع الأدبية التى تستحق المعالجة. وفى خلال تجاربه الشعرية فى المسرح اهدى مؤلفنا إلى لغة للنثر والمواضيع والأشكال الروائية التى تناسب مواهبه. فلا غرو إذا رأينا فى هذه الفترة ينتقل إلى التأليف الروائى ويسطر صفحات أولى رواياته ذات القيمة الأدبية وهى «الدائرة الأولى».

وبعد وفاة ستالين تم القبض على بريا رئيس مخابراته ووزير داخلية وساعده الأمين فى التكنيك بالبلاد. وبمرت ستالين فقد جهاز مخابراته كثيرا من أمواله ومن سطوته، الأمر الذى ساعد على انتشار الذمير فى صفوف السجونيين فطالبوا إدارة السجن بحقوقهم فاستجابت لتكثير من مطالبهم. ومنها صرف أجور وليس كويونات للسجناء نظير ما يقومون به من أعمال، والسماح للأهالى بزيارة أقاربهم من المساجين. وشاهدت الفترة التى أعقبت وفاة ستالين تصحفا ملحوظا فى أحوال السجونيين المعيشية وخاصة بعد الزيارة التى قام بها فى عام ١٩٥٥ المستشار الألمانى أدوارد لاتسعاد السوفيتى للاتفاق مع المستورين السوفيت على إطلاق سراح كل الأسرى الألمان منذ الحرب العالمية الثانية. وفى ٩ سبتمبر من ذلك العام نفسه صدر أول عفو سياسى حقيقى وخطير الدلالة فتم العفو عن المساجين السياسيين الذين تزيد مدة الأحكام الصادرة ضدهم على عشرة أعوام، فضلا عن خفض الأحكام بعشرين سنة إلى النصف. وكعادته لعن مؤلفنا بمناخه دقوقة لكل ما تنشره الصحف السوفيتية من أنباء. فهو من اكتشف فى ملغاه نبا العفو عن المساجين منشورا فى مكان غير بارز فى إحدى صفحات جريدة أفرستيا الداخلية دون غيرها من الصحف السوفيتية حتى لا يلتفت إليه

أحد. وحتى يتابع الأخبار بصورة أدق اشترى سولجنتسين مذياعا ليستمع بانتظام شديد إلى محطة أبى جى - سى رغم أن السوفيت كانوا يقومون بالتشويش عليها.

وسمى زميلاه القديمان فى السجون والمسكرات ديمتري بانين ولوف كويليف إلى معرفة عنوانه بهدف الكتابة إليه. وأرسل إليه يستحذانه على أن يلتصق من السلطات الإفراج عنه. ورغم قنوطه من هذا فقد فعل ما طلباه منه. وفى أحد الأيام استمع من محطة الإذاعة البريطانية لأخطر نيا أزعجى حياته أثرا كبيرا ومباشرا فقد ولفه أخبار هذه الإذاعة بالفضيلة التى ألقاها خروتشوف فى ٢٦ فبراير ١٩٥٦ أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى وهامم فيها مبدأ عبادة الفرد وكشف عن جانب من الجرائم التى ارتكبتها ستالين. ومعد ذلك اللحظة أدرك سولجنتسين أن سقوط ستالين عنوه سقوط لا رجعة فيه. وكتب سولجنتسين فى «أرخبيل الكولاج» يقول فى هذا الصدد: «عرفت أن عدوى ستالين قد سقط الأمر الذى كان يعنى بداية الصعود بالنسبة لى. وفى مارس ١٩٥٦ وقع ما لم يكن فى حسباناه فقد استدعاه أحد رجال المخابرات وحاول تهنيده كجاسوس أو مخبر. وكما سبق أن حدث له حاول مؤلفنا أن يتسلل ويهرب ولكن رجل المخابرات ألح عليه. وفى احتجابه ذكر سولجنتسين أن جهاز المخابرات السوفيتية المعروف باسم M.Y.B قد انتهى إلى الأدب بسبب رياح التغيير الليبرالى التى هبت على النظام قشره له رجل المخابرات أن جهازا جديدا للمخابرات يعرف باسم K.G.B قد حل محل الجهاز القديم الضحل واغفلته لم يأخذ مؤلفنا هذه المطومة مأخذ الجد. ولكنه أراد ألا يستثير غضب الرجل عليه فخل بسره صحته فطلب منه رجل المخابرات

أن يقدم إليه شهادة طبية بذلك ليرفعها لروسله كي يدر لهم فضله فى تهنيده.

ولم يمض شهر واحد حتى وصله خطاب فى إبريل ١٩٥٦ مفاده أنه أصبح حرا طليقا بحق له الذهاب إلى أى مكان يريد. فقرر أن يختار موقعا هادئا فى قلب الريف الروسى الجميل فى أواسط روسيا حيث يستطيع أن ينفرد بنفسه ويلقى جراحه ويواصل مهنة التدريس التى أحبها من سويده قلبه. وتعين عليه البقاء فى كوك تبريك حتى نهاية العام الدراسى والانتهاه من أعمال التصحيح. وفى ٢٠ يونيو ١٩٥٦ استقل القطار المتجه إلى موسكو وأواسط روسيا. واستغرقت الرحلة أربعة أيام. وبمجرد أن هبط من القطار انبعث ناظرا على جمال الريف الروسى الذى كان يحمل به هبت قبضة ريع فى وجهه وسالت على خديه الدموع.

سبحان مغفر الأحوال

فى الزايع والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٥٦ قابل سولجنتسين صديقيه القديمين بانين وكويليف فى محطة القطار بموسكو. ولم يستطع الأصدقاء المجتمعون الاحتفال بهذه المناسبة السارة باحتساء الشراب فقد كان سولجنتسين مملوعا من شرب الخمر بسبب ظروفه السمجية ولاحظ بانين وكويليف أن صديقهما فقد كثيرا من وزنه وبدا عليه الشحوب. ودهش مؤلفنا للتغير الكبير الذى طرأ على الجو العام وعلى الجراء والجسمارة التى أظهرها كويليف وهو يتحدث عن الأحوال السياسية فى البلاد. وعبدا حاول الصديقان إقناعه بالبقاء فى موسكو فقد كره جلبة هذه العاصمة وضوضاها. وتردد على إدارات التربية والتعليم المختلفة يستفسر منها عن حاجتها إلى مدرس رياضيات فى إحدى المدارس بالقرى النائية. وبدا لهم هذا طلبا غريبا فقد تكالب جميع المدرسين على

العمل بالمدارس الموجودة في المدن الكبرى. وأخبره صديقه أن السلطات أعادت الاعتبار إلى كثير من المساجين السياسيين، وأنها عليه أن يخاطب المسؤولين بهذا الشأن فعمل هذا على محض لعدم إيمانه بجسدي مثل هذا العمل. غير أنه دهم عندما استجاب له المسؤولون وأبلغوه بضرورة توجهه إلى سجن لوبيانكا الشهير لمقابلة المحقق الجديد المسئول عن قصيته في مكتبه. واستغرب مؤلفنا حين رأى هذا المحقق يخرج الملف الخاص به وهو يضحك من بعض اللكات التي أطلقها عن ستالين في ثانيا الخطابات التي أرسلها إلى صديقه نيكولاي، بل إنه استدح القصص التي ألفها أديبان وهو على جبهة القتال. وهي القصص التي كانت من بين الأسباب التي أدت إلى الزج به في غيابة السجون. وقال عنها المحقق الجديد: «لست أجد فيها أية اتجاهات معادية للثوارين، ويمكنك أن تسترجعها وتعاول نظرها، ولكنه رفض أن يأخذها معه قائلا إنه نذب الأدب منذ فترة طويلة واحترف مهنة مترجمة في تدريس الفيزياء».

وفي تلك الفترة سافرت ناتاليا زوجة مؤلفنا السابقة لمصاحبة بوريس ألين الثاني لزوجه فمفلود في رحلة على نهري الدون والفولغا وامت فيها شطر المصاحبة مرسكو حيث اتصلت عند وصولها بتليفونيا بصديقها أنجيديا زوجة باين التي أخبرتها بوجود سولجنسين هناك ورغبة زوجها السابق في رؤيتها. فلم تمنع في مقابلته على انفراد في بيت عائلة باين يوم ٢٦ يونيو ١٩٥٦ وسألها عن السبب الذي حدا بها إلى طلب الطلاق منه فارتبكت ولم تحرج جوابا شافعا. ويبدو أنه أراد ألا تنقطع وشائج الود بينهما فسلها نسخا من القصائد التي نظمها عنها في سنوات المعسكر. وقام بزيارة قبر أمه وغاله رومان لكنه لم يعثر

على قبر أبيه الذي تهدم واندثر بسبب للحرب. وسعى إلى مقابلة صديقه القديمين نيكولاي وكيريل. كانت مقابله مع نيكولاي غير ودية بالمرّة فقد بدا على نيكولاي البرم والغضب مما رآه تدخلا من جانبه في حياته، ورغم ما فعله سولجنسين من أجله فقد اعتبره مسؤولا عن اللكيات التي حلت به. أما كيريل الذي أصبح جراحا ناجحا ومعروفا فقد رفض مقابله ظنا منه أنه السبب في توريته مع المخابرات السوفيتية وهكذا سدم مؤلفنا في صديقه.

ومع بداية العام الدراسي الجديد جمع سولجنسين، متاعه القليل وتوجه في سبتمبر ١٩٥٦ إلى مدينة تورفوبويك الصغيرة حيث تسلم فيها عمله كمدرس. ورغبة من جانبه في أن يعيش في جو ريفي تماما قرأ أن يستقر في قرية صغيرة مجاورة اسمها فولتسيو. لم يستطع أن يجد فيها مكانا وإحدا خاليا ولكن أرملة تدعى ساتيرونا زاخاروفا تعيش بمفردها ومعروفة بين أهل القرية بالقدارة وسوء الطبع قبلت أن توجر له جانباً من كوخها الذي راق له موقعه الجميل الذي ذكره بالريف الجميل الذي وصفه الشاعر ياسين في أشعاره. وفي مستقره الجديد أحس مؤلفنا بجز الحرية والاطلاق. فبعد أن يظل إلى نفسه من مشاغل التدريس يكتب على أشعاره ومسرحياته ينفقها في جوريفي هادئة وخلاص ويبدأ في تأليف رواية دون أن يضطره الخوف إلى إخفاء ما يكتب عن العيون المتلصصة. ورغم أنه كان يعلم أن نشر ما يسطره من كتابات أمر مستحيل فإنه اختار لنفسه اسماً مستعاراً هو ستيفان كايونوف. ورغم كل ما عانى في بيت ساتيرونا من مضايقات مثل سوء الزوجيات التي تقدمها إليه صاحبة البيت فقد مرت حياته هائلة هائلة لا يعكر صفوها غير شعوره بالوحدة ورغبته في

أن يجمع بالفقه المنبعث من جسد امرأة. وعادوه شوقه إلى زوجته الأولى ناتاليا فأرسل إليها عنوانه الجديد عليها تكتب إليه. ويبدو أن الأشعار التي نظمها عنها أثارت فيها الماضى وشجونه فبدأت تكاذب الحنين إلى شخصيته الرومانسية القوية. وكتب إليها ليخبره بأن عواطفه تحوما بدأت تتجدد واقترح عليها أن تقوم بزيارته حتى تستطيع أن تعد عواطفها نحوه، فاستجابت له. ففي ١٩ أكتوبر ١٩٥٦ انتهزت ناتاليا فرصة غياب زوجها الجديد في أوديسا ففكرت وإديه في رعاية والدتها وقامت سراً بزيارة مدينة تورفوبويك. وبذلك بدأت جذوة حبهما القديم تتجدد ولم يمض وقت حتى استسلمت ناتاليا لأحضانها وكان أيام الفرق لم تكن ربات من الواضح أنهما لا يستطيعان الاستغناء عن بعضهما البعض. وكشف سولجنسين لناتاليا عن مرضه الذي قد يضع حدا لحبائه في غضون أصرام فلال فحطقت به زوجته أكثر وأكثر. وأطلعها على كتاباته وطلب إليها ألا تبوح بسرهما مهما كلفها هذا من عناء ومشقة، فوافقت دون أدنى تردد. وتصفحت قصاصات الورق التي بدأ عليها كتابة أولى رواياته «الخالدة الأولى» فأدركت على الفور أنها سوف تلعب الدور نفسه الذي تلعبه نادية في حياة زوجها جليب نيزين في هذا العمل الروائي. وتكررت زيارات ناتاليا له في السر وطلب إليها أن تبلغ زوجها الجديد برغبته في الانفصال عنه ولكن قلبها لم يطاوعها. ولم يخف على زوجها الجديد أن تخبرها طراً على موقفها منه، فسعى ما وسعه السعي إلى التصرية عنها عن طريق القمع والرحلات. ولكنه فشل في صرف انتباهها عن زوجها القديم. وعندما شعر فمفلود أن زوجته سوف تضيق منه أشد تمسكه بها وقاوم فكرة الانفصال عنها وما يجنيه هذا الانفصال من خسارة على

ولديه اللذين وجدوا في ناتاليا ما يمرضهما عن أسهما. غير أن سولجنتسين في أثرته وأنانيته لم يلق بالاً لهذه النقطة. ولكنه أدرك فيما بعد أنه أخطأ في حق هذين الولدين. وبعد لأي وخلافات حادة في وجهات النظر لتفق فسوفورد وناتاليا على الطلاق. وفي ٢ فبراير ١٩٥٧ قام سولجنتسين بإعادة تسجيل زواجه من مطلته.

كان سولجنتسين قد تلقى ردا من المسؤولين باتخاذ الإجراءات اللازمة نحو إعادة الاعتبار إليه. في ٦ فبراير ١٩٥٧ عقدت محكمة عسكرية جلسة وأعدت فحص الظروف التي أتت فيها القبض عليه وطالب المدعى العام العسكري بتبرئته وإسقاط التهم الموجهة ضده. وتضامر زملاء سولجنتسين في الجيش وزوجته ناتاليا وأصدقائه في الإدلاء بشهادات في صالحه. وعدد المدعى العسكري الأسباب التي تدعو إلى إلغاء الأحكام الصادرة ضد سولجنتسين فقال: «يتضح من الأدلة الواردة في هذه القضية أن سولجنتسين رغم أنه تعصب في فكره وخطاباته التي أرسلها إلى صديقه ن. د. فيتكنكش عن صحة وسلامة الماركسية - اللينينية وتقدمية الثورة الاشتراكية في بلادنا وحتمية انتصارها في كل أنحاء العالم، فقد تحدث أيضا بصراحة ضد شخصية ستالين وكذب عن الميول الفنية والأيدولوجية التي تشرب أعمالا كثير من المؤلفين السوفييت وأفكارها إلى الواقعية. وكذب أيضا يقول إن أعمالنا الأدبية تخفق في أن تعطي القراء في العالم البورجوازي شرحا شاملا ومتنوعا بما فيه الكفاية لاحتمة لانتصار الجيش والشعب السوفيتي وأن أعمالنا الأدبية ليست على المستوى لسلام القادر على الرد على التشهير الذي يوجهه العالم البورجوازي بدناء ونكاه ضد بلادنا»

وهكذا برأت المحكمة سولجنتسين من كل الاتهامات التي سبق لصاقها به. ولتج صدر مولفا إعلان المحكمة أنه مواطن سوفيتي لا ريب في موطنته.

والجدير بالذكر أن مولفا في تلك الفترة لاحظ أن عائلة ماتريونا تصرفت بملتهى الأثرة والأناية عندما صارت بلا هودة حول الاستحواذ على مناع ماتريونا القليل. وهو ما أرحى إليه بكتابة قصته القصيرة المعروفة بعنوان «بيت ماتريونا». وفيما يلي نص قرار إعادة الاعتبار إلى سولجنتسين:

قرار المحكمة العليا لاتحاد الجمهوريات الروسية رقم ٤ ن - ٥٦ / ٨٣

قام المجلس العسكري التابع للمحكمة العليا في اتحاد الجمهوريات الروسية برئاسة المستشار القضائي بروجييسكي ومعضية القيدنين التضائين دولوتسيف وكوفوف في جلسته المنعقدة بتاريخ ٦ فبراير ١٩٥٦ بفحص الاعتراض المقدم من المدعى العسكري العام ضد الحكم الصادر من قمرسارية الشعب للشئون الداخلية (N.K.V.D.) في اتحاد الجمهوريات الروسية بتاريخ ٧ يولية ١٩٤٥. والذي على أساسه وفقا لبند ٥٨ (١٠) الجزء الثاني و ٥٨ (١١) من قانون البلاد الجنائي، صدر الحكم بالسجن لمدة ثمانية أعول في مسكرات العمل للتهذيب والإصلاح على ألكسندر إيزايفتش سولجنتسين المولود عام ١٩١٨ وموطنه الأصلي كيسلوفودسك والحاصل على مؤهل عال والذي كان قبل القبض عليه يشغل وظيفة قائد بطارية، واشترك في الحرب ضد الجيوش الفاشية الألمانية ومنع نوط الدفاع عن الوطن من الدرجة الثانية وكذلك نوط النجمة الحمراء.

وبعد الاستماع إلى التقرير المقدم من الفريق كورنيف والإبيان الذي أصدره نائب

المدعى العسكري العام والعقيد القضائي تيزوخوف الذي رأى قبول الاعتراض فإن المجلس انتهى إلى ما يلي:

- إن التهمة الموجهة ضد سولجنتسين مفادها أنه ذاب منذ عام ١٩٤٠ حتى تاريخ القبض عليه على القيام بدعاية مناهضة للسوفيت بين أصدقائه. فضلا عن أنه انتد خطوات في سبيل تكوين تنظيم مناهض للسوفيت..

- اقترح النائب العسكري العام في اعتراضه إلغاء الحكم الذي أصدرته على سولجنتسين الهيئة الخاصة، شطب القضية نظرا لغيباب الدليل على أنه ارتكب الجريمة المنسوبة إليه.

وفيما يلي المبررات التي استند إليها اقتراحه:

من الواضح من أدلة هذه القضية أن سولجنتسين دون في يومياته وخطاباته التي بعث بها إلى صديقه ن. د. فيتكنكش أنه رغم أنه تحدث عن سلامة الماركسية - اللينينية وحتمية انتصارها في أرجاء العالم فإنه انتقد أيضا شخصية ستالين وكذب عن أوجه القصور الفنية والإيدولوجية التي تشرب أعمال كثير من المؤلفين السوفيت، والحو الخيالي العارى من الحقيقة الذي يمد كثيرا من هذه الأعمال. وكذب أيضا يقول: إن أعمالنا الفنية تخفق في إعطاء القراء في العالم البورجوازي شرحا شاملا متنوعا وبسيطا بما فيه الكفاية لاحتمة انتصار الجيش والشعب السوفيتي، وإن أعمالنا الأدبية ليست على مستوى الأراجيف التي يطلقها العالم البورجوازي ضد بلادنا بحق ودناء.

هذه العبارات التي سطرها سولجنتسين لا تشكل دليلا على وجود أية جريمة.

ومن أجل التأكد من صحة الاتهام الذي قدمه سولجنتسين تم سؤال الناس

الذين قبل أن سولجنتسين نشر بينهم المزاعم المعادية للصوفيت وهم ريشترفسكايا وسيمونيان وسيمونيانلنس فشهدوا جميعاً أن سولجنتسين وطني سوفيتي غيور وأنكروا أنه نقوه بأية أحاديث مناهضة للصوفيت .

وبناء على سجل سولجنتسين العسكري والتقرير الذي قدمه زميله في الجيش الكابتن ملونكوف يتضح أنه منذ عام ١٩٤٢ حتى تاريخ القبض عليه اشترك سولجنتسين في الحرب على عدة جبهات دفاعاً عن شرف الأوطان وحارب بشجاعة للزود عنها. كما أنه أكثر من مرة أظهر بطولة شخصية وأرعى للقسم العامل تحت إمرته بالغفاني والإخلاص. إن القسم الذي يرأسه كان أفضل الأقسام في الوحدة كلها بفضل ما اتسم به من نظام وقاعدية قتالية. وبناء على الأدلة الواردة أعلاه فإن النائب العسكري العام يعتبر إدانة سولجنتسين غير سليمة. ولذا فإنه يطلب سحب القضية منه استناداً إلى المادة الرابعة للنقطة الخامسة من قانون الإجراءات الجنائية في البلاد .

وبعد فحص وتبحيص مادة القضية الذي يتفق مع الشروح والمحايات الواردة في صحيفة الاعتراض الرسمية ولأخذ في الاعتبار أيضاً أن الأفعال التي قام بها سولجنتسين لا تشكل جريمة وأنه يدعى شطب قضيته لعدم توفر الأدلة الجنائية، فإن المجلس العسكري التابع لاتحاد الجمهوريات الروسية قرر إلغاء الحكم الصادر من قومسارية الشعب للشؤون الداخلية بتاريخ ٦ يولية ١٩٤٥ بخصوص المدعى إيكسندر إيزافيتش سولجنتسين . وكذلك شطب قضيته لعدم توفر الأدلة استناداً إلى المادة الرابعة للنقطة الخامسة من قانون الإجراءات الجنائية .

تعمل النسخة الأصلية من هذا القرار توقيعات المختصين وتؤكد من صحة

الأصل كبير منباط المجلس العسكري الرائد ديجيتاروف.

مدرس في ريازان :

في سبتمبر عام ١٩٥٧ عين سولجنتسين مدرسا للفيزياء والفلك في إحدى المدارس العليا في ريازان بعد أن قدم إلى الإدارة التعليمية الشهادة الدالة على برامته. وفي ريازان أصاب في عمله نفس اللجاج السلخوط الذي سبق أن أصابه في إقليم كازاخستان بسبب ما اتسم به من حيوية ذائقة وحماس متدفق وقدرته على تقريب النظرية العلمية إلى أنحاض الناشئة عن طريق المشاهدة العملية. وعندما طبقت شهرته الآفاق قال عنه ناظر مدرسة ريازان لأحد الصحفيين : إنه كان يحرص على اصطحاب تلاميذه لأحد المصانع أو الورش المحلية ويطلب منهم ملاحظة ما يدور فيها، ثم يسألهم عن حل مسألة في الفيزياء مبنية على أساس ما شاهدوه في المصنع وهكذا كان يوضح لطلحيته قوانين الفيزياء بطريقة عملية متصلة بالحياة اليومية، وكان يركب أحدث التطورات في العلوم وبالأذات في مجال رحلات الفضاء. ذهب مرتين إلى موسكو لإلقاء المحاضرات عن علم الفيزياء كما أنه تحدث في اجتماع عقد بمناسبة إطلاق أول قمر صناعي روسي. واستطاع أن يهيب الطلبة في هوايته المفضلة وهي التصوير الفوتوغرافي، غير أن اهتمامه الشديد بعمله كمدرس لم يكن يحال من الأحوال على حساب اهتمامه بالتأليف. ففي السنة الأولى من عمله في مدرسة ريازان لم يزد تصاب جدوله عن خمس عشرة ساعة في الأسبوع انخفض في السنة الثانية إلى إثنتي عشرة ساعة وبحدا إلى عشر ساعات فقط وهو أقل نصاب يخلو لصاحبه الحق في الحصول على معاش ومكافآت خدمة. وحدثنا أحد الصحفيين عن لنظامه الشديد وبقته المتناهية في

العمل، فيقول: إن الوقت له قيمة عظيمة عنده ولولا رغبته في توفيره من أجل الخلق والإبداع لبدا حرصه البالغ فيه عليه ضرباً من الشنود. وكان من عادته أن يصل إلى باب الفصل قبل موعد الحصة بخمسة أو ثلثين. وبعد قيامه بأداء كل واجباته الوظيفية على نحو كامل، يسارع بالتسلسل إلى خارج المدرسة، حتى يجنب الاجتماع بالزملاء والدرشة التي لا تفيده.

وتقول زوجته ناتاليا: إن لنظامه في حياته المنزلية كان لا يقل عن انتظامه في مبادرة وظيفته. حتى فسمه اتسمت بالنظام الشديد فقد تعود خلال السنوات التي عاشها في ريازان أن يذهب مع زوجته إلى السينما مرتين في الشهر، وإلى الحفلات الموسيقية والمسرح مرة في الشهر. وإذا حدث أن أكثر من مرات الخروج في أحد الشهور فإنه يعرض ذلك بالتقليل من الفروع في الشهر الذي يليه.

في بادئ الأمر تملتت ناتاليا هذا النظام العالي الصارم وهي راضية غير أنها ما لبثت أن جارت بالفكرى منه. وفي عملها في تدريس علم الكيمياء في المعهد الزراعي حصلت ناتاليا على مرتب مرتفع ساعد زوجها على عدم إرهاق نفسه والاكتفاء بجدول مخفف حتى يتمكن من التركيز على الكتابة. وساعدت ناتاليا زوجها في إعادة صياغة المبرودتين الثنائية والشاللة من رواية «الدائرة الأولى» التي استمد أشخاصها وأحداثها من تجاربه في حياة السجن، وخاصة من معرفته بصديقيه السجينين السياميين ليف كوكليف وديميتري بانين. والتمس سولجنتسين رأي هذين الصديقين القديمين في تصويره لهما في الرواية فلم يبد كوكليف أي استعداد لتغيير ما كتبه عنه في حين لم يكف بانين عن التدخل والتعليق على الرواية وأحداثها وتصويرها للشخصيات، وتأثر المؤلف بهذه التعليقات

تأثيراً واضحاً، كما أنه تأثر بوجه خاص باقتناع بائين بشروط الماركسية والثورة البلشفية. ورحب بائين بعودة سولجنستين إلى حظيرة الدين، ولكنه كتب إليه عام ١٩٥٩ خطاً مطولاً يقول له فيه إنه لا يستطيع أن يعتبر نفسه «مسيحياً بالحقى» الحقيقي للكلمة إلا بعد أن يؤمن بالكنيسة المسيحية ويسلم إليها كل أمره. وهو ما لم يكن سولجنستين مستعداً له حتى تلك اللحظة. وفي روايته رسم المؤلف صورة للرسام سيرجى ييفاشوف موساتوف الذى عرفه فى السجن والذى رسم اسكتشاً له بالمقلم الرصاص حرص كل الحرص على الاحتفاظ به، ورغم أنه صلبه بهذا الرسام لم تكن حميمة فإنه كان مغرمًا بتجديد الدأى معه حول الفن والإبداع الفنى.. ويوجه عام كان مؤلفاً عزوفاً عن الاختلاط بالناس المحيطين به فإنه شعر بوشاح القربى يربطه بزملائه القدامى من نزاله السجن والمعسكرات، فهم الذين كابدوا ما كابده من عذاب. ولا غرو أنه استمد مادته الروائية فى الألب، من تجاربه المشدرك معهم. وبطبيعة الحال أطمأن قلبه إلى زملاجه فى السجن أكثر مما أطمأن إلى زملاجه فى العمل وغيرهم من الناس، فأوراقه ومسرحياته التى سطرها فى السجن تعالج موضوعات من شأنها أن تثير غضب الدولة عليه بمثل وصفه لمسك القوات السوفيتية غير المسئول فى الأرضى الألمانية، وتعرض إدارة السجن السوفيتية لئلا تأثم من المجرمين العاديين كي يسيطروا سطوتهم الغاشمة على زملائهم المسجونين السياسيين ويذكروا بهم. واستقر فى إدراك مؤلفاً أن التقدير الذى صاحب محبى خروتشوف إلى السلطة لا يعنى مطلقاً أن الدولة سوف تتهاون معه أو أنها لن تفتصب منه ومن كتاباته. وزاد حرصه على السرية والأمان أنه بدأ يعالج فى كتاباته مشروع

«المعاهد السرية» التى أنشأها سعالين لعجنيد الطعام المساجين للقيام بالأبحاث العلمية. ويشرح لنا دوافعه فى اعتزال الناس اعتزالاً يتكرنا بحياة الناسك والرهبان فى كتابه «شجرة البوط والمجل الصغير» الذى يتضمن جانباً من سيرة حياته. فيقول: «كان لزاماً على أن أكيف حياتى بأسرها إلى حاجتى إلى الأمن الشديد. الأمر الذى منعتى من عقد أية صداقات أو التعرّف إلى الناس فى ريزان... بل ومن دعوة أى إنسان إلى منزلى أو قبول دعوته إلى أى منزله. فلم يكن بوسعى أن أشرح لأى أحد أنى فى حقيقة الأمر ليس لدى وقت فراغ لمدة واحدة، كما لم يكن بوسعى أن أسمع بقصاصة ورق واحدة من الأبريق التى خبأتها تصمب من شفتى، أو لأى عين قوية للملاحظة أن تهول داخل البيت للحظة واحدة. وكنت وسط زملاى فى السمل أتمد ألا أكشف لهم عن اهتمامى الأوسع وأظهر دائماً أمامهم بمظهر من لا يبالى بالأدب».

وفى فقرة وجوده فى ريزان قام أديبنا بنسخ كل كتاباته على الآلة الكاتبة ثم حرق الأصول التى ينسخ منها، وهى عادة اكتسبها فى فترة وجوده فى السجن والمعسكرات واستمرت تلازمه حتى وقت طرده فى صمام ١٩٧٤ من الاتحاد السوفيتى. ورغم مرارة أيام السجن فقد أحب فيها أنها تشحذه على التأليف والكتابة وأنه لم يسمح لنفسه مطلقاً بتسكينها بل دأب على تذكير نفسه بها فأحياناً هذه الذكرى يوماً فى كل عام أسماء «يوم السجن» تناول فيه الطعام نفسه الذى كان يتناوله فى السجن بهدف أن تبقى هذه الشجيرة حية ومائلة أبداً أمام عينييه. فضلاً عن أنه احتفظ ببعض الأشياء التى تذكره بتلك الأيام مثل جاكنته لمبطنة بالكارتش وملفئة الألومنيوم التى صنعها بنفسه فى السبك ومعلفه السكرى الذى

كان يرتديه لحظة القبض عليه. وفى إحدى زيارته لموسكو وجد نفسه فى الشارع الذى يقع فيه سجن بيوترى فدخل فيه لورى مكتب استقبال الطرود واللفائف وأخذ يقرأ التواريخ التى تنظم عمل هذا المكتب غير أن الضابط اللويتسوى رآه وسارع بإخراجه، وفى مناسبة أخرى زار العمارة التى اشترك مع زملاجه المساجين فى تشييدها عندما كان سجيناً فى بوابة كالوجا.. واستغرب من اللخخير الذى طرأ على الموقع الذى شغله سكان لا يدرون ما كابده المساجين من عذاب حتى يتموا بناءه. وتسل سولجنستين إلى المكان الذى كان فيه مكتب القومندان ليكتب على الصافى البيضاء للنافذة بالنظم الأسود «قسم رقم ١٢١» وفى أبريل ١٩٥٨ فكر فى كتابة قصة معسكرات العمل فى كتاب أدبى ضخم هو «أرخبيل الكولاج» وعندما قبض له أن يكتب هذا العمل قال فى مجلده الأول عن الإحدى عشرة سنة التى قضاه فى السجن إنه لم يعد يرى فيها كابوساً ملهواً بجسم فوق صدره بل إنه يوشك أن يحب عالم المعسكرات الفظيع البشع، ثم قال فى المجلد الثالث إن لهذه الفترة من حياته مزاياها فالحياة خلف القضبان تطم الإنسان أن هناك مقاييساً آخر يقاس به الرجال وتقاس به الأمور كما أنها تزيل الغشاوة من العيون التى تعجب الرؤية الحقيقية للأشياء.

وفى ربيع ١٩٥٨ عانى سولجنستين من الانتكاس من مرض السرطان الأمر الذى اضطره إلى دخول المستشفى للعلاج بالمواد الكيماوية وترقعت زوجته ناناليا أن يموت فى غضون أربعة أعوام غير أن صحته تحسنت تحسناً ملحوظاً على العلاج الكيماوى، فلم يمكث فى المستشفى سوى أسبوعين، ثم تردد عليها لبعض الوقت كمرضى خارجى. فضلاً عن أنه كان يعالج نفسه بالأعشاب

والدبائات التي كان لا يزال محتفظاً بكمية منها. وبعد أن شعر بشفائه شفاء كاملاً قام بالتنظيم الحقيقي لرحلة مع زوجته إلى مدينة لتنجرد التي رآها لأول مرة في حياته حيث أمضى إجازة امتدت إلى ستة أسابيع. وهناك حضر الزوجان حفلات الموسيقى والباليه والمسرح. وفي عام ١٩٥٨ قرر مؤلفنا العودة إلى هولييه القديمة في ركوب الدراجات لإزالة السمعة التي أخذت تتركز على جسده من ناحية زيارة القرى الصغيرة المجاورة من ناحية أخرى، ولأن هذه القرى كانت أسفر من أن تحتوى على لحدق أو مكان للمبيت فإن أهلها نظروا إليه وإلى كل الأغراب نظرات ملؤها الشك والارتباب. وفي نهاية هذا العام نفسه انتهى من تأليف «الدائرة الأولى» والغريب في الأمر أن سولجنستين لم يبدأ حياته بنشر أعماله الأدبية بل بدأها بالكتابة إلى الصحف في بريد القراء لشكري من فطاطة البرورقراطية السوفيتية. وتناول أول مقال نشره في مارس ١٩٥٩ في جريدة ريازان المحلية تحت عنوان «أمر غريبة في مكتب البرية» يبين فيه عيوب الخدمة البريدية السوفيتية تلاه بمقال آخر. رفضت جريدة «الجوندوك» نشره عن سوء الخدمة في السلك الحديدية السوفيتية التي تسمح ببيع تذاكرتين للمقعد الواحد في القطارات. وفي تلك الفترة من حياته انصرف إلى تأليف قصة عن حياته كمدرس بعنوان «يوم واحد في حياة مدرس» ولكنه انصرف عنها ليركز على اهتمامه الأسفل والميق بحياة المسجون. وفي ١٨ مايو ١٩٥٩ فكر في تأليف قصة حول معسكر العمل في إكيباستوز وهي فكرة سبق أن جالت بذهنه عام ١٩٥٢ عندما كان يشتغل كاملاً بناء في سجن إكيباستوز وكان الأمل يحدوه إلى تمكته من تصوير حياة المسجون والمعسكرات السوفيتية على النحو نفسه الذي استطاع

به توأستوى تصوير الحياة في أوروبا في قرن من الزمان في روايته الشهيرة «الحرب والسلام». ولكنه أدرك استحالة تصديق هذا الحلم الضخم فرأى أن يستعوض عن ذلك بتصوير يوم واحد في المعسكرات والسجون ليصور من خلاله كل حياة المعسكرات والسجون: يقول سولجنستين في هذا الشأن: «بدأ لي أن أهتم شيء وأكثر تشويقاً يمكنني أن أكتبه هو أن أقوم بتصوير مصير روسيا، وأن في كل الدراما التي عاشتها روسيا كانت مأساة إيفان ديبسوفتش أكثرها عمقاً، إنني أردت أن أصبح ما انتشر بين الناس من شاعرات زائلة حول المعسكرات.. ومأساة إيفان ديبسوفتش مفرطة في البساطة على نحو قد يضل قارئاً، فهي تصور الأعمال اليومية الروتينية التي يقوم بها هذا السجين من صباحه حتى مساءه. ولم تستغرق كتابة هذه القصة من مؤلفها أكثر من بضعة أسابيع نظراً لأنه استمدحها من واقع حياته وتجاربه.

وفي ريازان لم يكن سولجنستين وزوجته يعيشان بمفردهما فقد كان يشاركهما في السكن زميلان مدرسان للألعاب الرياضية غادرا الشقة وتركها مكانهما خاليًا. فانتبه مؤلفنا هذه الفرصة وأقنع قريبتين محليتين من أقاربه في روستوف بأن يستبدلا بمسكنهما المكان الذي خلا بمغادرة مدرسي الألباب الرياضية ووفر له وجود هاتين السيدتين معه في الشقة إحساساً أكبر بالأمان فهو لم يعد بعد الآن بحاجة إلى حرق أصول كتاباته خوفاً من أن تقع في أيدي من يترصدون به الدولار، ولكن علاقتهما بزوجه لم تكن دوماً على ما يرام، على أي حال عاش سولجنستين وزوجته في ريازان حياة ملؤها الهدوء وبسرامه النظام، فهو يبدأ صباحه برياضة اليوجا ثم يقطع خشب الخنفة بالاشدراك مع زوجته وبعد ذلك يتوجه إلى المدرسة

لمباشرة عمله. وطلب إليه ناظر المدرسة في ريازان أن يقوم بتدريس الرياضيات إلى جانب الفيزياء والفلك فرفض حرصاً على عدم إضاعة وقته في المزيد من تصحيح الكراسات وفي إحدى المناسبات عرض عليه منصب ناظر المدرسة فرفضه حتى يتفرغ للتأليف والكتابة. وفي تلك الفترة سعى إلى تكوين مكتبة خاصة منظمة يستطيع الاعتماد عليها في مطالعته، فاشترى كما تقول زوجته أعمال هوزين وستوفسكي وتولستوي وممنجواي وجرامام جرين وريشارد ألنجستين وأناول فرانز إلى جانب الأعمال الكاملة لتشيكوف وكوبرين روستوفسكي، وعبر مؤلفنا عن إعجابه الشديد بشاعر القرن التاسع عشر فيودور تيوتشيف الذي دائم دافعاً مجيداً عن السلافية، وأنهى سولجنستين بالسلامة على روستوفسكي لاهتمامه الشديد بالكتابة عن نفسه. والرائع عنده أن السيرة الذاتية ضرب من الترجسية لا يليق بالكتاب المبدع الخلاق. وسطر مقالاً في هذا الشأن بعنوان «عدوى كتابة السيرة الذاتية» هاجم فيه هذا النوع من الكتابة، وأرسل هذا المقال في نوفمبر ١٩٦٠ إلى «السلطة الأدبية» فرفضته كما رفضته بعض المجلات الأخرى، ويبدو أن كراهيته لهذا النوع من الكتابة كانت نابعة من القلق بدليل اعتزاله عنه في المقدمات عندما اضطرته الظروف إلى ممارسته.

وبعد انقضاء سنوات طوال من الزواج من سولجنستين للمرة الثانية لم تستطع ناتاليا أن تتحمل الوحدة القاتلة التي فرضها زوجها عليها فاتهمته بأنه سعى إلى عزلها عن الناس عزلاً كاملاً. ورغم أن هذا الاتهام ينطوي على جانب من الصدق فإن ظروف حياتها ساعدت على ذلك فقد كان طليقها لا يزال يعيش في ريازان الأمر الذي عرضها دائماً لمخاطر

الاتقاء به أو بأصدقائهما وأصدقاء طليقها القدامى.

بداية الطريق إلى النشر:

فى خريف عام ١٩٦٠ أكمّل سولجنتسين قصته «ماتريونا زاخاروفا» التى تأثّر فيها تأثراً واضحاً بـ «تولستوى». وتصور هذه القصة من خلال شخصية ماتريونا بؤس الفقراء والمعوزين والفئات البربرقراطية السوفيتية على حقوقهم التى يكتفلها القانون. فضلاً عن أن القصة تتضمن جانباً دينياً مسرحياً على نحو غير مباشر. وبعدما عكف أدبيّنا على تأليف مسرحية بعنوان «النور الذى فوق»، تتناول عودة اثنين من العلماء بعد غيبة طويلة فى السجون والمعسكرات بسبب إلصاق الاتهامات للزائفة بهما إلى الحياة المدنية العادية. ورغم حياة العزلة التى فرضتها سولجنتسين على نفسه فى ريزان فقد توطدت علاقته برجل يهودى اسمه فيدامين توش وزوجته اليهودية سوزانا توش اللذين تخصصا فى الرياضيات وزاملا نازانيا فى المعهد الزراعى. كان فيدامين يحب الموسيقى من قلبه ويهتم بالفنون والعمارة والتاريخ والدين، الأمر الذى جعله يولّف كتباً عن الموسيقى وتشيكوف وتاريخ الشعب اليهودى وأظهرت زوجته اهتماماً بالفنون المرئية بوجه خاص. والذى لاشك فيه أن عشق فيدامين للأدب هو الذى جذب سولجنتسين إليه وجعله موضع ثقته كما جعله يعرض عليه كتاباته وهو الدور نفسه الذى كان زميله نيكولاى زويوف يصطلح به من قبل.

وعلى الرغم من انتهاء الاتحاد السوفيتى الواضح نحو الليبرالية بعد موت ستالين ومن إعادة الاعتبار لعدد كبير من الأدباء المضطرب عليهم بعد أن رافتهم المنية مثل بايل وبلجاكوف وكولمستوف وإيفان كانايف وإعادة الاعتبار لكل من

أولوشا وزابولوتسكى والسماح لباسترناك وأنا أخماتوفا وزوتشكو بنشر كتاباتهم، ورغم هجوم شوخولوف على الإجراءات القمعية التى اتخذها ألكسندر فاديف ضد الأدباء، فإن الشك ظل يراود سولجنتسين فى صدق هذه الليبرالية، ولا غرو فقد كانت السماحة الفكرية والأدبية عقب وفاة ستالين تصفو أحياناً وتتلبذ بالفقير أحياناً أخرى. فيفقد ما كانت هناك اتجاهات ليبرالية واضحة كانت هناك مؤشرات نحو العودة إلى الدكتاتورية الستالينية.

ومن المظاهر الواضحة للاتجاه نحو الليبرالية أن مجلة موسيك الأدبية حينذاك نشرت أعمالاً لباسترناك وأخماتوفا وتصفقياً، كما أن مجلة «العالم الجديد» نشرت على صفحاتها سلسلة رواية فلاديمير داديمستيف المعروفة «ليس بالخيز وحده». ومن مظاهر الليبرالية أيضاً ذلك الهجوم العنيف الذى شهده خروتشوف عام ١٩٥٦ على الديكتاتورية الستالينية وسبدا عبادة الفرد. غير أن خروتشوف ما لبث أن ألقى عام ١٩٥٧ خطاباً يدعو فيه إلى التشدد ويثّر بالعودة إلى الرواء بعنوان «نحو ارتباط وثيق بين الأدب والفن وحياة الناس، نخب فيه إلى أن الفن والأدب جزء لا يتجزأ من معنى الدولة وكفاحها من أجل إقامة نظام شيوعى، كما ارتفعت آنذاك أسهم الروايات الستالينية المتصطب فسفولود كوتشيتوف الذى عين رئيساً لتحرير الجازيت الأدبية وصاحب رواية «الأخوة إرشوف»، ورغم أن باسترناك تجنب فى كتاباته الخوض فى الموضوعات الشائكة مثل محاكم التطهير ومعسكرات العمل والمزارع الاجتماعية فإن السلطات السوفيتية بقيت له ظهر المجن. الأمر الذى روع كاتبنا وأفرّعه لأن هذه الموضوعات الشائكة هى المحور الذى تدور حوله كتاباته، ومن بشائر السماحة أن المؤتمر الثالث للكتاب السوفيتي أظهر عند انعقاده فى مايو

١٩٥٩ اتجاهه نحو الليبرالية وفى هذا العام نفسه امتدح خروتشوف نفسه بعض جوانب رواية «ليس بالخيز وحده» بعد أن هاجمها بضراوة فى العام السابق. وبعد الرعيل الأكبر من الأدباء الليبراليين أمثال الهرنبرج وبوستوفسكى وبنوفا وتغاردوفسكى وفكتور تراسوف ظهرت آنذاك بتشجيع منهم كوكبة من الأدباء والشعراء الليبراليين الشبان أمثال يفتشكو تبعه جيل أصغر من الشعراء الشبان والشاعرات الشابات أمثال أندريه فوزنيسنسكى وبولات أوكوبوزفا وبولا أخماتوفا ومن الدائرين والقصاصين أمثال بور كازاكوف ودانييل جرانين ويورى ناجيبين وفلاديمير تندرليكوف وأفيد دوروشى وفلاديمير سولوخين وفلاديمير ماكسيموف اللذين وجدوا من جيل الليبراليين الأكبر سناً العرن والتشجيع على نشر أعمالهم. ولكن اتساع رقعة الليبرالية على أبهى هواله الأدباء لا يعنى بحال من الأحوال اختفاء الأدباء من أفسار الستالينية أمثال لينوفيد، سوبولوف وألكسندر ديمشيس وفلاديمير أرميلوف وكوتشيتوف الذى ألق رواية بعنوان «سكرتير اللجنة السطية» هاجم فيها الشاعر يفتشكو.

ولهذا اختلطت على سولجنتسين الأمور فلم يعرف أى طريق يسلك طريق الخضارة أم الحذر، فالبلاذ نهب مقسم بين دعاة التحرر ودعاة الانغلاق ولم ينتقله من حوزته سوى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى المنعقد فى عام ١٩٦١ فقد واصل هذا المؤتمر سياسة الهجوم على ستالين دون لبس أو غموض. وحزم مؤلفنا أمره عندما قرأ الخطاب الذى ألقاه تغاردوفسكى فى ذلك المؤتمر ويرجع فيه راية الحرية والليبرالية.

وفى عزلة فى الأقاليم أصاد سولجنتسين قراءة الخطاب التى أقيمت فى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى

أكثر من مرة فوجدتها تعبر عما يجيش في صدره ويجول في خاطره، كما أن فيها صدى لما كتبه في روايته التي تحمل عنوان «سب ٨٥٤»، قبل أن يستبدل به عنواناً آخر هو «يوم واحد في حياة إيفان دينيسوفيتش»، كان سولجنتسين قد أعطى صديقه كويولوف الذي يعيش في موسكو نسخة من هذه الرواية ليعرضها بدوره على نفر محدود من الناس الذين أُلِّقوا عليها نداء عاطفاً بعد قراءتها وأرادوا لها الانتشار والتوزيع باعتبارها وثيقة اجتماعية وسياسية بالغة الأهمية. وتردد مؤلفها في عرضها للنشر فقد كان القارئ لا يزال يلعب في عبه، ولكن كويولوف شجعه على عرضها على تفارونوفسكى الذى أعيدت إليه في سنوات السباحة والانفراج رئاسة تحرير مجلة «العالم الجديد» بعد إقصائه عنها. وبالنظر إلى أن نوعاً من سوء التفاهم نشأ بين كويولوف وتفارونوفسكى فقد اتفق كويولوف مع زوجته على تسليم مخطوطة الرواية إليه. وفي ٤ نوفمبر ١٩٦١ استقل سولجنتسين القطار متوجهاً إلى موسكو حيث فصل أولاً ينزل ضيفاً على أحد أقرانه كما كانت عادت به استأجر غرفة في فندق يطل على المعسكر الذى شاهد عذابه وعذاب زملائه كويولوف وباتين وإيفاشوف موساتوف، وكان حينذاك في نحو الثالثة والأربعين من عمره.

الرواية على مكتب خروتشوف:

بعد أن وصلت بصعوبة نسخة من رواية «يوم في حياة إيفان دينيسوفيتش» إلى يد ألكسندر تفارونوفسكى عام ١٩٦١ انتقلت إلى مكتب خروتشوف عن طريق سكرتيره الخاص ثم عن طريق خروتشوف نفسه إلى أعضاء مجلس السوفيت الأعلى، ولم يدر سولجنتسين في عزله الريفية عن العالم الخارجى أن كثيراً من الأدباء الآخرين فعلوا ما فعله وتناولوا تجاربهم في السجون والمعسكرات

في كتاباتهم، مثل مذكرات أولجا آدموفا سليوزبرج التي استعان بها مؤلفنا فيما بعد في كتابه «أرخبيل الكولاج»، وكتابات كل من أفينيديا جازبرج وديمترى فيكتورفسكى وفارلام شالاموف. وكان جهل السوفييت بوجود مثل هذه الكتابات يرجع إلى أنها لم تر طريقها إلى النشر وظلت حبيسة الأراج بسبب مؤتمرات السمعت التي درجت دور النشر آنذاك على إنباعها. وكانت المشكلة التي تولاهم «برزو» للمحررة للصغيرة في مجلة «العالم الجديد» التي تسلمت نسخة الرواية من زوجة كويولوف هي كيف تتخطى البيرورقراطية واللوائح الداخلية التي تمنع إرسال العمل الأدبي للمقدم للنشر إلى رئيس التحرير مباشرة دون المرور على مساعديه وإبداء الرأى فيه. قرر أن واحداً من هؤلاء المساعدين قرأ الرواية وأعرض على نشرها لثلاث تعقيبات إدارية ورقابية تحول دون ظهورها. وخاصة لأن الجهات المسؤولة عن النشر كانت أحياناً لا ترى أية غرضانية في تسليم أى كتاب معروف للنشر إلى جهاز المخابرات، ظلما فعل فاديم كوزيفيتوف محرر «زنانسيا» مع الزولالى الشهير قاسولى جروسمان عندما أرسل نسخة من روايته إلى K.G.B. التي أرغمت المؤلف على تسليم ما بحوزته من نسخ والآلة الكاتبة التي كتبها عليها. ومن ثم كان شغل «برزو» الشاغل توصيل رواية «يوم في حياة إيفان دينيسوفيتش» إلى يد تفارونوفسكى رئيس التحرير مباشرة. وكانت إحدى العقبات التي جابهتها أن سولجنتسين نسخ روايته على الآلة الكاتبة بطريقة تعوق القراءة على الوجه والظهر. فضلاً عن أنه لم يترك بين السطر غير مسافة واحدة، الأمر الذى اضطرها إلى إعادة نسخها بطريقة مقروءة. أضف إلى ذلك أن اسم المؤلف المجهول لم يكن مكتوباً على الرواية وقامت «برزو»

بإستدعاء كويولوف وسأله عن اسم مؤلفها فأخبره لها على التو من عدده اسم أ. ريزانفسكى.

وفى حذر شديد أخذت المحررة الصغيرة برزو تلتصق طريقها فذكرت على بحر عابر أمام رؤائها المباشرين إذا كانوا يرغبون في قراءة رواية عن معسكرات العمل فأشاهوا بأيديهم وجوههم عنها إذ لم يروا فى اقتراحها غير المنعاب. وفى يوم من الأيام تغيب رئيسها المباشر نائب رئيس التحرير فأصبح من حقها أن تدخل إلى رئيس التحرير. فاغتصمت هذه الفرصة وصعدت إلى مكتبه فى الدور الثالث ورضعت أمامه مخطوطين مخطوطة بعنوان «صوفيا بتروفنا» التي ألفتها لنيديا تشوكو فسكايا «سب ٨٥٤»، وهى العنوان الأصلى لرواية «يوم في حياة إيفان دينيسوفيتش» وبمناية شديدة أخفارت برزو كلماتها وهى تتحدث إلى رئيس التحرير لتقول له إن هذين العاملين المقنعين للنشر يثيران النقاش والجدل فرواية «صوفيا بتروفنا» تتناول محادثات الطهور عام ١٩٣٧ وما سببه من عذاب وشقاء لأمدى الأسهات، فى حين أن رواية «سب ٨٥٤» تسالنج موضوع السجون والمعسكرات من وجهة نظر فلاح بسيط. وأضاف.. إنها تعبر عن أفكار ومشاعر الشعب الروسى. كانت مناورة حاذقة وفعالة تنسم بدقة الحساب فقد كان حب تفارونوفسكى للريف وإهتمامه الشديد بالموضوعات التي تدور حوله معروفاً لدى العامة والخاصة. فعندما قرر تفارونوفسكى أن يأخذ معه إحدى هاتين المخطوطين وقع اختياره على رواية سولجنتسين عن الفلاح الروسى. حدث هذا فى ٧ ديسمبر ١٩٦١.

كان من عادة تفارونوفسكى أن يطلع مخطوطات الكتب وهو يتأهب للنوم فى فراشه. ولكنه فى هذه المرة لم يك يد يلقاها

من قراءة بعض صفحات رواية «سب ٨٥٤»، حتى خرج على عافته ونهض من فراشه وارتنى ملابسه ليكتب على قراءة الرواية بروح الجدية والاحتشاد، ولم يتوقف حتى فرغ من قراءة الكتاب في مطلع الفجر، ومن فرط تأثره به شعر برغبة ملحة في الفتنضة عن نفسه. واتصل بكولونف وأخفى عليه باللائمة لأنه لم يقرأ بعض الرواية عليه مباشرة دون الالتجاء إلى برزور كوسيط بينهما قائلا له: «يبغي عليك أن تشرب بالفخر لأن لك مثل هذا الصديق إنه ملك موهبة عظيمة مدهشة ونقية لا يشوبها أدنى زيف أو ادعاء». ويقال: إن الانفعال بلغ به حدا جعله يتوجه إلى مكتبه في المجلة ناسيا أنه يوم سبت وأنه لن يجد أحدا من زملائه ومعاونيه، ويطويحة الحال لم يجد برزور على مكتبها ففتح درجها في غواها وأخذ منه النسخ الأربع المتبقية، ثم انطلق لا يلقى على شيء إلى منزل صديقه الملقب بسميون لوجين الذي كان يعيش مع الأدب المعروف فكثرت نكاسوف تحت سقف واحد وهو يهز ويصرخ: «إن عبقرية جديدة قد ولدت! هات بزجاجة شراب يا فكثرت للاحتفال بهذه المناسبة»، وأضاف أن أمل حياته أصبح يحصر الآن في نشر هذه القصة وأنه من أجل ذلك على استعداد لمقابلة نيكيتا خروتشوف نفسه. وتعب من الزعم بأن الأدب الروسي قد مات فهذه القصة تثبت أنه لا يزال ينبض بالحياة. ثم تحدث فيما بعد إلى الروائية فيرا بانوفا يقول لها: «صديق أرى لا تصدقني إن هي مخطوطة تكتبه بظهور جوجول جديده وأرسل تفاردوزسكي برفية إلى المؤلف يدعوه إلى زيارة موسكو على نفقة المجلة. وإذا كان تفاردوزسكي لم يغمض له جفن ليلة أن قرأ الرواية فإن مؤلفها لم يغمض له جفن يوم أن تلقى برفية تفاردوزسكي. (بعد معنى ما يقرب من عام كتب سولجنتسين

إلى تفاردوزسكي ويعترف له بأنه لم يعرف في حياته قط مساعدة كسعادته عندما علم من الشاعر الكبير أنه لم يلق طعم النوم بسبب قصته). والرأى عند تفاردوزسكي أن رواية سولجنتسين تتفوق على رواية «بيت الموتى» لنستوفسكي ومنها يقدم نستوفسكي الشحبي من وجهة نظر المتقنين في حين أن سولجنتسين في قصته يقدم لنا المتقنين من وجهة نظر الشعب. وعبر تفاردوزسكي عن إعجابه الشديد بقدرة القصة على أن تقول بكل ما يمكن قوله عن السجون والمعسكرات في مثل هذا الحيز الضيق الذي لا يعدو أن يكون وصفا ليوم واحد ممل ورتيب في روتين حياة إيفان دينسوفتش في السجن دون الالتجاء إلى تصويرية فظاغات مزرعة.

وفي الاجتماع الذي عقدته هيئة تحرير مجلة «العالم الجديد» برئاسة رئيس تحريرها مع سولجنتسين وصديقه كولينوف قرر الحاضرون بالإجماع أن «سب ٨٥٤» عنوان غير مناسب واقتروا تغييره إلى «يوم واحد في حياة إيفان دينسوفتش». وفي ختام الاجتماع وقع تفاردوزسكي عقدا بنشرها وأعلى مؤلفها مقدما قدره ألف روبل وهو مبلغ كبير بالنسبة له يزود على راتب سنتين من مهنته بالتدريس، ورغم توقيع العقد فإن تفاردوزسكي لم يستطع تعدد أي موعده للنشر، وسلم معاونو رئيس التحرير إلى المؤلفين التقريرين اللذين كتبتهما عن روايته، ورغم ثنائيهما الشديد عليهما واعترافيهما بموهبة مؤلفها ونبوغه فإنهما عبرا عن الشك في إمكانية نشرها لأسباب سياسية. وسأله تفاردوزسكي عن أية كتابات أخرى سطرها تصلح للنشر في المجلة فخرخي الحذر الشديد في إجابته وأخفى عنه من الكتابات ما قد يكون سببا في إلحاق الضرر به. ثم عرض عليه في زيارته التالية لموسكو جانباً من أشعاره

الباكورة التي نظمها في السجن فلم ترق في عيني الشاعر تفاردوزسكي، كما عرض عليه قصته ماتريونا التي راقت له بسبب جوها الريفى رغم أنه اعترض على بعض جوانبها وذلك بعد أن أدخل المؤلف عليها بعض التعديلات لتخفيف وقع ما فيها من نقد.

ومرور الوقت تخفف سولجنتسين من بعض مظاهر السرية التي أساط بها مؤلفاته. غير أنه لم يدخل عن احتياطات الأمن شاماً فقد أثار أن يجمع مخطوطاته وعددها إثنتا عشرة مخطوطة في حقيبة حملها معه إلى موسكو ليسلمها إلى توش وزوجته اللذين كانا موضع ثقته ليقبهاا لديهما في الحفظ والصون. واعتبر أنها مناسبة سعيدة فسمح لنفسه بشراء حلة جديدة بدلا من الرثة المتقبة التي تعمد أن يلبسها عندما زار مقر مجلة «العالم الجديد» لأول مرة فقدا كما لو كان يجد نوعاً من الزهو والفخار في مظهره الريفى الغلبان. وفي يوم رأس سنة ١٩٢٢ قام سولجنتسين بزيارة صديقه الرسام إيغاشوف فوجد أنه لا يزال مشغولا برسم لوحة (عليل ويدمونة) رغم مرور ست سنوات على البدء فيها. وتعب سولجنتسين كيف يصرف فلان عن تصوير ما يقع تحت أنفه من مأسا جماعية إلى تصوير ما يحل على أبطال ومجلات شكبير من مواج فردية.

اعترض تفاردوزسكي على قصته ماتريونا لأنها تتضمن نقداً للحياة السوفيتية أكثر بكثير مما تتضمنه قصة «يوم في حياة إيفان دينسوفتش» التي تعالج فترة الأربعينات المعروفة بالبطش الستاليني والمقدرة بالسجون والمعسكرات في حين أن قصة ماتريونا تقع أحداثها نحو عام ١٩٥٦ وهي فترة السباحة والانفراج. ورغم هذا فهمي تعطى الانطباع بأن الريف السوفيتي فاسد من أوله إلى آخره لا رجاء فيه وتسيطر عليه

الأثرة والأناذية والرغبة في النهب والملك، الأمر الذي ينصف النظام السوفيتي من أساسه. واعترض تفاروفسكى أيضاً على وجود إيماءات مسيحية في قصته ماتريونا تجعلها غير قابلة للنشر. ومن الواضح أن تفاروفسكى كان نهبا مقسماً بين إعجابه بقصة ماتريونا كعمل أدبي وتخوفه منها لأسباب سياسية وعقائدية. امتدحها لواقعيتها وتأثيرها بتراستوى غير أنه رأى أنها أقرب إلى الواقعية التحليلية التي سادت روسيا في القرن التاسع عشر منها إلى الواقعية الاشتراكية التي دعا إليها النظام السوفيتي، ورغم إدراك تفاروفسكى إلى ميل مؤلفنا إلى الخروج عن الخط السوفيتي التقليدي فقد شجعه على عدم الالتزام به. وفي نهاية الأمر رفض تفاروفسكى نشر ماتريونا لأسباب أيديولوجية ولكنه طلب استبقاء مخطوطتها معه ليعرضها على زملائه في هيئة تحرير المجلة. وبهذا وجد سولجنستين نفسه في موقف غريب فكلماته رغم كل ما نالته من تقييد موقوفة في وقع الأمر عن النشر. وحتى لا يضيع وقته سدى عاد سولجنستين إلى عزله ليكرس وقته للانتباه للمرة الرابعة روايته «الدائرة الأولى» للمرة الرابعة راجحاً أن تكون آخر صياغة لها. وفي تلك الفترة فوجيء مؤلفنا بزيارة مفاجئة من سيده لا يعرفها ولا يعرف كيف حصلت على عنوانه هي طبيبة جراحة اسمها دكتورة أنا دزيجوردا كان ولدها الجيولوجي مصاباً بمرض السرطان. جابت هذه الأم أرجاء البلاد بحثاً عن علاج لابنها من السرطان. وأعطاهما سولجنستين بعض الأعشاب والنباتات الطبيعية التي كان يستخدمها لعلاج نفسه من ذلك المرض. وإعجاباً عن امتنانها له عرضت هذه الجراحة أن تكف عن نفسه. وبعد أن فرغت من ذلك التفتت إليه لتقول إنه رجل محظوظ منذ

ولادته فقد اكتشفت أن ورمة السرطاني انفصل تماماً عن بقية جسمه وضمر ضموراً كاملاً لدرجة أن الخطر زال عنه، ولم ينس مؤلفنا أن يرسم شخصية جيولوجي أعشاب على غرار ابن الدكتور دزيجوردا في روايته «عابر السرطان».

ورغم انقضاء أربعة أشهر على تسليم مخطوطة قصة «يوم واحد في حياة إيفان دينيسوفيتش» فقد ظل تفاروفسكى حائراً وعاجزاً عن أن يحدد مؤلفها موعداً للنشر. فهو يعلم جيداً أنه إذا دفع بالكتاب للطبعة فسوف يعرض على الرقيب الذي لن يتردد في حظره. بل من المحتمل أن يقوم الرقيب نفسه بعرضه على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي أو على جهاز المخابرات K.G.B. وفي هذا قضاء مبرم على فرص الكتاب في الظهور. وساعده على حسن التقدير وحصافة التصرف معرفته بطبيعة الصراعات لمخدمة آنذاك بين خروتشوف وأعدائه من المحافظين وأنصار ستالين. كان خروتشوف يعتمد في إصلاحاته على بعض المثقفين وعلى رأسهم تفاروفسكى الذي لم يكن شاعراً فحسب بل عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وأدرك هذا الرجل بحسه السياسي ويفضل موقعه في الحزب أن لخروتشوف أعداءه الأقياء. ومن ثم خطر له أنه يمكن إقناع خروتشوف بأهمية الرواية كسلاح ماضٍ يرد به كيديهم. ولهذا قرر أن يكتب تصديقاً يقدم فيه الرواية على أنها تدعمه لتبني الإصلاحات الذي يتزعمه خروتشوف. وعرض الرواية على صديقه الناقد الأدبي البارز وكاتب أدب الأطفال المعروف كورني تشوكوفسكى الذي هداه على هذه السهبة الأدبية اللذة. وكتب تشوكوفسكى تقريراً بعنوان «معجزة أدبية» قرط فيه الرواية لتدريتها على التعبير عن الشعب الروسي بأكمله كما قرط فيها

تميزها بحضب النفس رغم موضوعها الذي يجر مزاجل الغضب في المروق، الأمر الذي جعله يصف مؤلفنا بأنه مؤرخ وليس مقاتلاً بالكلمات وأضاف تشوكوفسكى في تقريره: «هذه القصة تكشف عن قدم كاتب قروي أميل لامتج في أدينا.. وفي كل المناظر التي يصورها يختار المؤلف لنفسه لوعر الطرق وأصعبها ليخرج منها ظافراً منتصراً». وحذر من أن أية محاولة تغيير في النص أو إدخال التعديلات عليه سوف تنتهي بإضعافه والإساءة إليه، ورغم ما قد يبدو على أسلوبها أحياناً من غرابة وشذوذ فلا مñas من الاعتراف بأن صاحبها يتمكن من ناصية اللغة الروسية على نحو لا يرقى إليه الشك. ورأى في هدم نشر هذا الكتاب شيئاً مروعاً فصاحبه كرسه من ألفه إلى ياله لتعجيد الإنسان الروسي وتبنيان عظمتيه، كان في ذهن تشوكوفسكى وهو يكتب التقرير ضرورة مؤازرة صديقه تفاروفسكى ضد الرقابة والأدباء المعارضين على نشر الكتاب.

وشجع هذا التقرير تفاروفسكى على أن يستكتب أسبقاه من الأدباء تفارير مماثلة تشد من أزره في معركة من أجل نشر الكتاب مثل مارشال وميخائيل ليفشز الذين نادوا دون موارية أو تعفظ بصنوعة نفرة. ولكن الكاتبين المعروفين الهرنبرج وفيدلين امتنعا عن كتابة أية تقارير عن الرواية. ولم يفت في عضد تفاروفسكى أن فيدين أسير إليه بأنهن ترى اللور وأنه يخوض معركة خاسرة. وأخفى عن المؤلف كل التقارير التي تنتهب بالحساس لنشر كتابه خفية أن يلجأ للفرور برأسه. والواقع أن الرواية ناع أمرها حتى وهي مخطوطة. وساعد على ذلك أن أربعة من الكاتبين على الآلة الكاتبة توفروا على نسخها وترزيعها سرراً. ويقال إن الهرنبرج نفسه نسخ منها سريرة فوتوغرافية ليقرأها واحد من

أصدقائه. وتضايق سولجنيسين من اللقد الذى وجهه إليه بعض القراء وهو أنه كان يجدر به أن يعرض حياة السجون والمعسكرات من وجهة نظر واحد من المثقفين وليس من وجهة نظر فلاح بسيط، وليس هناك رد على ذلك أقوى من القول إن مؤلفنا استطاع عن طريق الفلاح البسيط شوخوف أن يعبر عن محنة روسيا السوفيتية كلها وليس محنة الطبقات فيها.

ثم قام سولجنيسين مع زوجته بعد ذلك بزيارة سيبيريا لأول مرة ورؤية بعض مناظرها الطبيعية فانهبر لجمالها وانهبر برجه خاص بروعة وجمال بحيرة بايكال الواسعة. ولفنه أثناء تموله سياحته أن برقية وصلتته من تفاروفسكى تطلب منه ضرورة التوجه على الفور إلى مقر مجلة العالم الجديد. وقد مؤلفنا نص البرقية فوجدته كما يلى: «هبرنا لتغرافيا» حالا بفرصتك فى القيام بزيارة قصيرة إلى موسكو لإعادة إعداد المخطوطة للمطبعة. ورغم أنه كان يتوق إلى استكمال رحلته وزيارة بعض الأماكن الأخرى فإنه قرر العودة إلى موسكو دون أدنى تأخير، وعند عودته من سيبيريا قابله صديقه كوليوف ليقول له أنه أصبح الآن أكثر الرجال شعبية فى موسكو ونقل إليه تقرير الأديباء والنقاد لروايته وكيف أن مئات من نسخ المخطوطة انتشرت بين القراء انتشار النار فى الهشيم. وعندما قابله أنا برزوز المحررة فى «المجلة الجديدة» أخبرته أن سكرتير خروتشوف الخاص قرأ روايته «إيفان دينيسوفتش» وأعجب بها وأنه يزمع عرضها على خروتشوف نفسه. ولكنه قبل أن يفعل هذا أراد من المؤلف الحضور من سيبيريا لعمل بعض التغييرات فى روايته.

وعقدت هيئة تحرير المجلة اجتماعاً يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٢ لمناقشة التغييرات المقترحة. وصرح له تفاروفسكى أن

بعض زملائه كتبوا خطاباً إلى خروتشوف يعبرون فيه عن إجماع هيئة تحرير المجلة على نشر رواية «إيفان دينيسوفتش»، وأنه يتوجهون بالرجاء إلى خروتشوف كي يهتم اهتماماً شخصياً بهذا الموضوع. وفضل تفاروفسكى وزملاؤه الاتصال بخروتشوف عن طريق سكرتيره نظراً لأنهم اعتبروه حليفاً لهم بسبب شدة تمسكه لنشر الرواية. وطرح تفاروفسكى على سباط البحث والنقاش التغييرات التى اقترحها سكرتير خروتشوف على المؤلف، أهمها أن يجند المؤلف المخفية من شخصية الكابتن بونيفوسكى القائد فى البحرية وعضو الحزب الشيوعى السابق والقتيل من استمالة اللغة العامية للسوفية التى يستخدمها المصاحين ونزلاء المعسكرات، وكذلك التقليل من الإشارات المتكررة لضباط المعسكرات على أنهم (واغش) ، مطلب أيضاً منه سكرتير خروتشوف الخاص إدانة ولو عابرة ورمزية لدعاة القومية الأوكرانية. وأن يذكر فى روايته أن ستالين مسئول عن كل ما تتضمنه هذه الرواية من جرائم. بالإضافة إلى ذلك طالب ديمتريف عضو هيئة تحرير المجلة بحذف الحديث الذى دار بين شكوف الشخصية العمورية فى الرواية وبين ألبوشا المصماتى حول الذات الإلهية، وتصف ناتاليا زوجته رد فعله فى هذا الشأن فتقول إنه قال للمجمعين: «لن أوافق على إجراء أية تغييرات من شأنها أن تكمثر تماسق قصتى وإنسجامها أو تخالف ضميرى». فقتنخل تفاروفسكى قائلاً: «ليس لزاماً عليك أن تفعل أى شيء بالرة. فبممكنك أن تأخذ كل ما قيل اليوم أو تركه حسبما تراه مناسباً. للمسألة وما فيها أننا جميعاً نرغب بشدة أن نرى المخطوطة منشورة» وأخرجت هذه الكلمات صدور الحاضرين فالتزموا الصمت. وفى نهاية الأمر وافق المؤلف على أن يحمل مخطوطته معه وأن يجرى

عليها التعديلات التى طلبها سكرتير خروتشوف الخاص ومنها إشارة عابرة تسخر من ستالين على غرار ما كان يكتب من جهة القتال إلى صديقه نيكولاى فينكشت، واستطاع فى خلال ثلاثة أيام من الانتهاء من التعديلات المطلوبة وسلم المخطوطة بعد مراجعتها إلى أنا برزوز فى ٢٦ يوليو ١٩٦٢.

احتفظ مؤلفنا بتواضعه رغم المديح الذى كسب له وبدا على السطح هادئاً للغاية كل ما يحتمل بدخله من انفعالات وأعطاه تفاروفسكى المقدمة التى يزمع نشرها فى صدر الرواية فلم يرتع لإيها فقد كان يفضل ظهور روايته بلا مقدمات حتى يستجيب القارئ لها بعيداً عن أية مؤثرات. ويعتبر ٦ أغسطس ١٩٦٢ يوماً حاسماً فى تحديد مصير الكتاب فلى ذلك اليوم قام تفاروفسكى بإرسال النسخة المعدلة منه إلى سكرتير خروتشوف الخاص. وأرافق بها خطاباً موجهاً إلى خروتشوف ومعه طائفة مختارة من آراء النقاد فيها. وانتظر نحو شهر بأكمله دون أية بادرة سوى أن ديمتري بوليكاروف اتصل بليفونيا بتفاروفسكى وطلب منه نسخة من الرواية. وتضايق تفاروفسكى لأن الأمل كان يحسوه به أن يجند للجره إلى هذا الرجل لما عرف عنه من رجعية. ولكن يبدو أن سعة الرواية التى جابت الأفاق جعلت فى غير إمكان بوليكاروف الحيولة دون نشرها ولعل هذا السبب فى أنه اتصل بتفاروفسكى ليبلغه أنه ليس لديه أى مانع فى نشر الرواية. وذلت يوم كان سكرتير خروتشوف الخاص يتجاذب أطراف الحديث مع سيركوف فى حضرة خروتشوف نفسه عن قصة «إيفان دينيسوفتش» فاستفسر خروتشوف مازحاً: «ما هذا الذى تحدثان عنه؟ ماذا تخدان على؟» فأخبره سكرتيره الخاص بأمر الكتاب فأمر بأن يرى نسخة منه ما

اضطره إلى السفر إلى موسكو كي يحضر له النسخة المطلوبة. وطلب خروتشوف منه أن يقرأ عليه بصوت عال بعض أجزاء الرواية ففعل، وتعهد السكرتير الخاص أن يخشار منها تلك المواقف الإيجابية التي تصف المساجين وهم يبدون بسوادهم محطة لتوليد الطاقة. وبما أن خروتشوف ما دام الأمر كذلك لماذا لم يتم تفارديفسكي بكل بساطة بنشرها؟ فأجاب سكرتيره الخاص: إن تفارديفسكي نفسه تعرض لمتاعب ومضايقات كثيرة قبل أن يتمكن من نشر قصيدته «الأفاق البعيدة»، قال خروتشوف إنه لا يمانع مطلقاً من نشر رواية سولجنتسين، واستقبلت محررة المجلة أنا برزور هذا الخبر بالفرحة والابتهاج. ولكن لم تصل إلى المجلة أية موافقة رسمية على النشر من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التي طلبت من تفارديفسكي يوم ٢١ سبتمبر ١٩٦٢ أن يقوم بإرسال ثلاثة وعشرين نسخة من الرواية في صبيحة اليوم التالي. وأسقط في يد تفارديفسكي لأنه لم يكن يملك كل هذا العدد الكبير من النسخ والخروج من هذه الورطة التي واجهته، هداه تفكيره إلى الاتصال بمطابع جريدة أوستيا لتخصيص أربعة آلات طباعة وتجهيد عدد كبير من المطابع لطباعة خمس وعشرين نسخة من الرواية. وبطباعة الحال ساعد على إنجاز هذه المهمة بنجاح صغر حجمها. وصدرت الأوامر لعمال المطبعة بالانضمام الصمت إزاء العمل الذي كلفوا به. والكتب هؤلاء العمال طوال الليل على جمع الكتاب وطباعتها، فما أن جاء الصباح حتى كانت الخمس وعشرين نسخة المطلوبة مطبوعة ومجلفة. واحتفظت إدارة المطبعة بغالب الحروف المجموعة في خزائنها الحديدية وأرسل تفارديفسكي الثلاث والعشرين نسخة المطلوبة إلى اللجنة المركزية واستبقى تسعين أعلى

واحدة منها لسولجنتسين. وأصدر خروتشوف أمراً بتوزيع هذه النسخ على أعضاء مجلس السوفيت الأعلى.

وفي الأرياف في ريزان شعر المؤلف بالقلق وسعيد به على مصير كتابه فاقصص بالمرحرة أنا برزور بالتليفون ليسألها عن آخر الأخبار. وسألها سؤالا محدداً: «خبريني بشيء واحد، هل قرأها؟ (يعني خروتشوف) فأجابته بقولها: «نعم واستحسنها». فصار إليها من موسكو ليستطلع عليه الأمر فأخبرته بكافة تفاصيل الأحداث المشحونة، واجتمع مجلس السوفيت الأعلى مرة واحدة على أقل تقدير لمناقشة الكتاب. وسرت إشاعة أن اثنين من الأعضاء هما فريول كوزلوف وموخائيل سوسلوف اعترضوا على نشره بحجة أنه لا يليق بالمؤلف أن يصور حراس المعسكر على هذا النحو القمزي. وأشيع أيضاً أن خروتشوف تدخل بنفسه لإسكاتهما قائلاً لهما: «كيف يمكن أن نحارب بقايا مبدأ عبادة الفرد لو ظل الستالينيون من هذا القبيل بين ظهرانيها؟ وأردف قائلاً: «إن ستالين موجود في كل واحد قننا. وهناك شيء من ستالين حتى في أنا شخصياً». وإلنا يجب علينا استئصال هذا الشر. وقيل إن الذي اقترح نشر الكتاب على مجلس السوفيت الأعلى هو خروتشوف نفسه يؤيد ميخايل.

وبتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٦٢ قام سكرتير خروتشوف الخاص بتسليم تفارديفسكي بموافقة مجلس السوفيت على النشر. غير أنه لم يتسلم القرار بالموافقة إلا بعد مضي خمسة أيام، ثم استدعى خروتشوف الشاعر تفارديفسكي واجتمع به نحو ساعتين ناقش فيها فيما ناقش الرواية التي أنشأ عليها الزعيم السوفيتي لأسلوبها ولأنها تتمشى مع روح المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي. وعلى رغبة البعض أن يرسم المؤلف صورة أفضل للمعسكرات اعترض الزعيم

السوفيتي بقوله: «إن هذه المعسكرات لم تكن مطلقاً منتجعات وأماكن للراحة والاستجمام». ورأى خروتشوف أن الأسلوب الذي عرض به الكتاب عليه أسلوب غريب حقاً. وتساءل عن وظيفة أجهزة الدولة. وأعظم تفارديفسكي هذه الفرصة ليطالب من خروتشوف إلغاء الرقابة على المصنفات الأدبية والاكتفاء بمسئولية رؤساء التحرير في هذا الشأن فهم أقدر من الرقباء في الحكم على الأدب الضار والأدب النافع. ويبدو أن خروتشوف تعاطف معه.

وبعد اجتماعه مع خروتشوف أرسل تفارديفسكي برقية إلى سولجنتسين في ريزان جاء فيها: «سوف تظهر القصة في العدد الحادي عشر من المجلة فلهنئي، فرد عليه سولجنتسين بترقية يعبر فيها عن شكره وابتهاجه بعد طول اليأس من صدورها. ويبدو أن الاتجاه آنذاك نحو الليبرالية استطاع أن يتصحر على الدعوة إلى الشمولية الستالينية والانغلاق. ففي ٢١ أكتوبر ١٩٦٢ نشرت جريدة الدولة الرسمية برافدا قصيدة بطوان «ورثة ستالين» التي نظمها الشاعر المعروف بفخشنكو وحذر فيها من أن أنصار ستالين يشربون بالمشرب السوفيتي الدوائر ويريدون العودة بمقارب الساعة إلى الزواء. وهي قصيدة تداولها الزبون فيما بينهم وحفظوها عن ظهر قلب حتى قبل أن تقوم برافدا بنشرها.

وبعد مرور أسبوع استدعى سولجنتسين إلى موسكو لتصحيح البروفة النهائية لنصته «إفان دينيسوفيتش» كان من المفترض أن يكون تصحيح البروفات الأولى التي تعرف عندنا بالخفن ولكن المسئولين عن النشر خشوا عرضها عليه لئلا يتراجع في إجراء بعض التغييرات التي أجراها في النص. وكان قد انتهى لشوه من تأليف قصة جديدة بعنوان «حادثة في محطة كوتشيتوف»، استمدها

عن قصة حقيقية رواها له إيوانيد فلاسوف تدور أحداثها حول ضابط روسي شامت الظروف أن يجوب بنفسه مع مئات الجنود من طويون القوات النازية لهم. ويدل من استفادة الجيش الأحمر من قدراته القتالية ساور قائده التشك فيه وظن أنه جاسوس لا شيء إلا لأنه مهذب ودمع الخلق للغاية على النحو الذي كان عليه الضابط الروس قبل الثورة البلشفية، ولأن لسانه زلف فسمى مدينة ستالينجراد باسمها القديم وهي مدينة القيصر. ويسخر سولجنتسين في هذه القصة من نفسه ومن سذاجته وإخلاصه ومخالفته وولائه الأعمى للدولة السوفيتية أيام انخراطه في شبابه في صفوف الجيش للحد من البلاد. وتصور حادثة في محطة كوتشيتوفا، في ثراء وإتقان. يفرقان ما سبق للسوف أن سطره في مسرحياته المبكرة. الدور الفاضل الذي لعبه ستالين في إدارة المعارك في الفترة الأولى من الحرب كما تصور عدم تكرار الفلاحين الروس بنتيجة الحرب سواء كانت لصالح بلدهم أو لخبر صالحها.

وبعد مرور عام كامل على أول زيارة قام بها سولجنتسين لمقر مجلة العالم الجديد تحسنت ظروف معيشته بشكل ملحوظ. فقد نزل هذه المرة في فندق فخيم في وسط موسكو على نفقة المجلة، ولم يقابل مؤلفنا تفاروفسكى في هذه الزيارة غير أن أحد المستورين بالمجلة اسمه بوريس ساش أبهت أن سكرتير خروتشوف الخاص يطلب منه إجراء تعديل أخير في الرواية وهو أن يزيل عبارة دينية وردت على لسان تيودور قائد الفرقة الذي قال: «رسمت إشارة الصليب، وقلت لله: أيها الخالق أنت في نهاية الأمر موجود في السماء. إنك مهمل ولا تهمل، وشعر المؤلف بالهرج الشديد فهو يدين بالفن لسكرتير خروتشوف الخاص الذي لولا دفاعه المخلص للرواية لما كانت هناك بارقة أمل في نشرها

ولكن ما عساه أن يفعل وهو يعتبر شخصية تيودور شخصية شديدة الأهمية في الرواية أراد من خلالها معارضة وتنفيذ الصورة للرسمية الكاذبة للنظام السوفيتي. ولم يطأ رصه قلبه أن يجري هذا للتغيير الأخير فقد استرجع في مخيلته ذكريات السجون والمعسكرات التي وشيب لها الولدان، والأهوال التي لقيها زملاؤه منها. وشعر أن في إجراء هذا التغيير خيانة لهم وغدرًا بهم لأنهم تحملوا هذه الأهوال على أمل أن تظهر الحقيقة أمام العالم في نهاية المطاف. وبسبب انفجاليته الشديد بكى سولجنتسين لأول مرة وهو يطالع قصته وأدرك أنه ليس بإمكانه أن يستجوب لطلب سكرتير خروتشوف الخاص هذه المرة.

وأثناء هذه الزيارة القصيرة لموسكو قابل مؤلفنا شخصيتين أدبيتين مهمتين هما أنا وأختاتونا وفارلام شالاموف. تمت المقابلة بينه وبين أنا أخصائنا في ٢٨ أكتوبر ١٩٦٢. وإبهرت للشاعرة الكبيرة عندما اكتشفت أنه يحفظ قصيدة «دون بطل» عن ظهر قلب واعترف لها أنه وجدها غامضة ومستمعية على الفهم في بادئ الأمر. وقرأت في حضرته بعض قصائدها فامتدح وطلبتها وسماها «روح روسيا». ثم قرأ لها جانبًا من أشعاره غير أن هذه الأشعار لم ترق لها وأسرت لبعض خلصائها بذلك. غير أن موقفها من روايته «إليان ديلسوفتش» كان شديدًا مختلفًا للغاية. فبعد أن قرأتها في نسخة مهربة من المخطوطة الأصلية قالت: «أظن أنه ينبغي على كل واحد من المائتي مليون مواطن سوفيتي أن يقرأ هذه القصة ويحفظها عن ظهر قلب» وعبرت أخصائنا عن سرورها للتعرف إليه ووصفته بأنه حامل شحنة مضيئة. وسألته إذا كان يدرك أنه سوف يصبح في غضون شهر واحد أشهر رجل على سطح الأرض، فأجابها بقوله: «إني أملك

أصابعًا قوية فقد استطعت أن أتحمل معسكرات ستالين». أما مقابلة مؤلفنا للأديب شالاموف فكانت من نوع مختلف، فشالاموف أمضى سبعة عشر عامًا في معسكرات كرايما في شمال شرق سيبيريا حيث خاض تجارب أكثر مرارة من التجارب التي خاضها سولجنتسين نفسه، وهي تجارب كتب عنها بعض قصصه وقصائده، ولم يكن اسم شالاموف جديدًا عليه فقد قرأ مؤلفنا قصائد شالاموف فشر على الفور بوشاج الأخرى تربط بينهما.

وبعد عودة مؤلفنا من موسكو إلى ريزان تلقى خطابًا طويلًا من تفاروفسكى يطمئنه إلى أن رفضه إجراء التغيير الأخير الذي طلبه منه سكرتير خروتشوف الخاص لن يحل نشر الكتاب بالمرء وأرجى تفاروفسكى بنصيحة إلى سولجنتسين أن يقام الآثار المدمرة التي سوف تجلبها له الشهرة في أعقابها وعبر عن أمله في أن يحفظ مؤلفنا رغم ذبح صوته بهيبته وقواره ونضوجه وقوته الأخلاقية وما تنسم به موهبته المدمشة في أمانة كما أنه حذر من الغواية ومن تهافت الصحف والمجلات الأخرى على نشر أعماله. وطلب إليه أن يشعر بأن عليه واجبًا نحو مجلة «العالم الجديد» التي فتحت أمامه الطريق وأفسحت له المجال. وعاتبه تفاروفسكى لأنه استقبل تهلته بشتر روايته بشيء من الفخر فكل ما قاله في الرد على هذه التهلة أن خبر نشر الكتاب أمر يدعو إلى السرور. وكتب سولجنتسين إليه يقول إنه يعرف أن عمر الشهرة قصير ويعتذر عن هذا الفخر بقوله إن حياة السجون والمعسكرات علمته ضبط النفس وكبح جماح عواطفه كما علمته ألا يتوقع من الحياة إلا أسوأ ما فيها. واعتترف أنه لم يعرف الفرحه الحقيقية إلا عندما أخبره تفاروفسكى أنه لم يستطيع أن يتوق طعم الدم بسبب

قراءة روايته، ووعد سولجنتسين بالانتفاع
عن الرد على الذين يهاجمونه في الجرائد
وأنه سوف يخص «المجلة الجديدة» بشعره
ونثره مستلثاً من ذلك مسرحياته.

وعلى الرغم من أن رواية «إيفان
دينيسوفيتش» كانت تحمل اسم مؤلفها
المستعار، أريازانسكي فإن عدداً هائلاً من
الناس ومن بينهم زميل مؤلفها في
السجون فلاديمير جرشوني قرأها قبل
صدورها في نسخة من مخطوطتها
بفضل الصنعة السياسية المدوية التي
أحاطت بطروف نشرها واستطاع
فلاديمير جرشوني أن يخمن اسم مؤلفها
الحقيقي بسبب تعرفه على بعض
شخصياتها التي خالطها مع المؤلف في
السجون.

وفي تلك الفترة سلم مؤلفنا نسخة من
قصة «حادثة على محطة كوتشوفكا» إلى
تفاردوفسكي ليعرف رأيه فيها. وأراد أن
يتنزه فرصة نجاحه المنتقع النظور في
نشر بقية أعماله. وعندما وجه هذا الشاعر
بعض الانتقادات الأدبية إلى «حادثة
محطة كوتشوفكا»، ظهر على مؤلفنا
الامتناع. ورغم استياء تفاردوفسكي من
موقعه فإنه اقترح عليه أن ينشرها مع
قصة أخرى هي «سانترونا» في العدد
نفسه من «المجلة الجديدة الصادر في يناير
١٩٦٣». وحال انتشار مؤلفنا بالتدريس
والنصحوح دون تكريس كل وقته للتأليف
الأدبي وقرر أن يستغل شهرته المريضة
التي أصابها مؤخراً في موازنة زميل له
اسمه ميخائيل بوتابوف تعرض للظلم
والمدحان. فقد اختلف هذا الرجل مع

جيران له كانوا يشاطرونه السكن نفسه
لأنهم حاولوا طرده منه للاستحواذ عليه
بأكمله لأنفسهم. فقامت زوجته بتبليغ
السلطات بأن هؤلاء الجيران يحصلون
بطريقة غير مشروعة على معاشات لا
يستحقونها فسما إلى الانتقام من زوجها
بوتابوف ولفقوا عنده تهمة اغتصاب فتاة
عجوزية في الرابعة عشرة من عمرها
تسكن معه في العمارة نفسها. وبالتفعل تم
تقديم هذا الرجل إلى المحاكمة في نوفمبر
١٩٦٢. ورغم اقتناع الجميع ببرأته فقد
صدر عنه الحكم بحبسه لمدة ثلثي عشر
عاماً في مصكرات العمل، فهاجم زملاؤه
في المدرسة وصاحوا وأرسلوا عريضة
احتجوا فيها على قسوة هذا الحكم، الأمر
الذي عريضهم للتهديد بالرد من
وظائفهم بزعم التشهير بنظام القضاء
السوفيتي، وقرر سولجنتسين الذي أصبح
الآن يشار إليه بالبنان أن يقف بكل ثقته
بجانب هذا الرجل المسكين دون أن
يخشى العلامة أو للتهديد. وزاد من صفته
على بوتابوف أنه علم أنه سبق أن أمضى
سنة أعوام في معسكر حمل للتهمة نفسها
التي أصغت بمؤلفنا وهي القيام بدعاية
مناهضة للاتحاد السوفيتي، فأرسل
احتجاجاً إلى المحكمة العليا واستغل
صلاته في تحريض إحدى الصحفيات
العاملات في جريدة «أزستيا» على كتابة
تعميق صحفي في هذا الشأن. ويجدر بنا
أن نضيف أن الكاتب المصروف
كونستانتين سيمونوف عند صدور قصة
«إيفان ديسوفيتش» كتب مقالاً مطولاً عنها
في الجريدة نفسها لم يرق في عيني
سولجنتسين رغم ثرائه عليها. فقد كتب

إلى زوجته فيما بعد يشكو من أن
سيمونوف فاته أن يكتبه إلى لغة القصة
وقدرتها على النفاذ إلى روح الرجل
الصادق. وأجدره تفاردوفسكي وهو في
منتهى البهجة والانشراح أن المسؤولين
طلبوا إليه عدم طرح عدة آلاف النسخ
من هذه القصة المشهورة في مجلة العالم
الجديد ليعمل في أكشاك داخل الكرملين
إلى آلاف السندويين القادحين من جميع
أرجاء الاتحاد السوفيتي ليعنور الجلسة
التي عقدتها اللجنة المركزية بكامل
هيئتها. ووقف خروتشوف نفسه على
النصبة ليعن أمام الحاضرين أن قصة
«يوم ولدت في حياة إيفان ديبينسوفيتش»
عمل بالغ الأهمية ينبغي على الجميع
قراءته. وفي المقدمة التي صدر بها
تفاردوفسكي هذا العمل ربط بين هذه
القصة وبين الخطاب الذي هاجم فيه
خروتشوف مبدأ عبادة الفرد في المؤتمر
الثاني والعشرين للحزب الشيوعي، فكان
هذا بمثابة الخط الذي اقتفى أثره سائر
النقاد والكتاب، وكان امتداد صحيفتي
«أزستيا» و«برافدا» الرسميتين بمثابة
إشارة من أجهزة الدولة الرسمية بأن
المؤلف لم يعد خائفاً للشعب بل بطلاً
قريباً يكن له الجميع أسمى آيات التقدير
والاحترام. وتأكيدها لهذا المعنى كتب
سيمونوف في «أزستيا» يقول: «أعتقد أن
الكسندر سولجنتسين في قصته أثبت أنه
بناصر الحزب مناصرة حقيقية في
قضيته المقدسة والعوية. وهي محاربة
مبدأ عبادة الفرد والموامل الناجمة
عنها» ■



سولجنيتسين

وفي إطار عودة سولجنيتسين إلى الحياة الأدبية في روسيا ظهرت بعض الكتابات التي تتناول إنتاجه بالبحث والدراسة، ورغم قلة ما كتب عن سولجنيتسين في وطنه فمن الملاحظ وجود اختلاف في الرأي حول إنتاجه ومكانته الأدبية، ففي الوقت الذي اعتبرته بعض الدراسات امتدادا لتقاليد الأدب الروسي الكلاسيكي في عصره الذهبي، قابت بعض الدراسات الأخرى

١٩٧٠ والذي صاد مؤخرًا إلى وطنه - واحدا من أهم الكتاب الذين أُميد الاعتبار إلى إنتاجهم، فقد بدأ نشر أعماله منذ عام ١٩٨٩ بعد حظر دام لسنوات طويلة منذ رحيله الإجباري عن الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٧٤، حيث اتجهت دور النشر الأدبية في السنوات الخمس الأخيرة إلى نشر مؤلفات سولجنيتسين، كذلك أُفردت كبرى المجلات الأدبية صفحتها لإنتاجه.

ق من أهم المتغيرات في الساحة الأدبية في السنوات الأخيرة في روسيا إعادة الاعتبار إلى أسماء الكتاب المنشقين، ونشر أعمالهم المحظورة من قبل. ويأتي هذا الإجراء في إطار خطة كبيرة استهدفت فتح ملفات ضحايا حملات الاعتقال، وإعادة النظر في الوثائق الخاصة بهم. (١)
ويعد الكاتب ألكسندر سولجنيتسين - الحائز على جائزة نوبل للآداب في عام

بين سولجنتسين الفنان، وسولجنتسين المفكر، فعموماً، فمن المتوقع أن تشغل ظاهرة سولجنتسين اهتمام الباحثين في روسيا في السنوات القادمة.

وهذه الدراسة محاولة للاقترب من بعض ملامح إنتاج سولجنتسين، وسيرته الأدبية.

لماذا أكتب؟

«منذ اعتقالي وبعد ما يقرب من عامين من حياتي في السجن والمعتقل، وحين كانت الموضوعات تنوء تحت المصدر تلقفتها مثل النجمة، وفهمت أن كل شيء تراه الأعين لا يقبل الجدل، ليس فقط لن ينشر أحد مؤلفاتي، بل وقد يكلفني سطر واحد رصاصة في الرأس. لقد انخرطت في قدر الكتابة بلا ارتياح. وبلا تردد، أردت فقط أن أكتب كي لا ينسى كل هذا، وكى يصور في وقت من الأوقات معروفا للخلف، أما أن تنشر أعمالي في حياتي فلم يكن عندي أدنى تصور بمثل هذا، ألم يكن ينبغي أن يكون لدى مثل هذا الحلم» (١).

هكذا يروي لنا سولجنتسين في سيرته الأدبية عن الأسباب التي دفعت به على طريق الكتابة الأدبية في فترة المعتقل.

إن قصة اعتقال سولجنتسين تكشفه في بعض خطوطها مع قصة اعتقال بطلا في مؤلفه «في الدائرة الأولى»، فقد اعتقل سولجنتسين بعد اكتشاف الرقابة العسكرية أمر خطابات أرسلها إلى صديق له، وعبر فيها عن انتقاداته لسمارات ستالين.

خمس سنوات قضاهما سولجنتسين معتقلاً، وسبع سنوات في المنفى داخل الوطن، وطوال هذه السنوات كان سولجنتسين يزرع في عالم الكتابة السرية، وكان هناك من أمثاله يضع عشرات من الكتاب، كان بعضهم يلجأ إلى تهريب ما يكتب للنشر في الغرب وهو ما كان يطلق عليه «تام إيزدات» بمعنى النشر هناك، وبعضهم الآخر كان يحاول نشر ما يكتب في الداخل بالجهود الذاتية منسوخاً على الآلة الكاتبة أو بخط اليد، وهو ما كان يطلق عليه «سام إيزدات» بمعنى النشر الذاتي.

ويصف لنا سولجنتسين تجربته مع عالم الكتابة السرية بأنه عالم يمنح صاحبه قدراً كبيراً من الصراحة والحرية لأن الكاتب في هذه الظروف - وكما يروي سولجنتسين - لا يحتفظ في مخيلته بالرقابة، ولا برؤساء التحرير، ما من شيء يقف في مواجهته عدا المادة الأدبية، مامن شيء يحوم من فوقه عدا الحقيقة، ولكن يوجد في وضعه ضرر دائم ألا وهو قلة القراء، وخاصة القراء المراهقين أدبياً والصارمين، لقد كان عندي قلة من القراء (كان عندي أقل من عشرة قراء، وهم بشكل رئيسي من المعتقلين السابقين، وعلاوة على ذلك فلم يتمكن أحد منهم من قراءة كل ما كتبت، لأننا نعيش في مدن مغلقة، ولا يوجد لدى أحد منهم أيام زائدة، أو موارد زائدة للسفر، ولا حجرات زائدة للضيافة، إن الكاتب السري يتخير قراءه تبعاً لسمات مغايرة تماماً: الموثوقية السياسية، والمقدرة على الصمت، وهاتان السمتان من النادر أن تتجاوزا مع الذوق الأدبي المرفه» (٢).

والحقيقة في الفن

مكارم الغمري

إننا عشر عاما أمضاهما سولجنستين في عالم الكتابة السرية وفي العام الثالث عشر بدأ سولجنستين يستشر بأنه لم يعد قادرا على تحمل هذا الوضع، وأنه بدأ يشعر بالاختناق. كان ذلك في بداية الستينيات في تلك الفترة التي لقيت بظفرة «نوبان الجلوس» والتي تضمنت عن انفراج نسبي في منابع الديمقراطية الذي حل في أعقاب المؤتمر العشرين للحزب في فبراير عام ١٩٥٦، والذي أعطى شرارة البدء في الهجوم على سياسة ستالين بعد سماع تقرير خروتشوف عن «عبودية الشخصية وتبعياتها»، وقد تلا ذلك عمليات الإفراج عن الآلاف من المعتقلين الذين شملتهم حملات الاعتقال في الثلاثينيات والأربعينيات.

استوعب سولجنستين المزاج الاجتماعي للستينيات بروحه الدافدة لممارسات ستالين، وتقدم إلى مجلة «نوفى مير» (العالم الجديد) بقصته الطويلة «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش»، وكان عمره آنذاك ٤٤ عاما ومن خلفه تاريخ من السجن والعنف.

سبق الموافقة على نشر القصة محاولات طويلة من هيئة تحرير مجلة «نوفى مير» التي كان يرأسها آنذاك الشاعر المعروف «نوفاروفسكى» الذي تمسك للقصة ولكتابتها، وعرضت القصة على خروتشوف لأخذ موافقه الشخصية على نشرها.

ويصف لنا سولجنستين وقع قصة «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» على خروتشوف حين قرئت عليه في استراحته (الذاتاش):

أخذ ليديف في قراءة القصة بصوت مسموع على نيكيتا خروتشوف (لم يكن

نيكيتا نفسه يحب القراءة عموما، وكان يحاول أن يستقى معلوماته من الأفلام)، وكان نيكيتا ينصت جيدا إلى هذه القصة للسلبية، وكان يصحك عند الضرورة، ويتفحج عند الضرورة وطلب استدعاء ميكويان عند منتصف القصة ليسمع معه. وقد تمت المصادقة على كل شيء حتى النهاية (٤).

وهكذا ظهرت قصة «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» في مجلة «نوفى مير» الصادرة في نوفمبر عام ١٩٦٢. تحكى «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» عن أحداث يوم داخل أحد مصسكرات الاعتقال، لكن اهتمام سولجنستين لا يتجه نحو وصف الأحداث في حد ذاتها، فما يعنيه هو كشف عالم الإنسان من خلال الحدث، وهو لهذا يلجأ إلى حشد من التفاصيل التي يحاول من خلالها إبراز المعاناة الداخلية للإنسان.

وسولجنستين لا يهتم في قصته ببسط ماضى الشخصية أو تعقب الأسباب التي أدت بها إلى مصسكرات الاعتقال بل لقد بعثت قصة «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» لدى القراء بمشاعر «الدهشة»، و«الذهول»، وكان مصدر الدهشة هي تلك الصراحة للكجيرة التي كان يروي بها سولجنستين عن حقيقة ما كان يدور داخل مصسكرات الاعتقال، تلك الحقيقة النابعة من الصدق في الفن الذي كان سولجنستين يمهده واحدا من ركنين أساسيين في الفن ألا وهما «الصدق» والتجربة الحياتية (٥) كذلك اعتبرت القصة بداية على طريق الأدب الذي أخذ على عاتقه مهمة فتح ممارسات ستالين، وكشف حياة الرعب داخل المصسكرات، واستوعب سولجنستين من جانب القراء بوصفه كاتباً له صوته المميز، وكلمته الصريحة للشجاعة عن عالم المصسكرات.

أما الناقد «جورج لوكاتش» فقد اعتبر القصة نقطة تحول انكسارية في مسار

أدب الواقعية الاشتراكية لعصر ستالين وعلامة ملحوظة على الطريق نحو المستقبل (٦) ولم يكن لحدث نشر قصة «يوم في حياة دينيسوفتش» وقع كبير على القراء والنقاد وحدهم، بل وعلى كاتبها نفسه الذي يصف لنا شعوره بعد الموافقة على نشر القصة:

«كنت مثل سمكة في أعماق الماء اعتادت على الضغط الجوى الخارجى المستمر، ثم أصابها الموت بعد أن أبحرت على سطح الماء، وصار الضغط خفيفا فلم تستطع التكيف معه. هكذا كنت، خمسة عشر عاما منفيًا في مصسكرات الاعتقال وفي المنفى، والنشاط السرى، لم أكشف نفسى أبدا، ولم أسمع أبدا بخطأ واحد ملحوظ على الشخص أو القضية حين برزت على سطح الشهرة المفاجأة والمرد المفطر للمتحدث الأبرق سرت أتمت المرء تلو الأخرى دون أن أشعر على الإطلاق ونسعى الجديد، والإمكانات الجديدة» (٧).

وبحسب الشاعر المرفه توفيق نفاروفسكى هذه الحالة من عدم التوازن التي قد تصيب المرء أمام بريق المجد المفاجئ فكتب إلى سولجنستين محذرا:

«أود المصديح إليك بحق العمر والتجربة الأدبية. عدد كبير من الناس يتطلع إليك الآن عندما في إدارة التحرير، يوجد قدر كبير من الاهتمام تجاهك يلهب أحيانا بذرافع لا تتطرق بالجانب الأدبي. ما الذى سيكون حين تظهر فصحك منشورة؟ سيكون كل الذى يسمى بالمدح. وأصل يحدثنى إلى التأكيد على أظنى فى سكينتك، ورباطة جأشك، ولى شعورك العالى بالكرامة الذاتية. لقد اجتزت تجارب عدة ومن الصعب على أن أتصور بك عدم الصمود أمام هذه التجربة» (٨).

«يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» كانت أحد المؤلفات المهمة التي شككت

فى الستينيات من لختراق حدود الرقابة الحزبية ومظهر على صفحات المجلات الأدبية وخاصة - مجلة «نوفى مير» التى لعبت دوراً طليعياً فى الستينيات فى نشر الأدب الذى لا يتدرج فى الأطر المحكمة لفن الواقعية الاشتراكية، ويحمل خطاباً نقدياً للتجربة السوفيتية، وقد كان لهذه المؤلفات فضل الشهرة والشعبية التى اكتسبتها هذه المجلة بالذات، والتى أكد عليها سولجنتسين:

«سنة وراء السنة كان حب الحرية يذمو فى المجلة الليبرالية «نوفى مير»، ولم يكن هذا الحب يذمو من حب هيئة التحرير للحرية، بل كان يذمو من اختيار مخطوطات المؤلفات المحبة للحرية التى تقتسم هذه المجلة وحدها، وكان هذا الاختيار عظيماً حتى إنه مهما كانت الرقابة تحذف أو تشوه، فقد كانت تبقى الكثير من القيم»^(٩).

ولقد كان لهذه المؤلفات «المحبة للحرية، الفصل فى تسابق القراء على قراءة ما تنشره مجلة «نوفى مير» حيث - وكما يشير الناقد تشوربين «كان نثر أرى مؤلف أدبى حقيقى وصادق لا يتدرج فى الخط الرسمى، كان يستوعب ككثب فى حافظ برايڤ»^(١٠).

نويل والرحيل الإجهادى.

فى عام ١٩٦٤ نعى خروتشوف، وقد ربط بعضهم بين هذا الحدث ونهاية الليبرالية الثقافية، فقد كان لتغير المناخ الاجتماعى والسياسى السبب فى لجوء عدد من الكتاب والمثقفين إلى الخارج، وإلى النشر الذاتى غير المعلن (سام إيزادات)، أو إلى تهريب كتاباتهم للنشر فى الغرب (تام إيزادات). فى عام ١٩٦٩ أرسل سولجنتسين خطاباً مفتوحاً إلى اتحاد الكتاب أشار فيه:

«الطانية الشريفة، والطانية الكاملة، هذا هو الشرط الأول لأى مجتمع شريف،

وكذلك بالنسبة لمجتمعنا، من لا يرغب لبلدنا الطانية فذلك هو اللامبالى تجاه الوطن. من لا يرغب لوطننا فى الطانية فذلك هو الذى لا يرغب فى تطهير الوطن من المرض ويرغب فى زج الأمراض إلى الداخل كى تموت هناك»^(١١) لقد كان عام ١٩٦٩ من أعوام المواجهة بين سولجنتسين والسلطة، وفى هذا العام طرد سولجنتسين من اتحاد الكتاب، وفى العام لالتالى حصل على جائزة نوبل للأدب، لقد كان منح جائزة نوبل للكتاب السوفيت محاراً للفنض والاحتجاج من قبل الأجهزة الرسمية السوفيتية التى كانت ترى فى منح الجائزة للكتاب المعارضين نوعاً من الدعم الأدبى والمادى لهم بهدف التطهير بالنظام السوفيتى فى زمن الحرب الباردة. ولم يسل من هذا الموقف سوى شولوخوف كاتب الواقعية الاشتراكية، إن سولجنتسين يفسر الموقف المدائى تجاه جائزة نوبل من قبل الدوائر الرسمية السوفيتية فى إطار المفهوم العام لدور الأدب الذى رسخ فى الفكرة السوفيتية:

«لقد أوجت السلطة نفسها إلى الكتاب بأن الأدب جزء من السياسة، ولهذا السبب فإن منح جائزة نوبل لكاتب من كتابنا القوميين كان يستوجب قبل كل شىء بوصفه حدثاً سياسياً»^(١٢).



خروتشوف

ويتذكر سولجنتسين فى هذا الصدد الذى ولكب منح باسترناك جائزة نوبل، ورد الفعل الغاضب من جانب الحزب واتحاد الكتاب على هذا الحدث، الأمر الذى اضطر باسترناك إلى الاعتذار عن قبول الجائزة إزاء حملة الانتقادات الواسعة التى وجهت إلى شخصه علناً فى الصحافة.

ويعترف سولجنتسين فى سيرته الأدبية بأنه كان «يحدث، باسترناك على الجائزة وبأنه «دين» رفضه الجائزة:

«لقد كنت أقيس باسترناك بأهائى، وبمعاييرى، وكنت أفضح من الفعل من أجله، مفهماً من أجل نفسى، كيف يمكن الهلع من السباب فى الصحافة، وكيف يمكن الضعف أمام التهديد بالنفى»^(١٣)، ولقد كان الحصول على نوبل مطمحاً بالنسبة لسولجنتسين:

«إن هذه الجائزة تلمزنى كمرحلة فى الموقع، وكلما حصلت عليها مبكراً، صرت أقوى، وبشكلت من الضرب بقوة أكثر»^(١٤).

وحين حصل سولجنتسين على الجائزة فى عام ١٩٧٠ كان رد الفعل الرسمى هو الفنض، فقد كان اتحاد الكتاب السوفيت يزمع إرسال وفد من المعارضين إلى لجنة تحكيم جائزة نوبل للجدولة دون حصول سولجنتسين عليها، ثم بعد ذلك وضعت المرافيل أمام سفره لتعلم الجائزة كذلك وجهت الصحافة حملة انتقادات واسعة إليه، وتعبته أجهزة الأمن بالمطاردة.

وقد نشرت مجلة «نوفى مير» مؤخرًا فى عددها الصادر فى شهر أغسطس عام ١٩٩١ تصويرون الخطابات المرسلة من سولجنتسين إلى بعض الشخصيات الحكومية بسدد الحصار الأمنى المفروض عليه، وكشف سولجنتسين فى خطابه الموجه إلى وزير الأمن عن الضغوط التى يتعرض لها:

تصمت في صمت لمنازل طويلة
الممارسات غير الشرعية لمستخدميكم
مثل مراقبة جميع مراسلاتي، مصادرة
نصفها، التجسس حول منزلي، والرصد
لعملي في؛ ثقب الأسقف، ووضع أجهزة
التصنت في شقتي في المدينة، وفي رقعة
الحديقة. حملة الاعتداء الذهوب الموجهة
منضدى من منصات الحاضرون من
مستخدمي وزارتيكم،^(١٥) ولتعتقد الأمور
بين سولجنستين والسلطة بعد اكتشاف
رواية «أرخيبيل جولاج»، وتسوغة على
الألة للكتابة في سبتمبر عام ١٩٧٣ طبعة
«سام إيزيدات» (النشر الذاتي). وحين
يستدعي المدعي العام سولجنستين للمثول
أمامه يرفض سولجنستين الدعوة، ويتم
بعدها ترحيله إجباريا من الاقتصاد
السوفيتي.

«أرخيبيل جولاج»

لقد قمت بإجهاى أمام الشهاد، وهذا
يمنحني راحة وسكنة، لقد كان مقدرا
على هذه الحقيقة أن يقضى عليها، فقد
صمومها، أما عروها، ومحتونها مثل
المسحوق، ولكن ها هي مترابطة، حية،
منشورة، وهذا أن يحمي أحد أبدا^(١٦).

هكذا علق سولجنستين على ظهور
طبعة روايته «أرخيبيل جولاج» في
الغرب.

و«جولاج» هو الاسم المختصر
للإدارة الرئيسية لمعسكرات الاعتقال التي
تتناول الرواية وصفها على امتداد الفترة
الزمنية من ١٩١٨ - ١٩٥٦.

الرواية ليست سياحة لاكتشاف
تضاريس الأرخيبيل، بل محاولة
لاستكشاف عالم الإنسان داخل المكان

ماذا كان يحدث مع الإنسان داخل
معسكرات الاعتقال؟ هذا هو السؤال
الرئيسي الذي تطرحه رواية «أرخيبيل
جولاج»، التي تقدم صورة فائقة، متلىء

بالمرارة لعالم المعتقلين الذين تنفذوا
بالآلاف على معسكرات الاعتقال.

ولا يبرز الوجود السادي والروحي
للإنسان داخل معسكر الاعتقال يعتمد
سولجنستين على أسلوب المقابلة بين ما
يجري داخل المعتقلات في الفترة
السوفيتية، وما كان يحدث قبلها في زمن
القيصرية.

يقابل سولجنستين - مثلاً - بين
ظروف العمل الشاق في معتقلات
القيصرية قبل الفترة السوفيتية وبعدها؟
ففي الفترة القيصرية - وكما يصف
سولجنستين في الرواية:

«لدى تعيين العمل الشاق كان يؤخذ
في الاعتبار ما يلي: القوى الطبيعية
للشخص، ودرجة خبرته (وهل حقا يمكن
أن نصدق هذا الآن). كان يوم العمل
المقرر في الشتاء سبع ساعات، وفي
الصيف اثنتى عشرة ساعة ونصف،
وفي معتقل «كوتسكايا» الشاق (حيث كان
ب.غ. ياكوبيتش في عام ١٨٩٠) كانت
تدريبات العمل تنجز في يسر بالنسبة
لجميع عدا بالنسبة له.

كان يوم العمل هناك يتكون من
ثمانى ساعات بما في ذلك السير على
الأقدام، وبنائية من شهر أكتوبر كان
يتكون من سبع ساعات، أما في الشتاء
فمن ست ساعات فقط (وقد كان هذا قبل
التصال من أجل يوم عمل من ثمانى
ساعات!) أما فيما يخص معتقل «أوسكايلا»
الذى اعتقل فيه دوستويفسكى فقد كانوا
هناك عمرا لا يفلتون شيئا، كان العمل
عندهم يذهب على الصعيد، وكانت
الرواسة تسوهم بسترات بيضاء من النيل
وبالسراويل^(١٧).

ويستشهد سولجنستين برواية
دوستويفسكى «مذكرات من بيت
الأموات» لويخل على يسر للعمل في
المعتقل في الفترة القيصرية، ويشير إلى

أن «الرعاية» لم تكن ترغب في السماح
بنشر رواية «مذكرات من بيت الأموات»
لأنها كانت تتخوف من أن اليسر الذى
يصور به دوستويفسكى الحياة في المعتقل
لن يوقف الجريمة. ولهذا فقد أضاف
دوستويفسكى صفحات جديدة من أجل
الرعاية مصحوبة بتكويه إلى أن الحياة في
المعتقل كانت قاسية رغم ذلك،^(١٨)

ويورد دوستويفسكى في المقابل وصفا
لتدريبات العمل الشاق معتقل «كوليم»
السوفيتى نقلا عن تجربة الأديب
شالوموف التى أوردتها ماريا فولكونسكايا
في مذكراتها، ويوه في هذا الإطار إلى
تجربة الديسمبريين في الفترة القيصرية:

كان التدريب الواحد بالنسبة للمعتقلين
من الديسمبريين عبارة عن استخراج
وحمل الحديد الخام في نيرتشينسكى
بوزن ثلاثة بوندات للشخص الواحد في
اليوم (البوند الواحد وزن ١٦,٣٨ كجم)
يمكن رفعها مرة واحدة. أما شالوموف
في معتقل «كوليم» فقد كان يرفع
(٨٠ بوندا) ويكتب شالوموف إضافة إلى
ذلك أن يوم العمل في الصيف عندهم
كان يصل إلى ١٦ ساعة! لا أرف كيف
يمكن للتصريف بالنسبة لست عشرة
ساعة، فقد كانت ثلاثة عشرة ساعة
كافية بالنسبة للجميع، وكانت الأعمال
في الأرض في كارلاجاج، وفي الغابات
الشمالية، وهذه هي ساعات العمل
الصافية عدا السير على الأقدام في الغابة
خمس كيلومترات، وخمس كيلومترات
في العودة،^(١٩).

إن سولجنستين حين يصف قوة
الأعمال الشاقة في السجون والمعتقلات
السوفيتية لا يعني وصف الألم الفيزيائى
في حد ذاته، بل تأثير هذا الجانب
الفيزيائى على الجانب النفسى
والأخلاقي، ذلك لأن وصف الجوانب
المادية والمعيشية لوجود الإنسان في

المعتقل يستهدف الغرض داخل وعى الإنسان، إن الغاية ملهمة الشعراء وإلى يرتبط بها وجدانيا الإنسان الرومى بدرجة تجعل سولجنتسين يلقبها «بولدنا»، هذه الغاية قد تخولت بفعل الأعمال الشاقة فى معسكر الاعتقال إلى مكان كرويه كما يصفه سولجنتسين:

هذه الغابة، هذا الجمال على الأرض الذى نلتفت به الأشعار والكتابات النثرية، سوف تدخلها برجة من الأشمزاز أسفل قباب أشجار البتولا واليزون،^(٢٠) ولكن من المذنب فيما كان يحدث من تشويه للنفس البشرية داخل معسكر «جولاج»؟ هل الذنب ذنب ستالين وحده؟

من الواضح ان سولجنتسين لا يحدد هذا التصور، ذلك لأن مجريات الأحداث فى رواية «أرخيبيل جولاج» تستهدف الوصول بالقارئ إلى أى طريق اللطف الذى سلكته ثورة أكتوبر كان من الطبيعى أن يشر ظاهرة سخالين، وأنه مالم يكن ستالين موجودا لكان مكانه دكتاتور آخر. إن سولجنتسين يتعقب فى روايته ممارسات العنف التى ذهبت بأرواح الملايين، ويبدأ من فترة الحرب الأهلية التى أعقبت ثورة أكتوبر، فيروى عما حدث فى عام ١٩١٨ حين أعلن لينين عن مهمة تطهير الأرض الروسية من «الحشرات، المصار»!

ويسرد لنا سولجنتسين بعض هذه الحشرات:

«الحشرات هى الشخصيات الحكومية العامة (قبل الثورة)، الحشرات هم المسئولون عن التصاومات، وجميع ملاك العقارات. عدد غير قليل من الحشرات كانوا من بين مدرسى المدارس للثانوية، الحشرات هم مجالس الكنائس الأبرشية بالكامل، الحشرات هم من يقومون بالفناء فى كبرى الكنائس، جميع القساوسة كانوا حشرات، ولا سيما الرهبان والراهبات،^(٢١)»

ولكى يوصى سولجنتسين بمصدقية ما يرويه من أحداث تجده يستشهد بشهود العيان، ويعتمد على بعض الوثائق، كذلك يصدر روايته بتقوية يشير فيه إلى أن:

«فى هذا الكتاب لا توجد شخصيات من رضى الخيال، ولا أحداث من رضى الخيال. الناس والأماكن تسمى بأسمائها الخاصة، وحين أذكر الأحرف الأولى من الاسم فذلك نظرا لاعتبارات شخصية، وإذا لم أنكر الاسم على الإطلاق فذلك نظرا لأن للذاكرة الإنسانية لم تحفظ الأسماء لكن كل ما ذكر فى الرواية حدث على هذا النحو،^(٢٢) رواية «أرخيبيل جولاج» التى اعتمدت فى الجزء الأول منها على طبيعتها التاريخية الصادرة باللغة الروسية فى عام ١٩٧٣ لم تر النور فى وطنها سوى من عهد قريب حين نشرتها مجلة «نوفى مير» فى حقاقتى أعدادها الصادرة ١٩٨٩ - ١٩٩٠، فى تلك الفترة التى اعتبرت قمة فى سياسة المكافاة والمطية.

خمس عشر عاما من العطر مضت منذ صدور رواية «أرخيبيل جولاج» فى الغرب. لقد رحبت جبهة المثقفين الممارسين بظهور الرواية آنذاك، وشاهدت فى ذلك «حدثا ضخما»، ومن الأهمية «بحيث يمكن مقارنته بحدث موت ستالين،^(٢٣)» وعلى الجانب الآخر



تشيريف واحد من ماضى آن

احتجت الدوائر الرسمية فى الاتحاد السوفيتى السابقة على ظهورها، واعتبرت فى ذلك «خيانة للوطن، وأشارت وكالة ناس الرسمية إلى أن «نشر أرخبيل جولاج» فى الغرب يشيد مخاطر عودة جو الحرب الباردة، ويهدد بتاسع رقعة التوتر بين الشرق والغرب،^(٢٤)

لقد كان سولجنتسين على ثقة بأن الحظر الذى فرض على روايته لن يفلح، وبأنه سيأتى اليوم الذى ستعود فيه الرواية إلى قرائها وهى ما ذى الرواية تعود بعد انقضاء زمن الحرب الباردة، وسقوط السار الحديدى لكثير عاصفة جديدة من ردود الفعل حولها، فلمدة عام لم يقطع سيل الخطابات التى وردت إلى هيئة تحرير «نوفى مير» التى نشرت الرواية، وهذه الخطابات تكشف عن اختلاف وجهات نظر القراء تجاه الرواية، وتعمل فى طبائها ملمعا من صراع الأفكار الدائر على الساحة هناك، ففى الوقت الذى أشادت فيه بعض الخطابات «بشجاعة» سولجنتسين، «بصراحته» وأيدت روايته عن أرقام الضحايا، ندد بعضهم الآخر بلهجة «المرارة»، و «العقد»، و «العدوان» للثورة الاشتراكية، والعمالة «لغرب»،^(٢٥) رواية «أرخيبيل جولاج» التى أسماها مؤلفها «بجربة البحث» التى، تتسم بلهجة تقريرية طغت على بعض العناصر الفنية، ومع ذلك فقد نظر إلى الرواية فى بعض الكتابات بوصفها كشفا فنيا جديدا. تقول الناقدة لانتينا فى هذا الصدد:

«إذا كان سولجنتسين قد أتى إلى الألب بالحقيقة غير الضيقة، ولم يأت بحقيقة الخبر وموضوعات السجن والمعتقلات (هناك عشرات الآلاف من الناس الذين عادوا من المعتقل، وكانوا يقاسمون تجربتهم، ويخفون عن النفس بالحكايات) وكذلك بالنسبة لموضوعات القرية، وانقضاء الشعب لحقه - أكرر مرة

أخرى - كانت موضوعات عادية في الأحاديث والمراسلات، نوعاً من الضرب الخاصة، وهذه الضروب لم تكن تتقاطع مع الأدب المكتوب ليس فقط بسبب عدم كفاية الشجاعة المدنية، بل لأنه لم تكن هناك لغة صالحة للصوير هذه الحقيقة الجديدة. إن سولجنستين لم يقل فقط الحقيقة، بل وشيد لغة كان يحتاجها الوقت، فحدثت عملية إعادة اعتدائه لكل الأدب الذي استخدم هذه اللغة» (٢٦).

سولجنستين وأدب الواقعية الاشتراكية

ظهرت قصة سولجنستين «يوم في حياة إيفان دينسوفيتش» - كما أشرنا آنفاً - في بداية الستينيات، ولم يكن سولجنستين هو الكاتب الوحيد في ساحة الأدب الروسى في هذه الفترة الذي حملت مؤلفاته خطاباً ناقداً للواقع والتجربة السوفيتية، فقد تبلور في «نثر القرية» في هذه الفترة خط ناقد يصور مأساة إفلاخ الفلاح من العوز، والحالة التي آلت إليها القرية، ويظهر هذا الاتجاه في أعمال شوكتشين، أبراموف، بيلوف وغيرهم.

كذلك اتجه بعض الكتاب إلى لغة الشفرة الرمزية «كوسيلة للخروج عن إطار منهج الواقعية الاشتراكية والتجوير عن رئيسهم النقدي للواقع، وقد تناولت بالتحليل هذه اللغة الرمزية في دراسة لي عن «الأدب الروسى ولغة أيوسوب» حيث توقفت بالتحليل عند إنتاج بولجاكوف الذي يعد واحداً من أوائل الكتاب الذين اتجهوا إلى لغة الشفرة الرمزية (لغة أيوسوب)» (٢٧).

غير أن حكم سولجنستين على الحركة الأدبية في عصره يبدو قاسياً، فهو يدين الأدب لأنه استدار عن حقيقة ما كان يحدث في السجون ومعسكرات الاعتقال ويعبر عن الإحساس بالنفور

والانفصال الروحي عن الأدب المعاصر له:

لقد قررت مرة وإلى الأبد أن الأدب الذي كان قائماً وبقوا بمجلاته النشر السميكة، ويجريدته الأبيسين، والمجموعات القصصية التي لا حصر لها، وبعض الروايات والمؤلفات الكاملة، والموائل السنوية، والمسلسلات الإذاعية كل هذا أدب غير حقيقي، ولم أكن أفقد الوقت، أو أشعر بالصنجر لمتابعها، فقد كنت أعرف مسبقاً أنه لا يوجد بها شيء يستحق، ليس لأنه لم يكن من الممكن أن تولد المواهب هناك، ربما كانت توجد هناك مواهب، ولكنها ماتت هناك أيضاً» (٢٨).

سولجنستين والحركة القومية:

قال البروفيسور الأمريكي فاليري سوفيير في المؤتمر المكرس للاحتفال بذكرى مرور سبعين عاماً على ميلاد سولجنستين أى منذ خمس سنوات مضت: «إن التقويم الرفيع لإنتاج سولجنستين يشهد على الدور الكوني» الذي لعبه سولجنستين الذي قوض بدرجة كبيرة من الحركة اليسارية في الغرب» (٢٩) فهل عاد سولجنستين أخيراً إلى وطنه لأن دوره هناك انتهى؟ أم أنه عاد لأن دوراً جديداً ينتظره؟ الواقع أن سولجنستين يتطلع لأن يلعب دوراً مهماً في الظروف الحرجة التي تمر بها بلاده الآن، فقد أعرب عن رغبته في أن يكون «العنود أشراف في الوضع الحزين غير المسعد الذي يمر به وطنه» (٣٠).

سولجنستين يعود الآن إلى روسيا جديدة تروج بالتيارات السياسية، التي تشغل التيارات القومية بينها مكانة مهمة، إن بعض هذه التيارات القومية يهدى بالآفكار البلشفية، والبعض الآخر يطلق من منطلق ديني وتراثي، ورغم أن

سولجنستين ينفي علاقته بالأحزاب والتيارات السياسية، إلا أن علاقة سولجنستين بالآفكار القومية الدينية قديمة، ففي عام ١٩٧٣ قبل رحيله من الاتحاد السوفيتي كتب سولجنستين مشيراً:

«لنى لم أشك أبداً في أن الحقيقة سوف تعود إلى وطنى - إننى أؤمن بتوحيده، وبالتطهير الروحي لنا، وبالبحث القومى لروسيا» (٣١) البحث الروحي والقومى والثقافى لروسيا كان هو الشعار الذى رفعه سولجنستين ومجموعته التى أطلقت على نفسها اسم من «أسفل الصخرون» والتي ظهرت بعد طرد سولجنستين من الاتحاد السوفيتي فى عام ١٩٧٤. كانت المجموعة موجودة على الخط الصمراض مع نظام بريجنيف، وكانت ترفض الستالينية، والنظام الشمولى، وتعارض قمع الحريات الشخصية، وترى فى التراث والفكر الدينى ركيزة ومطلقاً لطريقة التطور الاجتماعى ولم تكن أفكار البحث الدينى والروحي التى رفعتها مجموعة «من أسفل الصخرون» جديدة على روسيا، فقد آمن بهذه الأفكار كتاب روسيا للكبار من أمثال تولستوى ودوستوفسكى، ممن رفضوا فكرة الثورة كوسيلة للتغيير الاجتماعى، وقد تليت هذه الأفكار انتشاراً واسعاً فى بداية القرن الحالى فى الفترة التى سبقت ثورة أكتوبر ١٩١٧. لكن سولجنستين يخطف مع بعض الاتهامات القومية الصالية فيما يعلو الطموحات الإمبراطورية، فطريق البحث الدينى والقومى الذى يتصوره سولجنستين لا يتجه نحو تصديق الطموحات الإمبراطورية، بل يستهدف جمع شمل الأمة، والوحدة الروحية لأبناء الوطن، ورفض الضغط على الأمم الأخرى على طريق الدمد والخطور الدابع من «خصوصية» روسيا:

ينبغي علينا ألا نغفل التعددية اللغوية بالكامل، نحن نلزمان التعددية التي تنبسط في العالم كله، أما العالم فيتألف من عوالم منفردة أحدها روسي بخصيصيته^(٣٢) سولجنتسين عاد إلى وطنه بشعار الكاتب يجب أن يوجد شعبه، فهل سيلجح في مهمته؟؟ ■

الهوامش والمراجع

- (١) شكلت في نهاية عام ١٩٨٧ لجنة خاصة منبقة عن المكتب السياسي للجنة المركزية بهدف إعادة النظر في الأحكام التي صدرت على ضحايا المعتقدات في الفترة السبانية وقد استمر عمل هذه اللجنة مدة ثلاث سنوات ونصف تم خلالها دراسة أحكام القضايا الهامبرية في النصف الثاني من الثلاثينات، وقد برأت اللجنة أسماء أكثر من مليون مواطن وأثبتت بالوثائق زيف التهم الموجهة إليهم وأتت بثبت على أنه غير شرعية تم العصور عليها بطرق التعذيب، وقد نشرت اللجنة أرقام وإحصاءات خاصة بالضحايا الذين يمدون بالملايين عن «ألكسندر ياكوفليف» الجدول المدمج «جريدة الثقافة» موسكو، ٣١ يوليو، ١٩٩٣، ص ٢.
- (٢) سولجنتسين، العمل يناطح شجرة البوط، مجلة «نولي مير»، موسكو، عدد ٦، ١٩٩١، ص ٧.
- (٣) المراجع السابق، ص ١٢.
- (٤) نفسه، ص ٢٩.
- (٥) نفسه، ص ١٢.

- (٦) جورج لوكاتل، «الرقصة الأندراكية للبروم» (الترجمة الروسية)، مجلة قصصنا الأدب، موسكو، أبريل، ١٩٩١، ص ٧٨.
- (٧) سولجنتسين، العمل يناطح شجرة البوط، مرجع سابق، ص ٣٤.
- (٨) نفسه، ص ٣١.
- (٩) نفسه، ص ٣٨.
- (١٠) انظر ترجمتنا الحرة لقطب من تشورباين، «الأدب الروسي بعد اليبوستروكا» مجلة للثقافة الصامية، الكويت، سبتمبر ١٩٩٢ عدد ٥٤، ص ٢٠.
- (١١) عن الخطاب الصريح لسولجنتسين إلى تصاد الكتاب السوفيتي في ١٧ نوفمبر ٦٩ والمثرون في كتاب «الوقت» الإسكندر الثاني، موسكو، ١٩٩٠، ص ١٧٢ - ١٧٤.
- (١٢) سولجنتسين، العمل يناطح شجرة البوط، مجلة نولي مير، ٨٢، ١٩٩١، ص ٥.
- (١٣) نفسه، ص ٧.
- (١٤) نفسه، الصفحة السابقة.
- (١٥) عن نص الخطاب المنشور في مجلة نولي مير، عدد ٨، ١٩٩١، ص ٩٨.
- (١٦) عن حديث لسولجنتسين لمجلة «الخليد» بتاريخ ١٩ يناير ١٩٧٤ الانجلاس عن الترجمة الروسية للحديث المنشورة في مجلة «نولي مير»، عدد ٨، ١٩٩١، ص ١٢١.
- (١٧) سولجنتسين، أرخبيل جولاج، الجزء الثالث، مجلة «نولي مير» عدد ١١، ١٩٨٩، ص ٦٤.
- (١٨) نفسه، الصفحة السابقة.

- (١٩) نفسه، الصفحة السابقة.
- (٢٠) نفسه.
- (٢١) سولجنتسين، أرخبيل جولاج، باريس، ١٩٧٣ (بازووية)، ص ٤٠.
- (٢٢) المراجع السابق، ص ٩.
- (٢٣) ليندا تشورفاسكا، «ثورة اليكم»، نولي مير، عدد ٨، ١٩٩١، ص ١٢١.
- (٢٤) المراجع السابق، الصفحة السابقة.
- (٢٥) راجع للخطابات التي نشرتها «نولي مير»، عدد ٩/ ١٩٩١، ص ٢٣٣ - ٢٤٨.
- (٢٦) أ. لانتينا، «سولجنتسين ونحن»، مجلة «نولي مير»، عدد ١، ١٩٩٠، ص ٢٤٣.
- (٢٧) راجع مقالنا «الأدب الروسي ولغة أسوب» مجلة قصصنا، القاهرة، ص ١٧٠ - ١٨٢.
- (٢٨) سولجنتسين، العمل يناطح شجرة البوط، نولي مير، عدد ١، ١٩٩١، ص ١٠.
- (٢٩) عن لانتينا، مرجع سابق، ص ٢٤٤.
- (٣٠) عن حديث لسولجنتسين مع التلفزيون الألماني، وقد أذنت «الجريدة الأدبية» الصادرة في موسكو نص الحديث بالروسية في عددها الصادر في ٢٠/ ١٠/ ١٩٩٣، ص ٢.
- (٣١) تصريح سولجنتسين بتاريخ فبراير ١٩٧٤ في مجلة «نولي مير»، عدد ٨، ١٩٩١، ص ١٢٢.
- (٣٢) حديث لسولجنتسين مع التلفزيون الألماني، مرجع سابق.

serguei 94



المراجعات

١٣٤ حقيقة مذهب ابن رشد من منظور الفلسفة العربية، عاطف العرافى.

١٣٥ نقد الخطاب من الأيديولوجيا إلى المعرشة، على مبروك.

١٣٦ لمسة النصوص، وائل غالى.

١٣٧ الماضويون يحتلون المقاعد الإمامية، محمود قرى.

١٣٨ مقدمة في تحليل الخطاب السينمائي، حسنى عبد الرحيم.

قاسم شهيد :

أود أن أشير في بداية دراسنا لحقيقة الفلسفة الرشدية من خلال منظور الفلسفة العربية إلى أن هدفاً ليس إبعاد ابن رشد. وفلسفته عن دائرة الإسلام. إذ لابد أن نصنع في اعتبارنا أنه لا تعارض بين كون ابن رشد مسلماً، وكون فلسفته، فلسفة عربية.

وهل يمكن أن نتخاف من حقائق ثابتة نجدتها في كتب السور والتراجم من جهة، وفي مؤلفات ابن رشد وشرحه من جهة أخرى. لقد كان ابن رشد قاضياً، وقاضياً للقضاة، وكتب عديداً من الرسائل والكتب الفقهية ومن أبرزها كتابه "هداية المجتهد والهاية المقتصد"، بالإضافة إلى وجود مؤثرات دينية في فلسفته، وإن كان قد فهمها فهماً خاصاً يلتقي وكونه في الأساس وبالدرجة الأولى فيلسوفاً عربياً يعد صاحب اتجاه عقلي تنويري في فكرنا الفلسفي العربي من مشرقه إلى مغربه.

كان ابن رشد وكما سيظهر لنا من خلال عرض بعض نماذج من فلسفته ملتزماً بخصائص الفكر الفلسفي. لم يكن مجرد مدافع عن الفكر الإسلامي ولو على الأقل عند الفرق الإسلامية، بل كان يصنع في اعتباره أساساً، الالتزام كما قلنا بخصائص الموقف الفلسفي وذلك بصرف النظر عن اتفاقنا معه أو اختلافنا في رأي أو أكثر من الآراء التي قال بها.

بل إن الخلاف بينه وبين الأشاعرة والغزالي والصوفية، كان خلافاً معبراً في جوهره عن التزامه بشروط الموقف الفلسفي والوقف الفلسفي، وأحسب أن الغزالي إذا كان قد التزم بتلك الوقفة لما أدى ذلك بموقفه حول تكفير الفلاسفة في بعض الآراء التي قالوا بها. ونحن نعلم أن ابن رشد قد خالف الغزالي نظراً لأن ابن رشد - كما قلنا - كان معبراً في

حقيقة مذهب

ابن رشد



من منظور

الفلسفة العربية

عاطف العراقي

أفكاره عن الابتعاد عن مسألة التحريم والتكفير لأنه بالدرجة الأولى كان فيلسوفا عربيا ملتزما بالقول بأن الفكرة إنما تعد فكرة فلسفية صحيحة إذا كانت معبرة عن الالتزام بخصائص الفكر الفلسفي، لقد كان يقدم أفكاره بصرف الخطر عن مدى اتفاقها أو اختلافها مع الدين، وهكذا فعل الفلاسفة. فلماذا إذن نطلق على فلسفاتهم بأنها فلسفات إسلامية.

إننا إذا كنا نشير في دراستنا اليوم، قضية تسمية الفلسفة التي تركها لنا أجدادنا، وهل نسميها فلسفة عربية أم نطلق عليها فلسفة إسلامية، فإن ذلك لا يعنى أننا نود بحث قضية دار حولها الخلاف والجدل بين عديد من الدارسين المهتمين بفلسفتنا، سواء أكانوا باحثين عربا، أو كانوا من الباحثين الغربيين المستشرقين.

لا نريد إذن من جانبنا مجرد بحث قضية أثرت منذ نصف قرن من الزمان أو يزيد ولكن قصدنا هو التنبيه إلى عدد من الأخطاء وأوجه التحسف التي تشيع الآن ولأسف الشديد في بلدنا العربية، والتي كان شيوعها نتيجة متظرة ومتوقعة حين فصل بعض الباحثين والرواد القدامى تسمية فلسفتنا بالفلسفة الإسلامية. ويقينى أن الباحثين والرواد القدامى، ومنهم من لا يزال يجرى حياتنا الفلسفية بالعديد من الثمار الفكرية الرائعة، لو كانوا قد أدركوا ما ستؤدى إليه تلك التسمية مستقبلا من مخاطر وسوء استخدام، لترددوا ألف مرة قبل استخدام مصطلح «الفلسفة الإسلامية».

ومن الأمور التي تلت للخطر أن الرواد سواء في مصر أو غيرها في بلدان العالم والذين استخدموا مصطلح الفلسفة الإسلامية قد نظروا إلى الفلسفة نظرة دقيقة إلى حد كبير، وكانت عقلياتهم متفتحة، بحيث نبهوا إلى أضرار كل فكر

لاعقلانى، أما الآن ولأسف الشديد فإننا نجد عدد بعض من يفضلون تسميتها «بالفلسفة الإسلامية» تشجيعا للفكر اللاعقلانى، ونشرا للخرافة، وحشرا لموضوعات داخل إطار فلسفتنا ليس لها صلة بالفلسفة من قريب أو من بعيد. وللمعترف بصراحة وموضوعية أن أكثر دراساتها الحالية وخاصة من حيث المنهج. منهج دراستها - قد أصبحت متحركة عند الباحثين والمستشرقين الأوروبيين. وهل من المعقول أن يصبح فكر ابن تيمية والذي يعد عدوا لكل فكر ناصح متفتح،



أرسطر



إبراهيم بيومي مذكور

هو الفكر المسيطر على أذهان المستشرقين ببعض الأقسام الفلسفية في مصر والعالم العربى، وذلك على الرغم من لاعقلانية هذا الرجل وسذاجة بعض آرائه. نعم، إن من حق المستشرقين الأوروبيين أن يضعوا على ما نطلق عليه في عالمنا العربى بحثا فلسفية في حين أنها لا تنسب إلى الفلسفة من قريب أو من بعيد، وتختلف تماما عن الفلسفة كما ينبغي أن تكون، قلبا وقالبا.

كل هذه المأسى والكوارث قد نتجت بطريقة غير مباشرة عن تسمية فلسفتنا بأنها «فلسفة إسلامية» لماذا؟ لسبب بسيط جدا وهو أن فريقا منا قد خلط خلطا شديدا بين خصائص الفكر الدينى، وخصائص الفكر الفلسفى، وأدى هذا إلى النظر إلى أفكار الفيلسوف من خلال منظور الدين، وهذا من أخطر الأشياء لأنه يؤدى إلى تفسير آراء الفيلسوف تفسيراً خاطئاً. فإذا قلنا مثلا: إن الفارابى يمد من فلاسفة الإسلام، وفلسفته تعد فلسفة إسلامية وحين نجد الفارابى يقول صراحة بقدم العالم، فإن بعضاً من أشباه الباحثين فى الفلسفة، يقوم بتأويل آراء الفارابى تأويلا فاسداً، لماذا؟ لأنه ينظر إليه من خلال كونه فيلسوفا إسلاميا وأن فلسفته تعد فلسفة إسلامية، وأن الفيلسوف الإسلامى لايصح فى نظرهم أن يقول بقدم العالم ومن هنا فلابد من إنطاق الفارابى بآراء لم يقل بها إطلاقا وذلك حتى يتحقق ذلك مع كونه فيلسوفا إسلاميا.

وهكذا إلى آخر التعصبات والتأويلات الفاسدة والتي تعد بالمئات ولكنها تبغنا نقول: أيتها الفلسفة التى يطلق عليها البعض منا أنها إسلامية، كم من الأخطاء والأباطيل والضلال ترتكب باسمك.

هل من المعقول أن أنظر إلى فلسفة الفيلسوف من خلال منظور التوفيق بين الدين والفلسفة، فى الوقت الذى تجد فيه

أن فلاسفة العرب لم ينجح واحد منهم في التوفيق بينهم هل يمكن أن ننسى قول ابن رشد «بالحقيقتين» أو بالحقيقة ذات الوجهين؟

لا أكون مهالفا في القول إذا قلت إننا نحن العرب قد أسأنا أبلغ الإساءة إلى فلسفتنا، وكان المستشرقون وما زلوا أكثر عمقا ودقة منا في النظر إلى فلسفتنا. لقد أصبح فهمنا لفلسفتنا يدر حول الأساليب الخطابية اللامعقولة والتي نجدتها عند أصحاب الفكر المتزمت، الفكر الرجعي، الفكر الذي يعد تعبيراً عن الصعود إلى الهاوية، بل نقول بصراحة إن النظرات المتحمدة والخاطلة لفلسفتنا إنما ساعد على انتشارها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة نوع من الفكر المعادي للفلسفة، والذي يسود في بعض الدول البترولية العربية.

يضاف إلى ذلك أن المناخ الفكري السائد في أكثر البلدان العربية إنما يعد تعبير عن الترحيب بالفكر الذي لا يمكن اعتباره عقلانياً، وبالتالي الضيق بالفكر الحر، الفكر العقلاني، ولضرب على ذلك مثالا واحداً. إذا قام فرد منا بدراسة عن أن تهميه تقوم على الترحيب بآراء رجل بحق وبغير حق، فإنه سيجد لأسواق والجرائد تسعى إليه من أكثر البلدان البترولية. وعلى العكس من ذلك تماماً إذا قام بتأييد الفكر العقلاني مثلاً في ابن رشد على سبيل المثال. وهذا قد يؤدي إلى الاعتقاد بالصلة بين الفنى والتأخر الفكري، وبين الفقر والتقدم الفكري. أليس من المألوف للنظر أننا نجد عالماً معرباً يوجه عام قد ارتضى لنفسه آراء الفزالي فأدى به هذا إلى نوع من التأخر الفكري، في حين أن أوروبا يوجه عام قد ارتضت لنفسها فلسفة ابن رشد ومبادئ ابن رشد فأدى بها ذلك إلى التقدم الفكري؟

إن العبرة إذن ليست بالصمعية، فلسفة إسلامية أم فلسفة عربية، وإن كنا نفضل من جانبنا تسميتها: فلسفة عربية. إن مصطلح الفلسفة العربية سيجلبنا إلى فهم خاطئ لفلسفتنا، يباعد بيننا وبين التفسيرات والتأويلات الفاسدة، سيجلبنا ننطلق انطلاقاً إيجابية بحيث نفهم فلسفتنا كما ينبغي أن يكن للفهم، ونربط بينها وبين متطلبات عصرنا الحالي وما سيحيط به من عصور المستقبل. وكم كان أكثر المستشرقين على صواب تماماً في استعمالهم لمصطلح الفلسفة العربية. ومن الذي قال إن فلاسفتنا القدامى كانوا مطلقيين من نقطة بداية إسلامية. إننا لو قلنا بهذا القول الخاطئ فكيف نبرر إذن هجوم الفزالي على الفلسفة وذهابه إلى تكفير الفلاسفة في مجموعة من الآراء التي قالوا بها. فأى الفريقين إذن هو المطلق من بداية إسلامية؟ الفلاسفة أم الفزالي؟ إذا قلنا للفلاسفة، فمعنى هذا أن الفزالي لاصلة له بالإسلام من قريب أو من بعيد لأنه قام بتكفير من نطلق عليهم: فلاسفة الإسلام. وإذا قلنا إن الفزالي هو الذي انطلق من نقطة بداية إسلامية، فمعنى هذا أنه من الصحيح تماماً الاعتقاد خطأ وصف فلسفة فلاسفتنا بأنها إسلامية.

إن الحل الذي ييسر لي أنه لحل الملامك والذي يعد معبراً عن رؤية عقلانية مستقبيلة هو أن نسمي فلسفتنا بالفلسفة العربية، وإنني أعلم تماماً ما قد يشيخه هذا الرأي من ضيق في نفوس بعضهم وتأويله تأويلاً فاسداً. ولكن ينبغي أن نعلم تماماً أن للعبرة بالحضارة وليس بأصل هذا الفيلسوف أو ذلك من الفلاسفة. فالفارابي إذا كان من أصل تركي فارسي. إلا أنه يعد من فلاسفة العرب لأنه عاش في ظل الحضارة العربية والدليل على ذلك أنه كتب أساساً باللغة العربية ولو كان المعيار هو الأصل،

لكانت كتب الفارابي بالفارسية، وما يقال عن الفارابي، يقال عن ابن سينا وهكذا إلى آخر الفلاسفة والذين يعد أصلهم غير عربي. ولكن أفكارهم جاءت تعبيراً عن الحضارة العربية، وكانت أكثر كتاباتهم باللغة العربية.

إننا إذا كنا نجد من أساتذتنا أمثال مصطفى عبد الرزاق، وإبراهيم مدكور من يفضلون مصطلح الفلسفة الإسلامية، ومن أساتذتنا أمثال أحمد لطفي السيد من يذهبون إلى تسميتها بالفلسفة العربية، فإنني من جانب لا أتردد في أن أطلق عليها مصطلح الفلسفة العربية وكفناً ما حدث من سوء فهم، وكفناً ما يلجأ إليه بعضهم من أرجح التعسف وإطلاق الأحكام غير الواضحة والتي تذكرنا بالكلمات المتقاطعة. وإذا كنا لا نلتحق على علم الهندسة مثلاً أنه هندسة مسيحية أو هندسة إسلامية. وإذا كنا لا نلتحق على علم النفس، علم نفس مسيحياً أو علم نفس إسلامياً، لأن الهندسة هي الهندسة في حد ذاتها، وعلم النفس هو علم النفس في حد ذاته، فلماذا إذن نلتحق على فلسفتنا مصطلح الفلسفة الإسلامية؟ إن فلسفتنا فلسفة عربية قلباً وقالباً. وهذا هو الصحيح فيما اعتقد به وأدافع عنه، تماماً كما نقول فلسفة إنجليزية وفلسفة ألمانية وفلسفة فرنسية، وغير مجد في يقيني واعتقادي الإصرار على تسميتها بالفلسفة الإسلامية مع ما في التسمية من أخطاء، وإن كان أكثرهم لا يطمون.

لا بد إذن من تعدد مجال الفلسفة وذلك حتى لاتقع في أخطاء لا حصر لها. واعتقد من جانبي أن الشيخ مصطفى عبد الرزاق قد جانبه الصواب حين رأى أن علم أصول الفقه يعد مبحثاً من مباحث الفلسفة. لقد أدى هذا الرأي إلى أخطاء لا حصر لها، إذ لا نجد صلة بين خصائص الفكر الفلسفي وخصائص علم أصول الفقه.

• شروح ابن رشد على أرسطو وحقيقة الفلسفة الرشدية:

إذا كنا قد أشرنا منذ قليل إلى أننا سندرس مجموعة من آراء ابن رشد والتي تعد معبرة عن كون فلسفتنا إنما هي في أساسها وجوهرها تعد فلسفة عربية، فإننا نجد أنه من الضروري القول بأن الدارس للفلسفة الرشدية، يجد أنه من أهم الأشياء أن يضع في اعتباره، أهمية شروح ابن رشد على أرسطو. إنه بعد واجبا علينا معشر المشتغلين بالفكر الفلسفي العربي عدم الاختصار على مؤلفات ابن رشد التي لا تمثل عندنا غير جانب واحد من فلسفته. أما إذا أردنا الفوص ورام المعاني للباطنة والحقيقية لفلسفته، فلا بد لنا من الرجوع إلى شروحه. ولدينا على ذلك أن الدارس لهذه الشروح يجد أنها قد تضمنت أهم وأكثر عناصر فلسفته، فطالما نجد بين تضاعفها نقدا حرا جريئا للمتكلمين وغيرهم من مفكرى العرب. وطالما نجد فيها أيضا دعوة إلى الثورة إلى البرهان، وتجاوز ما عداه من أساليب إنشائية وخطابية وجدلية.

ولكن قد يقال إن هذه الشروح لا تمثل وجهة نظره الحقيقية، إذ إن المادة قد جرت على أن المفكر حين يؤلف كتابا يودعه أفكاره الخاصة، وحين يشرح أو يفسر كتابا لغيره يقتصر على إيراد أفكار واضع الكتاب نفسه. ولكن ردنا على ذلك أن ابن رشد على وجه الخصوص يختلف تماما عن ذلك. فهو:

أولا: يودى إصجابة الشرح بأرسطو كما سيجيب لنا بعد قليل. وثانيا: نجد بين ثلثها مؤلفاته تأكيداً يذهب إليه في شروحه على أرسطو.

وهذا إن دلنا على شيء فإنما يدل على ضرورة الرجوع مباشرة إلى شروح الفلاسوف وبحيث نضمها إلى مؤلفاته إذا

أردنا فهم فلسفته فهما دقيقا، بل إن مؤلفاته تعد من بعض الزوايا أقل أهمية من شروحه.

نوضح ذلك بالقول إن مشكلة التوفيق بين الدين والفلسفة تعد مشكلة زمنية، بمعنى أن فلسفة العرب كان واجبه في عصرهم قبل البدء في تقرير نظرياتهم وضع محاولة للتوفيق بين الدين والفلسفة. وهذا هو دافع ابن رشد مثلا لكتابة «فصل المقال» ومناهج الأدلة. وهذان الكتابان طالما احتلنا بهما وبالفنا في بيان عمقهما متفاوتين عن شروحهما. بالإضافة إلى أن كتابه «تهافت التهافت» إنما كان الهدف الأساسي منه مجرد الرد على الغزالي، بمعنى أنه يتضمن عرضا نقديا.

قد إن فليصوفنا ابن رشد قد أبدى إصجابة بأرسطو. دليل هذا أننا إذا رجعنا إلى شروحه وبعض تأليفه وجدناه يفضل على جميع الفلاسفة الذين سبقوه وأنهم أتوا بعده حتى زمان ابن رشد فهو مثلا يقول في مقدمة تفسيره لكتاب الطبيعيات: «مؤلف هذا الكتاب كثر الناس صفلا. هو الذي ألف علوم المنطق والطبيعيات وما بعد الطبيعة، وأكملها وسبق قولي هذا أن جميع الكتب التي ألفت في هذه العلوم قبل مجيء أرسطو لا تستحق جهد المتحدث عنها».

ويقول ابن رشد في مقدمة تلخيصه لكتاب الحيوان لأرسطو: «نعمد الله كثيرا على اختياره ذلك الرجل - أي أرسطو - للكمال، فريضه في أسمى درجات الفضل البشري والتي لم يستطع أن يصل إليها أي رجل في أي عصر».

ونود أن نشير من جانبنا في معرض دعوتنا إلى هذا المنهج الذي قلنا إنه يمثل في المطالبة بالرجوع إلى شروح الفلاسوف على أرسطو، إلى أن هذا الإعجاب من جانب فليصوفنا لم يكن منه

مجرد شعور طارئ ففسب بل نصب أنه كان صادرا عن عقيدة. ولدينا على ذلك أن هذا الإعجاب من جانبه قد استحال إلى محاولة لتأييد أرسطو وتبرير أقواله في أكثر نظرياته، فهو يشائر بأرسطو ويرى أنه لم يكن مخطئا لأنه اتبع المنهج البرهاني. وإذا فهمنا ما يطيه بالبرهان - كما سيوضح بعد قليل - استطعنا القول بلا أدنى تردد إن شروحه هذه تعنى جزءا لا يتفصل عن نظرياته الفلسفية، بحيث لا يمكن دراسة نظرية من نظرياته إلا إذا استخلصنا فهما لها وتأريلا من خلال تلخيصه وشروحه على أرسطو بوجه خاص. بل لابد أن نستمد أساس نظرياته من خلال شروحه وتفسيره. فهو دائما ما يعمد إلى عرض آرائه الفاصلة في سياق شروحه. وهو إذا كان يفسر كتب أرسطو ويعطى عليها، فإنه بدوره يتجاوز التفسير والتعليق ويطلق إلى القضايا الفلسفية اللاهوتية ولا سيما في معرض رده على الأشاعرة بصفة خاصة والمتكلمين على وجه العموم ويستطيع أن يؤكد ذلك من جانب آخر. إننا إذا تعمقنا في شروحه وتلخيصه وجدنا من جانبه مخزى غاية في الدلالة. هذا المخزى يتمثل في أنه إذا كان يقدد رأيا من الآراء فذلك لأنه لا يخفق مع فلسفته ومع مبادئ أرسطو وفلسفته، التي قلنا فيما سبق أنه يريدنا تأييدا ظاهرا.

نضرب على ذلك مثلا واضحا من تلخيصه لكتاب من كتب أرسطو. يقول ابن رشد في تلخيص السماع الطبيعي لأرسطو: «إن قصدنا من هذا القول أن نعمد إلى كتب أرسطو فنجد منها الأقاويل الطيبة التي يقتضيها مذهبه أحسن أوقتها ونحف ما فيها من مذاهب غيره من القدماء إذا كانت قليلة الإقناع وغير نافعة في معرفة مذهبه، وإنما استعصنا نقل هذا الرأي من بين آراء القدماء إذ كان قد ظهر للجميع أنه أشد

إقناعاً وأثبت حجة. وكان الذى حركنا إلى هذا أن كثيراً من الناس يتعاملون الرد على مذهب أرسطو من غير أن يفهموا على حقيقة مذهبه فيكون سبباً لخداع الوقوف على ما فيها من حق أو منه.

يحاول ابن رشد إذن الدفاع عن القضايا الأرسطية. وهذا ظاهر ظهوراً بيناً من خلال شروحه وتفسيره ومن خلال مؤلفاته أيضاً. وإذا كنا ندعو من جانبنا اليوم إلى منهج جديد يمثل فى الاعتماد - كما قلنا - على شروحه بصفة خاصة فإن تحت هذا الكشور من النصوص التى تنهض دليلاً على تأكيد دعوتنا اليوم، وقد أن لنا معشر المشتغلين بالفكر الفلسفى العربى أن نبحث فى فلسفة ابن رشد بحثاً ينظر إليها من منظور يختلف عن ذلك المنظور الذى بحثت فلسفته على أساسه، وهو ذلك المنظور التقليدى الذى يبحث فيها من خلال مؤلفاته كفصل المقال ومناهج الأدلة وتهافت التهافت، من خلال بيان مدى اتفاقها أو اختلافها مع الجانب الدينى.

طريقة البرهان :

إذا كان ابن رشد - كما اتضح لنا - يؤيد أرسطو دون غيره فإن سبب ذلك أنه يحاول الارتفاع إلى مستوى البرهان - كما قلنا - ومحاولته الارتفاع إلى هذا المستوى البرهانى هو الذى جعله ينقد المنكلمين نارة والفارابى وابن سينا نارة أخرى، مبيناً أن كثيراً من أقوالهم لاتعدو كونها طرقاً إقناعية أو على أحسن الفروض طرقاً جدلية، وكل من المنطريقتين تمدان فى مرحلة أدنى من مرحلة البرهان.

تقول هذا اليوم ونؤكد على قولنا هذا. وما لانا قلنا إن هناك كثيراً من النصوص التى تقنع بذلك قلماً لاجال لشك فيه. فهو يقول فى تفسيره للكتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو: «فليس يوجب أن

نفحص فصحا بالفا عن أقاويل الذين حكمتهم شبهة بالخلاف، بل ينبغي أن نفحص ونسأل الذين قالوا ما قالوا بالبرهان».

وإذا قال قائل بأن هذا القول فى مدلوله يعد قولاً أرسطوياً فإننا من جانبنا نسوق قولاً من تهافت التهافت لابن رشد يؤيد اتجاه فيلسوفنا إلى البرهان. فهو يقول: «أعلى بالحكمة النظر فى الأشياء بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان»، كما يقول فى معرض تفصيله الطريق البرهانى على ماعده من طرق أخرى: «إن الأقاويل البرهانية قليلة جداً حتى إنها كالذهب الإبريز من سائر المعادن والدر للخالص من سائر الجواهر، كما يقول فيلسوفنا أيضاً فى معرض رده على الخزالى - إن الفلاسفة يبحثون على أساس هذا البرهان فهم قد طلبوا معرفة الموجودات بعقولهم لاستندين إلى قول من يدعهم إلى قبول قوله من غير برهان - بل ربما خالفوا الأمور المصروفة.

ابن رشد يقول هذا فى مؤلفاته. وقد استفاد ذلك كله من خلال شرحه لمؤلفات أرسطو. استمع إليه يقول فى تفسيره لكتاب الموزيقا لأرسطو - فى معرض رده على علماء الكلام الذين هم أساساً فيما يرى أهل جدل البرهان - يقول فيلسوفنا: فإنه لما كان هذا العلم - سيقتصد به نصرة آراء قد اعتقدوا فيها أنها صحاح، عرض لهم أن يصورها بأى نوع من الأقاويل اتفق، فسطانية كانت، جاحدة للمبادئ الأولى أو جدلية، أو خطابية، أو شميرية، وصارت هذه الأقاويل عدد من نشأ على سماعها من الأمور المعروفة بنفسها^(١).

ونستطيع أن نستخلص من ذلك كله أن ابن رشد ينقد طريقتين ويرضى لنفسه طريقاً ثالثاً فهو ينقد الأدلة الخطابية - وهذا هو الطريق الأول - لأنها جسط

لأهل الإقناع الذين يسلكون المسلك الإقناعى فى جوانب بحكم واعتقدهم.

وهو ينقد أيضاً الأدلة الجدلية، وهذا هو الطريق الثانى - إذ إنها خاصة بالجدليين أصحاب علم الكلام. ونقد لهم أصنف من نقده لأصحاب المسلك الإقناعى. فهم لم يبقوا عند حدود الأدلة الإقناعية وما فيها من بساطة، كما لم يمتصعوها الصعود إلى مستوى البرهان، بل نقدوا مسلك كل من أهل الإقناع والفلاسفة.

أما الطريق الثالث - وهو كما قلنا إن ابن رشد يرتضيه لنفسه - فهو طريق البرهان وهو عده خاص بالفلاسفة، أو ينبغي أن يكون كذلك. وابن رشد يؤيد المسلك البرهانى أو القياس البرهانى لأنه فيلسوف أصلاً. والمبادئ التى يلتزمها أهل البرهان هى المبادئ العقلية والمنطقية التى لا يستطيع أى فيلسوف التخلى عنها فى بحثه فى قضايا الفلسفة.

إذا رجعنا إلى تلخيص ابن رشد لبرهان أرسطو، وجدنا ابن رشد يقول: إن البرهان يقرر أننا نعلم الشيء علماً حقيقياً متى علمناه لا لأمر عارض على نحو ما يفعل السوفسطائيون بل متى علمناه بالغة الموجودة لوجوده، وعلمنا أنها علته وأنه لا يمكن أن يوجد دون تلك العلة.

كما يذهب إلى أنه كان من الضرورى أن يفيد البرهان علم الشيء على ما هو عليه فى الوجود بالغة التى هو بها موجود - إذا كانت تلك العلة من الأمور المعروفة لنا بالطبع - فإنه يجب أن تكون مقدماته صادقة، وأوال، وغير معروفة بحد أوسط، وأن تكون أحرف من النتيجة وأن تكون علة النتيجة بالوجهين جميعاً: أى علة لعلنا بالنتيجة وعلة لوجود ذلك الشيء المنتج نفسه.

بالإضافة إلى أن هذه المقدمات تصرف بالعقل وهو الذى يدرك أجزاء

القضية المعروفة بنفسها، دليل هذا أن النتيجة الضرورية - فيما يرى ابن رشد - لا تكون إلا عن مقدمات ضرورية وإذا كان من شرط العلم الحق أن تكون النتيجة ضرورية، فإنه يجب أن تكون مقدمات البرهان ضرورية، أي غير مستحيلة ولا متغورة.

نظرية المعرفة :

قلنا إن ابن رشد قد ارتضى طريقاً للبرهان مستمداً أساسه من أرسطو وذلك من خلال شرحه، ثم حاول تطبيقه على المشكلات الفلسفية كافة. وهذا يؤدي بنا إلى التأكيد على القول بضرورة الاعتماد أساساً على الشرح، وبحيث إذا إذا وجدنا ثمة تعارضاً بين قضائيه التي ذهب فيها في تضاعيف شروحه وقضائيه التي ذهب إليها في مؤلفاته، فإن الأساس عندنا هو الشروح لا المؤلفات، التي لا يخفى - كما قلنا إن بعض ما فيها قد وضع لنظروف وأسباب تاريخية.

وإذا كنا قد سبقنا فيما سبق بعض الأقوال التي ذكرها ابن رشد والتي تهدينا إلى الطريق الذي ارتضاه، فإننا أيضاً إذا رجعنا إلى الأسس الرئيسية التي تحكم نظرياته رجحنا صدق ذلك. بمعنى أنه من السهل علينا رد عناصر فلسفته إلى مبادئ استقامها من أرسطو وتوصل إليها - كما قلنا - من خلال قيامه بالشرح والتفسير، مقدماً لنا الدليل قوئ الدليل على صحة ما ارتضاه وقرره، ويمكن أن نخل على ذلك بأزمة موجزة غاية الإيجاز قاصدين من ذلك، الدعوة إلى تجاوز ذلك الطريق التقليدي والذي طأناه بحلقت فلسفته على أساسه، ومن بينها نظرية المعرفة.

فهو مثلاً في هذه النظرية يتجاوز المعرفة الحسية ليمس إلى المعرفة العقلية، طبقاً لما يقول به من تدرج الوظائف العقلية، وبناء على رأيه الذي ذهب فيه إلى أن العقول تستند إلى المحسوسات.

وهذا إن دلنا على شيء فإنما يدلنا على أن فيلسوفنا شأنه في ذلك شأن أرسطو، يصعد من الحسي إلى العقلي ومن الجزئي إلى الكلي، فليس لطم علما للمعنى الكلي، ولكنه علم للجزئيات بنحو كلي يتمثل في قيام الذهن بتجريد الطبيعة الواحدة المشددة التي انقسمت في المواد.

من هذه النقطة - فيما نمتد - يبدأ ابن رشد في بيان رأيه في مشكلة غاية في الأهمية لمبت دوراً مهماً عند فلاسفة ومتصوفة للعرب، فإذا كنا نجد طريقين للاتصال: اتصال يبدأ بالمحسوسات حتى يصل إلى حصول العقولات في عقلا، واتصال يعتمد على القول بأنه موهبة إلهية لاكتنوس إلا للسعداء، فإن ابن رشد يقول بالطريق الأول وذلك طبقاً لمذهبه في تدرج المعرفة الإنسانية من المحسوسات حتى تصل إلى العقولات، أي يقول بتطور طبيعي للمعرفة متكاملاً طريق التصوف، وذلك - كما قلنا - يتمثل في إعلانه أنه لا سبيل إلى الاتصال إلا بالطم، أي عند النقطة التي تصل فيها ملكات الإنسان إلى أقصى قوتها.

العلاقات بين الأسباب والمسيبات :

قلنا إن ابن رشد قد بحث في مجالات وموضوعات عديدة وإذا أردنا أن نتنقل من البحث في المعرفة إلى البحث في الوجود نجد ابن رشد وجدنا أنه كما انتصر للعقل في بحثه في المعرفة، فإنه فعل ذلك حين بحث في الوجود. لقد ابتعد ابتعاداً تاماً عن كل رأى لا يتفق مع العقل.

وإذا كان البحث في الوجود بعد بحثاً مشعب الجوانب، فإننا سنقتصر على بعض الشرائح أو الجوانب في بحثه في الوجود.

فالواقع أن للدرس للفكر الفلسفي العصري يلاحظ أن المفكرين الذين

يتجهون اتجاهها عقلياً كابن رشد يقررون أن العلاقات بين الأسباب والمسيبات تعد علاقات ضرورية، ولكن المفكرين الذين لا يعتمدون على العقل كالأشاعرة والفرغاني يذهبون إلى أن العلاقة بين الأسباب والمسيبات تعد علاقات غير ضرورية، بل ترجع إلى مجرد العادة، والله تعالى قادر على خرق العلاقات بين الأشياء لأنه تعالى يؤثر في الأشياء بطريقة مباشرة وإرادته مطلقة غير مقيدة بضروريات فكل شيء ممكن بالنسبة له تعالى وكل حركة وكل تغيير مصدره الله. ومعنى هذا أن نفى القاعدة السببية بعد مبدأ من مبادئ الأشاعرة، بدليل نهائهم إلى أن الله إذا أراد تغيير النظام الذي يهتد لنا في الوجود لاستطاع ذلك، وبذل الصادة وغلق عرصنا بدلا من عرض آخر، وهذا يؤدي بدوره إلى حدوث معجزة، إذ المعجزة ما هي إلا خرق للعادة.

هذه أدلة تنهض على نفى القاعدة السببية، أي عدم الاعتراف بالعلاقات للضرورة الممعدة السببية بين الأسباب ومسيباتها. وهم لهذا يؤكدون باستمرار على ما يسمونه بالعادة الأولى، أما ما يسمى بالعقل القريبة فإنه لا يخرقون بها، إذ من الممكن أن يحدث الشيع رغم عدم تناول الطعام ومن الممكن أن يحدث الجوع رغم تناول الطعام وهكذا إلى آخر هذه الأمثلة، ومعنى هذا أن ما يهتد من عمل العقل القريبة بعد من قبل الوهم، لأن الله هو الذي خلقها كما يخلق لنا ما يظهر من آثارها.

وإذا كان الأشاعرة يذهبون إلى نفى القاعدة السببية، فإن الفرغاني قد تأثر بهم أكبر تأثر، بحيث إن موقفه في هذا المجال بعد موقفاً أشعرياً قلباً وقالباً. فهو قد سار على نهج طائفة من كبار الأشاعرة كأبي الحسن الأشعري والباقلاني، فيما يختص بقولهم إن

الاقتصران بين ما يعرف بالسبب وما يعرف بالمسبب، إنما هو اقتصران مرده إلى العادة، لا إلى الضرورة العقلية.

وقد عرض الفزائلي موقفه الذي سار فيه على نهج الأشاعرة، في العديد من كتيبه كالمعقد من الضلال وتهافت الفلاسفة، لكي يبين لنا أنه من الجائز مثلا وقوع الاتصال بين القطن والدار دون حدوث احتراق أو تحول القطن إلى رماد محترق دون ملاقة النار.

هذا عن التيار الأشعري الذي تابعه الفزائلي، فما هو موقف فيلسوفنا ابن رشد؟ لقد اهتم ابن رشد اهتماما كبيرا بالبحث في هذا المجال لأنه يتطرق تعلقا تاما بنظرته إلى الوجود، وتستطيع أن نقول إن نظرة ابن رشد لمشكلة السببية تعد - كما سبق أن ذكرنا - لانتصارا للعقل، ويتمثل هذا الانتصار للعقل سواء في الجانب النقدي الذي اهتم فيه ابن رشد بنقد الأشاعرة والفزائلي، أو في الجانب الإيجابي الذي عبر فيه عن موقفه، ولنقف الآن وقفة قصيرة عند هذا المجال، مجال السببية عند ابن رشد، حتى يتبين لنا كيف انتصر ابن رشد للعقل.

لقد كان ابن رشد حريصا على نقد رأى الأشاعرة الذين لم يحرروا كما ذكرنا - بالعلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها: إن أفلاهم في نظره تعد أقوالا سفسطائية ومخالفة لطباع الإنسان في اعتقاداته وفي أعماله. ومن هنا يكون إنكار وجود الأسباب الفاعلة التي تفاهدها في المحسوسات إنما هو من قبيل الأفعال السفسطائية.

ولكن ماذا يعنى ابن رشد بالأقوال أو الأفعال السفسطائية حتى ينقد الأشاعرة؟ إنه يعنى أننا نتصرف في حياتنا بناء على أن لكل شيء طبيعة ثابتة، فطبيعة الماء هي البرودة، وشرب الماء لا يد أن

يؤدى إلى الارتواء، فإذا قلنا إنه لا توجد علاقات ضرورية بين الماء والارتواء أو بين النار والحرارة فسيكون هذا يعنى أن أقوالنا لا تتفق مع تصرفاتنا وأفعالنا.

ومن هنا يذهب ابن رشد إلى أننا نجد لكل شيء طبيعة خاصة وفاعلا معينا. فالنار مثلا إذا قربت من الشيء للقبال للاحتراق ولم يكن هناك عائق يعوقها عن الإحراق، فسيكون هذا يؤدى إلى الاحتراق ضرورة.

ونود أن نشير إلى أن ابن رشد يبين لنا أن موقفه يعد موقفا متفقا مع الذين إذ إن الاعتقاد بالعلاقات الضرورية بين الأسباب والمسببات، والاعتقاد بأن لكل شيء طبيعة معينة وخاصية محددة، سيؤدى بنا إلى أن نتعرف على الحكمة الإلهية والعناية والغاية في هذا الكون. يقول الله تعالى: «صنع الله الذى أتقن كل شيء»، ويقول تعالى: «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور».

قلنا إن نظرية ابن رشد في هذا المجال تعد لانتصارا للعقل، إذ إنه بعد أن قرر أن العلاقات بين الأسباب والمسببات تعد علاقات ضرورية ذهب إلى أن من يلغى الأسباب ولا يؤكد على وجودها فإنه يلغى العقل الذى يندلج على أسباب الموجودات، إذ إن العقل ليس شيئا أكثر من إدراك الموجودات بأسبابها ومن رفع الأسباب فقد رفع العقل.

وبهذا ينتهى ابن رشد إلى الربط بين السبب والعقل، فالحكمة هي معرفة الأسباب التي تقدم على منطق العقل. ومن هنا لا تكون الآراء التي ارتضاها الأشاعرة لأنفسهم محررة عن العقل، وهذا السبب الرئيسي الذى دفع ابن رشد إلى نقد موقفهم وكل موقف يشابه موقفهم معبرا عن انتصار للعقل في هذا المجال من المجالات الفلسفية التي يبحث فيها.

قدم العالم:

هذا عن مشكلة العلاقة بين الأسباب والمسببات، فإذا انتقلنا إلى مثال ثان من بين عشرات الأمثلة التي تهمض على تأييده الاتجاه الأرسطي ومحاولة الوصول إلى الطريق البرهاني اتضح لنا ضرورة الرجوع إلى شروحه بصفة خاصة.

هذا المثال يبدو في أمله على قدم العالم والتي قد بها اعتراضات الفزائلي التي تقوم على القول بحدوث العالم.

ففى الدليل الأول نراه يؤيد مرافق الفلاسفة ويقوم دليله على فكرة الحركة الأرسطية - وهو بذلك قد ابتعد عن الطريق الجدلي والإقناعى حتى يصل إلى مرتبة البرهان بحيث يبدو لنا أن مفتاح فلسفة ابن رشد كلها إنما يتمثل في هذه التفرقة بين الطرق الثلاثة مختارا منها الطريق الثالث الذى يعده أكثر الطرق سموا ويقينا وهو طريق البرهان كما قلنا.

أما الدليل الثانى فيقيم على فكرة الزمان. وإذا تعمقنا في دراسة هذا الدليل وجدنا تأثيرا أرسطو إلى حد كبير. إذ إنه يربط دائما بين آراء أرسطو وبين آرائه هو في الطبيعة الضرورية لكل موجود.

وفى الدليل الثالث يناقش فيلسوفنا فكرة الإمكان أو الاحتمال ويذهب إلى دعمها تماما. وهو يتساءل عن المبرر والباحث على تجدد الموقف بالنسبة لله الذى لا يتغير أبدا.

أما فى الدليل الرابع والأخير فنجد يناقش فكرة وجود مادة أو محل قابل للشيء الممكن ذاهبا إلى أنه لا يمكن أن يكون شيء عن لاشيء - فإن معنى الذكون هو انقلاب الشيء وتغيره ما هو بالقوة إلى ما هو بالفعل. ولذلك لا يمكن أن يكون عدم الشيء هو الذى يتحول وجوبنا ولا هو الشيء الذى يوصف بالكون أصلى الذى نقول فيه إنه يتكون.

خاتمة :

إذا كان الفيلسوف العربي ابن رشد، قد انتقل إلى دار الخلود في العاشر من ديسمبر عام ١١٩٨م، فإننا تخليداً لتكراره لابد وأن نشير إلى بعض الدروس التي يمكن الاستفادة منها في حياتنا التي نحياها، أي حياتنا الفكرية، وذلك بعد أن أشرنا إلى بعض نماذج فكره كفيلسوف عربي، فإذا كنا نتحدث اليوم عن قضايا كالثراث والأصالة والمعاصرة والتجديد، وموقفنا من الحضارة الغربية، وموقفنا من العقل وعلاقته بتراث الأقدمين، أقول إذا كنا نتحدث اليوم عن هذه للقضايا والجوانب، فإنه من الضروري - فيما أرى من جانبى - الرجوع إلى تراث هذا الفيلسوف ابن رشد، إذ إننى أعتقد أن الآراء التي قال بها تفويها غاية الفائدة فى تحديد موقفنا من أكثر هذه القضايا.

لقد قدم لنا هذا المفكر العملاق، نسفاً فلسفياً محكما يمد تعبيراً عن ثورة العقل ولتصايره، ويذل في التوصل إلى الآراء التي يتكون منها نسقه الفلسفى جهداً وجهداً كبيراً، وإذا كانت بعض آرائه قد لاقى كثيراً من أوجه المعارضة سواء فى أوروبا أو فى بلداننا العربية فإنها قد لاقى الإعجاب أيضاً. بل إن هذه المعارضة فى حد ذاتها تعد دليلاً وبنياً قوياً على أن آراءه كانت وما زالت آراء حية تعبر عن فكر مفتوح لأفكر مطلق، وكان ابن رشد بهذا كله جديراً بأن يدخل تاريخ الفكر الفلسفى العالمى من أوسع وأرحب أبوابه.

ويقضى أن أى دارس لتاريخ الفلسفة العربية لن يكون بإمكانه، إذا كان منصفاً وموضوعياً فى أحكامه تخطئ أو تجاوز آراء هذا الفيلسوف الممتاز التفكير سواء فى جانبها النقدي أو جانبها الإيجابي. هذا الفيلسوف الذى قدر له أن يكون آخر فلاسفة المغرب العربى، بل آخر فلاسفة العرب، بالمعنى الدقيق لكلمة الفلسفة وكلمة الفيلسوف.

وإذا أردنا أن نبحث عن نقطة انطلاق لما نتحدث عنه اليوم من قضايا الأصالة والمعاصرة، وإذا أردنا وصل ما انتقع، أى أن نجد مستقبل فلسفة فى وطننا العربى، فلا مفر فيما يبدو لنا - من تدبر آراء هذا الفيلسوف ودراساتها دراسة دقيقة، وكى فى فلسفته من آراء ملازنا فى القرن العشرين فى حاجة ماسة إليها.

ويكى فيلسوفاً فخراً أن فلسفته كانت معبرة عن عظمة الفكر الذى تتلاقى أمامها ولا تقترب منها أى عظمة أخرى. يكفى فيلسوفاً فخراً أن فلسفته لم تكن محصورة فى نطاق العلاقة بين الدين والفلسفة، وكأنه أدرك أنه يجب النظر إلى الفكر الفلسفى فى حد ذاته وبصرف النظر عن لشعراء هذا الفكر أو إبتعاده عن موضوع العلاقة بين الدين والفلسفة.

إننا إذا نظرنا إلى ابن رشد كمجرد فيلسوف إسلامى، فإن هذه النظرة تعد خاطئة قلباً وقالباً ولا يصح أن نقل من أهمية نقده للغزالي وكيف أن مطلقات ابن رشد، تختلف اختلافاً جذرياً عن مطلقات الغزالي فإذا حصرنا فلسفة ابن رشد فى النطاق التوفيقى فكيف نبرر إذن هجوم الغزالي وإجواره إلى تكفير الفلاسفة؟.

إن ابن رشد إذا كان قد استفاد من فلسفة اليونان وفلاسفة العرب فى المشرق العربى وفى المغرب العربى ولذين سبقوه ومهدوا له الطريق، طريق العقل، إلا أنه قدم لنا مذهباً لا نستطيع أن نقول إنه بعد مجرد سدى لآراء من سبقوه، بل كان تعبيراً من جانبى عن آراء فريدة وبنية وناضجة صادرة عن منهج ارتضاه لنفسه هذا الفيلسوف الذى يعد - فيما نرى من جانبنا - أكبر صيد للفلسفة فى بلاد المشرق والمغرب معاً وصاحب انتهاء يقوم على إعلاء كلمة العقل فوق كل كلمة.

غير مجد فى ملئى واعتقادى إعمال فلسفة وفكر هذا الفيلسوف. ومن الأمور التى يأسف لها أننا فى عالمنا العربى لم نستفد بعد من دروسه الاستفادة الكاملة، هذا على الرغم من أن أوروبا قد استفادت من آراء هذا الفيلسوف واستوعبت دروسه جيداً. لقد أدت آراؤه العلمية والعقلية إلى التقدم الفكرى لأوروبا التى أخذت بآرائه فى حين تأخر الشرق بوجه عام لأنه كان عالة على الغزالي، هذا المفكر الذى حشر حشراً فى زمرة الفلاسفة وقال بآراء غير عقلية.

إننا يجب أن نأخذ عظة من التاريخ، أى الربط بين تقدم أوروبا وفكر ابن رشد من جهة، وتأخر الغرب والشرق وفكر الغزالي من جهة أخرى. فهل استفدنا جيداً من هذا الدرس؟ وإلنا الفكرى اليوم يقول إننا لم نستفد شيئاً.

إن عالمنا العربى اليوم من مشرقه إلى مغربه تسوده وتسيطر عليه اتجاهات غير عقلية، اتجاهات تدخل فى مجال اللامعقول، وما أخرجنا إلى أن نتذكر تماماً دروس أعظم فلاسفة العقل عدد العرب على وجه الإطلاق، وهو فيلسوفنا ابن رشد.

إننا نعانى اليوم من فقر فكرى واضح، نعانى من جذب عقلى، واعتقد اعتقاداً راسخاً أنه بالإمكان تجذب هذا للفقر الفكرى والابتعاد عن حالة اللجذب العقلى بالرجوع إلى فلسفة ابن رشد التى كانت معبرة كما قلت، عن ثورة العقل، مؤيدة لاتصاير العقل.

لقد ترك لنا ابن رشد كتباً ورسائل فى مجال الفقه، وقد بحث فى مجال الفقه من خلال منظور عقلانى. وقد أن لنا الآن - بعد أن وصلنا إلى حالة من التخلف الفكرى الرجوع إلى آرائه للفقهية، أو على الأقل الاستفادة من منهجه فى هذا المجال.

لقد اشتغل ابن رشد بالطب وترك لنا أكثر من كتاب ورسالة وقدم لنا كثيراً من الآراء العلمية في هذا المجال. وإقدام ابن رشد على التأليف في مجال الطب يدل على أنه كان يعزّز بالعلم وما أخرجنا أن نستفيد من دفاعه عن العلم، فإن هذا أفضل لنا، إننا لو كنا فعلنا ذلك لما وجدنا ما يشيع الآن في صالنا العربي من تيارات تسخر من العلم، تسخر من الحضارة. إن هذه التيارات الخرافية واللاعقلانية إذا قدر لها الاستمرار والنمو، فسوف تصبح أضحوكة بين الأمم وستلحق بنا لغة السماء.

لقد دعا ابن رشد من خلال أكثر كتبه إلى الانفتاح والاستفادة من أفكار الأمم الأخرى وما أخرجنا الآن إلى تلك الدعوة.

أقول أننا الآن في أمس الحاجة إلى الاستفادة من دعوة ابن رشد إلى الانفتاح على أفكار الأمم الأخرى. صار علينا الاستماع إلى تلك الدعوات التي تصدر الآن عن بعض العقول الصديقة، عقول العصر المجري، والتي تصف لنا أفكار الأمم الأخرى بأنها تعد كبحر من الظلمات. نعم مازلنا نجد بيننا في بلداننا العربية وفي الوقت الذي نحن في أمس

الحاجة إلى الانفتاح على علم الغرب وحضارة الغرب، أقول مازلنا نجد بيننا من يصور لنا الانفتاح الفكري وكأنه كفر فهل بعد هذا نطمع في التقدم، أي تقدم؟

إنني أعتقد اعتقاداً راسخاً بأننا إذا كنا قد استمعنا إلى صوت العقل، صوت المنطق، صوت ابن رشد وهو يخاطب في كتبه بوجوب الإقبال على علوم الآخرين، وما كان منها صواباً قبلناه منهم، وما كان منها ليس بصواب، نهينا إليه لكان الحال غير الحال، هذا ما قاله لنا ابن رشد ويبغي أن نستوعب هذا الدرس جيداً ومن الغريب أن هذا الصوت قد نطلق منذ أكثر من ثمانية قرون من الزمان، ولكننا صممنا أذاننا عن الاستماع إليه حتى وصلنا إلى تلك الحالة التي برئى لها.

نعم لقد حذرنا ابن رشد من كل دعوة لا تقوم على العقل. نهينا إلى مغالطات الأشاعرة مثلاً كترفة من التفرق للكلامية التي تعد مسئولة عن طرح العقل جانباً بل السفيرة منه. فهل فهم الآن ما نهينا إليه. إننا لم نفهم شيئاً فوقعنا فيما وقعنا فيه من الابتعاد عن العقل وإننا ابتعدنا عن العقل، فمعنى ذلك الوقوع في اللامعقول، بل أقول الوقوع في الخرافة والأساطير.

رحم الله ابن رشد الذي حذرنا من أخطاء ومغالطات مفكر كالغزالي. فهل استمعنا اليوم إلى تحذيره؟

إننا اليوم إذا كنا بين أمرين اثنين لا ثالث لهما، إما الاحتكام إلى العقل ورجله الدليل والرائد، أو اللجوء إلى اللامعقول والخرافة، فيقضي أننا لا بد وأن نخار الطريق الأول الذي دعانا إليه ابن رشد منذ أكثر من ثمانية قرون، دعانا إلى هذا الطريق منها ومسخرنا من مخاطر الطريق الثاني، الطريق المظلم، للطريق السودود، الطريق المغلق.

وإذا أردنا لأنفسنا الحياة، إذا أردنا تجديد فكرنا الفلسفي والعربي، فيجب علينا أن نستمع إلى صوت ابن رشد، صوت الأستاذ، صوت عمود الفلسفة العقلية في عالمنا العربي. هذا ما نقوله اليوم ونحن نحلل هوية فكر ابن رشد، هوية فلسفتنا وكيف أنها أساساً تعد فلسفة عربية حتى لا ننظر إليها من خلال المنظور التوفيقى، المنظور الذي باعد بيننا وبين الالتزام بخصائص الفكر النفسى. فهل يأتري سجد هذا القول من جانبنا صداه، هل سجد أذاننا صاغية في عالمنا العربي المعاصر من مشرقه إلى مغربه؟ ■

هامش :

١ - لنظر تفصيل ذلك كله في كتابنا: الذرة العقلية في فلسفة ابن رشد من ص ٥٠ وما بعدها، وكتابنا: السجج النقدي في فلسفة ابن رشد، وكتابنا: تجديد في المذهب الفلسفي والكلامية، وأيضاً كتابنا: ذرة العقل في الفلسفة العربية.

نقطة الخطاب

من الإيديولوجيا إلى المعرفة

على مبروك

مدرس مساعد - آداب القاهرة - فلسفة

فما منذ اللحظة التي أدرك فيها
الطوطاوى أنه لا سبيل إلى حصد
جملة الأفكار - الليبرالية خاصة - التي
تعرف عليها على الجانب الآخر من
البحر؛ حيث أوروبا الناهضة ، فى أواسال
عالمه الخامد إلا عبر تبريرها تراثياً، فإن
الخطاب المرمى المعاصر لم يعرف،
وعلى مدى تاريخه، إلا مجرد التبرير -
ومن خلال التراث بالطبع - لكل أشكال
الأيديولوجيا التي راح يستعيرها ...
ودلماً من الجانب الآخر للبحر. ولعل هذا
الحضور التبريرى للتراث فى بداية
الخطاب يكشف عن كون التراث ليس
حاضراً لأجل ذاته، بل لأجل غيره.
ولذلك فإننا (الحضور التبريرى) لم
يستلزم وعياً بالتراث فى سياقاته المتنوعة
له، وبما يسمح بإعادة بدائه على نحو
منتج، بقدر ما فرض إدراكاً له فى لا
تاريخيته؛ أى عزلا له عن جملة هذه
السياقات، كما يسهل انتزاعه منها لأداء
الدور التبريرى الذى أناطه به الخطاب .
ولقد كان ذلك يتحقق عبر عزل المفهوم
فيه (فى التراث) عن شبكة المفاهيم
المتضافرة معه، والتي لا فعالية له بمعزل
عنها، ثم التمييز فيه بين شكل وبين
مضمون (لا بد من إهداره) ليبقى الشكل
فارغاً وجاهزاً لتقبل كل أشكال
الأيديولوجيا المستعمارة. وهكذا ينتهى
الحضور التبريرى للتراث فى بداية
الخطاب إلى الإهدار الكامل له، وبحيث
لا يبقى منه غير جملة قوالب وأشكال
فارغة لا تقبل شيئاً سوى التبريد
والنكرار. ولعل ذلك يكشف عن أن
الحضور التبريرى للتراث هو علة
الحضور التبريدى له، ومن هنا - لا شك
- عزز الخطاب عن إنتاج معرفة حقيقية
به، ودوام معرفته به، وحتى بأشكال
الأيديولوجيا التي استخدم فى تبريرها،
مجرد معرفة زائفة. إذ أن السعى إلى
غرس هذه الأشكال الأيديولوجية، عبر

مجرد التبرير لا يجعل الخطاب بحاجة - أيضاً - إلى المعرفة الحقبة بها؛ وأعنى الرعى بها في سياقاتها التاريخية والمعرفية المنتجة لها، ولتلى لا فاعلية لها خارجها.

لم يكن ثمة في الخطاب، إذن، إلا مجرد السعى إلى الاستهلاك الأيديولوجي للتراث؛ وأعلى ذلك الانشغال بالبحث فيه عما يدعم توجهه الأيديولوجي معينا (ليبرالي أو قوميا أو حتى ماركسيا) ، أو الانشغال بأن يكون نفسه هو الأيديولوجيا قائمة بذاتها، وتسعى الآن إلى فرض نفسها على الواقع باعتباره بديلا لكل أشكال الأيديولوجيا التي تراها غير أصيلة. ولكن هذا التوجه بالتراث إلى أن يكون أيدىولوجيا بديلة لا يأتي نتاجا للمعرفة الحقبة به، بل يأتي نتاجا لحضوره التبريري أيضا، ذلك أنه - كغيره من أشكال الأيديولوجيا الأخرى - يتبلور بوصفه ضربا من المعرفة الزائفة بالواقع. وأعنى أن هذا التبلور لا يأتي نتاجا طبيعيا لمركبة الواقع وتطوره الخاص، وإنما ينشأ عن مجرد السعى إلى تبرير التخلي عن أشكال الأيديولوجيا المستعمارة من الغرب، لحساب أيدىولوجيا أخرى لا تختلف إلا في أنها مستعمارة من السلف، ولذلك فإنها لا تختلف عن غيرها في كونها قبلورت واكتملت خارج الواقع، وجاءت تفرض نفسها عليه قهرا. ومن هنا فإنها لا يمكن أن تكون أبدا نتاجا أصيلا، لأن ذلك كان يقتضى منها استمساكها شاملا للتراث واستدماجها له في صميم بنائها الخاص، ترطقة لتجاوزته وتخطيته، وذلك على النهر الذى يتحول به عن وجوده الخاص إلى أن يكون موجودا من أجلها بدل أن تكون هي الموجودة من أجله، أى أن الأمر كان يقتضى إنتاجا معرفيا للتراث وتجاوزا للاستهلاك الأيدىولوجى له. ولأن ذلك لم يتحقق بعد، فإن التوجه بالتراث إلى

أن يكون أيدىولوجيا بديلة يبقى كغيره، مجرد ضرب من المعرفة الزائفة بالواقع؛ أعنى أنه يبقى وجها للأزمة، لا تتجاوز لها.

وللأسف أن هذا الاستهلاك الأيدىولوجى للتراث قد أحاله إلى عالم من الفوضى الشاملة، راحت معها الأيدىولوجيات المتعارضة إلى حد التضاد تجد في ذات التراث ما يدعم وجودها ويبرره. فهذا التراث، هكذا حاويا للشيء وتقيضه في آن معا ... لكنها هنا ليست نقالضه الذاتية التي تدرى وتضى، بل نقالض تفرض نفسها عليه من الخارج، ولذلك فإنها أدنى إلى أن تهدر وتفسكر. ذلك أن قانون ظهور هذه النقائض واختفائها ليس داخل التراث، بل يقع خارجه، ولهذا فإنها لا يمكن أن



الطهطاوى

تكون أبدا حليلا على ثراء التراث وغناه.. حقا يتكشف التراث بالفعل عن ثراء وغناه حقيقيين، ولكنه لا يأتي أبدا من تلك التناقضات الهشة المفروضة عليه من الخارج، بل من تناقضاته الحقبة التي ينتظمها، تاريخيا ومعرفيا، قانونه الباطنى الخاص، الأمر الذى يجعلها نتاجا لشرائه لا فوضاه، وأما الاستهلاك الأيدىولوجى الراهن للتراث، فإنه لا يتكشف عن أى ثراء، بل عن الفوضى كاملة وشاملة، وذلك من حيث أن تعدد الأيدىولوجيات التي تتسلق عليه وتعارضها، ليس نتاجا لتناقض حقيقى، بل نتاجا لتناقض مشوه ينتظمه السعى الدائب للخطاب إلى إنتاج معرفة بواقعه، لا يمكن إلا أن تكون زائفة، كونها لا تتخذ نقطة انطلاقها من الواقع، بل تأتي كمنادج جاهزة مطعنة تفرض نفسها عليه من الخارج، ولذلك فإنها تتجه إلى البحث في التراث عما تدعم به وجودها، وذلك من حيث لا تجد في الواقع، أصلا أى سند لوجود أصيل. وهكذا يتبلور الدور الجوهري للتراث في مجرد تدعيم فرضى الأيدىولوجيات السابحة في فضاء الخطاب. وفي حدود هذا الدور فإن أحدا لم يجد أية ضرورة لإنجاز فهم شامل للتراث في شموله وكنيته، واكتفى الجميع بالانتقاء النفعي من التراث، كل حسب موقفه الأيدىولوجى. وإذ الانتقاء هنا توجهه الأيدىولوجى، فإنه بات حقا على التراث أن ينطق بمضمون هذه الأيدىولوجيا، وفي أكثر صورها حدائثة، الأمر الذى أحاله إلى ساحة راح كثيرون يسقطون عليها أوهامهم الأيدىولوجية. والحق أن حضور التراث في معية هذا الوهم الأيدىولوجى، يبدو - بدوره - مجرد حضور وهمي أيضا، الأمر الذى يعنى أن الاستهلاك الأيدىولوجى للتراث - والحدائثة كذلك - لم يتمخض إلا عن

الزهر شاملا ومسطورا... فلا هو أحياء
تراثا، ولا هو استبنت حذقة، بل عاشها
أوهامها، وإذلك فإن إخفاقه في إنجاز
النهضة كان ذريعا.

وعندئذ بدا لازما تجاوز هذا
الاستهلاك الأيديولوجي للتراث إلى
إنتاجه معرفيا، بعد أن بدا ذلك هو الشرط
الجوهري لأن يكون التراث منتجاً للنهضة
حقاً. إذ للنهضة الحق لا يتأتى لها البنية
أن تبدأ من خارج تراث الذات، ليس فقط
لأجل كونه جماع خبرتها الماضية، بل -
والأهم - لأجل كونه أحد أهم مكونات
الواقع الزمان من جهة، ولأجل كونه
كذلك المجال المعرفي الذي تكون فيه
العقل المنتج للمعرفة الآن من جهة
أخرى. ومن هنا فإن إنتاج معرفة علمية
بالتراث - هو - في جوهره - إنتاج
للمعرفة الحققة، بكل من الواقع الزمان
والعقل المنتج للمعرفة في حقله أوصافاً.

ولقد بدا أن نقطة البدء في هذا
الإنتاج للمعرفي للتراث لابد أن تنطلق
من نقد الاستهلاك الأيديولوجي له، وهو
النقد الذي لابد أن يستحوذ إلى صرب
من النقد الشامل للخطاب العربي المعاصر
بأسره. إذ الحق أن كلبه للخطاب في
التعامل مع (العرب)، هي آليته نفسها
في التعامل مع (التراث)؛ وأعطى أنه لم
يتجاوز في تعامله مع الغرب أيضاً نطاق
الاستهلاك الأيديولوجي له، وما يعنى أن
ثمة ثابته واحداً يتنظم علاقة الخطاب بكل
من التراث والغرب معاً. ولابد هنا من
الرعى إلى بذلة النقد تتجاوز المعنى
الأفقر الذي يحمله مرادفاً للفتن والهدم،
إلى معنى أعمق يكون فيه النقد متربحاً
من التحليل المعرفي للخطاب - أي
خطاب - بغية الكشف عن نظامه
الباطن، وكذا عن جملة الآليات والميكانات
الباطنية التي أنتجته، والتي لا تكون
موضوعاً لتفكير الخطاب نفسه، ويطلع
بالتالي أن تكون موضوعاً لرعى حامله.

وهكذا يتجاوز النقد - هنا - منطق الأدلة
الأيديولوجية الساذج، إلى المعرفي،
فيما تحت سطح الخطاب وتشكلاته
المتباينة في الظاهر، سعيًا إلى السموت
عنه وإلا مفكر فيه، وأعطى به ذلك الذي
ينتج الخطاب دون أن يخلق به أبداً. بل
لعل الخطاب يبحث في إخفاقه سعيًا إلى
إطالة أمد بقائه، لأن عدم الرعى بهذا
السموت عنه لن يؤدي إلا إلى إصادة
إنتاج الخطاب نفسه، ولكن في صبر
وتعتق لفتنة أخرى. ويبدو أن الرعى بهذا
للموت عنه يبدأ من الرعى بالكيفية
التي يؤسس بها للخطاب علاقه بكل من
التراث والغرب، وهما معاً مصدر كل
النماذج والتشكيلات الجامزة التي راح
للخطاب يستعير منها كل صروب معرفته
بواقعه، والتي جاءت - لكونها تكررًا لا
إبداعاً - معارف زائفة لا تنفع إلا لتزيد
من للبهة والمعجز. ولعل ذلك يكشف عن
أن مآزل الخطاب لا يكون من التراث أو
الغرب، بل من كيفية تأسيسه لعلاقته
معهما. ومن هنا فإن كلا من الغرب
والتراث لا يمكن أن يكونا موضوعاً للنقد،
بل النقد ينطق بكيفية حضورهما في
الخطاب استهلاكاً وتكراراً، لا استيعاباً
وإبداعاً.

ومن هنا فإن نقد الخطاب الديني،
مثلاً، لا يمكن رده إلى مجرد صرب من
النقد الأيديولوجي الذي يغنيا تقويض
أيديولوجيا الخطاب لمصاحب أيديولوجيا
بديلة - وهذا ما فعله كثيرون للأسف -
بل هو صرب من التحليل الأستمولجي
للخطاب بغية الكشف عن مجمل الآليات
الباطنية التي أنتجته، والتي يبحث
كأي خطاب - في إخفاها، سعيًا إلى
إطالة أمد بقائه، والكشف - كذلك - عن
اللابت أو البنية العميقة التي تنظم كل ما
ينتجه الخطاب من معارف وتصورات
وتجربة معرفية والتصور. ولعل الإحاح،
في مواجهة هذا التحليل الأستمولجي

للخطاب، على إعادة إنتاجه أيديولوجياً،
يكشف عن دوام الاستغراق في أحبولة
النجاج الأيديولوجي الذي شغل ساحة
الخطاب العربي المعاصر وأعجزه عن
إنجاز أي تقدم، وإذلك يتجه الجهد إلى
تجاوز الآن. ولكن ذلك لا يعنى أن
التحليل الأستمولجي للخطاب - أي
خطاب - يتكشف عن الغياب التام
للأيديولوجيا، بقدر ما يكشف عن كون
الأيديولوجيا لا تصلح أبداً نقطة بدء في
أي تحليل يستهدف كسر الخطاب
وتجاوزه، وليس إعادة إنتاجه في صبر
وأفئدة أخرى. إذ الحق أن زحزحة
الخطاب وتجاوزه تستحيل البنية إلا بالحر
- فيما وراء الأيديولوجيا عند سلمه -
عن الأستمولجيا المنتجة له، ويضمن
هذا السياق الأستمولجي فإن الأمر فيما
يتعلق به نقد الخطاب الديني، يتجاوز -
لا ريب - كونه مجرد صراع بين
أيديولوجيتين أحدهما تكتكر للتراث،
والأخرى على وفاة له، إلى كونه صراعاً
بين أستمولوجيتين نقضيتين أنتجت كل
منهما طريقة في التعامل مع التراث.
إحداًما تكرر والأخرى تبسده، أو
إحداًما لم يزل يستغرقها استهلاكه
أيديولوجياً، بينما الأخرى تستهدف
إنتاجه معرفياً.

ثمة إذن صريبان من الأستمولوجيا:
إحداًما ترى التراث ذلك لا شك إلا أن
تكرده معها أستمولوجياً. وبالرغم من أنه
يستحيل إلا للتراسل مع التراث، إلا أن
للتردد الأستمولوجي معه، ويعمل شاملاً
إنتاج أي معرفة به، ويؤول فقط إلى
مجرد تكراره. وهذا التكرار يجد ما
يؤسسه في الإهمال الكامل لتاريخيته إلى
حد تكريس صرب من للتمامي بينه وبين
السلطان ذاته. إذ التراث - وأحال كذلك -
لا يمكن أن يكون موضوعاً للمسائلة
والحوار، بل نموذجاً للاحتذاء والتكرار،
والحق أن للتمامي بين التراث وبين

المطلق (أو الدين) هو ما يمنح للتراث والإيستمولوجيا المتوحدة معه ، وبالتالي ، ما تبخفيه من سلطة مطلقة تغدو معها مركزاً للمعققة ، وأصلاً يرد إليه كل ما فى العالم من ظواهر ، ومن هنا فإن تكريس السلطة المطلقة للتراث ليس أكثر من دفاع تسعى من ورثته هذه الأيستمولوجيا - التى صارت بدورها قاصداً لأيديولوجيا معينة - إلى تكريس سلطتها للخاصة ، وإلى الحد الذى لا يكون فيه أى خروج عنها ، مجرد خروج عن التراث ، بل خروجاً عن المطلق ذاته .

والحق أن هذا التردد الأنطولوجي مع التراث كان - فى سياقها الخاص - آلية دفاعية راحت معها الأمة تمتص بترائها إلى حد اللوحد معه ، وذلك فى مواجهة التحدى الغربى السامق ، حتى لقد بدا أنه كلما ازداد إحساس الأمة بخطر الانسحاق أمام الغرب ، ازداد توحدوا مع تراثها . لكنه بدا الآن أن التفكير الساذج للتراث - الناتج عن التوحد الأنطولوجي معه بالطبع - قد آل بالأمه إلى عجزها لشامل الذى تصحق تحت وطأته ، فبات لازماً تجاوز هذه الأيستمولوجيا إلى أخرى تستطيع ، بفضل تواصلها مع التراث - لارغماً عنه ، أن تراه موضوعاً للمعركة ، وليس نموذجاً للتكرار . وهكذا فإنه لا توجد هنا مع التراث ، بل سعى إلى قرامته فى كايته وشموهه ، فرامة تجهد فى رصد بانيه المعققة التى تتكلم كل ما يسبح فى فضائه من تصورات ونتاجات معرفية ، يرافق ذلك السعى إلى رده إلى سياقه التاريخي الذى أنتجه ، وذلك فى سبيل استيعابه كايه فى بناء الذات الراهنة توصلة لتجاوزها وتخطيه بالطبع . وهكذا فإنه لا سبيل - لأى صرب من التماهى مع التراث ، أو بينه وبين المطلق ، ضاهياً يستحيل معه التراث إلى سلطة مطلقة لا سبيل يزانها إلا للتقليد والترديد - بل ثمة

الوصى بالتراث فى أنفسه المعرفي والتاريخي للخاص ، وعياً يصبح فيه التراث تجربة مفروطة بالسياقات التى أنتجتها معرفياً وتاريخياً ، ولذلك فإنه لا سبيل للتكرارها ، بل لتخطيها وتجاوزها ، بوصفها تجربة مفروطة ، ولكن ذلك لا يكون للينة باستيعابها ، بل باستيعابها واستدماجها فى بناء الذات استدمجاً تتحول معه من وجودها الخاص إلى وجود من أجل الذات . وإن فإنه ليس ثمة ، هنا ، تكرر للتراث ، لأن ذلك مما يستحيل مطلقاً ، بل التفكير للإيستمولوجيا تتجسد تكراراً وتزايداً ، ولكنها إذ تتماهى مع التراث - ومن خلاله مع المطلق ذاته - ترى فى هذا التفكير لها لا تكرر للتراث بل تكرر للمطلق أو الدين نفسه .

لقد بدا إذن أن النقد ينطق ، لا بالتراث ، بل بالكيفية التى يؤسس بها الخطاب علاقته معه . وإذا سبقت الإشارة إلى أن هذه الكيفية للعلاقة مع التراث ، تكرر واستهلاكها له ، تؤسس لعلاقة الخطاب المعرفي المعاصر بأسره - وليس فقط للشكل الدبلي على سطحه - مع الآخر (غريباً وسلطاً) ، وعلى نحو بدأ معه العقل المنتج للمعركة فى إطار الخطاب بأسره لا يهرف إلا مجرد تكرر الآخر واستهلاكه ، فإن ذلك قد اقتضى ضرورة نقد هذا العقل وكشف آليات إنتاجه للمعركة ، مما استلزم نقداً للتراث ، لا بما هو كذلك ، بل بوصفه حقلاً تكون فيه العقل إذ كان يكوئنه ويأنتجه . وهذا أيضاً أن يكون النقد تقضاباً تحليلياً معرفياً يكشف الآليات المنتجة والبنائية للمعركة .

ولطه يجدر البدء ، هنا ، من أن ثمة ثراءً حقيقياً يكشف عنه التحدد اللافت للخطابات فى فضاء التراث (فى لحظة ما على الأقل) ، وأن هذا التحدد يعكس ثراءً معرفياً يجلى فى تباين الكيفيات التى راح كل واحد من هذه الخطابات يؤسس بها علاقته مع (النص) الذى يد مركزاً

للتراث بأسره . والموقف أن هذا التحدد سرعان ما تم إهداره لحساب خطاب وحيد راح يحقق هيمنته - نظرياً - عبر التماهى مع ما يتصوره «الإسلام الحق» ، وواقعياً ، عبر التوحد مع سلطة راحت تكرر هيمنته فى مواجهة الخطابات للشوائب ، بقدر ما راح - بدوره - يكرس هيمنته فى مواجهة خصومها . فبدأ وكأن الإقصاء الأيديولوجي للمعارض / الفصم ، يكتمل بالإقصاء الأيستمولوجي للخطاب / للفصم ، وأعطى أن إهدار التحدد على صعيد الأيديولوجيا يوازيه - ولعله يسبقه - إهداره على صعيد الأيستمولوجيا . ولا شك فى أن إقصاء الخطابات المناوئة للخطاب المهيمن يوازيه الإقصاء لكل الكيفيات التى تؤسس بها تلك الخطابات علاقتها مع النص ، لتبقى الكيفية التى يؤسس بها الخطاب المهيمن علاقته مع النص ، هى وحدها المنتجة - فيما يخال - لدلالة النص المعركة ، وأما الكيفيات الأخرى ، فإنها - كخطاباتها المنعرجة - لا تنتج إلا الشلل والهزيمة . وهكذا يبحر الصراع فى جوفه ، ليس صراعاً حول النص ، بل حول كيفية إنتاجها . إذن فالأمر هنا لا ينطق أبداً بأى تنكر للنص ذاته ، بل للتكرار كقيمة ما فى إنتاجه . حقاً يدر أن الخطاب المهيمن ، حين راح يحقق هيمنته عبر التماهى مع ما يتصوره «الإسلام الحق» ، كان يؤسس ، فى الرقبة نفسه ، لعلاقة تماهى النص ذاته ، الأمر الذى راح معه ينظر إلى نفسه ، لا بوصفه مجرد اجتهاد على النص ، بل بوصفه للنص نفسه ، فبدأ التفكير لعلاقة بالنص - تبعاً لذلك - تكرر للنص ذاته ، ومع ذلك فإنه يبقى التمييز لازماً بين التفكير للنص وبين التفكير لطريقة فى إنتاج دلالاته . واللافت أن هذا الخطاب المهيمن ، إذ يؤسس علاقته بالنص ضاهياً معه ، لا يستطيع أن يعرفه أو يفجر دلالاته

الأعمق، وقسط يستطیع أن یکرره دون أن یجاوز فی تکراره دلالاته المباشرة المفقودة. ذلك أن یرى النص عالماً من المعانی مستقلاً وقائماً بذاته، الأمر الذى یجعل إنتاجه للدلالة مرتبطاً فقط بجملة عناصره اللغوية، ودون أية إحالة إلى أى سياقات أخرى خارجه. وليس من شك فی أن هذا الإمدار للسياقات خارجه لا یمکن أن ینتج، مهما كان ثراء اللغة - إلا للدلالة الأقصر، لأنه إذ یحیل تفاعل النص - فی القراءة - مع العالم خارجه، لا یملك إلا أن یکرره. ورغم ما فی التکرار من الإمدار لفاعلية النص وإفقاره، فإن الخطاب کان حریصاً علیه، لأنه یکرس دوام هیئته، وتأييدها.

ومن حسن الحظ أن هذا الإمدار للسياق فی إنتاج دلالة النص ومعناه، یتمارض مع الواقعة الجوهرية التى یدعو

فیها النص وقد تشكل - أثناء التذوّل - فی سياق علاقة حميمة مع الواقع، الأمر الذى یعنى أن دلالاته - أثناء التأویل - لا یمکن أن تکشف أبداً إلا فی سياق العلاقة ذاتها مع الواقع بأبعاده كافة، وأعلى أن للنص هنا ینتج دلالاته من تفاعل جملة العلاقات التركيبية اللغوية (داخله) بالسياق الثقافى الاجتماعى للتارىخى (خارجه). وإنّ فإن ثمة طریقتین فی إنتاج دلالة النص : إحداهما ترى الدلالة نتاجاً لعلاقات عناصره اللغوية، دون إحالة إلى شیه خارجه، (ولطها تنطلق من نظرية فی المعنى یمکن فیها أقرب إلى المعنى المطلق)، والأخرى تراها نتاجاً لتفاعل العلاقات اللغوية (داخل النص) بجملة السياقات للتارىخية والثقافية خارجه، (ولطها - بدورها - تنطلق من نظرية فی المعنى، یمکن فیها

أدنى إلى التکریر التارىخى) وفى حين یدعو النص - تبعاً للأولى - سلطة قاهرة تتذوّل بمطالبها على الواقع قسراً، فإنه یدعو - تبعاً للأخرى - إبطاراً بمعركة الواقع ویضع بها كذلك.

ضمن هذا السياق تأتى قراءة «لشافى» - أو غیره - لا تطاول علیه فیما حسب البعض، بل كشفاً للكيفية التى یؤسس بها - وهو الأصولى الرائد - للعلاقة مع النصوص. ومن غیر شك فإن التکرر للكيفية التى یؤسس بها للعلاقة مع النصوص، لا یعد البتة تنكراً للنصوص، بقدر ما هو السعى إلى علاقة جديدة معها تتجاوز مجرد التکرار والاجترار، إلى الفهم والحوار، وأحسب أن ذلك السعى لیس مشروعاً فقط، بل لیه واجب أيضاً، وخصوصاً فی ظل الأزمة الشاملة التى تتسحق الأمة تحت وطأتها الآن. ■

في إن الفلسفة هي نوع من أنواع
الفكر التجريدي النظري العام
وليس أشد أنواع الفكر تجريدا نظريا.

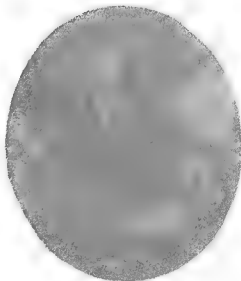
ومن لمؤكد أنها «تعمّر» عن الواقع
الاجتماعي المعيني و«تعيد إنتاج» هذا
الواقع حسب قوانين تفكيرها الخاصة. إلا
أنها تساهم بالقدر المتغير في صناعة هذا
الواقع الاجتماعي. وبالتالي فالفلسفة أو
الفلسفات مرآة الواقع ولحظة تكوينية
للواقع في الوقت نفسه أو في وقت مغاير.
وهي مستوى من بين العديد من
مستويات بنية الواقع. إن الفلسفة لا تلك
بنية، لا بنية منهجية ولا استقلالا بنوياً.

والبنية إنما هي بنية الواقع التي
تتمكّن في الفلسفة وتشارك الفلسفة
بدورها في صياغة هذه البنية.

لذلك فليست الفلسفة صراعاً طبقياً
ووطنياً وقومياً في النظرية. ولا يمكن في
الوقت نفسه أن نقبل بفلسفة للطبقة
والانفصال التي تحتوي عليها مقولة
البنية وأن نقبل للتفسير الطبقي والوطني
والقومي للفلسفة والمقصود هو أن الصراع
الفلسفي ليس صراعاً فلسفياً فحسب، لكنه
أيضاً ليس صراعاً سياسياً.

والحديث عن الاستقلال الفلسفي
البنوي لا يمتاش مع الطبقة التطبيقية -
السياسية للصراع الفلسفي، لأنه إذا كانت
الفلسفة تبني بنية فهذا يعني بأنها
منفصلة عن الواقع. إذن وحدة الواقع
تشكل بنية مستقلة عن الفكر، هذه البنية
تصرى بتدخلها لحظة فلسفية. ولحظة
تفلسف الواقع إنما تكم على النحو التالي:
انكسار لصورة الواقع في الفكر وانكسار
للمصور للفكرية في الواقع. للبنية هي بنية
للواقع تتمكّن في الفلسفات وتتمكّن
الفلسفات فيها. والاستقلال أو الخصوصية
إنما هي عملية يستعمل خلالها الواقع عن
الفكر. ولحظة تفلسف الواقع إنما هي
مختلطة تدخلها جميعاً مع صياغة

لعبنة النطوص



وائل غمالي

يحاكمه لعدة أسباب جوهرية أساسها السياق التاريخي الاجتماعي الخاص والشخصية المتفردة. ومن بين هذه السمات الشخصية للحامة العامل الديني.

والباحث في هذه الدراسة يقوم بتحليل الفلسفة والدين في المجتمع العربي المعاصر، عدد فؤاد زكريا، الذي هو للفصل الثاني من القسم الأول من «مشروع للفلسفة العربية المعاصرة، في الفلسفة في الوطن العربي المعاصر، بحث المؤتمر الفلسفي العربي الأول الذي نظمته الجامعة الأردنية وأصدره مركز دراسات الوحدة العربية عام ١٩٨٥، وفي بداية الدراسة يبنى الباحث تصويره لطبيعة العلاقة المعقدة بين الدين وبين الفلسفة في شكلها العام. أما النقطة الثانية التي يتوقف عندها فهي تحليل الصراع العربي المعاصر الدائر بين الدين والمقاربة الفلسفية. وينتهي في النقطة الثالثة إلى تحليل المقاربة الفلسفية العربية المعاصرة للدين. ويختلف الباحث أساساً مع د. فؤاد زكريا في ميدان تحديد الصلة التي تربط الفلسفة بالدين، وبالتالي فهو يختلف مع النتائج التي يستنتجها فؤاد زكريا في علاقة الفلسفة بالدين في صورتها العامة.

لوتأملنا الصلة التي تربط الفلسفة بالدين لنبحت لنا أنها مزيج من الاختلاف

أيضاً. والفكر. والفكر الثابت هو متغير في أوقات متباعدة متقاربة. والفلسفة قائمة أبداً متقلبة حسب تقلب المرجعيات الأصلية وانفتاح المنظومات المغلقة. هذا هو في تقديري قانون تطور الفلسفات عبر للسنين.

ولم يحرف العالم العربي منذ حصوله على الاستقلال السياسي في أعقاب الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم أن يستقل استقلالاً فكرياً يجاوز محاكاة الفكر الغربي. أو قل هو مازال يحاول أن يحاكمه في أضيق الصور. ولم يستقل الفكر العربي حتى في صياغته للعقائد الاجتماعية في الأيديولوجيات الوافدة التي صاحبت انخراط الشعوب في مسيرة التنمية المستقلة في انتظار الاستقلال الفكري المتوقع أن يتشكل في فكر متفرد وخاص.

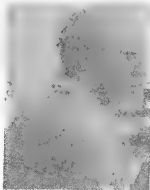
ويكاد يبدو العالم العربي اليوم وكأنه يشعر بحاجة ماسة إلى إبداع فكري جديد يقصد العام ويجاوز المقولات الطصورية والأرسالية والشعولية التي سقطت فيها الفلسفة الغربية المعاصرة. وحتى عدد بعض الشعراء الكبار نجد هذا الهاجس. والافتراض الذي افترضه وأخضعه هنا للاختبار هو أنه لم يحدث قط أن حاكم الفكر الغربي لأنه لم يكن في مقدوره أصلاً أن يحاكم الفكر العربي الفكر الغربي لأنه لم يكن في مقدوره أصلاً أن

الاحظاظ الأساسية الأخرى كاللحظة الاجتماعية واللحظة التاريخية واللحظة السياسية واللحظة الأيديولوجية. وسواء كانت اللحظة فرقية أو كانت تدمجية، فهي في جميع الحالات أو أغلبها على الأقل مماثلة أبداً في بنية الواقع. وهكذا فليس للتاريخ كما توهمنا هو المالك الوحيد الأوحد للدلالة النهائية الذي لا يشاركه فيها أحد. كما أنه ليس الاجتماع وحده هو الجوهر الفاعل لبنية الواقع. وليست وظيفة الواقع مؤدجلة في هذا كلها. وليس الشئ ولا المعرفة هما السلاح الأمثل الذي علينا أن نتسلح به لكي نمسك بخيوط الواقع. وإنما بنية الواقع تشكل أحياناً بمضامين تاريخية وأخرى اجتماعية وثالثة أيديولوجية ورابعة فلسفية.. وهكذا دواليك.

والقضية الثانية في كتابة تاريخ الفلسفة إنما هي قضية المحافظة على زمنية الفلسفة ونفي هذه الزمنية. والواقع أن للفلسفة ماهية ثابتة ومتغيرة بتغير الجواهر الفكرية المتفهمة. ومن شأن ماهية للفلسفة الثابتة المتحركة مع تحول الظروف والعقول أن تحفظ للفلسفة خواصها الجوهرية وأن تلتقط تحولات المذاهب والظلم في لحظة الثبات والتحول.

فماهية الفلسفة ليست مفارقة لزمنية الزمن بالضرورة وإنما التحول جوهرى

موشيل فوكر



نصر حامد أبو زيد



طه حسين



والإتفاق أو أن قاعدة هذه الصلة على مدى فترات تاريخها المتبادل إنما هي قاعدة اتفاق الاختلاف والاتفاق. ذلك أن الفلسفة ظلت تبدل اهتماماتها ومشكلاتها وموضوعاتها ومناهجها الأساسية. ليست جميع الفلسفات كما تصور دائما بحثاً في أصل الكون ونشأته وليست للغاية التي تكبح إليها الفلسفة واحدة وحيدة لا تشاركها نهايات أخرى ومقاصد أخرى متباينة، وليست جميع الفلسفات إنسانية في حد ذاتها. قد تكون العقيدة الدينية محور التفكير الفلسفي - وقد حدث - لكن العقيدة الدينية في حد ذاتها ليست السور النهائي القاطع الجازم للفلسفة سواء أكانت هذه العقيدة الدينية سمارية أو غير سمارية. ومن ثم فإن اهتمام الفلسفة متحول حسب تحول الزمان والمكان والسياق المعرفي والهوية الفكرية لكل فيلسوف وكل مجتمع.

كذلك فإن ميلان اهتمام الدين متغير أيضاً بتغير من يدينون به أولاً وبغير المجتمع الذي تظهر فيه. وقد تقاطع خط سيرة الفلسفة أحياناً مع خط سيرة الدين عبر العصور وتوازى أحياناً أخرى وتباعد أحياناً ثالثة وتقارب أحياناً رابعة.

لم تكن الصلة التي تربط الفلسفة بالدين عدائية من حيث الجوهر ولا انسجامية من حيث المبدأ. واعتقادي الراسخ أن الفلسفة والدين صاغاً ومزاولاً يصوران وحدة نظرية عامة من المناصفة والسحب. وحدة نظرية تتسع للآتين مما وحدة أحادية الجانب بالطبع لأنها فلسفية الجواهر.

صحيح «أن قصة العلاقة بين الفلسفة والدين قصة طويلة شديدة التعقيد، لم يكن المسار فيها واضحاً مستقيماً، بل كان يسير في معطم الأحيان في خطوط شديدة التخرج والانواء» (ص ٤٢).

وصحيح أيضاً أنه ليس من مهمة الفيلسوف أن يخضع الصلة التي تربط

الفلسفة بالدين لتكمياً تصديقياً إلى أقصى تعقيد. إلا أن السبب الأكبر الذي أدى إلى اندلاع الحرب بين الفلسفة وبين الدين لم يكن سبباً شكلياً فحسب وإنما هو سبب شكلي ومضموني في الوقت نفسه. فالأفكار (المضمون) التي ينادي بها الفيلسوف بصورها (الشكل) مبيغة هي نفسها فكرية. أمام من يدين يدين من الأديان فلا ينادي بفكر وإنما ينادي بعقيدة وشكأن بين الفكر وبين الدين أو للعقيدة. ثم إن طريقة التفكير أو المنهج قضية علمية أو قضية لكنها ليست قضية أي دين من الأديان. فقد ولدت مشكلة المنهج في سياق تعدد مسيرة العلوم الطبيعية الحديثة ولم تنشأ في سياق الأديان.

كما أن النقد والإيمان حركتان فكرتان دفعتا التفكير الفلسفي والاعتقاد الديني على السواء. وليس للنقد خاصية تخص للفلسفة وحدها دون غيرها. كما أن الإيمان ليس خاصية تخص الدين وحده. فالفلسفة تسلم سلفاً بالعديد من المسلمات قبل أن تشرع في إعادة النظر فيها جميعاً. هي تسلم سلفاً بمسلمات «المنطق اللدني» (ص ٤٢).

والاعتقاد الديني الواحدى يسف ويحفظ الاعتقادات الكثيرة الأخرى السابقة عليه واللاحقة معاً. فالاعتقاد ليس نقوض المناقشة بمعنى أن الاعتقاد الواحدى يقدم على القطع مع الاعتقادات الغيرية. للتناقض منحوت في جوهر الاعتقاد رغمًا عنه.

وأما الفلسفة فتحل قبل سلفاً ببعض الجديهيات الحاسمة قبل أن تشكك، وبعد التشكيك تصل في نهاية للحجة إلى التصديق بأوليات جديدة لم تكن مطروحة قبل ذلك. وقد تكون للجديهيات دينية وقد لا تكون كذلك. لكنها في جميع الأحوال حاضرة في الحجة الفلسفية مما

يعنى أن المراجعة الشاملة لجميع المسلمات ليست السمة الحاسمة للفلسفات كافة. لأن كل فيلسوف وبمستوى منهجه الخاص بطريقة متسقة وحسب (ص ٤٤).

ولا يكمن الفارق الجوهرى بين المجال الفلسفي وبين المجال الديني في أن للفلسفة عقلية بالطبع وأن الدين السماوى وحى إلهي، وإنما الفرق الأساسى بينهما هو في التوحيد الخاص لكل منهما للعقل الإنسانى والوجدانى. ففى الدين قدر من العقل.

وفى للفلسفة كثيرون ممن زعموا أنهم من سلالة الأديباء وأنهم يمتلكون الحقيقة الواحدة المطلقة، من هو الفيلسوف الذي لم يقدم تفسيراته باعتبارها للتفسيرات الواحدة الصحيحة النهائية؟ من هذا الفيلسوف الذي لم يرفى الفلسفة الأخرى مروقاً وزنتقة أو بدعة على أقل تقدير؟

وأما الاعتقاد الدينى السماوى للوحداني فبراجع أسس غيره من العقائد ومبادئها الأولى، حيث ترقى إلى مرتبة الصورة الناقصة للوحى الأصلى الذي يحريه هو وحده دون غيره.

ومكنا تتبادل الفلسفة والاعتقاد للمواقف، فبينما المناقشة بين الفلسفات تكون أحياناً تعميقاً.. (ص ٤٤) وأحياناً أخرى «تشويهاً» يقتضى التكفير والتجريم التجريم، يؤدى تبدل الاعتقاد الدينى للوجدانى وغير الوجدانى إلى تبدل يرقى أحياناً - وليس دائماً - إلى التعميق المتبادل بين مختلف أأناط الاعتقاد.

والحقيقة المؤلمة التى لا مناص لأى كاتب من أن يسلم بها هي أن للمجتمع المعرفى ظل يمنع الفلسفة من أن تناقض «المسائل الدينية بطريققتها الخاصة وعلى أرضها هي» (ص ٤٦). وظلت إلى الآن عاجزة عن مراجعة الأسس الدينية الأولى وثالثها جذبا إلى جذب مع التقليد

الراسخ في «التسلط السياسي والاستبداد في الحكم» (ص ٤٦).

وهكذا أصبحت النصوص هي المسلمات الأولى التي يتوجب على الفيلسوف أن يطلق منها على أقل تقدير. ويرى د. فؤاد زكريا عيين في هذا النوع من المسلمات التي تفرض التفكير الفلسفي من خارج عملية التفكير نفسها: «أولها أن الفكر الفلسفي حين يلجأ إلى المواجهة من خلال النص يكون قد اعترف بأنه ألقى سلاح العقل والمنطق، أعني أنه اتخذ موقف المهزوم الذي سلم مقدما بأنه خسر أم أرض يرتكز عليها. فهو حين يفترض أن النص لا يقبل المناقشة، وحين يدعم موقعه الخاص من خلال نصوص يوجه بها تلك النصوص الأخرى التي يلجأ إليها الطرف الآخر، إنما يكون قد سلم مقدما بأن النص هو المرجع غير القابل للمناقشة العتية، وأنه هو الذي يمثل حقيقة مطلقة تتجاوز المنطق والعقل، وهو تسلّم يطوى ضمنا على اعترافه بأن العقل النقدي قد توقف عن ممارسة عمله. أما العيب الثاني، الذي يرتبط بالأول ويرتبط عليه، فهو أن هناك تناقضا داخليا في المحاولة ذاتها: أعني في أن تلجأ إلى سلطة النص لكي تستخلص منها موقفا عقلانياً يسمح بالمناقشة المنطقية المفترجة ذلك لأن هذه المناقشة المنطقية، إذا شاعت أن تكون متسقة مع ذاتها، ينبغي أن تكون (من الوجهة النظرية على الأقل) قادرة على التصدي للنص ذاته، بحيث لا تكون هناك حدود لقدرتها على النقد والتقويم. ومن هنا فإن المرء لا يستطيع منطقيا، أن يتخذ في آن واحد موقف الاعتراف بسلطة مطلقة، ويحاول استخلاص موقف نقدي عقلاني من داخل هذه السلطة.

فالتناقض واضح لأن السلطة تقضي العقل النقدي واستخلاص أحد الطرفين عن الآخر معتق عقليا» (ص ٤٧ - ٤٨).

لذلك سادت النزعة المثالية كما يقول د. فؤاد زكريا، ولكتسبت الفلسفة المعاصرة الوضعية سمة سوية في المجتمع العربي إلى الآن» (ص ٥٠).

كما ذاع التشكيك في مبدأ التفكير المنطقي ذاته الذي يوصل المرء في فكره إلى الزندقة. وأما الشكل الآخر الذي يتخذه الهجوم على الفكر العلمي في مجتمعنا فهو الذرع في تفسير النصوص الدينية إلى الحد الذي يجعلها صالحة لتفسير أحدث النظريات العلمية» (ص ٥٢) في أصل الكون والتزييف وعلم الأحياء والفضاء...

لكن نزعة فؤاد زكريا الوضعية تجعله لا يرى في الفيلسوف إلا تابعا (ص ٥٢) مسار العلوم وليس أكثر من ذلك. وصحيح أن الفلسفة استقلت عن العلوم واستقلت العلوم عن الفلسفة، بحيث أصبح للفلسفة مجال أضيّق وللعلوم منطق خاص بها لا يعمد إلىها منذ القرن الماضي على وجه التقريب. إلا أن ديكرات في الأزمنة الحديثة كان عالما بالمعنى التقني للكلمة وفيلسوبا. كما كان هوبل عالما قبل أن يتحول إلى الفلسفة بحيث لم يأت تحليله لتعلم استنباطا من الخارج. وإنما كان يعرف علوم عصره الطبيعية معرفة مشغوفة. عادة الفيلسوف لا يسبق تحليلات العالم. لكن الفيلسوف لا ينفأ أبدا وراء العالم في لتطال نتائج للعمل. هل حدث في تاريخ العلوم الطبيعية والإنسانية جميعاً أن دفع الفيلسوف مسيرة البحث العلمي؟ صحيح أن «الفلسفة تخلت للعلم عن البحث في الكونيات والطبيعات» (ص ٥٢). لكن فلسفة العلوم فحص ونقد وتقويم يعدي وقبله لمقدمات ونتائج العلوم جميعا.

ومن المؤكد أن العلم الحديث ليس كما تتصوره الغالبية العظمى من أعضاء برلمان الأيديولوجيا الحاكمة. إن العلم الحديث الطبيعي والإنساني مجرد في

جوهره مخالي من حيث المبدأ وعقلي بطبعه بسبب الدور الحاسم الذي تلعبه الرياضيات؛ لذلك يقول د. فؤاد زكريا «إن العلم أعظم انتصار لروح الإنسان على المادة. وحين يفهم العقل الإنساني الطبيعة ويكشف قوانينها ثم يسيطر عليها، فإنه يعن بذلك سيادة عقله على العالم المادي».

إن لتتصار الإنسان على الطبيعة ليس على الإطلاق إغلاء المادة، بل هو أعظم دليل على لتتصار الجوانب العقلية والعنصرية في الإنسان.

والشيء الأمثل حقا هو أن قدرة الإنسان على فهم الطبيعة المعادية وكبح جماحها بالعقل، وإعلاء حكم التفكير المنظم على الاضطراب والفوضى الظاهرية للطبيعة، هو انتصار هائل للروح على المادة، وليس على الإطلاق «علما ماديا» كما يردد بعض الدعاة بلا فهم» (ص ٥٢).

والحقيقة المرة الأخرى التي لابد من التصديق بها هي أن المجتمع العربي الرافق بتجاهد يوما بعد يوم «عن ذلك المناخ الذي يسمح بالمعتلانية، والديمقراطية وازدهار الفكر الفلسفي.. إن جو الأسفة المنفخشة التي لم تتبدل طوال القرن أي بلد عربي، على الرغم من كل ما سررنا به من «ثورات» وتصحّجات للثورات ثم تصحّجات للتصحّجات.. وكذلك جو الجهل والإرهاب والتسلط المطلق، والهزائم التي تتوالى في الميادين العسكرية والسياسية، والإخفاق الذريع في حل المشكلة الاقتصادية، وهذه العوامل تعدد بوضوح نوع الاتجاه الهابط الذي لابد من أن يسير فيه تفكيرنا» (ص ٥٢)

ويحلل د. فؤاد زكريا ظاهرة الصخرة الإسلامية المعاصرة تحليلًا دقيقًا قائلا إنها كانت وما زالت تجبراً مباشراً، «عن

حالة الهزيمة الفكرية والسياسية والاجتماعية التي نمانها، وليست على الإخلاق محاولة للتخلص من هذه الهزيمة، أي أنها تصهم، بصورة أو بأخرى في الأوضاع التي تحمل من المستحيل تحقيق الحد الأدنى، (ص ٥٨).

وجوه ظاهرة الصحو، حسبما يرى د. فؤاد زكريا، إنما هي النظرة الخاصة التي تنظرها إلى الزمان حيث «تجاهل البعد الرئيسي فيه، وهو الحاضر لحساب البعدين الآخرين، أعلى الماضي والمستقبل، (ص ٥٨).

والحقيقة المؤلمة - فيما أظن - هي أن الصحو الإسلامية المعاصرة لا تتجاهل الحاضر فحسب وإنما تتجاهل مجمل أبعاد الزمان؛ وهي الحقيقة التي تتطابق مع غياب لفظة الزمان نفسها عن القرآن الكريم الذي يتحدث عن الدهر والمصر والمسير والطور والأجل والوقت وليس عن الزمان.

وايست مصادفة أن يعجز أنصار الصحو المعاصرة عن مبرر أغوار الزمان لأن متكلمي الإسلام أنكروه إنكارهم للمادية (أو الدهرية) والكفر بالله الخالق وما إليهما، ولم يكن أصحاب المذهب المثالي من الفلاسفة أقل إنكاراً له من المتكلمين. وقد جرى شعراء العرب وروائيوها على تلقف فكرة الزمان المفروضة في ميدان الفلسفة، كمفهوم شعري وروائي مساعد لهم في التعبير عن مجرى الحوادث والتصرف.

إلا أن د. فؤاد زكريا لم يقف على هذا الجذر التراثي الجوهرى حيث الغياب الأصلى لنظرة قرآنية للزمان والزمين، والأمر ليس خارقاً أن تخرج الصحو الإسلامية المعاصرة إذن المبادئ والأسس في سياق الزمن.

والقضية بالتالى هي إدخال الزمن ضمن هموم الفلاسفة العرب، نحته من

عدم على ضوء التطورات الفلسفية الأخيرة والتحولات الطمية والمعرفية الكبرى التي ظهرت في الآونة الأخيرة. ثانياً تتجاهل إيديولوجية الصحو ليس فقط الحاضر وإنما تتجاهل أساساً جميع أبعاد الزمان تتجاهل الحاضر مثلما تتجاهل الماضي والمستقبل بل وتحوش في خضور دالم في زمن مائل بلا زمينة. حاضر عبر سدين طويلة، عاجزاً أصلاً عن قياس أضرار للزمان الكامنة في مختلف أبعاد الزمان المائلة والمقسمة إلى حاضر وماضٍ ومستقبل. وكان ومازال أنصار الصحو يفكرون بقناعة شيء ما أن القياس التاريخي أو الزماني أو الكرونولوجي أمر مستحيل في حد ذاته. ليست القضية إذن غيبة البعد الحاضر عن نظرة الصحو وإنما هي غياب الزمان في حد ذاته المثقلة الأضلاع المعاصرة والماضية والمستقبلية. وليس تجاهل الحاضر من حيث هو حاضر وثل حركة للتأريخ سوى واحدة من نتائج التلويح النهائي للقاطع للزمان والزمينة. لذلك لا ينظر أنصار الصحو إلى الزمان نظرة تسقط البعد الرئيسى فيه (الحاضر) وإنما تسقط الزمان نفسه.

وهكذا غابت فلسفة الدين عن المجتمع العربى لأن الزمان هو الدافع الأول، والأخير للتكليف، كما يقول د. فؤاد زكريا عن سياق مستقبل فلسفة الدين في العالم العربى «إن أهدأ لم يجد يجرؤ اليوم على مناقشة المشكلات المعاصرة التي تدبرها التجربة الدينية في الرؤية الفلسفية، (ص ٦٧). وظل العالم في ميدان الدين يهيم أكثر بقضايا المظهر والمبني والحبس والاختلاط التي هي أبعد ما تكون عن محاور فلسفة الدين. ويحصر د. فؤاد زكريا مسائل فلسفة الدين العربية الراهنة في للنقاط الخلافية التالية: أولاً تحليل العلاقة بين أروية التشريع وبين بشرية القائلين

بفهمه وتطبيقه. ثانياً، مسألة الصلة التي تربط أروية الأحكام الواردة في النصوص الدينية بزمانية تأويلها.

ثالثاً، مسألة التضاد بين النظرة الشمولية للإنسان وبين النظرة الجزئية. رابعاً متعلق العدل والعزبة.

لكن لماذا تؤدي فلسفة الدين حتماً إلى تعميق الفكر الدينى (ص ٦٤) كما يرى د. فؤاد زكريا؟ لماذا لا يؤدي تطوير فلسفة الدين العربية المعاصرة إلى تطوير الفلسفة العربية نفسها؟ فقد سبق أن خدم علماء الكلام التقدم الحياة الدينية بطروحاتهم العقلية. كما سبق أن خدم الفلاسفة الغربيون المحدثون الديانة المسيحية بوضع منحوتات نظرية كفكرة «الإله الهندسى» الذى ينظم الكون تنظيمًا هندسيًا. فتمنى يخدم الفلاسفة أنفسهم! لماذا يكون على الفلسفة أصلاً أن «تدين» (ص ٦٦) للفكر الدينى في ميدان تحليل عناصر المشكلة الدينية وتأملها في نظرة تركيبية على أن يعمدوا التوازن بين جوانب الإنسان المختلفة وينظروا إلى الإنسان نظرة متكاملة، تصنع كل عناصره في موضعها الصحيح، وتغطيها جميعها الحقيقي، (ص ٦٧).

فإذا كان صحيحاً أن الفلسفة تبحث أساساً في الكليات، (ص ٦٧)، لماذا يبحث الفيلسوف عن تقديم المعنى للفكر الدينى؟ لماذا يقتصر عمله في كلية واحدة دون غيرها من الكليات التي تصوغ المشرع الأكمل والأشمل؟ هل فلسفة الدين هي مجرد تحليل متعمق لمعطيات الفكر الدينى؟ وأفسد أن الفلسفة قد تثرى الفكر الدينى وقد تضعفه بتحليلاتها الخندية. وقد تقدم كما أنها تستطيع أن تناقشه من أساسه. فلسفة الدين لا تمنى المزج بين الفكر الفلسفى وبين الفكر الدينى. كما أنها لا تحيى الخلط بين الفلسفة وبين الدين، وإنما تعيى فيما تصور المقاربة الخاصة المبدئية على فروضها الخاصة

بحيث يرقى الفكر الديني والدون نفسه إلى لحظة واحدة من بين لحظات عديدة أخرى تكوّن مسار التفكير الفلسفي الذي عليه أن يحتوى الدين دون أن يحتويه الدين.

هذا هو جوهر أزمة العقل العربي وكان محمد عبد الهادي أبو ريده على حق تام حين رأى في تحليل تاريخ الفلسفة في الإسلام للعالم الهولندي ت.ج. دي بور أنه يتضمن حكماً جائراً، غير معقول، مستحلاً، غير صعي وغير سليم، مغفلاً على نفسه وغير حقيقي (ص ٦٩ وص ٧١).

صحيح كما يقول ت.ج. دي بور أنه لم تكن للعقل السامي قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات، «في الفلسفة» (ص ٣٥). لأن الفلسفة ظاهرة فريدة ومستقلة نشأت في بلاد اليونان، حتى لقد يعدّها الإنسان غير خاضعة للظروف العامة التي تنضج فيها المدنيات، وحيث لا يمكن تحليل ظهورها بأسباب خارجية عنها، (ص ٧٠-٧١). لكن الحقيقة أيضاً كما يقول أبو ريده «لكنها هي المعاني اليونانية، وقد أثار كل من متكلمي الإسلام وفلاسفته مشكلات ووصلوا إلى حلول وكونوا مفاهيم لم يعرفها اليونان» (ص ٦٩) فلفكرى الإسلام فسفهم أنصافه وبالفلسفة الإسلامية طابعها الخاص ومشكلاتها الخاصة ومساهمتها الخاصة في إثراء وإضعاف التراث الفكري الإنساني وهم حتى ولو ارتدوا رداء اليونان، فإن رداء اليونان كما يقول دي بور دون أن يرى أن هذا يصطنع باطروحته الأساسية اسلخاً واضحاً ولا يخفى ملامحهم الخاصة» (ص ٧١).

هناك إذن فلسفة إسلامية أو عربية بالمعنى الحقيقي للكلمة. والقضية هي تحديد المعيار الذي نقيس به مسار تطورها. ما هو القانون الخاص بتطور الفلسفة الإسلامية؟ هل هو التبعية المطلقة

اليونان؟ هل هو التوفيق بين أفلاطون وبين أرسطو؟ هل هو التوفيق بين الفلسفة اليونانية وبين العقائد الإسلامية؟ هل هو إعادة إنتاج مذهب الأفلاطونية الجديدة؟ ما هو القانون الخاص بالفلسفة الإسلامية الذي تحكم في صوغها؟ وما هي المشكلات الجوهرية الجديدة التي افتحتها على نحو لا نظير له في التاريخ لسابق على مواد الفلسفة الإسلامية ولا في التاريخ اللاحق؟

وكيف استقلت بجدد فيما حاولته من معالجة المسائل القديمة؟ إذا كانت الفلسفة الإسلامية حقاً ليست مجرد فلسفة توسلت بين الفلسفة القديمة وبين الفلسفة المسيحية في القرون الوسطى.

وأصل الالتباس هو اتصال الكلام بالفلسفة واختلاط علوم القرآن بعلوم الفلسفة. يؤكد أبو ريده على أن علم الكلام علم من علوم الفلسفة وعلى أن المتكلمين «فرقة من فلاسفة الإسلام» (ص ٨٦) ويصر على أن «مذاهب المتكلمين هي للفلسفة العربية الحقيقية» (ص ٨٦).

كما يلح على «أن للحركة الفلسفية للحقيقة في الإسلام يجب أن تنقسم في مذاهب فرق المتكلمين. ولا يزال الباحثون المعاصرون يحيطون هذه المذاهب من أقسام الفلسفة في الإسلام» (ص ٨٦).

فما يعني أن في علم الكلام «عناصر فلسفية، شأنه شأن علوم العقائد عند اليهود والنصارى» (ص ٨٦).

والقضية إذن هي ما إذا كانت الفلسفة الإسلامية علماً من بين علوم الكلام العديدة. إذ ما معنى اتصال الكلام بالفلسفة؟ هل يعنى هذا أن الكلام فلسفة؟ أن القضية كلام؟ أم أن هناك في علم الكلام بعض العناصر الفلسفية؟ حتى إذا سلمنا بأن نزعة الإسلام تميل إلى التوفيق بين علم الكلام وبين الفلسفة، ما معنى التوفيق بين الكلام وبين الفلسفة؟ هل هذا

توفيق بين طرفين متناقضين؟ وحتى للتناقض يفترض أرضية مشتركة. فهل هناك أرضية مشتركة بين الكلام وبين الفلسفة؟

لا يبدو ذلك من كلام أبو ريده. إذ أن علم الكلام تحليل للقرآن الذي لا يحوى «نظريات مبهمة» (ص ٨٧). وأما الفلسفة فتحوى في صورتها العامة نظريات مبهمة. ثانياً، يحال علم الكلام كدألاً للهياً وأما الفلسفة فتحى حينما تحال الكتب الإلهية فهي تحال تحليل يختلف اختلافاً جذرياً عن التحليل المقلدى. ثم أن للقرآن نوب فلسفة. إن ما يقوله القرآن عن الذات الإلهية وصفاتها إنما يقول ذلك هو الله وليس الفلاسفة. القرآن هو كلام الله عن الإنسان والكون العلوى والسفلى وما فيهما والإيمان والأنبياء والعقائد السنية والعلوم غير المحسوسة.

وقد خاطب القرآن للعقل الإنساني الطبيعي السليم كما يقول أبو ريده لكن هذا الخطاب إنما هو خطاب الله وليس خطاب الفلاسفة. فالقرآن يبنى بناء جديداً ليس في ميدان الفلسفة وإنما على أرض الأديان. وقد يدعو الإنسان إلى النظر الفلسفى. إلا أنه هو نفسه ليس فلسفة، وتبدأ الفلسفة إسلامياً حين يجد الفيلسوف تشكيل المادة الفيزية التي يحتوى عليها القرآن.

وهكذا فليست الفلسفة ولا القرآن بما يصورهما محمد عبد الهادي أبو ريده. إن الفلسفة بالإضافة لصفات أخرى أساسية هي الفلسفة للميوبة المنظمة بحسب قواعد المنطق والواقع جميعاً السائدة والمتخيرة.

ولم تكن الفلسفة سواء أسمىها إسلامية أو مسيحية أو يهودية، أقول لم تكن الفلسفة قط في أى وقت من الأوقات فلسفة بمعنى الكلمة حين تنبثق «دعماً واحدة» (ص ٨٨) من أعماق النفس الإنسانية المبعودة. بل كانت ولتزال

الدفعة الفكرية الواحدة الأولى لحظة من بين لحظات الترتيب المنطقي والسمار التاريخي لعملية التفكير الفلسفي نفسه. الدفعة الواحدة هي نفسها دفعة ثانية أي أنها منتج صليبي بعيدة المدى قائمة أبدا مائلة بخير انقطاع.

ولذلك لا ينبغي فيما أظن أن نبحث في القرآن عما لا يوصيه. ولا يجب أن نتجاهل أن القرآن يحتوى أساسا على أحكام ومنهاج ووصية ومخود وموعظة. أما الاستدلال والاستنباط والاجتهاد فهي طرائق الفقهاء وعلماء الكلام في البحث عن الحلال وتحليل النص. وقول أبو ريده بأن في القرآن «استدلال» (ص ٨٨) إنما هو قول في غير موضعه.

كما أن أبو ريده يخلط بين مفهوم الوحي وبين مفهوم النظرية قائلا: «وكما كان الأنبياء يظنون الوحي، فيجسسون بفسخته في أقوالهم وأفعالهم وما يصنعون أو يقررون من نظم، هذه الناس، فإن قول الفقهاء إنهم لم يجيدوا بنظريات أو عقائد قول في غير موضعه» (ص ٨٨). فهل الوحي في حد جوهره الديني نظرية أو هل يماثل فكرة النظرية؟ قد تدعو طبيعة الوحي إلى التفكير. وقد توجه النشوب إلى التفكير الحق وإلى المنهج الصحيح الذي يكره العقل السليم. لكن هل محتوى الوحي نفسه محتوى نظري؟

إن الوحي يستوعب كل النصوص الدالة على خطاب الله للبشر. أما الفلسفة فخطاب بشري للبشر. وأصل الوحي إعلام في خفاء. أما الفلسفة فإعلام ظاهر. وإذا كانت الفلسفة لا تخطر من الإلهام والإشارة والإيماء والكتابة والكلام، فإن هذه المعاني كلها تستوعبها الفلسفة في إطار خاص شديد الخصوصية. ويستطيع أن تقول بعبارة أخرى أن اللحظة التي تتحول فيها الفلسفة إلى وحي تنقلب فيها الفلسفة على أعقابها، أي أنها تنقلب إلى عقيدة مطلقة الصحة، مطلقة المدل وبالتالي مطلقة

القهر، ساحقة كاذبة. إلا أن العمل النفسي ليس عملا عقائديا ولا يمكن أن يكون. بمعنى الفلسفة. العقيدة التي تملك وحدها سر الحقيقة وسر القانون وسر التاريخ. لا تقوم الفلسفة علاقة اتصال بين طرفين يضمنان إعلاما خفيا سرًا.

وعقيدة محمد عبد الهادي أبو ريده إنما هي أن محمدًا عليه السلام نبى «يوحي إليه من جهة موجد الكون» (ص ٦٢). ويسلم بأن محمدًا جاء يوحي إلى ليلته الناس لكي يوجهوا أنفسهم في الطريق المؤدى إلى الاتصال بالله وليقوموا بعمل شاق أساسه الكفاح الروحي للاحتياز من المركز المتوسط إلى جانب الله.

إن محمد عبد الهادي أبو ريده باحث ديني يستعمل المنهج الفلسفي في موضوع الدين في دخل الدين وفي صميم مسلماته الأساسية ويعوزه في الغالب الموقف الفلسفي المحض. لأن الفلسفة عادة أشبه بالنظر في الأحوال الخارجية للأديان دون التحرش لقصاها الجوهرية. إن الفلسفة في الإسلام عدده إسلام متفلسف، إسلام أساسًا وقبل أي شيء وبخصوصًا قبل أن يصطبغ بالصبغة الفلسفية التي هي أقرب ما تكون بالغلغاف الفارسي. الفلسفة في الإسلام عند أبو ريده ليست تحليلًا فلسفيًا للإسلام وإنما هي إسلام ميتافيزيقي عميق يصور فيه الفيلسوف الوحي صبغة بعدية فلسفية. للكتاب والملة أولًا ثم تأتي الفلسفة إذا شئت.

إن اعتقاد أبو ريده الذي أسس عليه الفلسفة في الإسلام يتلخص على النحو التالي: «القول بالوجود المطلق للخالق لكل شيء المتصرف فيه كما يشاء، لا يسأل عن شيء، لأنه لا شيء فوقه، ولأن أفعاله خلق وقوانين. ولا معنى للاعتراض عليه، لأن هذا الاعتراض سيكون من وجهة نظر كائن محدود،

وهذا نصبي ذاتي لا يصلح أساسا لحكم عام ولا لتقدير قيمة مطلقة، وإذا أحتج لحد بالعقل الإنساني وأحكامه فالمعقل الإنساني مهما تحرر لا يزال نسبيًا، وهو لا يزال في خدمة الإنسان ومعبرًا عن وجهة نظره الخاصة ومبادئ بذاته، فأما المعقل المطلق فإنه لا يجد اعتراضا على تصرف الموجد المالك فيما أوجد ومالك» (ص ٩٩).

وهذا مملكه يقوم الفلسفة في الإسلام على أساس للفصل الإلهي وعلى قاعدة الاتفاق للنام والانسجام للنام بين آيات القرآن. لذلك يرى أبو ريده في المعتزلة رؤية تكفيرية تصل به إلى حد وصفهم بأنهم «خرجوا عن الدين وعن الحق نفسه» (ص ١٠٦)، بسبب اعتمادهم على العقل لا على الوحي.

لأن اعتماد المعتزلة على العقل لا ينفي أنهم وجدوا الله وسلموا بالعقل الإلهي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك من الأساسيات الإسلامية التي يحول عنها المعتزلة. فالأصل الأول من أصول المعتزلة الخمسة المشهورة إنما هو التوحيد بمعنى إنكار التعدد في المبدأ الأول أو في المبادئ القديمة. ونعترف عن واصل بن عطاء للفرزاق المتوفى سنة ١٣١ هـ أنه اعتبر العقل مصدرًا للمعرفة الدينية إلى جانب القرآن والملة بل والإجماع.

ولعب المعتزلة وليس أهل الحديث وحدهم دورًا محاسنًا في زمن خلفاء بني عباس في أيام المأمون إلى عهد كل الذين جفروا بمذهب المعتزلة عقيدة للزلة تفتحن عقائد خلق الله. تحول المعتزلة إذن بالنظر العقلي في زمن المأمون إلى النظر للنقيض للعقل حيث حلوا السيف محل الحجة والدليل. وبالتالي فلا يخلو مذهب المعتزلة العقلي العظيم من اضطراب وتناقض داخلي يتجلى في النظر نفسه وفي التطبيق السياسي.

إلا أن ما يحسب للمعتزلة أن كثرة ما معهم كانوا يملكون على العقل أكثر مما يملكون على نصوص القرآن ويظنوا في الأديان الثلاثة السماوية، يقاتلون بعنصرها ببعض. دون أن يتعارض ذلك عندهم مع الشريعة النظرية العقليّة التي تقوم على أن في الإنسان علماً فطرياً يؤدي بالضرورة إلى معرفة إله واحد خالق وحكيم، غير أن استعداد المجتمعات البشرية لقبول دين مفروض من إله أعلى، أكبر من استعدادها لقبول الشريعة العقلية الاعتزالية.

وأما محمد عبد الهادي أبو ريده، فهو أقرب إلى مذهب الأشعرى الذي لم يبعد كثيراً عن نصوص السنة، تجنباً لأفئدة المتنبي وإرضاء لعقول الناس. وهو يعتمد الوحي المنزل في القرآن ولا يعتبر النظر الفلسفي المستقل عن الوحي سبيلاً إلى معرفة الحقيقة، لأن الأصل الوحيد لمعرفة الحقيقة هو الوحي.

وتكون روح الفلك والسخرية بأفئد الأتقياء لا عند الفلاسفة وإنما في شعر العرب. إلا أن أبا العلم على سبيل المثال كما يقول أبو ريده، كان يتناول القضايا كما يتناولها الشاعر لا الفيلسوف الذي يصنع مذهباً فلسفياً. هو حكيم أو شاعر متكلم وليس فيلسوفاً بالمعنى الخاص، (ص ١٤٢).

ومصحح أن أبا بكر محمد بن زكريا الرازي كان ينفر من علم الكلام لكنه لم يوغل في علم الكلام ولا علم غرضه الأقمى؛ فضلاً عن أنه الطبيب المشهور بأنه طبيب المسلمين غير مبالغ، ويأن كتبه الطبية ليست الفلسفية هي التي كانت سائدة في العصور الوسطى وظل الرازي في أوروبا حجة في الطب لا يذاع حتى القرن السابع عشر أيضاً في ميدان الطب لا في مجال الفلسفة. فجاء طعنه في الأديان النبوات أقرب للمرافقة الفكرية منه إلى التحليل الفلسفي الدقيق.

هذا وإن اعتقد أن الفلسفة هي السبيل إلى الخلاص من كدورات المادة ومن الآم هذا العالم.

وليس الطب الروحياني عنده إلا صورة طبق الأصل لمعطيات طب البندين. ومهما يكن من أمر العقولية الشرعية والطبية لمعطيات الدين الأولى فهي ليست مقارنة فلسفية خاصة، إذ لفق الفكر المرمي الفلسفي نفسه بمعنى أنه ضم الدين إلى الفلسفة على حساب الفلسفة.

فلا يمكن أن تكون نزعة للتفريق نزعة فلسفية، لأن الاقتباس أو الأخذ في مختلف المذاهب ليس توحيداً مذهبياً واحداً وإنما هي عدة مذاهب من الحسناً حقاً ألا تعادى الفلسفة علماً من العلوم والآ تهرج كتاباً من الكتب. لكن كيف لا تنظم بمذهب دين غيره من المذاهب؟ أقصد كيف لا يكون لها مسلماتها الخاصة؟ فأغلب الظن أن الرأي الفلسفي الوليد أو المذهب للفلسفي الوليد يخفي نفسه وراء وهم الاستفراق في المذاهب كلها وجمع العلوم كلها. وأغلب الظن أن الجمع بين نوح وإبراهيم وسقراط وأفلاطون وزرادشت وعيسى ومحمد وعلى كان لصالح نوح وإبراهيم وزرادشت وعيسى ومحمد وعلى وليس لصالح سقراط وأفلاطون.

لم يكتب نصر أبو زيد أي كتاب عنوانه بالفتح، ويقدم فيه منطقاً شاملاً في مجال بحثه وعلوم القرآن والحديث. لم يصغ آفة جديدة، تكون لأذهالهم للعلوم الدينية. بل لم يطرح صالفاً دينياً جديداً يجارر العلوم الدينية القائمة.

لكن كلمة المقدمة تكاد تكون الأقرب لوصف مضمون إضافات أبو زيد. ومن هنا فليس نقداً سلبياً فحسباً أن نقول إنه لا يمتلك رؤية واضحة. إذ يميل إلى تسليط الضوء على الغموض لا على الوضوح إذا جاز للتعبير. وهي الآلية

التي تتميز بها الدراسات الحديثة التي باتت تشدد على الغموض وتشكك في الوضوح. وقد سبق للقرآن الدراسات الحديثة في هذه النقطة قائلاً: «هو الذي أنزل عليك الكتاب فيه آيات محكمات هنأ أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمناً به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب» (١).

وعلى هذا فإن أهم خصائص فكر أبو زيد هو ولوج باب التأويل من ناحية علم الفاضل والواضح أو الحكم والمتشابه ومقاربة علوم الدلالة بعد التوفيق، أي علم نزول الآية وسورتها وأقسامها والإشارات الخفية فيها ثم علم ترتيبها ومفهومها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقتضاها ومجملها ومفسرها وعلم حلالها وحرامها وروحها وروحها وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها...

وترجع أهمية علم الحكم والمتشابه للعامة إلى أن النص نفسه في أحد جوانبه يفاير ذاته ويخالف المرجعية الثقافية الأخرى. واحتواء النص على الصغائر إنما هو أمر يجعل القراءة فعلاً مشاركاً وفعلاً في صناعة دلالة النص.

على أن المشكلة تنبع من أن البعض فرض قانوناً يخص على أن النص هو معيار ذاته، ومعيار أخرى، يقول النص بأن الحكم هو معيار وضابط المتشابه، وعلى هذا الأساس يتم تفسير أجزاء النص بعضها بعضاً، وينظر المفسر إلى غرض النظر عن معايير هي ليست «خارجية»، على وجه الدقة وإنما تبدو كذلك لمن ينطلق ضمن غوامض النص فيستخرج الدلالة في داخل النص. ومن ثم فإن محاولة أبو زيد محاولة لتعطيل التطبيق التام بين منطق النص ومفهومه أو هي

محاولة لمراجعة النظرة الأحادية للجانب للنص.

ولو لم يكن القرآن مغايرًا لخلقه فكان مطابقًا لقراءة واحدة وكان تصريحه مطبقًا لأية قراءات أخرى . وهو ما يحيط ويقمع سائر القراءات الأخرى عن قبولها والنظر فيها أو الانتفاع بها . فإذا كان أبو زيد صاحب رؤية واضحة أو محكمة لما كان مفهومه للنص أو محاولة بلورة مفهوم تأويلي للنص مقاربة حديثة بكل المعاني الحديثة للكلمة . وأقول محاولة لأن أبرزها ما أروضه أبو زيد هو إثبات المغايرة من خلال مفهوم للقراءة يتعدى حدود الشرح إلى تفسير الطاقة الدلالية للنص والقراءة والواقع . والخلاصة أنه ليس بمقدور النص أن يدل بمخروطه على دلالة مباشرة أو معنى واضح أو مفهوم حاسم .

وهذا كله يقرب أبو زيد إلى حد كبير من المفهوم المعاصر للقراءة الذي يقضى بأن الطول يقم حركة مكوكية مستمرة بين المعنى اللغوي للنص وبين الأفق الثقافي ، أي بين المنطوق المباشر وبين المفهوم المجاور للنص .

لويست مصانفة على حال أن يكون أحد أعمال نصر أبو زيد بحثًا في «إشكاليات القراءة» فهو لا يقدم مفهومًا للنص بقدر ما يطرح نظرية في قراءة النص لا تقف عند حدود اكتشاف الدلالات في سبيلها التاريخي والثقافي ، بل تصل إلى «المفرد» الزمان للنص اللغوي (٢) . فالقراءة فعل حاضر أو معاصر يتم ضمن سياق ثقافي تاريخي أيديولوجي ، وفي أفق معرفي وخبرة محددين . ومعنى ذلك أن القراءة لا تبدأ من فراغ ، وإنما تبدأ من سؤال تصوغه للوصول إلى إجابات غير محددة مسبقًا .

ولم ينظر أبو زيد إلى علوم القرآن من منظور البنيوية ، ولم يحاول قط أن يكون بنويًا حديثًا ولا متطورًا . فالنص عنده

قد تشكل في الواقع في الهواء . أما البنيويون فهم على غير ذلك لا يبالون كثيرًا أو قليلًا بالواقع وإنما ينصب اهتمامهم المنهجي الأساسي على البنية المتوالية وراء الواقع . ولابد محسبًا وقول كلود ليفي شتراوس شيخ الفكر البنيوي أن يدور العلم ظهره لكل ما هو معاش لأن الواقع الحقيقي لا يمكن أن يكون هو نفسه الواقع الظاهر المباشر ، ومن شأن العلم أن يهرب أو أن يتهرب مما هو واقع مباشر ولذا نجد شتراوس يعارض بين «محسوس» العلم الظاهري وبين «معقول» البنية الخفية لصالح البنية الخفية .

أما نصر أبو زيد فيقيم مفهومه الإشكالي للنص على لاتبهية الواقع وحالته المركبة المستمرة المتغيرة التي يعارض بينها وبين «النص» المحدود حتى إذا كان للنص قدرة على استيعاب تلك الواقع بحكم قدرة اللغة على التعميم والتجريد (٣) . وهي المقاربة التي تتميز عن الخطاب المعاصر الزاعم أن العبارة «بمعوم اللغة» لا يخصص السبب والتمسك بهذا الجانب .

وأقنع رغم العمق المعرفي أو بفصله ، يظل فكر الدكتور نصر أبو زيد في حدود «مقدمة في المنهج» تمهيدًا للبحث المقبل ، وكان البحث نفسه لا يأتي . وكل مقدمة عملية فإن مقدمة أبو زيد ليست بالفعل عنوانًا لأحد كتاباته إذ تبدو وكأنها عرض دقيق وشفاف لمجموعة الشكوك والاعتراضات للجزئية والعمقات الكبرى أمام الفكر الجديد والزمن الجديد ، فالتبحث قبل استقصاء الصعوبات في كل الاتجاهات من علوم التفسير إلى علوم الأصول ومن الخاص إلى العام ومن الرواية إلى الدراية ومن النص إلى للنقل ، ليس إلا سيرة على غير هدًى .

ومن حق أي قارئه أن يرى في نصر أبو زيد «اعتزالها» جديدًا . لكن

الهاجس الأساسي لديه بعد كل البعد عن سؤال الأحياء الذي يدفع العقل إلى الزواء لحل المشكلات القائمة أمامنا من جهة ، ويذلّق بالخاص من جهة أخرى إلى أدنى درجات الفساد والضعف والانحراف عن المقاييس الأصلية بينما يرقى المعاشي إلى أرفع درجات النضارة وأعلى مراتب الطهارة والفاء .

واقع الأمر أن مقدمة أبو زيد معركة مستمرة بينه وبين حاسر الخطاب المعاصر وبينه وبين احتمال الحيرة وسؤال المنهج ، لذلك هو أقرب ما يكون إلى روح النهضة الأوروبية الحديثة وفلسفة الأنوار في القرن الثامن عشر وتصورات الفرع المتطور من اليسار الليجالي في القرن التاسع عشر . لكن مقدمته هي مزيج معقد من عبار العقل ومقاس الواقع .

والسؤال المنهجي في اللغة العربية ، لم يظهر إلا حديثًا في العشرينيات من هذا القرن ، بعدما تحولت الجامعة المصرية من جامعة أهلية إلى جامعة حكومية عام ١٩٢٥ ، وجاء لالاند الفيلسوف الفرنسي المعروف ليحل دون وسيط تاريخ الفلسفة الحديثة ، لا سيما فلسفة ديكرات ومقاله عن المنهج على وجه التحديد . ومن هنا عرفنا ديكرات وهاجسه المنهجي وإمادًا أثر طه حسين هذا الهاجس بإقباله عليه وإعجابه به إلى حد تحويله لدراسة الشعر الجاهلي في صورة جديدة .

ومن قرأ كتابات نصر أبو زيد سيعبر بنصومة وثقة وإتقان من خلال لقاء المحطات والمفترقات وتقاطع المسارات المذهب كل منها وحده ، إلى انتهاء يرى أنه يباذع زمن آخر في التفكير أو لتظير لزمن فكري مغاير .

وفي كتابه «الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسيطية على سبيل المثال يظهر جذور المعادلة الذهنية العربية

الحديثة التوفيقية المنسوبة عام ١٩٦٧ في التراث العربي الإسلامي . ولم يختر أبو زيد للشافعي اعتباراً بل لأنه صاحب الفضل التاريخي في تثبيت وترسيخ مبدأ جوهرى فحواه أن (الكتاب) يدل بطرق مختلفة على حلول لكل المشكلات أو للتراز التي وقعت أو يمكن أن تقع في الحاضر والمستقبل . وهو السبيل الذي ساد تاريخنا العقلي والفكري إلى الآن ، وضع العقل العربي وراء لافتات الوساطة والتوفيقية والتوفيقية إلى عقل راكد يتبع ولا يبدع إذ يقتصر دوره على تأويل النص واشتقاق الدلالات المشروعة وغير المشروعة (٤) .

وبالطبع لم يؤسس الإمام الشافعي هذا السبيل للمرة الأولى أو لم يكن أول مؤسسه ، بل اعتمد على استقراره الضمني في بنية الثقافة العربية ثم أسعاه الشكل شبه النهائي الذي كلف له للسيطرة والسيادة .

ودور الإمام الشافعي يبدو شديد التعقيد لأنه كالفزالي في الفلسفة يزيل العقل بقوة العقل والإبداع بالاتباع . فقد كان هاجسه الأساسي توسيع مجال النصوص لتضييق مجال العقل والنقد وحصر العقل في حدود الذات . وهكذا يكون العقل كشفا لما هو موجود بالفعل في (الكتاب) .

وعلى هذا فالوساطة التي سبقت عام ١٩٦٧ لم تكن جمعا وإعوا أو غوراوع بتأثير الاستنتاجات بل كانت في عمقها السبق مسوية نحو أحد أطراف التناقض دون أن توجد بالفعل بين العقل والفعل . ويعود بنا هذا السحر إلى جوهر ما سبق أن كتب أبو زيد ضمن مفهوم النص ، ودراسته في علوم القرآن حيث لم يهتم بالتفصيلات الجزئية ، بقدر ما رفع إلى رأس الإشكال قضية العلاقة الممتدة بين النص والنفس ليرز سؤال المنهج أكثر مما يظهر سؤال الجزئيات .

إن مقدمة أبو زيد تختلف عن مقال في المنهج ، لديكارت ، لأن أبو زيد لا يقصد من مقدمته قيادة العقل بل يقصد اعتبار الواقع معيارا للحكم . لكليهما وتلاقيا في نقطة مهمة هي البحث عن الحقيقة في العلوم . وبالنسبة لأبو زيد هي علوم القرآن . وبالنسبة لديكارت هي العلوم الطبيعية من بصريات وتأثير عطوية (النسك) ومهندسية . ونقطة الالتقاء الثانية هي أن البحوث العلمية التي يقدمان لها ليست تطبيقا للمنهج المسبق (ديكارت) أو لم تطبق بعد المنهج بالفعل وبشكل متكامل (أبو زيد) .

ومن ناحية أخرى يتعد أبو زيد كثيرا عن ديكارت ويتركب قليلا من طه حسين خصوصا في رسالته الجامعية الأولى ، أي طه حسين عن أبي العلاء المعري التي نال بها شهادة الدكتوراه من الجامعة المصرية عام ١٩١٤ حيث يقول : «إننا العادة التاريخية والتقصيدة الشعرية والفنية يجردها الخطيب والمرسلة ينمها الكتاب الأدبي» ، كل أولئك نسج من العقل الاجتماعية والكونية تخضع للبحث والتحليل ضمن مشروع للعادة لعمل الكيمياء (٥) مؤكدا أن أبا العلاء هو شجرة من ثمرات عصره قد عمل في إنسانها لزمان والمكان والمالة السوساوية والاجتماعية بل والمالة الاقتصادية والفنية .

لكن أبو زيد لم يخصص حتى اليوم كتابا أو عدة كتب لموضوع دراسته ، وهو أصول تناول القرآن يبين فيه على نحو تفصيلي زمان النص ومكانه بدقائقه السوساوية والاقتصادية والاجتماعية . أي ما نتفكره هو تخصيص العام وتشخيص للموضوعية .

فنحن لا نستطيع أن نكتفي مثلا باعتبار البحث عن دين إبراهيم بحثا عن اليهودية الخاصة للعرب . وقد تهدتها مخاطر الاقتصاد وضيق الموارد التي

تعتمد على الطر والمشب من جهة ، وعلى التجارة من جهة أخرى . وربما الجانب الذي يفحه أبو زيد حقه بين جوانب الواقع . على نحو واضح مرتبطا بالنص هو الجانب الثقافي . أي أن ما قام به فعلا هو إزالة القطيعة لا بين الواقع وبشكل عام وبين النص ، بل بين الثقافة وبين النص . خاصة بتوثيق العلاقات بين الشعر ، نص ثقافة ما قبل الإسلام وبين القرآن دون أن يحول القرآن إلى شيء آخر غير القرآن . فإذا تعامج عليكم شيء من القرآن كما يقول القمصاء فليكم بالشعر .

يحتوى فكر نصر أبو زيد إذن على نقد مستمر لأنصار القطيعة المعرفية .

تلك المقولة التي شاعت في الفكر المعاصر منذ جاستون باشلار وإلى لويس ألتوسير وميشيل فوكو ثم المفكرين المعاصرين العرب من أمثال محمد أركون ومحمد عابد الجابري . وفي الأصل لويس المقصود من : القطيعة ، القطع مع الماضي في سبيل الحاضر والمستقبل ، وإنما المقصود هو إزالة العقبات التي تعترض العلم سواء أكان علما إنسانيا أو علما طبيعيا . إلا أنها في الفكر العربي المعاصر جمحت نفسها وحولت للنم إلى ماهية قائمة بذاتها مقطوعة الصلة عن الأندولوجيا التي تحولت بدورها إلى ماهية قائمة بذاتها في الأخرى .

التقصية إذن بين الشعر وبين القرآن شديدة الدقة وليست وحيدة الجانب . كما أن الشعر والقرآن لا يحصران في حدود ثنائية الشكل والمضمون أو في ثنائية الجوهر والمظهر ، لأن الثقافة في تحول معرفي مستمر دون توقف . يصل الشعر بالقرآن ويفصل عنه في نطاق من التباين في الوحدة والنشاط المتبادل . يقول نصر أبو زيد : «إن علاقة القرآن

بالشعر تقوم في جانب منها على (التماثل) وتقوم في جانب آخر على (المخالفة)، إنها علاقة جدلية بدلت من المفاهيم والتصورات الأساسية في الثقافة، وقد أدرك العرب الجاهليون والمسلمون الأوائل فيما يبدو زيف القطيعة العرقية بين الشعر وبين القرآن، كما أدرك النقاد المعاصرون في الغرب العلاقة القوية التي تربط الأيديولوجيا بالعلم داخل منظومة الغزبية الحديثة نفسها، حيث أدت هندسة الطبيعة إلى إعطاء الأولية والمطلقة، للمكان على الزمان ولعلم الحركة (الميكانيكا) على الهندسة (الهندسة الصلطة)، وذلك نتيجة المطابقة التي أقامها جاليليو وغيره بين لحظات الزمن المستغرق وبين نقاط المسافة المقطوعة.

و هذا رأى أردت فيه أن أبنى السلة الوثيقة بين دراسة القرآن وبين روح الدراسة الفلسفية.

صحيح أن هذه الصلة شقت طريقها إلى نوع من الاضطراب في سياق التاريخ الشامل للثقافة العربية الإسلامية مع التحكيم التدريجي للصوص على حساب العقل، ثم القضاء على الاعتزال بعد عصر المؤمن إلى حصار العقل في دوائر ضيقة إلى مجيء أبو حامد الغزالي الذي أغلق باب الفن الفلسفي في بلادنا من زمن الانهيار السياسي والاجتماعي وسيطرة المؤسسة العسكرية والدينية على نظام الحكم والحياة والمجتمع إلى الآن، ثم سقطت بتداع.

كما وصل الاضطراب بالصلة الوثيقة بين دراسة القرآن ودراسة الفلسفة في ذلك العصر إلى حد استئمان السلاطين من جانب الفقهاء على كل مسلم يقترح من الفلسفة تعلما وتعلما باعتبار أن الفلسفة هي أس السلف والاحتلال وأدلة الحيرة والضلال ومدار الزيف والزندقة. ومن تفلسف عميت عينه عن محاسن الشريعة المطهرة.

فالواجب علينا أن نبين في هذا المصدر أن القرآن نفسه لا يشتغل على قضية لأنه قبل أي تفلسف كتاب في العقيدة الإلهية والطبيعة والإنسانية ليست بالضبط هي مشكلات الفلاسفة. كان القرآن هو المصدر الأول الذي استرجاه المتكلمون على اختلاف آرائهم ومذاهبهم. إلا أن علم الكلام ليس بالضبط علما من علوم الفلاسفة. ولا يشتغل القرآن على قضية لأنه كتاب مقصص منزّل. وأما الفلاسفة فمن صنع البشر. وفي حين يضم القرآن بين فقهيه مآبه سعادة المؤمنين من عقيدة وخلق وتشرع، تضم الفلسفة على وجه العموم ما يثير التناقض والشك في العقول والفلوب والنفوس.

وهو كتاب لحكمت آياته. وأما الفلسفة فتعطو بين الإحكام والتفكيك. وبينما أوحاه الله إلى رسوله ليوخرج الناس من الظلمات، فإن للفلاسفة عموما غالبا ما يتداخل عندهم النور والظلمة. وفي حين يتحدث القرآن بلسان عربي تتحدث الفلسفة بلسان إغريقي. وقد نزل القرآن بين العرب وب لغة العرب.

إن الفلسفة، رغمًا عن اختلاف في الآراء قد ظهرت بين اليونانيين وب لغة اليونان.

على أن القرآن والفلسفة يدهوان دعوة عامة موجهة للإنسانية جمعاء، لا فرق بين عرب وعجم، وأمة وأمة، ورجس ورجس، هما رسلان مختلفان للناس كافة على اختلاف حظوظهم من العقل والفلسفة. ويصرف النظر عن دياناتهم ومثلهم المختلفة العديدة.

ولكي لا نزل إلى تفاصيل كثيرة في هذه الناحية لآثر ضرورة للحديث عنها. تكفي بأن نذكر أن أبو زيد ليس من عبدة الأوثان والأصنام ولا هو ممن أنكروا الخالق والبحث. كما أنه ليس ممن

لم يروا. سببا لوجود هذا العالم إلا الطبع المحسني والخير المعنى. هو ليس من هؤلاء «محللة العرب»، إذ ليست قضية أبو زيد الإقرار أو الهداية إلى الإقرار بوجود الخالق والدار الآخرة. وذلك لسبب رئيسي لا لسبب استراتيجي وتكتيكي. فدراسات أبو زيد لا تهدف إلى بلورة مفهوم في الحياة الدنيا وإنما مدار دراساته جميعا هو بلورة مفهوم للنص اللغوي.

وهكذا فليست قضية أبو زيد قضية إلهية. ذلك أنه ليكون الإلهاد لبد أن يكون لله أو الآلهة.

صحيح أن ظاهرة الإلهاد في تطور الحياة الروحية العربية ارتبطت برفض فكرة النبوة وليس بالإعلان عن موت الله كما قال الغرب. لكن حتى في هذه الحال أبو زيد ليس ملحدًا إذ يرجع مفهوم النص القرآني وليس مفهوم النبوة.

وأما الملحون في الروح العربية فقد انتجوها جميعا إلى القضاء على فكرة النبوة والأنبياء.

وكل ما هناك هو أن التراث للشرقي القديم نجح في أوروبا في إبداع الذرعة الإنسانية التي صاغت أوروبا الحديثة المتقدمة، بينما هذا التراث عينه لم يود إلى إبداع نزعة مشابهة للذرة الإنسانية في الفكر إلى النصوص الدينية الإسلامية. وإنما أنتج هذا التراث في العالم الإسلامي فقها سلبا يخطف اختلافنا جذريا عما أنتجه العالم الأوروبي. إذ أصبح على المفكر أن يشرح الكتاب الذي فيه بيان أوامر الله ونواهيه، كما هو الحال في مجموع أعمال أبو زيد، كذلك أصبح كل من يخالف مذهب أهل السنة زنديقا أو صاحب بدعة أو ملحدًا أو كافرا بينما كان يطلق على «الزندق» من يؤمن بالماتوية وبعبث أساليب أنانيين للعالم؛ هما النور والظلمة!

ومن ناحية أخرى يبدو ضرورياً أن تشير إلى أن محاولات نصر أبوزيد جزء من عملية عربية واسعة النطاق راحت تفتح مرحلة جديدة في دراسة التراث العربي في أعماق هزيمة ١٩٦٧، وإزدهار الخطاب الديني هو جزء من عودة عربية شاملة إلى الماضي تمثلت من بين ما تمثلت فيه تعدد الفكر الديني (١٩٦٩) لصديق جلال العظم، ومشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط (١٩٧١) لطبيب تزيني، والثالث المتكامل (١٩٧٤) لأدونيس، وأزمة الحضارة العربية أم أزمة البرجوازيات العربية (١٩٧٤) لمهدي عامل، والزرعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية (١٩٧٨) لحسين مروة والتراث والجديد (١٩٨٠) لحسن حنفي. وهي عودة رغمًا عن معتنق الماضي الأكيد أو مجاورته له - إلى الماضي الذي قات ولم يبد له أي وجوداً في الذكرة الواعية به. أو قل إنه حين الإنسان العربي إلى العصر الذهبي المفقود أو حنطه إلى حزن أمه أو انبعاث لتمثل القديمة في سياق اللاوعي بحيث إن وقوف صادق جلال العظم وطبيب تزيني وأدونيس بمهدي عامل وحسن حنفي وإميل توما وهادي الطوي وصبر أبوزيد عند الأطلال ليس عسرة إلى الجاهلية بقدر ما هو عودة ما أعرق ما يمتلكه الوعي العربي عبر العهود، بينما يحدق الحاضر إلى عيوننا ونحن لا نملكه الأجوبة، حاضرات التسمية والظلم العالمي الأمريكي الجديد.

وهكذا ولدت السريحة الجديدة في دراسة التراث العربي لتحليل أو الرد على ظاهرة المد الديني الإسلامي وما صاحبها عقب هزيمة ١٩٦٧ من يأس الشباب العربي الذي راح ينفور لأطروحات «غير نضجية». فضلاً عن انقلاب عقد السبعينيات.

إن ما أحدثه عهد السبعينيات من تغيرات هو إضفاء الطابع الديني على توجهات الانفتاح الاقتصادي، يوحى بالحادية سلفه في الستينيات من جهة، ويستغل عولطف الجماهير لتجديد توجهاته المعارضة لمصالحها من جهة أخرى، لذلك لم يكن غريباً أن ترفع شعارات مثل «دولة العلم والإيمان» والرئيس المؤمن، وأن يسيطر على الخطاب السياسي الاستشهاد بالصوص الدينية، وأن يشار إلى السلطة باسم «الولاية» (١).

ولأنه لأمر غريب حقاً أن يتزامن الانفتاح الاقتصادي والانفلاق الديني أو العقائدي. تسفت سياسة الاقتصاد المفتوح ولا تزال تصف نفسها جميع القيود التي تعوق حرية الحركة الاقتصادية. وأما القيود الفكرية فلا تزال قائمة رغمًا عن الانفتاح الاقتصادي (٧).

وقد كان الانفتاح الاقتصادي كما هو معروف جوهر استراتيجية المرحلة التاريخية التي لا تزال تعول في سباقها إلى الآن ومثل حرب أكتوبر. هي مرحلة توفير كل الضمانات، بما في ذلك التخلف الفكري والعقائدي لتسمية رأس المال واستثمار رأس المال في التنمية ثم في الوقت نفسه إياحة الاستثمار وتقيد رأس المال للفكر.

وأما الانفتاح الاقتصادي فهو إياحة الاستثمار لرأس المال والسماح لرأس المال الخاص الأجنبي والسحلي، بما كان محظوراً عليه. الانفتاح الاقتصادي هو السماح لرأس المال الخاص بالنمو الأثني والرأسي، ولا قيد ولا شرط إلى حد ربط الرأسمالية للوطنية بالرأسمالية العالمية ومعايير الرأسمالية العالمية في ضبط مسار الاقتصاد القومي.

وأما الانفلاق الفكري فهو «إن للإسلام معنى واحداً ثابتاً لا تؤثر فيه

حركة التاريخ، ولا يتأثر باختلاف المجتمعات فضلاً عن تعدد الجماعات بسبب اختلاف المصالح داخل المجتمع الواحد. للتعبية الثانية: أن هذا المعنى الواحد الثابت يمتلكه جماعة من البشر. هم علماء الدين قطعاً. وأن أعضاء هذه الجماعة مبرلون من الأمواه والتحييزات الإنسانية الطبيعية» (٨).

وبينما افتتح عصر الانفتاح الاقتصادي في شهر يونيو من عام ١٩٧٤ بإصدار قانون الاستثمار الأجنبي الذي يوجب استثمار رأس المال الأجنبي في الأنشطة الوطنية الاقتصادية كافة، قام الخطاب الديني المتطرف أو الإرهابي المعاصر بإصدار فتوى تؤدي إلى أن «تدقق خلط من الفلسفة والأدب والعلوم من اليونان والإيرانيين واليهود في التربة الإسلامية، وبذلك بدء الخلاف النظري بين المسلمين، بدأت عقائد المعتزلة والزرعات الشكية والإحادية، وقبل ذلك أو على رأسه الاتجاه إلى الفرة والخلاف في مجال العقائد، وأدى إلى وجود فرق واتجاهات جديدة. وبالإضافة إلى ذلك وجدت فنون الرقص والموسيقى والرسم - وهي فنون غير إسلامية - تشجيعاً من أولئك الذين كان محرمًا عليهم أن ينفقوا هذه الفنون القيحة» (٩).

وبينما تم حل جماعة الإخوان المسلمين في عصر ما قبل الانفتاح ومحكمة أعضائها، حيث تم إعدام عدد من القيادات وحكم على الأعضاء بالسجون لمدد متفاوتة حسب موقعهم التنظيمي، جاء قانون الانفتاح الاقتصادي عقب حرب أكتوبر مزجواً بالسماح الحكومي لجماعات الانفلاق العقائدي والفكري بممارسة نشاطها، بل وتمويلها مادياً وتدريباً في الجامعات وخارجها. وقام النظام السياسي الانتفاخي على أساس الانفلاق الفكري نفسه الذي يزعم أنه يقارمه نتيجة احتكار سلطة الحكم

وتأويل الحاكمية على نمو خاص وهو تأويل يختلف عن تأويل الخطاب الديني، ومن هذا الخلاف يقع الصدام^(١٠)، على أن الاتفاق بين نظام الانفتاح وبين نظام الانغلاق الفكري أو الديني أو العقائدي إنما هو اتفاق في الجوهر لا في الدرجة.

ومن جانب آخر، لم تكن دعوة الكويت التي عقدت في أبريل ١٩٧٤ ودارت حول أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي، إلا علامة من علامات هذا التناقض المزمع بين الانفتاح الاقتصادي وبين الانغلاق الفكري، بمعنى أن الحركة التاريخية التي افتحتها في أعقاب حرب أكتوبر تصطم في مسار انفتاحها بعقبة داخلية تحول دون استمرارها أو تعوق مسار الانفتاح الشامل. فالانفتاح كما تنصرونه - أو كما يبدو لي - كل تكتايط فيه مستويات عديدة، سياسية واقتصادية وفكرية، ومستويات وليست بغيث مختلفة على نفسها. فكيف نحدد علاقات الإنتاج ونقد السياسة والفكر اللذين يقومان على هذه القاعدة العادية؟

إن نصر أبو زيد لا يدعو كما سبق أن دعا اليسار الإسلامي إلى إقامة دولة إسلامية شورية. وإذا كانت فكرة اليسار الإسلامي تبدو اليوم من الناحية النظرية أحدث فكرة عربية يسارية وجهت على نحو من الأنحاء بحوث أبو زيد، فإن ذلك لا ينفي أن جوهر اليسار الإسلامي هو جوهر قديم وجد في التفكير الإسلامي منذ أواخر القرن الثالث الهجري، وهو جوهر من المحال تطبيقه في نظر أبو زيد لأنه كما تقول الآية: «ألفدومون ببعض الكتب وتكثرون ببعض فما جزاء من يفضل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما لله بغافل عما تعملون»^(١١).

على أن الاجتزاء الشيوعي للنص جاء وغزا المجتمع الإسلامي ذاته وهو في ذروة قوته ونضجه وروسخه في أوائل القرن الرابع الهجري على يد طائفة من الدعاة الذين اعتكفوا مبادئ دينية واجتماعية جديدة وتجهوا في إقامة دولة من طراز جديد تقسم على نوع من الفروع الاقتصادي والاجتماعي. طائفة القرامطة الذين ظهرت دعوتهم الثورية لأول مرة في أواخر الكوفة.

إلا أن دعوة أبو زيد لوست كما أسلفنا دعوة إجماعية. في حين كانت دعوة قرامط في البداية على أقل تقدير دعوة إجماعية عينية شورها عبدالله بن ميمون في جنوبي فارس باسم الحركة الشيعية في أوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

كما أن مشروع أبو زيد ليس مشروعا دينيا رغبيا عما يبدو الأول وهلة ورغبيا عن الفكرة الدينية التي ظلت إلى الآن قوام كل دعوة جديدة تبدو في المجتمع الإسلامي لتقيام بأية محاولة لانتزاع السلطة السياسية والدينية والفكرية. وكان ولا يزال الدين عضد السياسة ودعمها الفكر الأولى. ولم يشذ داعية القرامطة في هذه القاعدة. بل ولم يشذ داعية النهضة الحديثة عن القاعدة نفسها.

بل نستطيع أن نستطيع أن نستطيع من قراءة التاريخ أن كل نضاج مصر للثوار وأصحاب الأمثلة الكبيرة والمواد المزمعة لهم في الواقع زعماء سياسيون وفكريون قبل أن يكونوا رجال دين. وأنهم كانوا حتى ما قبل عقد الثلاثينيات من هذا القرن في صف الناس ضد الحاكم والوالي وعصاكر السلطان. وكلهم ولا استثناء وفي أولهم السيد قنبرية والإمام الشافعي وإلى الحسن الشاذلي والفريسي أبو العباس وسيد أحمد الهجري

والشافعي والقبلي وأبراهيم الدسوقي، كلهم قاموا السلطان ورسخوا تقليدا في التفكير النقالي لحامة الشعب وخاصة على السوام.

وقد انتهت إلينا في مشروع أبو زيد أقوال كثيرة متضاربة. بيد أنه يكاد يكون من اللفة العلية مشروعا ماديا لا يقوم على مرجعية اليسار الإسلامي وإنما على أساس مرجعية سياسية واجتماعية وإقافية، مختلفة تمام الاختلاف عما أدت إليه التوفيقية من سقوط واضح لا يحتاج إلى إثبات.

على أنه يبدو مع ذلك أن محاولة أبو زيد يقصها شديد أدق لما تقوم عليه من سياق تاريخي إجماعي لا يكون تحديدا في المطلق وإنما يكون تصديدا يربط النص بمدار الواقع ■

الهوامش:

- (١) القرآن الكريم، سورة آل عمران الآية ٧.
- (٢) د. نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وقياسات التحليل، ط٧، ١٩٩٢، المركز للتحليل العربي، ص٦٠.
- (٣) د. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ١٩٩٠، لاهية المصيرية العامة للكتاب، ص ١١٧.
- (٤) د. نصر حامد أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية ١٩٩٢. سونا للنشر ص ٢١.
- (٥) طه حسين، تحديد ذكرى أبي العلاء، ط٣، ١٩٣٧، دار المعارف، ص ٣٠.
- (٦) د. نصر أبو زيد، الخطاب الديني، ١٩٩٢، دار المصنوع العربي، ص ٥٣.
- (٧) د. نصر أبو زيد، إشكاليات القراءة وقياسات التحليل، ط٧، ١٩٩٢، المركز للتحليل العربي، ص ١٤.
- (٨) د. نصر أبو زيد، الخطاب الديني، ١٩٩٢، دار المصنوع العربي، ص ٢٤.
- (٩) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، دار الشروق، ص١٠، نقلًا عن د. نصر أبو زيد، الخطاب الديني، سبق ذكره، ص ٤٤.
- (١٠) مرجع نفسه، ص ٥٤.
- (١١) القرآن الكريم، سورة البقرة آية ٨٥.

ق يطلق نصر حامد أبو زيد في كتابه «نقد الخطاب الديني»، من تفسيره لظاهرة لمد الإسلامى الجديد، إلى للفصل بين الخطابات الدينية التي تتعدد فى مستويات أصولية متباينة، مستقلة فى انتهاجين رئيسيين، هما المؤسسة الدينية الرسمية للدولة ممثلة فى الأزهر، وبعض رجال الدين الذين يصنفون عادة فى صفوف «المعارضة الدينية»، وقد قسم المؤلف الكتاب إلى ثلاثة فصول بدأها بالخطاب الدينى المعاصر، الآليات والمنطقات الفكرية. وفى الفصل الثانى قدم المؤلف قراءة فى مشروع البصار الإسلامى وأخيراً إعادة قراءة النصوص الدينية. وهى دراسة استكشافية لأنماط الدلالة، وهذه الفصول الثلاثة قد سبق نشرها منفصلة وقد رأى المؤلف أنها ليست متبنة الصلة بالأزمة الرئيسية التى تشغل وهى مشروعه الرئيسى فى ضرورة إعادة قراءة التراث.

فى البداية يأخذ نصر أبو زيد على عاتقه مهمة الكشف - كما أشرنا - إلى تنورية الخطاب الدينى فى وضعه المتبدل، والمتطرف، ويرى أن هذين النمطين من الخطاب يفصلهما فقط فارق فى الدرجة لا فى النوع وذلك لعدم وجود خلاف جذرى فى للمنطقات الفكرية أو الآليات، ويتجلى هذا التباين فى اعتماد نمطى للخطاب على عناصر أساسية ثابتة فى بنية الخطاب الدينى بشكل عام مثل «النص»، و«الحاكمية»، ويرى الكاتب أن الخلاف بين المعتدلين والمتطرفين يكمن فقط فى «تكفير» الحاكم والمجتمع، ويؤكد هذا الاتجاه البيان الذى أصدره مجموعة من علماء الدين بعد أحداث عين شمس وهو البيان الذى تعرض لفكرتى «عصيان الحاكم وعدم خروجه عن الدين»، وموقف هؤلاء العلماء من قضية تقييد الملوك

الماضـيون يحتلون المقاعـد الأمـمية

محمود قرنى

شاعر وكاتب مصرى

يستطيع بالضرورة نفى الإنسان وإلغاء القوانين الطبيعية والاجتماعية ومصادرة أية معرفة لاسد لها من الخطاب الدينى أو من سلطة العلماء. وهذا من شأنه أن يقود بالضرورة إلى الحاكمية الإلهية بوصفها الفقيض - لحاكمية البشر. وبالتالي فإن الخطاب الدينى يوظف هذه الآلية لتكريس هجومه على كثير من اجتهادات العقل الإنسانى فى محاولته لتفسير الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية وفهمها - ويتم ذلك باختزال كل اجتهاد من هذه الاجتهادات وزده إلى فكر واحدة تبدو ساذجة متهاكمة فى تعبير الخطاب الدينى ، وهى اتهام كل الأفكة المناقضة بالإلحاد أو فصل الدين ع الدولة كما يبدو ذلك فى الهجوم علم الطمانية.

ولا يتورع الخطاب الدينى عن إسقاط كل ما يتناقض معه من التراث ولاسيم فى مجال العلوم العقلية، وذلك باعتماد المنهج الانتقائى اللغوى حين يتعرض بالنقاش لكثير من القضايا، وهو فى ذلك لا يتحمل أى خلاف جزئى، وإن اتسع صدره لبعض الخلافات الجزئية، وكيف يتحمل الخلاف الجزئى وهو يزعم امتلاكه للحقيقة الشاملة المطلقة؟ ويشير المؤلف إلى وهم الخطابق بين المعنى الإنسانى (الاجتهاد الفكرى) الآتى، وبين النصوص الأصلية واستنساخ أثر الفعل لتاريخى على آيات عمل النصوص، واستخدام الخطاب الدينى لمصطلح «الجاهلية» وتعمد الخلط بين الجهل المعاصرة وبين الجهل المناقض للحلم فى اللغة العربية قبل الإسلام، ويفسر المؤلف التهجى فى لغة ما قبل الإسلام بما يعنى الخضوع لسلطة الانفعال والاستسلام لقوة العاطفة دون الاحتكام إلى رزاة العقل وقوة المنطق، وتحولت كلمة الجاهلية فى لغة الإسلام لتكون مصطلحاً دالاً على



الحاضر وينتمى للنص إلى الماضى - لا بد أن يعتمد على إمداد البعد التاريخى، ويتأكد ذلك فى التجزء إلى آراء القدماء واجتهاداتهم باعتبار أن ذلك جاء استناداً إلى الإسلام، والسؤال الآن هو الكشف المأمول عن الأسباب الحقيقية وراء الإقتناع بامتلاك «الحقيقة» فى الخطاب الدينى ومصادرة مواقف الآخرين ووضعهم على الفور «بالكفر». وقد يكون ذلك ناتجاً - كما يذهب المؤلف - إلى رد جميع الظواهر إلى مبدأ واحد أوسع أولى وهى فى الإسلام الله. ويرد الظواهر جميعها إلى مبدأها الأول هو «إحلال الله فى الواقع العلى المباشر» مما

باليد، ولم يكن موقفهم من هاتين المشكلتين واضحاً بل كان يحمل فى الوقت الواحد، الاتهام والتبرئة، يقول النيان «إن الحكام لا يربون على الله حكماً ولا يكونون للإسلام مبداءً وهى كما يقول المؤلف عبارة مراوغة تنفى عن الحكم صفة الكفر لتسبب إليهم - بهذه الصياغة صفة «العصيان ماداموا لا يربون أحكام الإسلام ولا يبدلوه وهم فى الوقت نفسه لا يطبقونها».

ويرى أبو زيد أنه من الظلم الفادح - فضلاً عن عدم النقة العلمية - اعتبار الجماعات الدينية نبأ غريباً عن التربة ويجب استئصالها، كما تروج لذلك أجهزة الإعلام، لأن هؤلاء الشباب منحازوا الخطاب الإعلامى المستند على أسس ليست أقل فاشية من خطاب الجماعات الدينية، وإذا كان يبدو أحياناً فى سياق بعض الأحداث والمواقف أنهم جلائون، فإن الجلائين الحقيقيين هم الذين ملكوا عقول هؤلاء الشباب - بكل ما تفتقر به من أفكار، وضعوا بها فى أيديهم السواط والجلنازير.

والسؤال الذى يطرحه المؤلف فى مستهل تحليله لآليات الخطاب الدينى هو ما أشار إليه فى مجال التوحيد بين الفكر والدين فى ديماجوجية الخلط وخطورتها وإلغاء المسافة المبرغفة بين الذات والموضوع، فهل تجاوز كل الشروط والعراقق الوجودية والمعرفية والوصول إلى القصد الإلهى الكامن فى النصوص. وهذا ما يمنع رجال الدين وحدهم الحق فى «المديث باسم الله» وهى المنطقة التى تصاى الخطاب الإسلامى على طول تاريخه مقاربه تخومها على حد تمييز الكاتب، لذا فإن المسلمين مطالبون بالكشف عما إذا كان تصريف الدين محكوماً بالرجح أم محكوماً بالخبرة والعقل، ويرى المؤلف أن هذا الخلط بين الفكر والدين - حيث يقع الفهم فى

مرحلة تاريخية في تطور المجتمع العربي، وهي بالتحديد مرحلة ما قبل الإسلام، وإذا كان الفكر الإسلامي يمثل الخطاب المضاد لخطاب الجاهلية فإنه كان جديراً به أن يحكم إلى العقل والنطق في فهم نصوصه ذاتها، لكنه يتجاهل الفعل التاريخي. يتجاهل هذا التوجه في سبيل تثبيت خطابه، وأصبحت الجاهلية في مفهوم هذا الخطاب هي الاعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخص الخصائص الحية وهي الحاكمية، إنها تصد كمية إلى البشر - في صورة ادعاء الحق في وضع التشريعات والقوانين وترائع القوانين والأنظمة والأوضاع بزل عن منهج الله للحياة، وهذا هو ريف الإمام سيد قطب في كتابه معالم الطريق حسب تضمنين المؤلف، وهذا هو فإن حاكمية الله المشار إليها في طاب الإمام سيد قطب تنتهي بالطبع إلى رجال الدين ليصبحوا الممثلين باسم الله رغم أنهم بشر لهم أهواؤهم وتحييزاتهم أيديولوجية.

وهذه المحاولات الدائمة والدائبة لإلغاء العقل وتهميش دوره لحساب النص تأسيسه، لنفيه النهائي وذلك بنفي أساسه المعروف، ويؤكد الكاتب على أن العودة إلى الإسلام لا تتم إلا بأعادة تأسيس دور العقل في الفكر والثقافة، مناهضاً بذلك التوجه الذي ساد الخطاب الديني بداية من ثورة يوليو ١٩٥٢ التي تزامنت مع الخطاب الديني للإخوان المسلمين ممثلاً هذا الاتجاه في أعلى مناصبه عدد الأمامين حسن البنا وسيد قطب على وجه التحديد في كتابه المهم «معالم في الطريق».

ويرى المؤلف أن الخطاب الديني في هذه المرحلة لم يكن يتجاوز التصور الكنسي - نظرياً - تجاه فكرة الدين والحاكمية - إلا أنه على المستوى

الاجتماعي لم يستطع طرح ما هو أبعد مما دعت إليه ثورة يوليو بقواها بإرساء ماسمي بالعدالة الاجتماعية بمظاهرها وتجلياتها المختلفة، لذا فإن الكاتب يرى أن الهدف من خروج الإخوان على الثورة لم يكن إلا تنفيذاً لتصورهم عن الحاكمية التي هي لله في الأصل ثم لهم باعتبارهم الممثلين باسمه في الأرض، لذا فإنهم لم يكن لديهم أقل من تصورهم للحصول على السلطة كاملة دون أدنى مشاركة من أية قوى سياسية أخرى.

ويتعرض الكاتب بالانتقاد لمشروع اليسار الإسلامي باعتباره - كما يرى الكاتب - جزءاً لا يتجزأ من المنظومة الدينية التي تتفاوت درجة التشدد فيها، لأنها تنبئ على أساس معرفي غير قابل للانقسام، وكانت مادة الصراع ... المشروع لتكوير الذي قدمه للدكتور حسن حنفي متمثلاً في مؤلفه الضخم «من العقيدة إلى الثورة»، باعتباره أهم معطى هذا الاتجاه في مسير بل في العالم الإسلامي عموماً، ويضيف الدكتور نصر أبو زيد أن مشروع اليسار الإسلامي يمكن أن تجد له بذوراً واضحة في كتاب «معركة الإسلام والأسمانية» و «العقيدة الاجتماعية في الإسلام» لدى الإمام سيد قطب وكذلك عبد قطب الإخوان السورى «مصطفى السباعي»، في كتابه «أشراكية الإسلام»، ويضيف المؤلف أن هذه الإرماسات تمثل امتداداً طبيعياً للتأويل العقلاني للإسلام الذي طرحه كل من الأفغانى ومحمد عبيد استجابة للتجديد الحضارى الذي طرحه الآخر «الفريدي من جهة واستناداً إلى التراث للعقلاني المعزلة وابن رشد من جهة أخرى».

ويرجع المؤلف في البداية تهمة التلقيفية للدكتور حنفي مستنداً إلى إعلانه الذي يفتتح به العدد الأول والوحيد من مجلة «الصروة الوثقى» الصادر عام ١٩٨١ في قوله «لا يهدف اليسار

الإسلامي إلى استئثار أحد أو الاستعداد على أحد بل يرمى إلى بقطعة الأمة، واستئناف نهضتها الحديثة وطرح البدائل أمام الناس، والإحكام إلى جماهير الأمة، ويرى المؤلف أن هذه التوافقية الواضحة في بنية الخطاب تعود إلى الحظر السياسي الذي حاق بكل اتجاهات اليسار وفصائله في بداية الثمانينيات وكررت لتنامي اتجاه اليمين الإسلامي، وليس لنا أن نسمى أن اليسار الإسلامي انهم بالماركسية والمعالجة من جانب النظام ولاند الديني من جهة، وانهم بالتلقيفية والتبويرية من جانب قوى اليسار من جهة أخرى، إلا أن الكاتب لا يتفق مع من ذهبوا إلى أن حسن حنفي أصابه ما أصاب غيره من الارتداد ومفارقة معسكر اليسار، رغم ما يراه - الكاتب - من انحياز الخطاب السياسي اليسار إلى التراث الديني بأكثر ما يلتصق للطائفية رغم الميل الواضح لهذا الانحياز الذي يبدو للناظر إليه نظرة عابرة وغير متعمقة، ولا يرى المؤلف تلاقضاً فيما يخص إليه هذا التيار من اعتماده التراث كفعالية تشكل أهم العوامل في صياغة -

وعينا الثقافي والفكري للراهن ولكنه ليس التراث بمحمل اتهاماته وتياراته التي يضعها، لكن الكاتب يرى أن هذه الاختلافات، معقدة ومتناقضة إلى حد الصراع مع الواقع العيني المباشر نظراً لما تتضمنه هذه العملية من إبراز وتعميد أو تلوين لتجار دون الآخر إلى المغزى الذي نحدده سلفاً، وهذا يستوجب النظر إلى تأسيس على مغاير لبناء العقل العربي أدى غيابه إلى موت المشروع الثوري المعبري الذي بدأ بداية هذا القرن.

ويرى الكاتب أن المشروع اليسارى الإسلامى بالمعنى التوافقي السابق أقرب إلى الإخفاق منه إلى النجاح، ويبرهن على ذلك بأنه يسعى للتوفيق بين أطراف لم ترصد جوانب الخلاف أو الاتفاق بينها

بدقة، ويجعد الحاضر في إفسار الماضي ويجعله خاضعاً له ولمصطلحاته خضوعاً شبه تام، وكذلك تجاهله للسباق التاريخي الاجتماعي للتراث وتعامله معه بوصفه بقاء شعورياً مثالياً مفارقاً لزمانه ومكانه رغم نشأته منهما، لذا فإن الكاتب يرى أن ما قدمه هذا المشروع كان مجرد إعادة طلاء وليس إعادة بناء، لكن هذا الإخفاق الواضح على جميع المستويات لا يمتثل الحقيقة كلها فيقد حق المشروع إنجازات هامة في دراسة التراث لاسيما إلى تجاهلها - حسب تعبير الدكتور أبو زيد.

وفي بداية دراسته الاستكشافية لأنماط الدلالة في النصوص الدينية يباغض المؤلف بسؤال شديد المبرية ألا وهو: كيف أمكن للإنجازات النهضة والتطوير أن تنزوي في دائرة ضيقة مغمسة المجال لسيطرة خطاب ديني غاشم يسعى إلى إطفاء كل المصاحب الإنسانية التي جاءت الأديان السماوية لتخوى وهجها، ويضيف الكاتب أنه مع التحليلات التي تفسر هذا الكون برده إلى الطليعة التفتيقية لمشروعات النهضة، تلك الطليعة التي تفسر دورها بهشاشة الطبقة الوسطى حاملة لواء النهضة وتهاقت تكويرها وتبعيدتها الاجتماعية والاقتصادية، وكان من أهم

عوامل تراجعها أيضاً دوران الخطاب التطويري - حسبما يرى المؤلف - مع تقيضه للسقفي داخل دائرة السجالات الأيديولوجية، ولم يتجاوز ذلك إلى تأسيس أفق معرفي جديد منقطع جذرياً عن نقوضه السقفي.

وإذا كان النظام النقضوي بدلالاته المتعددة هو تعبير عن بناء ثقافي يعبر عن بيئة التي ينتمى إليها وهو ما ينطبق على النصوص اللغوية كما يرى المؤلف، فإنه من الجدير طرح إشكاليته الفارق بين النصوص الدينية وغيرها من النصوص اللغوية التي تخضع بسهولة للمهج التحليل عند دى سوسير، ويرى المؤلف أن العائق أمام إخضاع النصوص الدينية للمنهج المشار إليه هو توهم إخضاع الكلام الإلهي الذي لا بد أن يكون مخالفاً للكلام الإنساني، لمنهج التحليل العقلية الإنسانية، وذلك بافتراض أن العلاقة بين الإلهي والإنساني تقوم على الانفصال وهو التصور الأشعري للعالم.

وهو في الحقيقة إهدار للروح التاريخية وحقيقتها الموضوعية للملاصقة والمرتبطة بالظاهرة والإصرار على التمسك بالأصل الأسطوري والميتافيزيقي باعتباره المفسر الوحيد للمدخلات هذه للنصوص.

ويضيف المؤلف أن النص الديني بالمعنى السابق هو نص مستغلق تكلفي عنه صفة الرسالة والبلاغ باعتباره نصاً لم يخلق لأفهام البشر المعاجزين عن فهمه لطبيعته الإلهية التي تحتاج لبشر ذوي طاقات خاصة تمكنهم من الفهم - ويرد المؤلف هذا الموقف على أصحابه بتقريره باعتبار النص الديني نصاً لغوياً شأنه شأن أية نصوص أخرى في الثقافة وأن أصله الإلهي لا يعني أنه فوق الدرس والتحليل والمنهجية.

وهذا التصور النقضوي الذي جعل المؤلف يقرر ببشرية النصوص الدينية هو ذاته الدافع الذي يقرر به - منطقياً بتاريخية النص الديني، بالمعنى الذي يربطه ربطاً وثيقاً بالنظام اللغوي والمحيط الثقافي الذي نشأ منه وكذلك حقائق العلوم العقلية كافة المرتبطة بالنصوص بعد إخضاعها لأدوات الفحص والتوثيق.

وهذه الجزئية كانت من أهم العوامل التي دعت الدكتور عبد الصبور شاهين مقرر لجنة الترقينات بالجامعة إلى التقرير السلمي بإنتاج الدكتور أبو زيد باعتبار أن تاريخية النص الديني، وهي نتيجة طبيعية لاعتماده نموذجاً بشرياً وليس إلهياً، يخرج صاحبه لدائرة الكثر الصريح. ■

فا توطئة عن الأيديولوجيا بشكل عام:

لا توجد في رأينا أية أشكال للتعبير
سواء منها الرمزي أو الإنشائي أو
الشاعري لا تلتزم ضمن الإطار العام
لممارسة السيطرة (autorité)، فشكل
أشكال الممارسة الخطابية، وكل أشكال ما
يسمى بالإبداع هي تمثيل للعلاقات واقعية
معاشة هي الأساس لعلاقات سيطرة،
ومجمل الممارسة الواعية واللاواعية
للخطاب هي علاقات صراعية، وفي
خلال المعليات الأكثر تلقائية والبعيدة
عن الخطاب الواعي بذاته - سياسي،
اجتماعي، اقتصادي - تكمن الممارسة
الاصطلاحية معقدة حول قيم جمالية
وأخلاقية تفرض لنفسها سرمدية معينة
- إنسانية -، وهذا التلقن لا يقوم به صانع
الخطاب بفرض الفش وإنما يفترض في
الأصل توهم منتج الخطاب لسرمدية.
أي أن الشرط المعرفي لإنتاج خطاب
يُدعى بضمن الإنهزام الكامل أو المسيطر
الواقع فيه منتج الخطاب حتى يمكننا
اعتباره ضمن ما اصطلح على تسميته
إبداعاً، أي الاستخدام المعنوي المشفر
والسومي - الناقد أو المجدد - لأدوات
الاتصال (اللغة - الصورة - الصوت)،
ويعمل في أحوال - الزائفة).

ويعتمد هذا الشرط على معطيات
خارجية (عن الخطاب، تشتغل على
الأوضاع التاريخية لتشكل القرى
الاجتماعية وتفصلها، والإطار الثقافي
الذي مارست خلاله احتكاكاتها والشروط
الدولية لوجودها، والأهداف المعلنة
والمستترة لنشاطاتها أي: أيديولوجيتها
المعلنة (Ideologie declare)
وأيديولوجيتها المستترة (Ideologic)
coshé)، كذلك يعتمد على شروط فرعية
معقدة تتضمن العلاقات الخاصة بين
أفرع الإنتاج الأيديولوجي وبرجات
تقسيم العمل في إنتاج الخطاب ذاته.

مقدمة في تحليل



الخطاب السياسي

حسني عبد الرحيم

باحث وكاتب محبر

ومدى انبثاق شريحة اجتماعية متفصصة في هذا الإنتاج، ومدى حفظها من الفائض الاجتماعى، ودرجة تماسكها (جامعات - دور نشر - مجلات - نواد - فرق مسرحية ... الخ).

وتتشكل الخطابات الأساسية (المسيطر) والخطابات الفرعية داخل نظام التفكير (System de pensée) وبالإمكان توريد معظمها إلى مخططات (Schema) متشابهة .. ذلك ضمن الاستقرار العام لمجتمع معين تحكمه أنظمة سلطة مهيمنة (Pouvoir) كذلك أنظمة سيطرة متخفية بها (autorité) قادرة على الدمج وإعادة الإنتاج.

والشرط الأولي لظهور خطابات مضادة هو تعرض هذا الاستقرار للاعتزاز الناتج من مسموعات هيكلية في إنتاج وإعادة إنتاج الهيكلية السابقة الذى يظهر لأمر بشكل عام في كسر الإيهام لدى منتجي الأيديولوجيا أنفسهم حول قيم وجماليات وأخلاقيات النظام الاجتماعى، ويبدأ التوتر يشوب عمليات الإبداع وتذرع الأسئلة الجديدة في قلب نظام التفكير .. لكنها تكون هي الأسئلة التى يمكن التفكير بها (pensable)، أى ما طرحه الناقدات المعينة ضمن نظام التفكير المعطى والتوتر.

إن عملية تشكيل الخطاب، والخطابات المضادة يحكمها نظام التفكير الذى يفرض على الجميع نوع الأسئلة التى تنبئ حولها الخطابات وعكسها .. إن نظام التفكير كما يفرض ما يظهر فيه

يفترض كذلك ما لا يمكن التفكير فيه (impensable)، وهو يركز على جميع محاور الصراعات الفكرية - الأيديولوجية والرمزية كمصار مشتركة لمجمل الأبنية الفكرية المتشاركة، وهذا المصار يماثل إلى حد بعيد المعمار الاجتماعى وأشكال تفصل الفئات والطبقات الاجتماعية.

إن الخروج من نظام التفكير لأخر يفترض تدمير بنية اجتماعية معينة (بنية سيطرة) والولوج إلى بنية أخرى مفارقة.

حالة الصور المتحركة:

لا يشكل إنتاج الخطاب السينمائى استثناءً لما سبق، بل يشكل المثال الأكثر تطابقاً مع للدراسة السابقة، ذلك بسبب طلبه البنى المعنى وطريقة إنتاجه شديدة الارتباط بتجميع العمل خارجها، ولقبات إنتاجه واستخداماته الاجتماعية ونسبه الجماعية، كذلك عمليات التجهيز الرمزية المرتبطة به حول منتجات متنوعة (أفلامية - اجتماعية - سياسية) .. ذلك أنه قد حل محل تقسيم عمل قديم ودمج عناصر سابقة كانت متنافرة (الكنيسة - السوق - الصانع) ضمن إنتاج موسع للمخيال الاجتماعى (Imaginaire social).

إن طريقة الإنتاج هذه للمخيال فرضت تلقائياً أساسية تحكم فى فعالية الخطاب السينمائى وشامكه بلبه وقدرته المفترضة على إحداث الدمج والخلق الواسع لأنبات مساحاتية (memétique).

١ - أنبات إنتاج المخيال الاجتماعى، وأنبات إنتاج المخيال الإبداعى:

يتشكل للمخيال الاجتماعى حول عمليات موضوعية للإنتاج والاستهلاك والمجالات اليومية المشبعة والمجالات المحرومة، ويتم ترتيب هيكلة هذا المخيال حول العلاقات السائدة فى النسيج الاجتماعى، واستدعاء ما هو مناسب من المخيلة التاريخية، واستنباط أو اكتساب ما هو ضرورى من الإنتاج الرمزي المعاصر، وتتمثل أشكال السلوك والتعامل بالمرافقة مع الأشكال التى يعيشها الناس فعلياً فى نظام حياتهم المادى، كذلك التشديدات المختلفة على الجوانب المتنوعة من النسيج الأيديولوجى تبعاً لوضعية الناس فى نظام السيطرة الواقعى.

إن درجات السوى أو البورتيا تعتمد على عتوظ الناس من الشروة والسلطة، كذلك احتفالياتهم تتنوع بطرزع نصيبهم من الفائض، ويتم تركيب كل ذلك داخل النظم الإشارية والرمزية للشمامل والتفكير.

زيدة القول ومختصره أن هذا للنظام للتشكل للمخيالى تحكمه أساساً علاقات الناس الواقعية (الموضوعية) وهو يماثلها ويمثلها.

من ناحية أخرى يتشكل للمخيال الخاص بصانعى السينما وفق علاقات مفارقة ليست هى علاقات العمل تلك (ولن كان أغلبها علاقات عمل مأجور

شديد التخصص)، ولكنها تتضمن بداية السمات الناتجة من طبيعتها المتعقدة على علاقات العمل الأصلية وتتضمن عناصر إغرائية (tentational) مركبة تحول منتج الصورة هو نفسه إلى صورة (نجم)، وتشكل ما يسمى «الوسط المهنى» وتراكم الممارسات اللغائية التي تؤدي إلى تشكل وسط مؤنوج له احتياجات ونوازع ونظام للترميز (سيمولوجيا الوسط) أي في نهاية الأمر تشكل طائفة مظقة (cult) لها سينم، وضمن هذه الطائفة يتم تكوين الصور المتحركة وتولييفها وإعطائها رسائلها المفترضة، والتي تبدو لأعضائها كما لو أن الآليات التي تحكمها مستقلة عن الصناعات خارجها.

إن إحدى أهم تدافعات المحلّة السيمائية هي تلك الإزاحة (displacement) بين تشكّل المخيال الاجتماعي بشكل عام وتشكّل المخيال الإبداعي بشكل خاص، وأحد أهم الأسئلة المطروحة على الإبداع في الصور المتحركة، هو كيفية البحث عن موازنة (resonance, pertinence) بين الأنظمة التشكّل الرمزي والتكوين السيميائي أي تأخير الأمر بصورة ما عن الواقع محملة برسالة مشفرة ومبنية لكي تتوافق مع بناء آخر وتغترقه وتدخل معه وتقوم بالتأثير فيه.

لا يمكن البحث بدائاً عن مطابقة في بناء المخبائين (الإبداعى - الاجتماعى)، وإنما الموازنة شرط أولى للتأثير والتفعيل كذلك للزعم والغذاء والظهور والفرح.

٢ - طبعة خاصة للإنتاج
الفيلمي.

الصورة المتحركة تتلج بواسطة نظام
متراتب لتقسيم العمل، أولاً مجال الكتابة

للسينمائية سواء أكانت مفرداً أو ورشة سيناريو مدركاً في غالب الأحوال شروط الإنتاج الأخرى، لم يعد هناك بالطبع ذلك الجسد الصالح الذي يجلس على مقهى ويلف سيناريو أسبانيا مجهولة.

• فالحقيقة أن الناس تكتب وهي مفترضة شروعاً معينة للإنتاج، وإمكانات معينة للتعبير والإخراج والفنية، وتكوالى بعد ذلك عمليات الإخراج التخيلي (mise en scence) والتذكير وتأليف الموسيقى ثم الإخراج التلخيصي (mise en. Shot) ونهاية الدوايل والمزج السمي والبصري والعمليات المترتبة تلك يقوم بها مبدعون مختلفون لديهم مساهمات مختلفة وخلال إبداعي مختلفات، وعلى عكس مؤلف الكتاب وكاتب القصيدة ومصور اللوحة ومؤلف الموسيقى فلنا نواجه هنا وجوداً متزامناً داخل نفس المنتج، للمساهمات المختلفة للمبدعين.

إن الشرط الضروري لنجاح التجربة الفلسفية قبل العرض هو إمكانية تكامل مجمل هذه الملاحظات المرتبط والمعمد على وجود توجه معين مسباغ في خطاب متفق عليه للأهداف التي يتوجه إليها الشرط والرسالة (message) الإبداعية الفاصلة به والأسئلة التي تدور حولها وضمن أي نظام للتفكير وأية ثقافة هو. طبقاً هذه شروط مثالية (Ideal) ليس مفترضا، وعيها كاملاً بالنسبة لكل المشاركين أو بعضهم، ولكن توليد عناصر مهمة منها ضروري خصوصاً في مخرج الفيلم، وقدرة على وضع بقية المشاركين داخل هذا التوجه، والذي يسمح بإنتاج يملك قدرة إيحائية لجمهور واسع.

يفترض هذا (إيماناً) ما بأهداف العمل وليس مجرد «عمل مأجور» يفترض أيهما ما من عناصر المشاركة الفيلمية

في مجمل المحتوى الجمالي والأخلاقي
المتضمن يفترض بكلمة واحدة «رسالة».

٣ - نظام مفصل و شريحة مفصلية
(Articulation)

انتقاداً من آليات إنتاج الفيلماين
الاجتماعي والإبداع إلى الطبيعة
الخاصة للإبداع الفيلمي، ولأن تبقى
العملية التي تتحقق خلالها هذه الرسالة
واقعي لا يمكنها أن تنزل على الجمهور
فكذا دون توسط ودون لغة (شرحية)
متوسطة تشكل نواة الجمهور وعقله
للتوسل بين الفيلماين الإبداعي والفيلماين
الاجتماعي. أي التكوين الذي يخطط فيه
عناصر ترويجية من الممثلين السابقين،
وهو ليس الجمهور بشكل عام، ولكنه
فرصة نواة (الجزء النشط من الجمهور)
اسميه هنا تحت الملقب (- sous titre)
gencie)، وهو يقبض إلى حد ما الملقب
المعروف بالفراشري، وتحت الملقب
الاسمالي هو ذلك المشرّب على المشاهدة
لفعل قلق ما وجودي، وبفضل تكوين غير
مكتمل وحساسية إبداعية ناقصة، ويدرك
شكل مبسّط أدوات اللعبة الأيديولوجية
من وعيها كلياً، ولا يدمج الإبداع
الكامل للمشاهد العادي، وهو القارئ
لتحويلات الصحافة السريعة والمتابع
لشبكة أخبار النجوم وأخبار الأفلام
المعروفة بشكل إعلامي لتاريخ الفن
السينمائي.

إن هذه الشريحة هي التي تكون الذوق السينمائي ونممه، إنها تمارس عملها من خلال التكرينات الاجتماعية، إنها جمهور متميز تشكل تحدياته وتجذباته القوة التحريرية لخلق المناخ العام، أنها تمتلك مخبأاً محبباً بين ما هو اجتماعي وما هو إنساني - تخفي،

إن عملية تضافر المكون الإبداعى مع ما يحتويه من مخيال ونظام محين

للإدراك مع المخيال الاجتماعي المشفر والمجرد تجريدًا متناسبًا مع التكوين الثقافي في مجتمع معين.

إن عملية التمثيل هذه هي التي تسمح بالتأثير واختراق الإبداعى للاجتماعى، ذلك عن طريق الإيهام بالواقع الذى يشكل الملح الرئيسى لكل الأعمال التخيلية (Fiction).

٤ - وسط الثقلى Intermediare

إن الرسالة التي تبثها الصور المتحركة متنوعة، كذلك الأماكن التي يتم فيها تلقي هذه الرسالة، وهي تشتمل منازل مختلفة لطبقات متنوعة، وذات ثقافات أصيلة أو مستعارة تتخلل الأثاث المنزلى وترتيب الحجرات وشكل المشاهد، كما تتضمن أنواعا مختلفة من صالات العرض ذات صمات مختلفة، وذات أشكال متنوعة من المقوس، وتضمن عادات مختلفة قبل وبعد وأثناء العرض... هناك مشاهدات يعقبها طعام ومشاهدات تتخللها حركات مع الفولم نفسه (جمهور الدرجة الثالثة في مصر والهند) - توجد دور العرض في أنواع مختلفة من المدن والقرى، وربما يوجد حرس وجنود على أبواب بعض الدور،

وربما يرتدى موظفو الصالة زيًا رسميًا يشبه زي الجنود، وأخيرًا مشاهدات بالسيارات.

كل هذا وأشياء أخرى كثيرة ومركبة تدخل في صلب المشاهد وتتمازج عناصرها الرمزية مع العناصر الرمزية للصور المتحركة، وتكون جزءًا من مركبات العرض، بالضغط كما يشكل اختلاف أشكال الصغار للكتائن الإنجليزية عن الكتائن الكاثوليكية جزءًا لا يتجزأ من طبيعة الرسالة التي تنشرها ككتائهما.

إن هذه المؤثرات ذات أهمية خاصة فيما يتعلق بالجمهور الأوسع الذي يفترض أن يسلك سلوكًا محاسنًا (mamitique).

إن آليات عمل الشريط المبحوث على الفيديو تخلف في نواح كثيرة عن آليات عمل الشريط المبحوث نفسه من قاعة كجورة يؤمها مئات الناس، ويدخلون ويخرجون في شبه نظام للعمل، وانتظارًا لما تلى عليهم من مصدر متعالي، وتعت إظلام يؤدي إلى حالة معينة مشابهة للتوهم الإيحالي.

إن الأثر المختلف للصور والموسيقى يختلف ويتنوع باختلاف الوسط... إن

الناس لا يشاهدون الفيلم نفسه، كذلك تتضمن المشاهدة عنصرًا مهمًا من دما قبل العرض، هو الدعاية التي تشدد على عناصر معينة من الفيلم كالعناصر المؤلفة للدعاية التلفزيونية، وكذلك الملص «الأبيض» الذي يعتبر معالجة ما لرسالة الفيلم، وليس مجرد دعوة للمشاهدة، إنه يتضمن تركيزًا للعناصر التي يرى أصحاب الفولم أنها جوهرية، وبالتالي فإن المشاهد يذهب إلى دار العرض وهو يبحث عن شيء ما رآه في الأبيض.

* تعتمد هذه الدراسة على عدد كبير من الدراسات في هذا المجال وبالأذات على أبحاث ميشيل فوكو ورولان بارت كذلك سبستيان ميخر، وهي تستخدم كثيرًا من أنظمتهم المفاهيمية (system de conception) دون أن تشاركهم إستراتيجياتهم الفكرية، وهي تكيف هذه المفاهيم للقاعدة الأساسية للظرة الماركسية، ولهذا فاستخدام المفاهيم الفوكوية أو غيرها ليس بالضغط كما يستخدمه منشروها ولكنا نعيد استخدامها على طريقتنا، ولهذا فلقد تمعنا في المقال هذا (الأول) كتابة المفاهيم باللغة الفرنسية بجانب العربية حتى يسهل لمن يريد النقاش أن يتعرف على مصادرها ■

الإيقاعات والرهوك

١٧٠ الومض، ثانية، مسافة منأى، شعر، وليد خارندار. ١٧٢ بالأصابع التي
كالمشط، شعر، محمد سليمان. ١٧٦ الشلة، قصة، إبراهيم ضمویل. ١٧٨
الموسيقيون، شعر، فتحي عبدالله. ١٨١ كابتك التي لا حد لها تليق بالملوك
والها، شعر، محمد آدم. ١٨٤ ما أسقطته التقاویم، شعر، يوسف
ادوارد وهيب. ١٨٦ فشب فلكان، شعر، رجب الصاوی.

الومض، ثانيه

المعتمون في هالة، مَرَى بنا؟
علمى أسماءنا كنية الومض، ثانية
علنا نواصل عناويننا
وهجة
مثل عادتنا.

نعيد مرة
ومرة للهدى
ولا نعرف، ثالثة
أين نخفي ما استمصى علينا
من ومضنا.

أرجعى لعيوننا سرحة الأفق
إذ ربما خطونا من وجهة غير هذه.

القادمون من عسل قوى
نشهد الآن، ولادة زهرة
ليس تشبه غصنها، وفرتبك
مَرَى

إننا نشاور، الآن، ظلالنا
في غياب النخل.
لذغة نداول الفضاء، لذغة
ونسائل، من وحشة
طول الطريق، فى أمرنا، نوماً.

ولو امرأة أخيرة بنا.
أنت تحللتنا
عصف يرتب أوراقنا ■

مسافة من أي

شعر

وليد خازندار

كنايس فلسطيني
شعر له: العمال مضارعة، وغرف طائفة

وشكا لسورة

تشدُّ ظلكَ خلقك، حينما الندى

وإذ ترتدُّ راكداً

دونما رعدةِ الفجر الذي تشبهى

تفصى على غيمةٍ، وتحلو.

ترفَّ عملشُ الكلام، على يدك، إلى البداة:

أنت قد عاليتَ عمداً، سُدفةً سُدفةً

وعرفتَ من خُفضني

أن بين الظلِّ وارتخامتهِ مسافةٌ منأى

وجاورت أفقا

بضيقٍ حين يقرَّبُ.

كيف استطعتَ أن، في سُرعةٍ

تستعيد من الرجاج البعيدِ انتظاراتك كلها، وتنتظرُ

كيف، وأنت في ارنياك

لم تلعبسُ

بين محابسِ الوردِ الكثيرةِ

والياسمين الذي يتسلقُ الأسوارَ

ثم كيف عدتَ، من نَفرةٍ أليفاً وتؤثِّبُ؟

سَرَفٌ منك هذا السدى!

بِأَصَابِعِ التِي كَالْمَشْطِ

شعر

محمد سليمان

ليس شمع الكلام إذن

والأنافة

أو نكهة الشاي

ليست مرايا اللوافذ

والشمس ساعية بالرسائل

أعلى..

إلى الآن لم يَنْصَحْ أَوَّلُ الْخِيْطِ

لكلني سأقارن أطرافها بالهوام

وأثرابها بالسفن

هكذا

سأمول على حجر لأصدّ يناير

في البرد لا يخرج الشعراء من الصوف

والشمس أيضاً..

هكذا

سأقول الغياب حضوراً

- لأخدعَ مَنْ أَحْسَنَ الظنَّ بالكهل -

ثم أقارن سِلْسِلَةَ الظهر بالمنجنيق

وأرفع قبحتي للترام الذي بشخير المسكين يحبر

وأقول الشوارع كالناس

بعض الشوارع يُفَضِّلُ إلى البحر

والبعض يفتنى

لأن العسافير لا تصطفيه

يناير دبّ

ولكنني الآن أهر من ثعلب

وعجوز

وأعرف أن للبحيرة ليست سوى زخّة

والسلام فتح

لدى سيصبح وقت لأسأل

بعد التقاعد

أعلى

بنظارة

وفم فارغ

قد تصير الحروف مساكنَ للمل

والصمتُ أبلغ

هل ستجىء غداً؟

- ٢ -

حين كانت هذا

لم أرها

أظن لم تكن منذورة لغامضٍ مثلى

ولم تكن جاريةً كراكلَى الكراتِ

هكذا

لم أزه مرةً ببابها العالى

أو شعرها القصير

والذى يروض الغيوم تحت ثوبها

ويكسر العصا

هل كانت الأشجار فى طريقها للذبح

والطيور فرق سلم السجائر

ماؤها مازال موصوفاً

لكللى استبدلت بالقطا قطاً

والحوض بالمحيط

رُبما

لأن شاربى صار كُخانياً

وربما

لأن ثعلباً بداخلى يُفعل انتظار موكب الأوز

فى كُرْاسَةِ كهذه

- ٣ -

الصدق لم يكن قميصها قط

الأنها لم تكن بست أصابع

وحوائط مكسوة بالخزّ

أم لأننى لم أكن قرصاناً

ببسمه مشعة كالمدينة

وشارب تهابه القطط

- ٤ -

لو أنها

بأصابعي

ظلت تمسّط شعرها

لهجرتها

لكنها ذهبت وظل المشط يطحنه الفراغ

أظن كان الليل مزيلة

وأنا أساور مغرمين إلى الحدود

أقول يا باشا

نفقز من كهوف الوجه

أو تصاب من ورق

أبريل كان هنا

والحرب طاولة ثلّ العاطلين

وكنّت أخفى مشبة القروي

أحلق مرة في الصبح كي يقف الترام

ومرة

قبل الصعود إلى طيور لا تطير

أكان مصعبها يذكر بالزنّازن والمظليين

ما زالت وراء السور تنقف ريش عصفور

وما زالت على الكرسي تنسى حق زيتها

وتفتح باب غرفتها لغير الريح

ظلى لم يعد خلفي

ومهر المولد النبوي

لكى يثوب الكهل سوف أسير محترماً

أكاذيبى عكاكيز

لأعلن أنها ذهبت

وأنى ارتعت

سوف أكلم الأوغاد عن قاموسها

وأقول موسى كان متجها إلى بحر

وأنا إلى الصحراء

هل ستطيل بسمتها نهار البهر

أم توث الشوارع هذه العريات

كان بشئ مشغولا بكس مكاتب البكوات

حين رست

هل ظل في الدولاب من دمها حفيف

أم فراش

كان يلهو بين سرتها وباب الغار

ظل الماء في إبريقها يغلى

وظل هبوبها عبداً

حصان المولد النبوي في الشباك والحلوى سهيل

كيف مرّ الوقت؟

خيط دم من الحيطان سوف يسيل

خيط دم

سيلمح ربما في الفجر

حين تفقّص القدمان عن قدمين

والإعصار عن شكل

مترن الباب سوف تقول غابت كى تسب دمی

وغابت كى تكون

فَرَجَ صَحْنُ الْبَطْنِ بَلَّ فَمَا

وَشَقَّ الْغُرُو

ما كان اسمها نوراً

وما كانت كسبَ الحُسْنِ تلمسها العيون فتخفى

ظلت بلا ظل

وظلت لَصَّةً تَسْتَلُ ثم تَرَوُ

سوف تُعِيرُ مَخْفِيَيْنِ أَقْدَامًا

وتُذْنِي صَوْتَهَا الْمَخْبُوءَ فَيُودِعُ

ستعلن أنها الميناء قمح كلامها حدٌ

ولاولوها الذى وارتقه

هل ستقارن الأبقار بالأشجار

تهبط سلم البارود عاريةً لترمض نابتاً فى القاع

ألم ستهب من جسد ملوَّحةً برايات البدائيين

حلَّاء الشوارع لم تزل تطو

- ٥ -

الخوف

عندما تغيب يغزوني

فأنزوى.. مَتهما عيني

وساعة الجدار

صوتها السرى لم يزل فى أذنى

وماؤها

فى الليل

حين يصيح الحنين محرثاً

يعبىء الأكراب

لم تكن واقفة فى آخر العمر عندما ترديتُ

بَرَمَهَاتُ كَانَ حَوْلَهَا يُخْ

والهواء بالأصابع التى كالمشط

فى الصباح

عندما تدحرجتُ هزَّزْتُهَا

وسرتُ فى الدهليز

- قاعة الملوك لم تكن دافئة -

وفى السماء عندما حسبتُكى امتلكتها شبتُ

وهذت الأبراج

لم تكن سَخِيَّةً

ولم تكن تحب من يبيت مغلوباً

الطيبون يعرفون أنها دنتُ

حتى فشا خرابها

وابتعدت فسالمتها العينُ

جمَلْتُ

وجاملت

- ٦ -

حتى الآن

لا أعرف اسمها الذى التقطته من على الرصيف

ولا الذى دفتته فى جواز السفر

حتى الآن

لا أعرف ما الذى يشدنى إليها

فما لم يكن مُضَاءً

وثوبها

لم يكن مُتَسِمًا لغيرها ■

قصة

إبراهيم كمونيل

والثقب، على صفحه وضيقه، بذلى إليها ويرى مناوراتهم ومراوغاتهم فى إغفالها خلفهم؟..

ولغزى فى معظم المرات كنت أوجع الأسهر بين رفاقي وأنتزع للنفسى للمأخرة والمهابة، باننا فهم الدعشة من ذكائى وشطارتى. لكن الشكوك راحت تلمر لتفتح حيلنا.

أقول حيلنا، لأن ودادنا كانت متواطئة معى.

أدركت ذلك من طريقة عقدتها للعصبة حين يحل دورى: تفرشها على عيلى، ثم تزيحها وتحركها، بحجة ضبطها، إلى أن يقابل الثقب الصغير حدقتى.. لحظتها، وبقوا فيها يدانى أذننى وأصابعها مشغلة خلف رأسى، تهمس همسا رقيقا: «شاف هيك»، فأكدنى بلحمة خاطلة، ثم نلتقط للعب.

وعلى الدوام يغلبنى توقى لا حمتانها. يختصر تحركاتى ويوجز لوياتى، فأندفع نحوها، بأخطأه لا تنكر، لأنهم، ضاغطة صدرى للهوى المنطرب على برتقالتجها اللبافعين،

فريدة ما أحسنا بها من قبل، فصرنا لا نمل ولا نكل من اللعبة ومعاونتها إلا إذا اعتذرت للعب لحقها أو اتسحت جراء طلب أحد أفراد أسرتها.

ويجمع صارت وداد البنت الوحيدة بيننا شلة الصبيان - موضوع للعبة وحكمها غرب أدولنا، ويخرج عصبتها البيشاء، فتحكمها على العيلى وتشددها، ثم تتعمن فى أطرافها للضبط أى تسال محتمل للنظر فإذا ما تم، نفرطنا حول المعصوب، متقافزين، ومطلقين صيحات ناعمة، هادة، نقد بها أصوات البنات كى يوزع المعصوب عن مدفه: للتقاط وداد من لمتنا.

وكم تملر لاعب، فأكب على امرأة عابرة أو طفل لأم أو أحاط برجل أو دس على طرف كلب شارد فجعله يذبح بشدة ونفعا للتقاط على الأرض من فرط الضحك على حقلته وفزعه وهروبه العشوائى.

من بين الشلة، كنت الأقل تمسرا وخطأ فى الوصول إلى هدفى والتقاط وداد، بل إننى، لولا خشيتى من ارتياهم، لما أخطأت بالمرة، وكيف لى أن أخطئ

من ثقب صغير فى العصبة، بحجم سم الإبرة، كنت ألمح طولها وقد زاغ بين طيوف رفاقي، فأتجه صوبها، مناورا مفاثلا أولا، ثم منسلقا خلفا نصرها لأقبض عليها، وأضم جسدنا الطرى إلى صدرى لا أفقه حتى تنكزه منى انتزاعا.

لا أحد من رفاقي فى الحارة كان قد اكتشف، كما يبدو، ذلك الثقب، إذ حين أتى دور أحدهم فى ربط العصبة على عيلى، نراه يميل ويخطب بيننا، لاكبا عن وداد، وسط زعيق الحموية الذى نطقه قرب أذنبيه كى يثوره مزيدا عن مدفه، فيغش فى معظم المحاولات ويذبح فى القليل القليل منها، حين تجماره المصادفات فتضع وداد بين يديه.

وحى حين تفتت المصادفة واضع العصبة، ويمسك بيدها أو ككتها أو يلقط طريف قريبها... فإنه سرعان ما يذرع العصبة عن عيلى وينظر، فإذا ما تأكد، ركض من فوره بيننا، مهللا من نشرة الغرز.

لنضمام وداد إلى شلتنا وهج الحماس فيها، ولون لمبتدا، مضيقا إليها كمة

فتلح أنفاسها المنقطعة وجهي وتذيب
كثفي أصابعها الملففة، الحنون، الضامة.

ما من مرة ذكرت لي سراحة، أو
أشارت ولو بكلمة، إلى حيلتنا، ولا جرأت
مرة على بيان فرحتي ومتعتي بسرنا.
كلانا تكتم وتحفظ، ومضينا، بصمت،
نمارس اللعبة في اللعبة، لكأنما الامتناع
عن اللبوح بالسر والذكتم عليه وتجاهله،
حتى بين صاحبيه، يزيد متعة ويله
بضباب من الصحر شفيف.

ما أجمع سعادتي بلعبتنا الخاصة
السرية، ملاحظتي لرناد وهي تعتد
العصبة لنورى من الشلة، إذ كانت تطويها
جيدا، وتمك إغلاق العينين بها، وتشد
عقدتها إلى أن يسدء اللاعب ويشكر.
ويندر، بعد ذلك، أن يفرز بالامتداه إليها
أو يتخلص من جمعدنا المتعارج حوله،
فيلوب ويتخبط فيها بغشانا الضحك
المهلجل الطليق.

أحسست بالخطر الحقيقي، لحظة
الدفع أحمد، وكان الدور على، غاضبا
محتجا فأوقفني، وأحكم العصبة يديه،
معلنا أنني أشغل في اللعب، فأقسمت
بأعظ الأيمان أن ذلك ليس صحيحا
بعدها، حرصت على أن أخطئ، وأعذر
واسقط أرضا مشورا متحكهم، ومتجنبنا
المعذور على وداد كي لا يتكشف أمرنا،
فأفقد كل فرصة لضمها.

وعلى الرغم من نظراتها المتسائلة
العتوب، مضيت في الوقوع بالأخطاء
لإحساسي أنني بت تحت مراقبة مشددة،
وأن فصلي من اللعبة بات محتملا جدا.
وهكذا عادت، ولو على ندرة، متعة الضم
واللف ثالية.. لكنها لم تدر طويلا.

إذ بين حث التوق للوصول إليها وكبح
العيون الرقيقة، تكشف تصني وتعمى،
خصوصا حين كنت أنحرف عنها بغفة،
وقد دلتها بذاتي، في اتجاه آخر.. أو

أمسك بطرف ثوبها وألفته لتوطين الوهم
لدى رلماتي.
ورقع يوما ما كنت أخشاه.

فما نهضت من حفرة إلا انزلقت
بأخرى، ولا تملثت بحجر إلا وسقطت
بحرقة من غيره، وما انبذت بحثا عن
وداد إلا وارتطمت بمسار أو شجرة أو
عامود حتى بت مثل أعمى حقيقي خلف
العصبة السوداء التي أحضرها أحمد يوما،
مطالبنا باستبدال البهيماء الأخرى بها
فولق الجميع وسط احتجاجي الصارم
وصمت وداد للصبر.

وايومين أو ثلاثة خلف العصبة
الهندية، أحسست - بعد أن كنت في
الضامى الأكثر حماسا وانفعا - بمال لا
يحتمل وضجر خائق من لعبتنا التي
تهدت وبهتت ألوانها، فوجدتني، لا أدري
إلى أين، انسحب من الشلة دون أن أعود
إليهم قط أو أعلم أن كانت وداد قد بقيت
معهم أم أنها انسحبت أيضا ■

شعر فتحي عبد الله

وكلما دخلتُ منزلاً
أجدُ ذهباً
ودقيقاً أبيضاً
أذبحُ طيورى
لعل الصنوبرَ تعرفُ
الأشجارَ
فى المراتِ القادمة
٢٠
فى الجلساتِ الطويلةِ
ياخذونَ الرؤوسَ
واحدةً
بعدَ أخرى
وبعدَ الطعامِ بيومينِ
أو ثلاثة

تلك العباراتُ التى أخذتِ
الروحَ إلى المياهِ
وجربتها كثيراً
وعندما لم تستطعِ المتول
رأتُ فى الصناديقِ آخرَ
المحطاتِ
فحملتها على ظهورِ البغالِ
حتى الصباحِ
فلم أستطعُ أن أقبضَ
على شيءٍ
وخرجتُ بطيورى كاملةً
على أسمى
ففرجتُ بملابسى
وأعطيتُ كثيراً من القماشِ
●●●

يدركون أحمالهم في فرح آخر

ياخذ المولود حبيبته

للحقل المجاور

ويسمع ما طاب له

ويبكي لا لفصال الوتر

عن الآلة

حتى تعثر أمه

على حذائه

فيقول الموزن:

رأيتك يتحدث

وينتقل من مكان

إلى مكان

ولا شيء يصلحه

فتركته

حتى غاب عن عيني

- ٣ -

انقطع الوتر في المرة

الأولى

وفي المرة الثانية

قطع ذراعه

فلم تأمن زوجة الحداد

من بكائه

وأعدت سريرته في

الهواء

فربما نسي دون أن

يدري إصبعة المكسور

في النقلة الأولى

وصاحَ كعادته

أذنَى وقعتْ من الطابقِ

الخامس

ولم يسرعَ أحدٌ

- ٤ -

الإيقاع لم يكن سهلاً

فقد اختلفت الأشجارُ

على خطوتى

ومكثتُ أياماً بكاملها

كان أكثر ما يُفرحني

مرورُ القواربِ

وغناء الفلاحين

فاصترتُ - كعادتي - أزواجتي

وأولادى

وذهبنا لبحيرةٍ

لم يروها من قبلُ

فأحاطونى بأثوابٍ قديمة

وصلوا للملاك الذى

عقدَ لسانى ،

فاختارَ آلاتَ النشيدِ

وهبطَ لأربعينَ عاماً

ناركا مروحتى للزفير...

- المقطوعة لم تكن كاملة -

وكان على المريضِ

أن يكسرَ البيانو -

- ٥ -

الهلال الذى عبرَ على منزلها

لم يفرقَ بين الكنيسة والجامع

إلا بمقدارِ السماعِ

فقد شاهدَ الرهبانَ

يخطرون أمامَ القاعةِ

بدون طيلسان

وربما أعادَ ذلك

للتوبات التى تصيب الفلاحينَ

أيامَ الحصادِ

أو ربما الحروبِ

فقد زوجوها أربعينَ مرةً

ولم تفقُ أحدًا..

فقط تعرفُ الأمراضُ

وتشاركُ العازفينَ

فى تقطيعِ الجثةِ

فإذا عرفَ الطيورُ

أخذَه الموسيقيونَ للأفراحِ

يأكلُ ويشربُ

دون أن يسمعه أحدٌ

حتى تهلكه

فى الليلة العاشرة ■

كأبتك التي لا حد لها تليق بالملوك دائما

إلى هدى نعيم

شعر

محمد آدم

١ - هذا ما أراه ملائما لي

الليل ..

هذا الهواء الأخير، يمز على شجرة يا قطيнок فنفتح شهوة الأرض،
ويقرب القمر الأخضر من براريك العميقة، فيحبس الليل أنفاسه،
ونجلس النجوم على ركبتك، ويبدأ ملاك أخير في الترانيم،

لا أسموك،

أنت الليل،

ونقيضه ..

لرمادك رائحة النارج،

ولأغنياتك عذوبة الورد،

لشمسك،

نهار الأبدية،

ولشفتيك نبع ماء،

ولحنك ما يشبه الطوفان ..

غاباتك الشاهقة الواطئة، المشتبكة المرتبكة، لا تسمح سوى للقراصنة بالمزور،
وجسمك كتابة الألوهة في ساعة الصفو، على حائط الوقت،

إذ لا شبيه لك...

لماذا تتركين رمادك الأخير لى؟

٢ - المرأة التى ليست لى دالما هكذا

شمسك تُشعُ فى الأعلى،

على قمم جبالك المشتعلة يقف طائر العزلة، وحولك تلتقي البرامات والإثم،

حقلك ملىء بالحنطة، وعلى حوافك الأتيرة تشع اللالىء بانتظام،

لسنواتك ما يشبه الوحشة،

وعلى جبينك الأخاذ، يلقى القمر بأشعته المتوهجة، وبين أصابعك تصطفُ الوعول،

وينفرد كلام الذبورات،

أمس،

اشتريت لك وردة وحيدة من رجلٍ وحيد، واستلذتُ على حائط الأبدية الضخم،

(لماذا نخفي هذه الوردة يا حبيبتي، حتى لا يكشف الطفء سرها؟

هكذا قالت المرأة

شعرك حقيقة الليل،

أصابعك تلون الفضاء،

وجسمك حديقة منسية لأزمة الطوفان،

نهداك،

طائران

مصلوبان...

- أقاليمك التى يصعد إليها الرمل والصبار والغريان، وتعوى فيها الذئاب الجريحة،

سأحرسها،

بعزلى،

وسديمى -

كأينك التى لا حد لها، تليق بالملوك دائما،

تعت ظل يا قطينة سأجلس ولنتطرك،

يا حبيبتي.

٣ - مقابلة

لى،

أن أدفع الهاوية إلى حيث اللاشيء،

أن أقيس الرغبة ببريق عيني، وأن أتربع على حافة الجنون ولا أنيس لى،
 سأعيبُ بما تقرره الهاوية من تناقضات، وأدفع اللاشيء باللاشيء،
 وأتوقف تحت حائط العزلة، حيث تلمع الرغبة والصغيلة،
 وأسعى الشهوة باسمك أنت،
 يا سيدة الشفاعات،
 والتعاليم،

لى،
 أن أقول لعينيك: هنا يرقد الأبد والأزل، ولا شيء بعد،
 جسمك الجنون ذاته.

٤ - جسد يلقي بأغنياته
 يدفع عن نفسه فضاء الرغبة،
 ويقوض النهار بيديه،
 هل يدفع الليل إلى الحواف، ويفكر وحده في النهايات دائماً؟
 أكتب على جسمك لغتي، أيتها المرأة، وأحتمي ببراكيتي،
 عينك تعرف كيف تباعث اللغة، بينما جسدك يبتكر الضوء، وشعرك يلملمه،
 هواؤك صافٍ،
 وشمسك آتمة
 وشمسوك
 مأخوذٌ بأغنياته.... ■

ما أسقطته التقاويم

شعر

يوسف إدوارد وهيب

«دائرة.. أولرجحة هي حركة تورقه،

(١) قيامة

مسكين جدا

يتخيل أن العالم سيصير قصيدة،

مراثة التي أحبها..

الكائنات مفرداتها:

أن ينتقى من روحه مرقاً..

تصطلي أوراق صفراء شارعا سقط من ذاكرة الندى

أن يزرع العئين لونا آخر

لا.. لا تصلح الشفتان للشفتين

لا لا تصلح الأسماء في هذا الجسد

يرى أن يستعيز من انكسار اللفظ بالرويا

ومن التشتت في فضاء الروح

بالجسد الموزع في شبابيك البيوت

هو وحده تختاله الرؤيا:

في أنفه تتجسد الأشياء

رائحة الرطوبة في جدار،

رغوة الصابون.. رفرفة الهدوم

حياة مطنة فوق البيوت

تشكل البنت الصغيرة مرأة

من صوت الخميس مساء... هل تقتل أمها؟!

وسادة تصوير فارسا

ليلة الخميس عدها القصير

ياه..

موسيقى الجسد!

(٢) ملوى

لا أحد يستطيع السير هكذا..

لكنه معبأ بقيابها الصفراء.

ممكونة نعليه.. شوارع منسية..

لحظة:

سوف ينفض قدميه عن ماء الوضوء

سيبص الناس إليه طويلا..

ريما سألوه: شارعا فجأة من مسامه؟

ربما سألوه: اسمه المنسى
 ربما سلخوه عن لحظاته المنتظرة:
 ما الذى يثبت أن اليوم جمعة
 هل يحتفى بالأبيض المفسول منذ الأمس؟
 وللمطريق نصيب فى سعال العابرين؟
 يلمع سونكى فى وجوههم:
 سوف يتهاى شارع للراحة
 سوف تسرب «الميكروفونات» أشياءها..
 سيصطحبك منذ أنه اكتشف
 ما كان..
 اسمه طلقة المحبة،
 أو «دانة» الرحمة!
 كارتعاشة الجسد،
 شهوة المياه لاعتقال الطمى
 طفل يخرج عن طفولته.. ويكيى
 ربما الآن تراه،

أو تسير نياية عنه
 علّ أشياء تكون به.. لا سبيل لكشفها
 حين تأخذ الشفتان تشكيل السكون
 إذن:
 ما الذى يحادثه الآن؟:
 رائحة البيوت الطاعنات فى النسيان..
 بوابة تآكلت أبوابها...
 أكف من طرورها... ثم أحرقوا أخشابها
 نكابة ضد الشتاء!
 أم حشّه الرجوع:
 ١ - قطة تصوم فى صباح طوبه
 ٢ - طفلة تصاجع الرصيف.. والمساء خلّت
 «بلولب» اليرد... ولقاح السخونة
 علّه مشفوق بين تلجين:
 تشابه الأبواب..
 بين «الكاكى»
 والكثينة ■

فـ شـ بـ خـ لـ صـ ان

شعر

رجب الصاوي

اكتب أقولك إيه ..

وإيه معنى الكتابة

واجيب منين الفرح

والأقى فين الضحكة مش كدابة

ضحكة مش قلابه

ضحكه .. ويس

والدنيا مش ماشيه غير بالعكس

وأنا قديم فى النفس

قديم فى اليأس

وباشم ريحك ولا طرف الملس

وكنتى ويايا بصحيح

ولأكننى ف كل ركن انكنس

وف كل عقل انكنس

وف كل صورة من خيال الغلابه .



واكتب أقولك إيه ..

فقلت شباكى وبقيت معزول

بقيت مهزول

وهريت من صوتك

خجلان من نفسى، وخجلان من يأسى

م الدنيا اللي بتمشى بعكسى

خجلان من كل الأحلام المخلوقه

واللعبة المحروقه

والضحك اللي بيركب تاكسى

خجلان من نفسى ..

وبامد إيدى ف وسط الشارع

مالقائى صديق عريان

ولا صديق مكسى

وأنا خجلان ..

على قد ما كنا بنحلم بصعود الإنسان

بطلنا الأحلام

وبقينا بنضحك وبنبكي ف أربع جدران

وانتى كمان ..

روحك خشب خلصان

قلبك عراطلى، وضحكتك ميتانه

واكتب أقولك إيه ..

وإيه معنى الكتابه ؟! ■

الانتشارات والتنبیحات

١٨٨ مصر - بحيرة الحواس الشاعرة، عبدالله السمطى. على شاطئ،
الإسكندرية الفلسفى، احمد عبدالحليم عطية . ابن رشد سؤال العقلانية ،
حسن سرور. الإبداع القصصى لأدباء النوبة ، كريم عبدالسلام. مائة وعشرون
عاما على تعليم المرأة ، علا. حمروش. غراميات عطوة أبو مطوة ،
مجددى فرج. الصعود إلى القلعة، وفا. حامد عمالو. الروح التي سرقت، فتحي
امبابي. الشعر السياسى فى مصر، إيلاس رفعت.

المصطلح

بـيـرة الـحـواس الشـاعـرة (*)

فإن كل كلمة هي عمل شعري،

بدرخش،

.. يدرك المتأمل في النص الشعري العدائي الآن، أن لغة لغزات تقنية هذه تتلوه في هذا النص وأبنيته، وألعليات أدائه الجمالي وحسب أن تشير إلى أن توجيه الخطاب الشعري لم يعد مشغولا بخارج ما يتوجه إليه، بل أصبح يركز أساساً على (داخل، الذات الشاعرة، وما يعمل في مكانها، وهنا يصبح الكشف عن قيم الجمال متوقفاً بالكشف عن قيمة الإنسان، في زمن آلى يواجهه الشاعر بطيرة الكلمات السحرية وهذائيتها، كذلك فإن هذا النص أصبح أكثر ميلاً لتفسير اللحظة وتوسيع أبعاديتها في الآن ذاته، ولعل ما يمكن قلته من محاسن السخيفة

* قال الشاعر محمد فريد أبو سعد (أربع مجهرات شعري) بحالزة الدولة التنموية في الشعر لهذا العام. فيما يلي مقالة نقدية لمجهرات، ورده للثقة.

من استقصاءات دالة، إلى ألقى الوجود الصاين، وبالتالي إلى ألقى الكلام.

ولعل الشاعر، محمد فريد أبو سعد، من الشعراء البارزين الذين يجتهدون في إنتاج نص شعري له أنساقه القصصية، وأبنيته التي تسمه، وتحدد قواعده، وهذا ما يؤذن بالقول بأن النص الشعري بمثابة منظومة إبداعية متكاملة العناصر، سائلياً واستبداليّاً طنائياً ودرامياً، إنه لغة مجازية تتركز فيها الدوال وتروح عبر موعانيزم التجربة الشعرية بمضامات واضحة رجيّة، تؤلّف فيه الذات الشاعرة وتكشف - بالدرجة الأولى - عن علاقتها مع - ورواها - الوجود، هنا يبحث الشاعر من خلال نصه عن معنى ما - وعن ترويدات وهواجس - تتركها حواسه وطواياه ولحجائه - تتحول جميعاً إلى خطاب لغوي ذي بنية منظّمة يلعب فيها التشبيّه دوره المهيمن الباهة، فتنشأ من هذه المعاني إلى مغلفات، وإلى أشكال تقنية رهيبة تصبغ في حد ذاتها معاني أخرى، لم تكن - لحظة الاتصال - كاملة في مخيلة الشاعر، ولكنها تولدت لحظة الكتابة، لحظة تحول ما هو متأدلي إلى ذهني، من مجرد معلول إلى فعل مادي معسوس، ولقد فيه الشاعر ويؤخر، يضر ويروح، يكتب ويحذف، ويبر هذه الحركة الدينامية النشطة يحاول أن يغيب سالا قبل للنص به من دوال، ومن مسرقات غير مبررة عما يغيرته ويصيرته، حتى يصبح هذا المصيب المذوف - بمعنى من المعاني - لونا من المجال، لونا من الاستبدال القاسي الجمول الذي يستبدل مفردة بأخرى، وحبارية بحبارية، وصورة بصورة.

وفي هذه القراءة نحاول الشول أمام لصوص، ورده الكلية، * وسراويلها لتفصح عما بها من زوى للوجود، تستمعها الذات الشاعرة عبر الكلمات،

متوسلين في ذلك بطرف من المقولات الفيلومينولوجية (الظاهرية) Pheno-menological التي تركز أساساً على مبدأ القصيدة intentionality والتوسيم في قصد المؤلف تارة، وقصد القارئ تارة أخرى، بحيث تهدف من وراء ذلك إلى الربط بين ماهيات التوسيم وروية الذات للوجود الأنطولوجي وذلك باعتبار أن التوسيم الشعرية ما هي إلا موضوعات تصبر عن أشياء ظاهرة يلتصقها الوحي الشعري ويعبر بها عن قصده وهنا يتولى الاتجاه إلى الأشياء ذاتها، هذه هي القاعدة الأبرلى والأساسية في المنهج الفيلومينولوجي، وكلمة «شعر» تعني هنا (المعنى)، أي ما لراه أمام وعينا، هذا المعنى يسمى «ظاهرة»، لأنه «يظهر أمام الوحي»، ولا تدل كلمة «شعر» على أن هناك شيئاً مجهولاً يوجد خلف الظاهرة،^(١) ويبرح المنهج الفيلومينولوجي (الظاهري) دائماً بين الذات والموضوع ومحاولة لتفسير الدلالات التي تسقطها هذه الذات - من وجهات نفسية وجمالية أساساً - على الموضوع (المبتق الظاهر في الوجود، لذا فإن المنهج الفيلومينولوجي «يهدف كلية إلى أن يكون منهجاً موضوعياً، إن ما يهتم به مباشرة، ليس هو الفكرة الذاتية، ولا هو حتى العمليات التي تقوم بها الذات، على الرغم من إمكان تطبيق المنهج الفيلومينولوجي على هذه العمليات ذاتها، باعتبارها معطيات إما هو، ما هو معروف، أو مشكوك فيه أو محبوب أو مكره... الخ،^(٢).

لكن هذه الموضوعية لا تتركه الذات وهذا شاملاً، فالذات - تظهر مع هذه التخطيلات مبربطة بطق جوهري إلى الموضوع، ويظهر الموضوع معطى جوهرياً إلى الذات الخاصة،^(٣).

يقبل أن تضم أربع الظاهرية من وردة القبط، تجدر الإشارة إلى أن الشاعر اعتمد - في أغلب تصوميه - سرديّة العبارات الشعرية وامتنادها بحيث أنه تغلّى نوعاً ما عن الكثافة والجزالة الترميمية التي كان الشعر الجديد يتخلى بها حتى سنوات قريبة، كذلك يبدو في التصوم السبعة عشر أن ثمة وحدة دلالية مثقافية ترفع بها دوان التصوم وحلاقاتها، بالإضافة إلى ما سلعول استبانها في هذه القراءة والتي نركل فيها على عدة ظواهر تمثل جوهر الدنوان، وتتبدى هذه الظواهر فيما يمكن أن نسميه به-شاعرية البصر، حيث يتحرك بصر الرؤية دائماً إلى سرد مشاهدات، وأشهاد حسية تقع عليها عين الشاعر، كذلك تدخل الحواس الأخرى عناصر إضافية لتخصيد الرؤية، وتظهر كل ذلك في محاولة القبط على حسية الوجود، بظواهره، وأفسانه، وتتجلى اللحظة الزمنية التي يصوغ الشاعر فيها كل ذلك، بأنوثة ما، قد تكون أنوثة الكلمة ذاتها، أو التعبير عن حالة حسية شبة اجتريحا الشاعر عبر صنع رؤية للوجود، وفيما يلي تحاول تبسيان ذلك بشيء من التفصيل، على أن يكون في حسابنا أن المنهج الظاهراتي يعطى البهاث قدراً كبيراً من الحرية في تطوير المعطيات والأشياء وتأويلها تبعاً لوجودها في النص أولاً بوصفها فعلاً من أفعال الذات الشاعرة، وثانياً، بوصفها موضوعاً ظاهراً تبعاً لتجليها في الوجود.

د شاعرية البصر:

يتبدى فعل الرؤية عبر البصر كظاهرة بارزة في تصوم، وردة القبط، حيث يتجلى ذلك في استشارة عدة عناصر حسية مشهدية تراها العين، ويكملها الشاعر بأشياء أخرى تدل على الحضور البصري الباهد، ويتمسب هذه الرؤية على



محمد فوزي أبو سودة

كل تصوم الديوان الشعري حيث يستثمر الشاعر حضور المراءى، والصوت، والأشكال، والهومات، والرسوم، وتكرار ثنائية الفن التشكيلي المعهودة، القل/الضوء، هنا يلعب البصر دوراً مائلاً في تشكيل هذه العناصر، وأعطائنا لمساته المبهدة وتغيبالاته الحسية - إذا صح التعبير - وتصنع بدءاً لهذه المشاهد:

١ - هذه الأنثى التي تترك قلبى

إن قرأتى

وأنا سوف أراها

شاهداً من ردى العائذ

في حوثة وعز

وهي تترى .. وهذا

شبهاً فشبها

مكلماً بقرى الضجر. (الديوان

ص ٩)

٢ - أنها الطائر أتت أسير ذكركى

ربما رائحة اللزاة غومة

ورأته السماوات

حجراً كبري

أها الطائر المسكين

أتت وعنى

وأنا وسك أيضاً

ترى

كيف أراها الشجرة؟ (ص ٩٤)

٣ - رأيت الأصابع تخطلها الطير

....

ورأيت دمي يتجوز، يصرخ

....

تقدم جبريل، قال، ستبقى

ولمزم حتى رأيت مسوحاً تهمهم

تأخذ فى جرحها مدك

ثم تدور

....

رأيت كأن يد الله ترفع سجادة التوّن

لا شيء يبقى سوى النكّ

(ص ٤٨، ٤٩)

ما الرابط بين هذه المشاهد الثلاثة المتتقاء عشوائياً؟ وهل مرادنا أن نهجس بهذا السؤال؟ إذنا برأى حسى ما يضع الشاعر فعل الرؤية عمركل جمالى صانع للقرات الشعرية، (أرى) كرمز حتى بفعل البصر - لا البصيرة - (إن أترى - وأنا سوف أراها)، (ربما رائحة اللزاة غومة)، (رأيت الأصابع تخطلها الطير)، لا فرق في أن الشاعر يبنى تثبيت هذه اللحظة الزمنية، هو المشهد الأول (١) يظهر أمد هذه اللحظة إلى زمن المستقبل (سوف أراها)، ثم رؤية ماضوية مكت، ورؤية حاضرة أيضاً تكم، لكن الشاعر يجمع عناصر الزمن الثلاثية - بعض ما - داخل مشهدة ليرتقب هذه الأنثى التي تترك قلبه - هل يراها بعين قلبه أيضاً؟ - والتي تتدور، وهنا يأتي التشبيه الحسى (مثلاً برى الشجر) لتبدى له بهذورها ولحائها وأغنائها، في المشهد الثانى يكتب الشاعر طائرته، الشاعر هنا يرى رمزاً، الطائر هنا موضع رمز، وموضوع شعري، كلمة الطائر أسير الذاكرة يستثمر دلالات متعددة جمالية تتعلق بجسم هذا الطائر ورسمة، وأسطورية تتلظى بظهور كثيرة

الإشارات والتنبيهات

البصر أيضاً، إن الشاعر يكرر كلمة الربايا في حالتى المفرد والجمع - فى تصور كثيرة - تتعلق دائماً بحضور المرأة، كأن هذا التجسد الصاحب هو الخيال الشعرى الأول الذى يصلبه إشاعر عبر هذا الجسم الصفيلى. المرأة، وحيال ذلك نجد الصورة فى المرأة وقد تجاوزت أمام العاسة بشغل تخيلى معنى ما، تختلج هذه الصورة بزوال فعل الرؤية، وتعود بعودته - وفى هذا نمط من أنماط التشكيل الصاضر إذا صح التعبير، التشكيل النطق الذى يكاد يلمس الصيلى والمستمدى ويتصهه جزءاً جزءاً. «إن الصورة المنطبعة لا حقيقة لها من حيث هى انعكاس، وإنما تكون حقيقة لها حقيقة إلى العين المقابلة للسطح العاكس، ولكن الناظر لا يتأتى له أن يتكر رؤية صورته فى المرأة، تلك الصورة التى تفضع فى تشكيلها المنعكس لطبيعة السطح العاكس، وعلى هذا النحو يبدو الانعكاس رمزاً عرفانياً على الخيال باعتبارها مرتبة وسطى تقابل كل طرف بوجهها، مما يؤذن بأن للخيال بنية ديكوتومية تضم المتقابلات وتدسجها فى تسويع واحد»^(١).

ولعل هذه البنية هى من طبيعة الشعرية التى ترمى دائماً إلى توحيد الشئ والكلمة، وفى هذا الديوان يسبو الشاعر إلى التوحيد والاستزاج مع الأنى بكل طرائقها، وفداحتها فى آن، ولعل حضور الربايا يشي بتكرار هذا الفعل المنعكس، فالربايا «إذا تقابلت أخضت إلى متوالية الانعكاس، فكل ذلك الخيال، لأنه يضل على الصورة نوعاً من التعدد والشراء ومرونة التشكيل إلى ما لا نهاية»^(٢).

أخلص من ذلك إلى القول بأن الشاعر يصره دائماً بصير فى الوجود المرئى الذى تشكله الأنى غالباً، ويحركه فى حركة تهوى إلى سطوح الأشياء، ولا

أساسى من عملية الرؤية هذه، يقول أبو سعدة فى بورتريه للأنة:

امرأة
فى هيئتها الأولى
لم تأخذ بعد الحنكة من رف الذاكرة
ولا تفرقتها الرسوم الهائلة
ولم
تكترف النظرة فى بئر أنوثتها
أو
تتلى - (ص ١٤)

يمثل الإنحاج على فعل الرؤية حاجساً أساسياً فى هذا المقطع، فالمرأة فى هيئتها الأولى تستثير فى اتقو العاسة البصرية لئى تعدد ملامح هذه الهيئة، وسماتها، وهنا تصبح الذاكرة معط فعل البصر، فالذاكرة بمعنى ما أحد الصانع الرئوسى فى الإنسان التى تفتقر المشاهد والهيئات وألصور والكلام الإنسانى أيضاً، وتأكسبها على أن المرأة لم تزل فى طريقتها، وهيئتها الأولى بنى الشاعر عليها أية وسومة هاجسة، أية جرؤمة للشيق، فهى لم تكترف النظرة فى بئر أنوثتها، أو تتلى، وهنا يعدنا الشاعر فى بقية النص بتوصيف هذه الهيئة الأنثوية من صورة لأخرى ومن مقطع لآخر:

تأخذها الرحلة حين ترى فى الظلوة
قدام المرأة
أفاهيل الرب السرية،
كيف يكره لهدن صغرين
ويلمس بصفاء زواياها، فيدورها
ويرش الزهَب الهش على سطح
أنوثتها
ثم يحكها، يجلوها
حتى تتجلى (ص ١٥)

إن التجلى، هو معنى البصر دائماً، والتجلى لا يدرك إلا بالرؤية، والتجلى هذا يحدث أمام المرأة، وهذا يعضد سلطة

رؤيائية وحربية وفارسية، أو الطائر/ الكتاب كما فى سورة «الإسراء» هل هو غيمة أو حجر كريم، أم هو «الزهر» حين يقرر الشاعر ذلك «أنت وهى» هذا معنى الشعر الآن، ألا يعطيه ما تفى من معنى، المعنى هو هذا اللامضى، هو هذه الحالة من التردد والقلق والتساؤل والافصال، ولعل هذا ما يؤذن لنا بتحرير الكاء الشعر الآن، وبالطبع شاعرنا، على الأساليب الإنشائية أكثر من الشعرية، وعلى شيوخ عدم اليقين بهجمال ما، ويشير ما، بريما وبالسؤال وبالموضى المنظمة - إذا صح كلامنا - حين يقرر حالة اللاوى كما فى المشهد الثالث والثى يتنقل فيها الشاعر من رؤية إلى رؤيا، الدم يتحول بعد أن تطفط الظهور الأصابع، تمانها تنهيه صوب إشارة ما، والتمسح تهمهم وتأخذ المدن فى حجرها، حتى يصل الشاعر إلى تكريره... «لا شئ سوسبلى سوى النطق، ولعل هذا التكرير هو نقطة ضعف التصوص - إذا أدن لى يتكلم ما - فحين يقول الشاعر (لن ترانى - وأنا سوف أراها) وإنت وهى وأنا وهى» (ولا شئ سوسبلى سوى النطق) فإذنه يضعنا بإزاء ما هو مؤكد، ما هو يقينى خبرى، وهو بهذا الوضع يعود تكرار الرؤى الشعرية السابقة المجازة، ويكراره هذا يشوه العالم، لأن التكرار تشويه، لأنه استنساخ واقتباس، فهما لو حول الشاعر هذا التقرير إلى سؤال لكان أجدى جمالياً.

فعل الرؤية إذن هو هذه المثابة التى تشيد حبالنا، كما هو واضح من المشاهد، ولعل ذلك يتم بالاستناد إلى أشياء أخرى تعضد من فكرة الشاعر/ الرئى، ولتتمثل هذه الأشياء فى الصور والأشكال والهيئات، والرسوم، والتأكيد على فعل الرؤية بأرى وأنظر وأشاهد، كذلك تحضر الربايا بشكلها العاكس كجزء

الإشارات والتنبيهات

نفس أصحابها، الشاهر الزاني يرى بصره فحسب، ولا يدنو من هذا العمل الحميم بين الرؤية والرؤيا، بين العسى والوجد، وهو إذ ذاك يركز على أفعال التأمل، والنظر، والملاحظة، والتأمل، والتجلى، كما يكتب بربصد الصور والهيئات والأشكال والطرز، والأطر، مما ينبت في لصوصه البثاق بين، فريد أبو سعده إذن شاعر حسى من الطراز الأول، يمتلك القدرة الراسدة، التي نفس طراجة الألهام وتماثل الاتحاد معها، غير أن الشراء ليس مظهرًا فحسب أو صورة متعكسة فحسب، بل إن الجوهر لا يظهر هو المصد دائمًا إذا ما ارتأينا التعبير عن هذه العلاقات العامة عبر المفارقة، الصور لتظهر، والمكانن بالية، تدل في صور كشيرة، ولتذكر مسكولات الملوك الصوفية أو الاستسناخ - يعنى ما - أقصد أن الشعرى يحاول دائما المواءمة بين التضادات، وجوهر صورة الشراء إلى نفسه وجوهره الشافى، كل شيء، وهو أن صورته المبنية - القاهرة، وصورته المعنوية الباطنة، صورة الشراء لا تتصير، كما يظن في قاهره، وإنما تشمل كذلك باطنه - أي حقيقته ومطاه، وهكذا نرى أن الاكتفاء بمحاكاة ظاهر الشيء (تصويره واقعي) كما يبدو للنحن لا يقدم منه إلا جزءه السطحي، هذا أنه تكرار لا يبدى. لهذا نطقي الشراء حين لا تتصور إلا سطحه الظاهري، ولكي نسيبه لا بد من أن نتصوره - أي نؤول دلالاته ومطاه، وأن نصوره من ثم ونفك لهذا التصور (٦) بهذه المثابة فإن فريد أبو سعده متنا شعريته عبر إنشائه إلى القاهر المصموم، وفى - على الرغم من ذلك - شعري متحركة، وجوية، ودالة، فكان الشاهر يؤكد قرله في أحد تصوصه للاحى سوى هويته.

بصورة الحواس:

إذا كان البصر يبدو محايداً في أغلب الأحيان، حيث يكتب لطبيعة العين بالرؤية فحسب دون القيام بره فعل ما، سوى ما تخرله الذاكرة البصرية من مصاد ومصور، فإن الحواس الأخرى وبخاصة حاستي اللمس والتذوق تقومان بالحل ورد الفعل بمن الشراء وتصويقه والتشف عن كنهه، فإذا ما شابت «بصورة» الرؤيا لدى الشاهر باعتماد على الرؤية فحسب، فإن هذه البصورة تنهدى في الحواس الأخرى لأنها تتخلل في الأشياء وتتفاعل معها، أنس اللمس أو التذوق، أو النشم أو السمع كلها أفعال تتبادل وتتجادل مع المصموم، يحس البصر الذي يرى بشكل محايد فحسب، تصوم «فريد أبو سعده» نطقاً على هواجس كثيرة، للتحاول ملامتها، ويدوا نشور إلى بعض الضملمات الصغبر المنتشرة في بنى التصوص وهي عبارة عن بعض الصور المعشقة التي تلم عن حسة بارزة:

- طوحت فسوق المدى بأصابعى
الصفرة.

- هير أنيا الجسد اختارنى

سوف أسعد مثلى نللاب على العيطان

متكناً على نهدين

- صبرى فوق أعضائى مياه الصمو
هوق

وأقرأ تعريفة الوقت الجمول.

- مستشرب نخب من جادوا من
التاريخ

أبدان بلا أعضاء

- أهن أنى جسد أهد

تخبا فيه قبائل لا أهرها

- رط عليها عويله وشفته

وداح ينددن أخيلة

- أهد على سرتك النائلة/ الواطلة

مطلق الطاحة

هرفا آخر

أتمس فوق للهدين الصبوقين

أصابع رجل آخر

ففى هذه الصور الصغبرة التي تتكاثر بشكل لاقت في تصوم الدبوان، للمح كيف تتعامل الحواس مع الوجود الإنسانى تصديقاً، الجسد بشكل أحس، وكيف يتشكل الشاهر بين حاسة وأخرى، حين يذرع أصابعه على المدى ويأته يريد أن يمس كل جزئية فيه، ونحن بلجهر الصغبرة المشتهية حين يكتب حتى نهدين، ونحن تصب مياه الصمو فوق أعضائه، هذه الجسدانية لا شك تدل على حاسة اللمس، كان اللمس فى نفسه، وفى تلاقحه مع الآخر، جسد أم شيا ما، يوحى بأن الشاهر يشعر بقرله الحميم إلى حان جمائى ما، يهدأ ويثنى مع جسد المرأة، الذى يعادل القبايل كلها كما يقول (أهن أنى جسد أهد تخبا فيه قبائل لا أهرها) وهذا يتحول اللمس إلى بصر وتذوق ودندنة، ثم إلى هم لم إلى امن، كما تخبرنا الصورة الأخيرة.

وفى نص يجسد هذه الحواس جميعاً هو «سواى صوفية» نطقاً فريد أبو سعده على عدة أمور:

أولها: الإيغال فى تركب العظفة
الأثوية، والربط بين هذا التركيب وفعل
التذكر.

ثانيهما: إضفاء الصفات المسية
الأولى - التي لا تتجدد - على فعل التركيب
والتذكر.

ثالثهما: التصاق السياق للنص
ونقل شعريته الحالة القصصية عبر سرد

الإشارات والتنبيهات

حتى يبدو القلق المتأخر فجأة بأنه هو الأجل، الأضمن والأحب فالانتظار حين يصير الزمان وحفره إنما يجعل الحب أحسن، إنه يضع الحب الأشد رسوخاً داخل جذبية اللحظات والأوقات، فيعيد للحب الولى فتنة التجدد، عندئذ تنشبت في الذاكرة الأحداث المرتكبة بقلبي، وترتدئ معنى في حياتنا، وهكذا تكون الذكريات الكبرى هي الشفاء الاحتدام والتفكك في يوم، في ساعة، إنها المتأفأة على رفض أولى لحياة شيء آخر خلاف ما نرغبه، (٨) ولعل قول الشاعر «قلبي مغفول بالباب متى ستهرد، يحل في التوالى هذا التوقيت القلبى الخارج عن توقيت الزمن، في تسارع نبضاته وفي تصويره عن قلق الذات وانكبابها، في نفسان أنوية اللحظة ولحظة الأنوية وتوحيها في بصيرة الحواس، وبالطبع فإن الشاعر لا يهدف إلى قصص اللذة فحسب، بل يهدف إلى البحث عن فهم جمالية حسية توجد سلطة الجمال في الوجود، ونسعى إلى مجاوزة أبعده.

إن هذه اللحظات الحاسية تستثيرنا للبحث عن نمط تقنى ياده في ديوان فريد أبي سمدة، وهو الصاحبة المستعمر على توقيف تقنية التشبيه إذ تبلغ جملة التشبيهات في الديوان نحو (١١٧) تشبيها تتوزع بين التمثيلي والمعكوس والبلغ، ولا تخلو أية قصيدة من قصائد الديوان من هذه الأساط التشبيهية بل إن ثلاث قصائد منها تضم قدر كبيراً من التشبيهات مثل (باب مئة - ٢١ تشبيها) و(الفارسية - ١٩ تشبيها) و(في العراق ١٥ تشبيها)، لكن لوس من هدفى هذا أن أبرز أضواء هذه التشبيهات، لكن بغيتي الأولى هي التأكيد على أن المسية هي المسيطرة على ديوان «درة القلب»، فإذا كانت العلاقة التشبيهية بين طرفي التشبيه تنتج من التعالق بين المحسوس

ويشعر له الشاعر بفعل (تلتصق) وصحته (تلتصق) فالالتصاق غير اللص، ثم البصر (العينين) ثم اللص ثارة أخرى في (الشفة السفلى)

ولا شك أن كلا من اللص والبصر لهما حساسية جنسية كبيرة في إدراك الحسوسات، فالعين إحدى المناطق الشهوية في الإنسان، وشفاه الشفتين له حساسية جنسية تجعل من القبلة مثلاً أعلى لحاسة اللص من الناحية الجنسية، وتوالي أفعال الحاسنين حتى نهاية اللص بين الرقبة واللسان، ثم يكرر على سمعه سؤاله الأثير «متى ستهرد، وأمامه فتحاته يترشفه حيناً، ويتركس في يله الصديق حيناً آخر حتى يكشف أنه وعده، وأن ذاته لا تمارس شيئاً سوى التذكر في انتظار من لن تهرد؛

أذكر أن سريري مفتوح كالفتح

فأعسر فتحاتي وأقام

عريان إلا من عطر امرأة

سمراء كروى

ترمقني من بقع الخضة في المرأة (ص ٤٣).

ولو تأملنا في النص سجدته تضمن الحواس الخمس، خصوصاً الرائحة واللامسة وكان هاتين الحاستين الشهويتين تعلان في بقية الحواس لوقدنا أن هذه الذات مهمومة بالارتقاب الجسدي، وبالتوق الدائم للاندماج مع الآخر، واكتمال الجسد الإنساني بطرفه الذكوري والأنثوي، وهذا نجد اللص مضمولاً بالارتقاب والانتظار ليصنع مفاجأة الذات في قلقها العاشق «فياله من فرح بغير اللقاء - كما يقول باهلاز - يكفى الصرد أن يحب أن يغشى كل شيء، أن ينتظر في أشد أنواع القلق جلوتها،

النص، مما أدى إلى وحدة لمكانة النص.

ففي هذا النص نجد الحواس تتألف عبر ترتب الذات وتذكرها، وهذا ناتجاً يقول باهلاز: «إن مسألة استرجاع الذكريات قد تتطور أيضاً حين تولى مزيداً من الاهتمام باللمحة حيث تتحدد الذكريات فعلاً وواقعاً، عندئذ يمر دور تتألق الحوادث الجديدة، الترشيد العقلي شبه الآتي للأحداث المتصلة في ذكرى مطردة» (٧).

وهذا بالضبط ما يفعله أبو سمدة حيث يركز صامداً على الإقبال في ترتب اللحظة كما قلت في انتظاره المتعاقب للأشياء، وهنا يكرر تساؤله الدائم «متى ستهرد؟»، «فالذات هنا ذات مترقبة، تعمل أساها وانتظارها وقلقها وأملها؛

أقلب فتحات الحسوة في التطبيق المتفوق

وكلني مغفول بالباب

متى ستهرد؟ (ص ٤٠)

ويتنقل الشاعر إلى خارج ذاته قبل العاشق سعيدون، وكل الحسوسات بهيجات (والصريح من جمع - سعيد، به - سعيدون، وليس سعداء)، وهو وعده المنتظر المسائل «متى ستهرد، وهنا تبدأ حواسه في الانتفال بالأضواء من حوله، وبدأ تبصرها بها، في مشهد يجمع بين حاستين؛

الرقبة تلتصق الرقبة

تحت الطائفة

يصبح البجع المستلقر في العينين

وترتصق الشفة السفلى (ص ٤٠)

إذ يتراوح اللص بين اللص الذي

الإشارات والتنبيهات

والمعقول فإن ذلك يؤدي إلى صنع أربعة أشكال، ويمكن بالنظر إلى جملة التشبيهات أن نصورها في الجدول التالي:

العلاقة التشبيهية	مثل ويريدا
١ محسوس + محسوس	١١٢
٢ معقول + معقول	-
٣ محسوس + معقول	٤
٤ معقول + محسوس	١
جملة للتشبيهات	١١٧

يتبدى من الجدول أن الشاعر يركز تماماً على ما هو محسوس، ولا يتجاوز هذه العلاقة الحسية إلا نادراً كما يظهر في التلميح الثالث والرابع فإذا ما صفا الأرقام من وجهة ثانية سجد أن طرفي التشبيه يبلغان نحو ٢٣٤ عنصر، يخرج منها خمسة عناصر معقولة وباقى وأقره (٢٢٩) عنصراً، جميعها محسوسة، فما دلالة ذلك؟؟

إن الشاعر يريد أن يتحسس كل شيء، وأن يشعر به في ثقلة اللدن الذي يفبه ثقلت الجسد الأنثوي، يريد أن يبقى له الحضور مع الأشياء التي يجمعها كالطير في صعيد واحد لكي يحقق لذته، وشهوته الحسية، وكان الجسد الأنثوي يدل على كل الأشياء، لا يبري تجريداً يحققه التشكون، فهذه العلاقات الحسية تؤخذ بأبدية الحضور الذي يتجاوز التوقيات الزمنية الخارجة، لذا فإنه ينتقل في هذه العلاقات ما بين حضور الذات وبين حضور الآخر (الأنثى) ويترقب ذلك في علاقات المشابهة، قابلاً لشيء تسمى مثلما يرمى الشجر، وهو يسقط كوردة،

والنخل له شكل الذكور، والنومسوانا كامراً، والجسد ممدود كالنخلة والسررة كعق التفاحة، والسررة فاكهة المرأة، والحلمات كمصقورين احتسماً، والملاحظ أن الشاعر في أغلب العناوين التشبيهية لا يترك المتلقي يقول وجه المشابهة بين طرفي التشبيه، بل يحدد. هو هذا الوجه، مما أفقد تشبيهاته هذه كثراً من الطاقة الفاعلة للتلقى المشاركة في صنع الجمال الأدائي للنص، كذلك فإن الغالب على هذه التشبيهات هو أن العلاقة بين طرفي التشبيه في معظم الأحيان علاقة متجاوزة قريبة، أو مألوفة من مثل: (أسل كريح، كامن كالطريدة، زهوراً تشبه النارج، مثل ليلاب، الفجرى خفيفاً كالفلين، أنشظى كزجاج... الخ).

ومن هنا فإن معظم هذه التشبيهات تلتد دمجتها، وتلتد توترها وجدولها، واستقصاها الذي يجاوز بين المتبادع والمتضاد لا المتقارب المتألف.

وقول الإمام عبد القاهر، وهكذا إذا استقرت التشبيهات وجدت التبادع بين الشئين كلما كان أشد كانت إلى التفوس أصعب وكانت التفوس لها أطرب، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب، وذلك أن موضع الاستحسان ومكان الاستقرار، والشور الذين من الارتواح، والمتألف للتأفر من المسرة، والمؤلف لأطراف البهجة، أنه ترى بها للشوئين مثلين متماثلين، ومؤلفين مختلفين، وترى الصورة الواحدة في السمسام والأرض وفي خلقة الإنسان وخلقال الروض، وهكذا طرائف تتشال عليك إذا فصلت هذه الجملة وتتبععت هذه اللمة، (٩).

إلى هاهنا لا أستعرض التشبيه تجريداً أن علاقة مشابهة بسيطة حدثت بل لابد من أن يقدم الشاعر باستيقاق تجريده عبر المعقولة، والصعود إلى نسخ الأشياء، ويوظفها، لا الاكتفاء بوجهها الحسي فحسب، حتى يحدث هذا الجدل الخلاق الذي يتطلب الفن، لذا كان التبادع والمختلف بين طرفي التشبيه هو المراس الحقيقي والنتاج الدال للعملية التشبيهية، ويضيف عبد القاهر عن التشبيه: وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع بين المضم والمشرق، وهو يريك للسماني المثلثة بالأيام شبيهاً في الأشخاص المائلة، والأشباح القائمة، وينطق لك الآخرين، ويصيرك البوان من الأعجم، ويريك المعاة في الجماد ويريك التمام حين الأضداد فيأتيك بالصاعة والصوت مجموعين والمأم والنار مجتمعين، (١٠) إن «فريد أبو سعدة يسجل احتراقاً شعرياً يتم عن حسوسه المفرطة الماشقة للجسد الأنثوي الذي يرى فيه خلاصه من قبح العالم وروادته، ويرى فيه اللحظة المبتكرة المتجددة الحسية، ويرى فيه طراقة الأشياء وتجددنا:

إلى مهادج

كطوب جارية

ممتلي بالشهوة

مكسو برهام الورع

أنا من آخر نسل الرهبان

وأول نسل الصاء (ص ص ١٢٢ -

١٢٣)

وهنا يتأكد ما ذكرناه سابقاً، عن حسية الشاعر، وأنه شاعر حس في

على شاطئ الإسكندرية الفسطاط

قم أنت متسع، رهب وعميق يا
بحرنا المتوسط، الذي نادى
عميدنا طه حسين بثقافة تجمع بدائنه
في الشمال والجنوب، والذي جسدت
الإسكندرية بمراحل تاريخها المتلاحقة بما
قدمته هذه الفكرة الصيقة التي سعى إليها
مؤسسها بإنشاء ذلك الثغر الجميل الذي
يجمع شتى الثقافات والمضاربات
المتنوعة. في ثقافة عابدية واحدة تبدأ
من هنا، وقد كان من الطبيعي أن يوصى
إمامنا الكبير الشيخ السكندري الشاب
محمد علي أبوريان في محاضراته
الافتتاحية في الندوة السادسة للجمعية
الفلسفية المصرية، التي عقدت في الفترة
من ٩ - ١٢ يوليو ١٩٩٤ عن مدرسة
الإسكندرية عبر المصور، يؤكد على
ضرورة إنشاء مكتبة الإسكندرية لتكون
مركز إشعاع مؤسس على أحدث وسائل
الاتصال لتكون ملتقى طلاب العلم في
مقر أقدم جامعة عرفها العالم.

كانت الجلسة الأولى متقنة متعددة
الألوان، شارك فيها أساتذة الفلسفة
والتاريخ واللغات والدراسات الكلاسيكية
وتم فيها استعراض لمجاور كثيرة أهمها:
الملاحح الحضارية في مدرسة
الإسكندرية، د. لطفي عبد الوهاب،
والتأكيد على أن "مدرسة الإسكندرية
حقله وصل بين الشرق والغرب، أحمد
عشمان، وأبرزت، "الثوابت والمتغيرات في
مدرسة الإسكندرية، حسن جتفي، وتناول
الأب فاضل سيدأرويس، بعض ملاحح
مدرسة الإسكندرية اللاهوتية.

الذي يحدثه البصر وفيه متحرك لم
تقب عنه الذات الشاعرة، في إصاحتها
الأول عن مشاهدتها، وإيقاعها التجريبية
قسماً فادها من النظافة، والتخلت،
والتنقذ بفأهة الأشياء وتبردها الحس
المانوس. ■

عبد الله السمطي

إشارات :

- ١- محمد فريد أبو سمحه: وردة للقيظ - هيئة
الكتاب المصرية للهيئة الأولى ١٩٩٢.
- ٢- [م-جوشكي: الفلسفة لسماصرة في أوروبا -
ترجمة عزت قرني - سلسلة عالم المعرفة -
لكويت ١٩٩٢ ص ٢٢٠، ويمكن لفهم
الفهم الظاهري لتتبع كنهيات كلام
موسر، بأشلال مايجر، ملكي غار،
جابريل ماريل، كارل ياسبرز، على سبيل
المثال.
- ٣- السابق ص ٢٣٠
- ٤- السابق ص ٢٣٥
- ٥- صليط جريدة نصر: الفيل مضمونهاته
وخطاته - الهيئة المصرية للكتاب -
الطبعة الأولى ١٩٨٤ ص ٩٠.
- ٦- السابق ص ٩٠
- ٧- أفريقس: الصوفية والصوفية - دار الساقي -
لندن - الطبعة الأولى ١٩٩٢ ص ١٩٨.
- ٨- غابرييل بشار: جليلة لزم - ترجمة خليل
أحمد خليل - المؤسسة الجامعية للدراسات
والنشر - الجزائر - الطبعة الثانية ١٩٨٨ ص
٦٢.
- ٩- السابق ص ٦٣
- ١٠- عبد قنار الجرجاني: أسرار البلاغة - تصديق
لسود محمد رشيد رضا - مكتبة صوبح
بالتقارة - للطبعة السادسة ١٩٥٩ ص ١٠٦.
- ١١- السابق ص ١٠٣
- ١٢- نادر الأسطوحي: لزيين الأسراق بتفصيل
أحوال المشاق - الطبعة البهية المصرية - د.
ت ١/ ٣٥.
- ١٣- موزيس بيرا: الفيل لروماني - ترجمة
إبراهيم صبروني - هيئة للكتاب المصرية
١٩٧٧ ص ١٢.

الصلح الأول، لكن من وجهة ثانية هل
يكون حقله للجسد الأنثوي وكنتى صيغة
عرفانية صوفية - بمعنى ما - تتنكر في
هذا الكلام قولاً لأبي القاسم الجنيد يقول
فيه: "كما أن النصارى حيال الشيطان فمن
حيال الصرافان، إذ قد يتوصل القائل من
عقله إلى معرفة مبدعه" (١١).

لربما يكون الشاعر في هجسه الحسي
هذا المكسر برغام الورع، برغام الجسد
ويبحث عن صوفية جديدة يلمس بها
عرفه على ماء الشعر أو ماء الذقنة،
يبد أن هذه الظاهرة الحسية في الديوان
تؤكد ظاهرة عامة أخذت تستشري في
التصوير الشعري الآن، فهل يشعر
الشاعر الآن في هذه المرحلة الثقيلة
بالخوف الشديد من القمام وعدم الوثوق
بزمكان ما، فليجأ إلى هذه الآخر، إلى
التوحيد بين الجسد الإنساني المنفطر،
بدلاً عن انشطار الذات الواحدة، هل هي
الدراما الحسية التي تبتكرها الحواس في
حين يذهب صفاء الفيلة، واستقصاها
الطريق النافي.

لربما كان هذا وعد فريد أبو سمحه،
لكن التوجه الشعري يبحث عما وراء
الحسية، أو على الأقل يجادلها بطرقها
المعقولة الآخر ليقدم امتيازها وإيقاعها،
ويشارك انتقاسها، فالخيال والمصورة -
لربما يرى موزيس بيرا - لا يتصلان في
الواقع، وربما يكونان صيغة واحدة في
كل الأغراض المعنوية، فالصورة توكف
الخيال ليعمل، وهو بدوره يزد في حديثها
عندما ينشأ (١٢).

إن للتوجه الشعري هؤلاء دائماً بين
الحسي والمعنوي، ويصالح بين
المتضادات: إن تشبيهاً أو استعارة، بيد
أن استحصار الحواس، والثنائي الدال

الإشارات والتنبيهات

هندسة السطح المستوى إلى هندسة القطع المخروطي، وكانت مناقشة الفارس الكبير في فلسفة العلم والرياضيات محمد مهران رشان ذات تأثير مهم في تأكيد حوار الأجيال وإثراء الجلسة بالتعليقات الوضحة المفيدة.

وقد توزعت أبحاث الجلسة الخامسة (الإسكندرية الإسلامية) بين تناول تاريخي، ازدهار الحركة العلمية في الإسكندرية في عصر دولة المماليك الأولى، السيد عبدالعزيز سالم، وبين الفكر السياسي في الروافد الثقافية لمدينة الإسكندرية، الطرطوشي وكتابه سراج الملوك، لعبد الفتاح الشاوي، والتحليل الفلسفي والفيلولوجي للاصطلاحات الذي ظهر في بحث إبراهيم ياسين وبين تاريخ العلم في بحث عباس سليمان عن «أثر نصر الدين الطوسي في إحياء وتكوين المؤلفات العلمية لإقليدس السكندري» الذي يوضح فيه أن مؤلفات الطوسي كانت المصدر الوحيد الذي استقى منه القرب معلوماته عن السماء اليونان.

وتتلقت الجلسة السادسة من التاريخ إلى الحاضر، من الماضي البعيد إلى الواقع القريب، من المكثب إلى المعاش، من الاتفاق إلى الاختلاف، ومن النظرة التاريخية شبه الموضوعية إلى وجهات نظر تطلب عليها الذاتية وان أقبل التناقض. فقد كانت جلسة في معظمها حبة ثرية خصبة، فهي شهادة الجول الصالي على جول الرواد المعاصرين من مدرسة الإسكندرية، فسها الحسارة والسفولة والتأثر. وفيها أيضاً نهيب الضعيلة، الذي يسعى دون أن ينجح في إخفاء نور الضمير القوية. وذلك في أحد الأبحاث.

وقد تحدث مراد وهبة وطبعة حليوية عن استأذ الأستاذة يوسف كرم في بحث امتزج فيه الحب العميق بالتدق الدقيق، لقد كتبت كرم التواضعية وكتب من خلالها



زكي نجيب محمود

توزعت وتوحدت بين دراسات محدثين لأفلاطون حيث عرض الشاروني لأفلاطون عند نجيب بلدي، وقسارت مسفاه عبدالسلام في بحثها بين الإثبات عند أفلاطون ومايودجر، وقد حاولت قريال خزيمة تأويل فلسفة أفلاطون ونقته من التامل إلى الفعل، لفلسفة الفيل عند أفلاطون، وريضان الصباغ الذي قدم لنا بحثه عن «التفسير الأخلاقي للفن عند أفلاطون». إن القصص التي شهدتها هذه الجلسة في التفسيرات المتنوعة أنطولوجيا ومعرقيا وأكسيولوجيا وأبيولوجيا تؤكد على ثراء الذرة عبر تنوع الأبحاث المقدمة، وجهود الجول الجديد من باحثي الفلسفة في تفسير أفلاطون حيث تمثل الأبحاث الثلاثة الأخيرة إسهام جيل الشباب في هذه الجلسة.

وكما دارت الجلسة الثالثة حول أفلاطون، اختصت الجلسة الرابعة بدراسة الإسهام العلمي في مدرسة الإسكندرية حيث تناول فارما فلسفة العلم ومناهج البحث للجدد محمد قاسم، بيني الخولي على التوالي: «رياضة مدرسة الإسكندرية وطبيعة البرهان الرياضي»، و«الرياضيات في مدرسة الإسكندرية من

وإذا كانت المحاضرة الافتتاحية لأبرويان، مدرسة الإسكندرية واختراب الفكر الفلسفي في الإسلام، إبراز بعض النماذج الفلسفية اليونانية الغربية على روح الإسلام الأصول، فإن بحث حسن حنفي حاول التأكيد على الثوابت التي ميزت التفكير الفلسفي في الإسكندرية عبر المصور اليونانية والمسيحية والإسلامية والحديثة، مثل التفكير في الواحد منذ ألماتون حتى أفلاطون، وأن هذا الواحد له صلة بالعالم عن طريق قبض العالم عنه، وارتباط الإنسان بالعالم، وتجلي هذا الواحد في الأمة والجماعة، التشريع والقانون. وإن الإسكندرية، مركز، لقاء عبر المصهور، جسر بين الثقافات المختلفة: الشرق والغرب، أثينا وروما، الإسكندرية وفساده العرب واليونان والسريان.

ودارت الجلسة الثانية، الإسكندرية اليونانية، حول «الديابات الفلسفية في مدرسة الإسكندرية القديمة، مصطلحي المبادئ واتجاهات الفلسفة والعلم في مدرسة الإسكندرية، حريمي عباس والملاحم الأساسية للفكر الفلسفي في المدارس المتأخرة مجدد الكيلاني، وتولقت أستاذتنا الجليلة أميرة حلمي مطر أمام، حكماء الإسكندرية بالتياس وجالوتوس ويحيى النحوي، مؤكدة على أن الإسكندرية أضخم مركز لطب في العالم القديم، وفي رهاياها عاش جالوتوس الذي سيطر على الطب في مشارق الأرض ومغاربها حتى عصر النهضة الأوروبية مما يؤكد على دور الإسكندرية في تطور العلم العالمي. وبالإضافة للأمواج المتلاحقة للفكر اليوناني والهلنستي تناولت إكرام فهمي الإسهام المسيحي في بحثها التأويل الرمزي (يقف أن يسمى المجازي) عند فلطون وأرويجون.

وكان أفلاطون هو الموجة الأساسية الفالنية على أبحاث الجلسة الثالثة، التي

مؤلفاته في تاريخ الفلسفة وفي الميتافيزيقا ونظرية المعرفة، لكنه لم يستطع أن يقدم لنا كتابه في الأخلاق، لأن أية أخلاق فلسفية ستبدو مخازاة إذا قدمت من خلال وجهة النظر التوماسوية في بيئة إسلامية. ١١.

وقدّم لنا فتح الله خليف بحثه عن تجويز بلدى مؤكداً - ونحن نتلق معه على ذلك - أن بلدى وهو يورج للفلسفة فيلوسوف، وهو لم يكن فاضل خير معلمى الفلسفة بل أيضاً ذو عقلية محملة، وأن فلسفته نوع من الرضى تبعث فيها النشاط والحيوية الفكرية، وإن كان - بلدى - لم يتعمق كما لاحظ بعض حسن حنفي لفلسفته وحكام الإسلام، فهو كما رد خليف لم يكن معجباً بالفلسفة الإسلامية وإن كان شديد الإعجاب بالأب العريى.

وقد تحدثت في هذه الندوة كل من محمد مهران عن رضى تجويز محمود بين ناقدية، موضحاً المطلقات المختلفة الأيديولوجية والأصولية والفلسفية التي كانت وراء الانتقادات المختلفة لفكره رضى تجويز محمود تلك الانتقادات التي أوجدت معاركة فكرية بينه وبين منتقديه مثل محمود أمين العالم في نقده الفيلسوف الذى أرسى حواراً عميقاً حول مناهج وسبل الإدراك في فهم واقع المجتمع المصرى. أو الانتقادات التي قدمها عبد المنعم بيجوى صعيد كلية أصول الدين السابق بالأزهر، أو الانتقادات الفلسفية المختلفة التي حاويز صاحب المنطق الوضعى من يحيى هويدى صاحب منطق البرهان، والوضعية المنطقية في الميزان، وقد كان رد فعل «العمق الذى قدم به مهران بحثه» متمثلاً في نفس العمق الذى علق به المنقبون وعلى رأسهم المفكر الشيخ الشاذل محمود أمين العالم، وقد أكمل حامد طاهر رئيس قسم الفلسفة بكلية دار العلوم ببخسه عن الأصالة والمعاصرة عند رضى تجويز محمود النقاش حول دور مؤسس المنهج العلمى في فكرنا العربى في العصر الحديث.

وأتى بحث أحمد أنور «من المنطق الوضعى إلى المنطق الفلسفى» ليكون محاولة لإعادة النظر في مفهوم المنطق الوضعى كما طرحه رضى تجويز في كتاباته الباهرة في إطار البحث المعاصر المسمى بالمنطق الفلسفى كما تطرحه كتابات غريبة حديثة للغاية، ويرى أنه يجب اعتبار مشروع المنطق الوضعى اجتيازاً فلسفياً يمكن الاتفاق أو الاختلاف معه داخل إطار المنطق الفلسفى الذى يهتم بالعلاقة بين القوانين الصورية المنطقية والمقضايا الفلسفية.

وكما تحدثت شيخ فلاسفة الإسكندرية المعاصرين أبوريان عن أستاذة أبوالمعال عفيفى مؤكداً على دوره المهم ليس فقط في التاريخ للفلسفة بل وفي تصديق المصطلحات الفلسفية الدقيقة سواء في المنطق أو الفلسفة العامة أو التصوف، موضحاً نماذج مدرسته (عفيفى) من مدرسة الشيخ مصطفى عبدالرازق، فقد تحدثت أحدث أستاذة مدرسة الإسكندرية محمد عبد المنعم عن أستاذة تلميذة الشيخ عبدالرازق في بحثه من «الأصالة الإسلامية في كتابات على سامى للنشار» أو للنشار العظيم كما يسميه محمد قاسم. ولما جمل الأصالة التي يصددها لنا عند انتشاره هي:

حرصه فيما يكتب على أن يكون له قضية يدافع عنها وهي الأصالة الإسلامية، مع حرصه على تأكيد نزعة الفكرية الأشعرية وتكوينه لمدرسة متميزة نابعة من الأستاذ متحررة من أشعريته، بالإضافة إلى موقفه العلمى التقوى من الاستشراق.

إن هذا الحوار القصب بين الأجيال لم يظهر في الدراسة المقدمة عن الأب جورج شحاتة قنواى، الذى لم يتصل مباشرة بأدب الإسكندرية. رغم حرصه ودفقه وحرصه الدائم على حضور جميع جلسات وندوات الجمعية الفلسفية المصرية والذى كان متحدثاً دائماً فيها.

ورغم أن الحب كان دائماً دافع الأب قنواى ومع الأب كريستيان وأب فاضل سيداروس في متابعة ندوات الجمعية الفلسفية فإن النقد بل الهجوم كان سمة الباحث الذى عرض للأب قنواى والمعارفة العجيبة، بل التناقض الصارخ فيما قدم عن قنواى أن صاحب البحث الذى يرفع شعار النقد والتكوير والمقلاتية يخبرنا باعتزاز أن مهمته في بحثه عن قنواى أن يجمع الأدعية (الدعاء) المشتركة بين رجال الأدب في حوالى ستين صفحة عنه. ومن هنا يدعو للدعاء ويهاجم العلم العربى ولا يتورع ضد البحث العلمى والحقيقة التاريخية أن يعلن أن تاريخ العلم العربى الذى كرس له قنواى حياته كلها - لا يشغل نصف سطر في أى تاريخ للعلم! مع أن الدومبولى وجورج ساروتن أشهر مؤرخى العلم المعاصرين يخصص في كتابه «مقدمة في تاريخ العلم» الذى لم يترجم للعربية بعد - (رسى) ماهر عبد القادر ومعه بعض الزلاء لثقله للتاريخ) - يخصص آلاف الصفحات لتاريخ العلم العربى في المجلدين الأول والثانى من كتابه الذى يطلق على فصوله المختلفة أسماء العلماء العرب مثل عصر البوزجاني، البوروى، جابر بن حيان، الحسن بن نعيم، عصر الخوام.

وأمام هذه الافتراءات العديدة كان الرد التكريم والنقد العلمى الدقيق وتصبح أخطاء تلك الآراء لا تى تستند إلى أى سند من العلم والفلسفة والحقيقة الذى رد به ماهر عبدالقادر في رفاسته للجمعية السابعة.

واختصت كل من الجلسة السابعة والجلسة الثامنة بتكريم رواد الفلسفة في القاهرة والإسكندرية من الراحطين: رضى تجويز محمود ومحمد ثابت القندى، ومن الأحياء محمد على أبوريان أطال الله بقاءه بحيث لم يشعر أعضاء الندوة والمشاركين فيها بقرباء أعضاء الجمعية

ابن رشد وال المقالة الثانية

قإن ابن رشد حكيم قرطبة - إن شئت - والشارح الأكبر هكذا أطلقوا عليه، تعرض لاضطهاد كل الذين اختلفوا مع آفاق دولة الموحدين. هذا ما كان وما دعى د. مراد وبه أن يقول: «إن مغارقة ابن رشد تكمن في أنه كان مهملاً للتطور في أوروبا في حين أنه كان موضع اضطهاد من أمته».

ومغارقة أخرى في هذه الفقرة من ورقة أ.د. فتح الله خليفة: «ولم يخرج على هذا الإجماع في زماننا فيما أعلم إلا عاظم العراقي الذي جاء اسمه على صدر كتاب ابن رشد مقروناً بعبارة: أستاذ الفلسفة العربية. نحن إذن أمام خروج عن الإجماع بين المشتغلين بالفلسفة الإسلامية لا مسوغ له، إلا إذا كان عاظم العراقي قد اشتهر أن يلقب مع جميل صليوبا وغيلو الهرليقول بدين عربي بدلا من الدين الإسلامي».

المغارقة الثالثة هي مناقشة كتاب «الفيلسوف ابن رشد، مفكر حريياً ورائداً للاتجاه العقلي، إشراف وتصدير د. عاظم العراقي، أستاذ الفلسفة العربية، المجلس الأعلى للثقافة، لجنة الفلسفة والاجتماع، القاهرة ١٩٩٢، في لدوة ذات جلسات متعددة، قدم فيها أوراق حول الكتاب ودعى لها عدد كبير من المتحضرين والمتحاضرين. قدمت في هذه الندوة سبع قراءات للكتاب، ثلاث قراءات من الصاهمين في الكتاب ذاته (د. عاظم العراقي، د. مراد وبه، د. حامد طاهر).

وخصصت أبحاث الجلسة الأخيرة عن رائد مدرسة الإسكندرية وصديقه الأسبق محمد ثابت القدسي حيث قدمت أبحاث خمسة تغطي نواحي اهتمامه المختلفة فمن الناحية الاجتماعية تجد بحث السيد بدوي «محات من حياة ثابت القدسي، وبحث سامية جابر «البعد الاجتماعي عند ثابت القدسي، وبحث أحمد عبد العظيم «ثابت القدسي بين التصوف والمنطق، وثابت القدسي إنساناً وفيلسوفاً على عبدالمعطي وأصول المنهج الاستقرائي عند ثابت القدسي لماهر عبدالقادر. وإذا كان بحث على عبد المعطي ركز على المواقف الشجاعة ذات الطابع الاجتماعي والسياسي أولاً ثم كتاباته الفلسفية ثانياً خاصة ذات الجانب المنطقي وأخيراً مرحلة للتصوف فإن ماهر عبد القادر الذي يعد كتاباً عن الرائد الكبير - حاول تناول إنجاز القدسي في سبيله التاريخي مرتبطاً من جهة بإسهام من سبقوه وبسياق برنامج علمي متكامل اختطه لنفسه.

من جهة ثانية تتواصل الأسواج وتلاحق، وتتجاوز الأجيال وتتناقش، وتظل المياه نقية وإن أصابها بعض من ثلوث حياتنا الحاضرة، إن ثبات وضعي البحر والميناء والجامعة يؤكد أن للفلسفة دورها الكبير صير المصور المختلفة للإسكندرية وعبير الندوة السادسة للجمعية الفلسفية المصرية، التي أصدرت العدد الثالث من مجلته عن الندوة، والتي تستعد لإحياء ذكرى رئيسها الأرحم الأستاذ الدكتور أبو الوفاء التلخايزي في الوقت نفسه الذي تستعد فيه لندوتها القادمة عن «التأويل - الهرمينوطيقا - في للفلسفة والعلم الإنساني، قرألي موعة قوية قادمة تكتب البحر فيذهب الزيد جفاه ويبقى ما يطلع الناس. ■

أحمد عبد الحليم عطية

الفلسفة العربية بل لقد حرصت السيدة الفاضلة الاستاذة منيرة حلمي زوجة المفكر الأرحل زكي نجيب محمود على تقبول دعوة الجمعية الفلسفية المصرية وعدم تلبية دعوة الجمعية العربية التي أخلت بانتقالها على إقامة تكريم الرواد في لدوة الإسكندرية.

ثم جاء بحث كل من محمد أبو كلف آداب الزكازيق عن تطوير المركبات الفلسفية في مدرسة الإسكندرية ويحاثان من مدرسة الإسكندرية المعاصرة، أبو ريان نموذجاً ليتقدم نموذجاً للحوار بين الأجيال ويقترح مهجاً للتعامل مع الزواد بعيداً عن كل من التمجيد والتكديس من جانب والإغفال والتجاهل والحد من قفز الرواد من جانب آخر، بعيداً عن العبارات الإنشائية الجوفاء، ثم تتناول إنجازات الرائد وإسهاماته وفكراته فيما أسماه «الواقعية الوجدانية»، وخريطة الإسلام الروحية، والتأكيد على ازدهار الفلسفة في المشرق بعد ابن سينا في بحثه «أصول الفلسفة الإشراقية، والصدرية الأفلاطونية في الإسلام التي أكدت استمرارية البحث الفلسفي بعد هجوم الغزالي.

وبالإضافة إلى أبحاث هذه الجلسة الطويلة المثمرة التي استمرت أكثر من ثلاث ساعات ونصف فإن تعقيبات الحضور وتعليقات رئيس الجلسة ماهر عبد القادر في تأكيد على أهمية الحوار العلمي، والالتزام بالمصادر والأسانيد، والتثنية على عدم إغفال العقيدة وتجاهل حقائق العلم المتعمد، ورفضه الترويج لأفكار لاصلة لها بالعلم.

ونظراً لكثرة عدد الأبحاث فقد نقل بحثان من هذه الجلسة إلى الجلسة الثامنة والأخيرة عن زكي نجيب محمود هما: بحث على حنفي عن مكانة الفصل عند زكي نجيب وبحث محمد عزيز نظمي عن المذهب الجمالي عند زكي نجيب.

الإشارات والتنبيهات

وقامت على هذه الندوة ودعت إليها لجنة الفلسفة والاجتماع والمجلس الأعلى للثقافة.

ما علمنا ولتردد مع حسن حنفي في الفقرة الأخيرة من ورقته: «ومع ذلك، فإن تواصل الجهود مطلوب وتراكم الخبرات الفلسفية أساس النوعي الفلسفي التاريخي. فلو كانت كتاب «ابن رشد مفكرًا عربيًا» روايةً للاتجاه العقلي، ما نعت المراجعة، وما حدث نقاش وحوار بين أساتذة الفلسفة في مصر. فالجهود بولده هذا. والسكون يمتصه الصوت».

ويقدم حسن حنفي تصنيفًا لبحوث الكتاب الثمانية عشرة على النحو الآتي:

أولاً: الفلسفة والدين أحمد محمود صبيح: هل أحكام الفلسفة برهانية؟، محمود حمدي زقزوق: العقيدة الدولية والحكيمة الفلسفية لدى ابن رشد، حامد ماهر: قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد.

ثانيًا: الفلسفة (محمود زيدان: نظرية ابن رشد في النفس والعقل، سعيد زيد: ابن رشد وكتابه «تهافت التهافت».

ثالثًا: الكلام (على عبد الستار المصري: التأويل بين الأشعرية وابن رشد، زينب عفيفي شاكز: مشكلة الحرية في فلسفة ابن رشد، مرفت حزت بالي: مواقف ابن رشد من مشكلة الخير والشر.

رابعًا: التصوف (أبو الوفاء القليمي: التقاليد: ابن رشد والتصوف).

خامسًا: الطب (منى أحمد أبو زيد: ابن رشد طبيبًا).

سادسًا: ابن رشد والحضارة الإسلامية (عبد الفتاح فؤاد: الفلسفة المرشدية مدخل إلى الثقافة الإسلامية، عاطف العراقي: فلسفة ابن رشد وفكرنا العربي المعاصر.

سابعًا: ابن رشد والحضارة اليونانية



تقديرى، ويشير إشكاليين هما على النحو الآتي:

الإشكالية الأولى تدور على ما يبدو أنه تناقض بين ما هو عربي وما هو إسلامي. فطعان الكتاب يفتت ابن رشد بأنه مفكر عربي، ولقب المشرف على إصدار الكتاب «أستاذ الفلسفة العربية»، أما أبحاث الكتاب، في جعلتها، فإنها تتناول ابن رشد كفيلسوف إسلامي أو على الأقل فيلسوف عربي إسلامي.

والإشكالية الثانية تدور على وصف ابن رشد بأنه «رائد الاتجاه العقلاني، على نحو ما هو وارد في عنوان الكتاب. فما المقصود بالعقلانية؟ وإلى أى مدى عبرت أبحاث الكتاب عن هذا الاتجاه العقلاني؟

إلا أن الدكتور فؤاد زكريا يرى رأياً آخر إذا أردنا أن نتعامل مع إشكاليات ابن رشد، من منظور معاصر: «اسمحوا لي بأن أعلن، بوضوح، أنني لا أؤمن بأن هاتين القضيتين هما أهم القضايا التي يمكن أن ندرس من خلالها ابن رشد من منظور معاصر، بل إن هناك قضايا أخرى أحق منها وأولى بالدراسة، أشار

إبراهيم مدكور: ابن رشد المثالي الأول بين فلاسفة الإسلام، سعيد مراد: ابن رشد بين حضارتين، نبيلة كبرى زكي: ابن رشد والمؤثرات اليونانية في فلسفته الإلهية».

ثامناً: ابن رشد والحضارة الغربية في العصر الوسيط (مراد وهبه: مقارعة ابن رشد، زينب الخضيري: مشروع ابن رشد الإسلامي والمغرب المسيحي، جورج كنواني: ابن رشد في عصر النهضة).

ويقول حسن حنفي: وواضح من هذا التصنيف أنه أقرب إلى عرض جوانب فلسفة ابن رشد منه إلى تناول الإشكاليين الرئيسيتين المعلنتين على الغلاف، كما أنه لا يوجد ربط بين هذه الموضوعات الثمانية في التصدير بحيث تبدو الإشكاليات وأردتين ولو بصيغة ضمنية خلال البحوث الثمانية عشرة، فمراس الكتاب الذي يمثل العنوان في جانب وجسم الكتاب المتضمن للبحوث الثمانية عشرة في جانب آخر.

وفي الورقة المعنونة «إشكاليات الندوة» يقول مراد وهبه «الكتاب، في

الإشارات والتبهيحات

الكتاب المتكامل نفسه إلى بعضها، دون توسع، وإن كان قد فات أن يشير إلى البعض الآخر.

القضية الأولى: تلك الظاهرة هي أن العالم العربي، كان متعلقاً على أوروبا بصورة كلية، وكان ينظرون على جميع مقومات التقدم التي تؤهلها لتكون نقطة انطلاق النهضة الحديثة كلها، في العلوم والرياضيات كانت الأسس الرياضية والأشكال التوضيحية التي بنى عليها كوينتينس إكلاند اللورد - «إن الأرض مترعة، وتدور حول الشمس»، معروفة لدى ابن الشاطر والطوسي وغيرهما من الفلكيين العرب. وفي ميدان الاقتصاد، كان العالم العربي يحوي ثروات هائلة، وكان محور التبادل التجاري في العالم، وكانت الفنون والصناعات والعمارة وتخطيط المدن. ومع ذلك لم ينتقل العالم العربي إلى مرحلة الرأسمالية الحديثة.

وفي ميدان الفكر والفلسفة. كان ابن رشد وابن باجه وابن طفيل ومن قبلهم كوكبية لاسعة من فلاسفة المشرق، يعملون لنواة الفكر الإنساني ويستوحيون التراث القديم بأفق واسع، وكان لهم الفضل في إعادة تعريف أوروبا لنفسها بترائها اليوناني. فلماذا لم تظهر هذه النهضة عندنا، مع أننا كنا نحمل أهم مقوماتها؟ وربما كان في الإجابة مفتاح لفهم سر التخلف الذي انتابنا في ذلك الوقت الذي بدأت فيه أوروبا قفزتها الكبرى في هذه الميادين، ومن ثم مفتاح لمعرفة الأسس التي يمكن بواسطتها تدارك هذا التخلف. وتتضح هذه القضية أكبر قدر من اهتمام العرب المعاصرين في ميادين العلوم والاقتصاد السياسي والفلسفة.

القضية الثانية: هي قضية «القطعة المعرفية، بين فلاسفة المغرب العربي، وعلى رأسهم ابن رشد، وبين فلاسفة المشرق، وهي القضية التي أثارها كتابات محمد عابد الجابري وأصبحت تمثل

موقف مدرسة كاملة في المغرب العربي واسعة الانتشار، قوية التأثير. هذه المدرسة تدع إلى أن الفلسفة العربية قد اكتسبت في المغرب طابعاً برهانياً، عقلانياً، يمثل «قطعة معرفية، مع فلسفة المشرق التي توصف بأنها «إشراقية، ومن ثم فإنها، عرفانية، لا تقوم على العقل والبرهان.

القضية الثالثة: لعل أهم الإشكاليات التي ينبغي أن يتصدى لها الكتاب، وأن تبرزها اللدوة، هي الأمسية المعاصرة لابن رشد، أو الدور الذي يمكنه القيام به بوصفه مصدر يستفاد منه في الصراع الحالي بين السلفية والعقلانية.

ويقول د. حسن حنفي: «لا يوجد بحث واحد تصعيد معنى العقلانية كمذهب في تاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي والعربي، الفرقي أو الغربي، حتى يمكن الحكم بناء على هذه المذهب على «ابن رشد عقلانياً، ولا يوجد بحث واحد مثار بين اتهامات مختلفة للعقلانية ومذاهب تاريخية سابقة على ابن رشد أو لاحقة عليه معرفة معنى الزيادة والسبق إذا كان للشعارات وزن وللكلمات معنى ... لقد تحول العقل إلى دعوة، والعقلانية إلى خطابة».

ويقدم الأستاذ محمود أمين العالم ورقة بعنوان «ملخص لبحث عقلانية ابن رشد في ضوء كتاب الفيلسوف ابن رشد مفكر عربي ورائد للانتماء العقلي»، ويتألف هذا البحث من أربعة محاور: المحور الأول هو عرض عام لدلالة العقلانية والمحور الثاني قراءة لدراسات هذا الكتاب والمصور الثالث تعليق عام على هذه الدراسات والمصور الرابع محاولة لتحديد دلالة العقلانية الرشدية في إطار مذهبه الفلسفي عامة. وفي بداية المحور الرابع - ومن ورقة البحث - كتب العالم: «أحرص في البداية على تحديد أمرين: الأول هو أن دلالة العقلانية الرشدية أو عند أي فيلسوف آخر لا تكون بالاعتفاء بتعريفاته التي يقول

بها دائماً وإتمام الدراسة ليجعل فلسفته وفتوح مجالته مختلف للخصايا والمشاكل التي يعرض لها. وأما الثاني أن الطابع العام المساند للفلسفة في الصور المسماة بالوسطى سواء في البلاد العربية الإسلامية أو في أوروبا هو الطابع الديني. ويسمى الاختلاف بين المذاهب الفلسفية حول العلاقة بين الدين والفلسفة. هل الدين موضوع للفكر الفلسفي أم الفكر الفلسفي موضوع للدين. في ضوء هذا أحاول أن أعرض لفهم العقلانية الرشدية في أربعة أبعاد: البنية الذاتية للعقل، والعقل كأداة معرفية، والتعلق الأنطولوجي للعقل ثم أخيراً التطبيقي الصلي للعقل».

وتؤكد الأوراق المقدمة والمناقشات داخل اللدوة، أن أهم الأبحاث هي:

«هل أحكام الفلسفة برهانية، «العقلية الدينية والعقلية الفلسفية لدى ابن رشد، «قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تيمون وابن رشد، «نظرية ابن رشد في النفس والعقل»، «مشروع ابن رشد الإسلامي والمغرب المسيحي، وسوف تعرض لهذه الأبحاث بإيجاز شديد وعلى لسان أصحاب تقديم الكتاب.

البعث الأول: «هل أحكام الفلسفة برهانية، للدكتور أحمد محمود صبيح، يقول د. فؤاد زكريا: «قدم الأستاذ الدكتور أحمد صبيح بحثاً فلسفياً رصيناً، قد لا يتفق المرء مع كل حججه واستنتاجاته، ولكنه ينظرون على وجهة نظر تتسم بالأصالة وتقوم وجهة النظر هذه على أن من طبيعة الحجج الفلسفية في عصره أن تكون جدلية، لا برهانية كما تصور ابن رشد. وهذا يؤدي إلى عدم التقسيم الثلاثي للأدلة إلى خطابية، تأخذ بها العامة، وجدلية، وطبقية المتكلمون والعلماء، وبرهانية، ينظر بها الفلاسفة والعلماء، وهو التقسيم الذي اقتبسه ابن رشد عن أرسطو، بعد تعديله وفقاً لظروف مجتمعه».

الإشارات والتنبهات

ولقد بنى الدكتور صبحي رأيه القائل بأن طبيعة الحجج الفلسفية عامة أن تكون جدلية، على الفكرة القائلة أنها لا تركز على مقدمات يقينية: فهي لم تعترف طوال تاريخها سوى مذاهب متعارضة وبمباريات متناقضة وهي في ذلك تختلف اختلافها أساساً عن العلم النموذجي القائم على البرهان، وهو الرياضيات وتؤدي وجهة النظر هذه إلى إزالة الفوارق بين المتكلمين والفلاسفة، من حيث المنهج الفكري، والقضاء على الاستسلام، الذي ظهر واضحاً لدى ابن رشد كما تؤدي إلى الشك في وجود حقيقة فلسفية أسمى من ظاهر المبادئ التي يقول بها الإيمان الساذج، كما اعتقد ابن رشد.

البحث الثاني: «الحقيقة الدينية والعقيدة الفلسفية لدى ابن رشد، للدكتور محمود مدني زرقوق».

ويضيف د. فؤاد زكريا: «وبالنسبة كان بحث أ.د. محمود زرقوق يتسم بالأصالة، ويسير في خط مواز - إلى حد لاكت للنظر - لبحث الدكتور صبحي. فهو يستهدف فكرة ازدواجية الحقيقة لنفسها ما بين دينية وفلسفية، ويسعى إلى تأكيد وحدة الحقيقة، في الإسلام. وحين يتعلق هذه الفكرة على ابن رشد، ينكر وجود أية خصوصية بين الدين والعقل، ومن ثم لا يكون الإنسان في وضع يرغمه على الاختيار بينهما. ويبدو لي أن الجهد المشكور الذي بذله الدكتور زرقوق يمارس كله في ميدان مثالي، يتعالج فيه الباحث ما ينبغي أن يكون عليه الوضع بين الحقيقتين الدينية والفلسفية».

البحث الثالث: «العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد، للدكتور حامد طاهر».

يرى الدكتور صاحب البحث أن ابن تومرت يؤكد أن الشريعة ذات كيان قائم بذاته مستقل عن العقل، ولهذا فإن كونها لا يتوقف على أحكام العقل وبراهينه وهو

يحصص الشريعة في عشرة أصول وخمسة فروع تؤكد جميعها من القرآن الكريم والسنة النبوية ولا حاجة لتدخل العقل فيها، وهناك الإجماع والقياس اللذان يراه ابن تومرت متضمنين في القرآن والسنة، والقياس عنده هو القياس الشرعي لا القياس العقلي. فإذا انتقلنا إلى ابن رشد وجدناه يعرف الفلسفة بأنها «النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على صانعها وهو هذا (فصل المقال)» يحصص مفهوم الاعتبار في القياس العقلي البرهاني.

ويقول الأستاذ محمود أمين العالم: «يحصص الدكتور حامد الفرق بين موقف ابن تومرت وموقف ابن رشد بأن ابن تومرت كان في بداية الدولة الموحدة وفي حاجة إلى جذب الناس، أما ابن رشد فقد جاء وقد استقرت الدولة وأصبح أمامها أن تقدم الأساس العقلي لاتهاجها. والواقع أن ابن تومرت في تفكيره كان شهيداً على لابن رشد لا يفضل استماتته ببعض المناهج العقلية ففسب، بل يتحديه كذلك لهذا الكيان المستقل للشريعة القائم بذاته والذي لا يتوقف على أحكام العقل والذي كان شهيداً لإبراز الكيان المستقل للفلسفة عند ابن رشد».

وما زال البحث عن تحديد عقلانية ابن رشد يشعل الحوار ويرى الدكتور مراد وهبة في ورقته: «إن عقلانية ابن رشد تقوم في العلاقة العضوية بين التأويل والبرهان. حيث يقرر ابن رشد حق الفيلسوف أو الراعي في العلم في التأويل، النفس الدولي بما يتفق وطبيعة البرهان العقلي. ويعرف ابن رشد التأويل بأنه «إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، وهو يقول ذلك في شأن العلاقة بين الشريعة والبرهان. ويضيف د. وهبة: «ومن شأن التأويل أن يخرق الإجماع إذ لا يتصور فيه إجماع على حد قول ابن رشد، ولهذا يمتنع تكثير المؤول، أي لا تكثير مع التأويل. ولهذا غلط ابن رشد الغزالي

عندما كفر الأخير بالفلسفة من أهل الإسلام مثل القارابي وابن سينا».

البحث الرابع: «نظرية ابن رشد في النفس والعقل، للدكتور محمود فهمي زيدان. يقول د. مراد وهبة: «إن بحث د. زيدان يدور حول نظرية ابن رشد في طبيعة العقل الإنساني التي تحاول التوفيق بين نظرية أرسطو في العقل وعقيدة الدين في خلوه النفس، وبعد عرض النظرية يخلص إلى القول بأن ابن رشد لم ينجح في محاولته الدفاع عن عقيدة الإسلام في خلوه النفس. وفي تفكيره أن مسألة الدفاع عن العقيدة ليست من شأن الفلسفة، بل من شأن علم الكلام ومنشأ علم الكلام دليل على ما نقول».

البحث الخامس: «مشروع ابن رشد الإسلامي والغرب المسيحي، للدكتورة زينات الخيري».

يقول فؤاد زكريا: «ولكن أهم أجزاء هذا البحث في نظري هو الجزء الأخير، الذي تطرقت الباحثة فيه إلى بعض النتائج الصليبية التي تؤدي إلى فكرة الفصل الحقيقتين الدينية والفلسفية. فهذا الفصل يؤدي إلى فصل موازله، بين السلطة الروحية أو الدينية والسلطة الزمنية أو السياسية. وهكذا فإن أفكار ابن رشد حين نكلت إلى أوروبا قد أثرت في كتاب أوروبيين كانوا رواداً في الدفاع عن فكرة فصل سلطتي الدين والدولة وبالتالي في التمهيد للمبادئ الأساسية التي قامت عليها النهضة الأوروبية الحديثة».

وفي النهاية هذه التصورات لعديد من المفاهيم التي قدمها ابن رشد وهي تعبير عن تصورات واجتهادات فكرية ومنهجية مختلفة ومتباينة وهي ظاهرة صحية في حياة القاهرة الثقافية تعبر عن الاستقلال والتوسع الفكري. ■

حسن سرور

الإبداع القصصى الأدبى النبوية

ف تحت عنوان الإبداع القصصى لأديبام النبوية، نظم المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ندوة خاصة لمناقشة الإبداع القصصى النبوى، الذى فاض عن الإطار القصصى لوصف على شتى فروع الإبداع، شارك فى الندوة فضلا عن «جابر عصفور» رئيس المجلس الأعلى للثقافة العديد من النقاد والكتّاب البارزين، من بينهم على الراعى، إدوار الفراء، إبراهيم فتحى وفاروق خورشيد، كما شارك بها من كتّاب النبوة إدريس على وحسن نور ومحمد وهبة، وأدارها الروائى صبرى موسى.

والحق أن ثمة ضجة مفتعلة حول مسمى «الأدب النبوى الحديث»، مثلاً بالأعمال القصصية والدرامية التى ظهرت فى العشر سنوات الماضية، فقد أعيدت قراءة هذا الأدب من قبل بعض المصالحين الباحثين عن سجلات ذلك فى ضوء الزلزال السوفيتى وما تبعه من تغيرات متباينة حيث يتجاوز اللزج إلى للتكثيف وتكوين قوة اقتصادية عظيمة فى أوروبا الغربية، جنباً إلى جنب وإعادة الاعتبار إلى الإثنيات العرقية والدينية، بل وتشجيع الحركات الانفصالية فى شتى بقاع العالم.

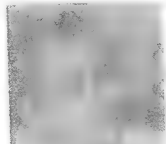
ولذلك فقد اتشدت المنتدون حول إعلان نفهم تحول النوبيين إلى «أكراد»

جند أو «أرمن» آخرين أو حتى مواطنين من الدرجة الثانية مع التأكيد على وحدة الإطار المشتمل على تفرعات مناهات متعددة.

● مكمات ●

فى البداية تحدث «جابر عصفور» بوصفه قارئاً للنص فتناول رواية الأديب النبوى محمد خليل قاسم «الشمندورة» كعمل مؤثر فى سياق تلقيه للإبداع:

«الرائع أن هذه النبوة تثير الكثير من الأسئلة، وأست فى موضع من وجوب عليها فهذا عمل الذين تقدموا بأوراقهم ولكن حسبي أن أتعذّر بوصفى قارئاً للقصّة، لا أتعزّر أن أعمالاً روائية أو قصصية قد بدعتنى وأثارت فى نفسى الكثير من الأسئلة عن الذى لا أعرفه من القصّة فى مصر سوى مجموعة قليلة جداً من الأعمال أومها فيما أذكر «الشمندورة» فهذه الرواية تفتح أفقاً من الأسئلة لا تنتهى، عن خصوصية الإبداع فى منطقة ما، وعلاقة هذه الخصوصية بالشهد الذى تلتصق إليه ولا تتصلص عنه، عن الوحدة بين العام والخاص التى علمنا إياها أساتذتنا فى النقد، عن الاستفراق فى التقاليد والتعمق فى الخصوصية وهو ما يمكن أن يفتح أفقاً للإبداع، عن الفرق بين تقليد الموضة، والدور الذى



جابر عصفور

يتمثل العصر من خلال تجربة فريدة، «الشمندورة»، تلتك الانتباه إلى ظاهرة الإبداع المتفجر من النبوة نتيجة لمجموعة من العوامل والأسباب، ولا شك أن الأسئلة التى سوف يطرحها الزملاء من خلال أوراقهم المقدمة، سوف تنطرق لهذه العوامل وتلك الأسباب ولكن أشير إلى أن الهدف من الندوة ليس تقديم أجوبة نهائية بل فتح أفق حوار حول هذا الموضوع وهذا الأدب الخاص فى سياق الأدب المصرى بعامه.

وتأكيداً لمساق جاءت كلمة «على الراعى» حماسية تشجّر لمحور الندوة عبر أقصر الطرق:

أقول: «من يطلب الذهب فلنيسجّر الأرض، إن الأرض لا تقضى أسرارها إلا لمن يلمس فى جوفها»، ذهب النبوة فيما يعنى هذه النبوة هو أدبها وعلاقتها بين جبرائها، وفى إطار البحث عن التنوع داخل الوحدة، لن نسوق طويلاً أمام الرأى القائل بأن البحث فى أدب النبوة سوف يكرس إلى نوع من الانفصال بين النبوة وسائر السياقات المصرى، فلم يحدث أن كانت النبوة غائبة عن مصر فى أى من الأزمان، فى الستينيات مثلاً جلدت مصر العالم كله لإنقاذ آثار النبوة، فكان فى هذا الإنقاذ اعتزازاً واضحاً بأن النبوة وجدت لتبقى، ولقد صبغ هذا الاعتراف شعور بالزهو عندنا، وقرّح فى نفوس أهل النبوة، أن تراثها جزء عزيز من تراثنا بأجمع، نجتمع للنظر فى أدب النبوة وثقافة النبوة بوصفها جزءاً لا يتجزأ من تاريخ وحاضر مصر.

● خصائص القصّة النبوية ●

تم تناول القصّة النبوية بشكل أكثر تخصصاً فى ورقتين تقدم بهما كل من الناقد إبراهيم فتحى والروائى إدوار الفراء، حيث تناول الأول ملامح وسما

الإشارات والتنبيهات

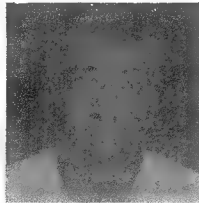


إبراهيم فخيم

إبراهيم فخيم

إبراهيم فخيم من أوائل الكتاباء النوبيين - بعد خليل قاسم الذي لا ينسى بالطبع - الذين كانوا يعتقدون على إعادة إحياء ثقافة قومهم، وقد كانت تكثر في خضم التغيرات التي تتصيف كل ثقافات العالم للثالث اليوم، وهم كتاب يتراوح تناولهم لهذه القضية من الشجون الغنائية كما هو الشأن عند إبراهيم فخيم، مروراً بالأن الطيف، حتى صرخة الدهوة إلى ما يشبه القطيعة الثقافية أو التمايز العرقي وما يجرى هذا السرى.

إن الأسى على الفقدان - فقدان أرض لا عودة لها، بل فقدان موقع روحى تكاد رسومته تبيد، إنما هو أسى موجع، وصادق، ليس فقط في «الواقع، الظاهرى



حسن نور

القصص النوبى بعامته بينما أثر إدوار الخراط مزيداً من التخصص بقرائنه لأعمال قاص نوبى واحد هو الأرحل «إبراهيم فخيم» الذى غاب عنا أوائل هذا العام متأثراً بمرضه.

إبراهيم فخيم: «بحث القصصون النوبيون عن بعض نور داخل نوح الواقع النفسى للفرق، وقد تمثل ذلك فى البحث عن معنى بالرجوع إلى الوراثة، إلى ذكريات مستنيرة سحرية، وشريحة من القانتازيا هى شريحة متخيلة ذات طابع مثالى للفردوس مفقود، وربما كان هناك إغراء المكرف على مدخل القلمى ضيق مشطوع الصلة بالسهال الأوسع للتاريخ المصرى وتياراته وقواء، ولكن ذلك ليس إلا غيظ من غيوط النسيج المتشابة

- نهد لوحة العادات اليومية والأصاط الشعبية قبل الطوفان حائلة بتجميد السمات المحلية لجماعات المتألفة الهائلة، المتدمجة مع النهر والجبل والنبات والحيوان.

- نهد الزهرة التسجيلى القائمة على التفاصيل الواقعية التاريخية معاطة بإطار خفائى يسترجع ما كان من عذوبة متخيلة فى نمط الحياة الصغار.

- إن نهد فى القصص النوبى تطويراً لغويّاً مطابق كمن اللغة واقعاً وروائياً فى عصر الاختراب والانفصال الزمان الفردى النفسى المردى عن الزمان الموضوعى التاريخى بل نهد ووفقاً عند الاستعمال ذى النزهة الطبيعية أو الرومانسية للغة وربما عاق ذلك القصص النوبى عن الإمساك بالدينامية المتناقضة الشاملة للعصر.

- أصبح المكان الذى تستدعيه الذاكرة وتعيد تشكيله عبارة عن مساحة للأشواق، له وظيفته فى شبكة المصائر الإنسانية، وليس مجرد موقع بلا معنى.

الملموس بل كذلك وأساساً فى الوجود اللغوى القصصى عند هذا الكاتب المبدع، ذى اللغة التى يتميز فيها الشعر بالسر، والروح بالنجوى، حتى وإن كانت تحمل الشفارات بشحنة واضحة ربما كانت أقل قنولاً مما يراديهما، من قبول معادلة النوبى بالظاهر وما تجده هذه المعادلة من مشابهات متوقعة، وهو ملمح مضطرب فى كل العمل القصصى لإبراهيم فخيم، هو رسمى النوبة المفقودة بالوطن القديم أما النوبة الموجودة فهى مجرد مكاننا الجديد، وهى ليست وطناً جديداً وإن كانت للتنمية تأتي بعد ذلك فى سياقات أخرى، وفى هذا الوطن القديم - فى ذلك الفردوس المفقود - يبحث لنا القاص إبراهيم فخيم طقوس الميلاد والختان والعشق والزواج والعمل، فى مناخ يجمع بين واقعية التفاصيل الدقيقة المصقولة وبين صاحبة بقللة للمحات الموحية وبين شاعرية النجوى والذائد، فمن تكتبياته المألوفة أنه ينادى: النداء موجه للأرض وللأشخاص ولعزرات الكون على السواء، كما أنه موجه للذات أو للجمعية على السواء.

إن أرض الجنة المفقودة عند إبراهيم فخيم هى أيضاً أرض الأسطورة أو التاريخ الفرعونى أو العربى على السواء، فهو إلى مذين التياراتين العربيتين المصحين كسب هذه الأرض بقوة.

● شهادات نوبية ●

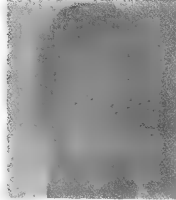
تمثل حضور الكتاب النوبيين فى الندوة بثلاثة كتاب هم: ادريس عيسى، حسن نور، محمد وهيب، حيث أدلى كل منهم بشهادة يخلط فيها الذاتى الحيائى بالنظرى المعتمد من قبله عن الفن كما تتناول جميعاً مفهوم الآدب النوبى وما أثر حوله من صبيح فى الأونة الأخيرة متفكين على فصل الإبداع عن حركية

منتصف الألف الثاني الميلادي، ومع أن هذه الفترة الطويلة شهدت تغيرات كثيرة في الترتيب السياسي والدولي والإداري على المستوى الرسمي إلا أن عناصر الحضارة النوبية الأساسية بقيت دون تغيير جذري وذلك فالثقافة النوبية المعاصرة نتاج حضارة أصيلة لها شيء من عناصر الحضارات التي ولدت إلى المنطقة عبر تاريخها الطويل مثل الحضارة المصرية وحضارات البحر المتوسط، وحضارات بلاد الشرق الأوسط والشرق الأدنى، وقد تم التقاء كل هذه الحضارات في فترة الممالك النوبية التي عرفت بسراع حضاري وثقافي بين ثلاثة ثقافات قوية أولها الثقافة النوبية (الأفريقية المحلية) والثقافة المسيحية التي دخلت المنطقة مع بداية العصر القوي، والثقافة الإسلامية التي جاءت إلى بلاد النوبة منذ القرن السابع الميلادي، في هذه العملية الحضارية التي تلت التقاء الحضارة النوبية بالحضارتين المسيحية والإسلامية تكمن أصول الثقافة النوبية المعاصرة.

● مدخلات ●

اضطلع «صالح» بالرد على الاستفسارات والأسئلة المثارة حول اللغة النوبية وأبجديتها، فمن سؤال أبجدية اللغة النوبية وعلاقتها باللغة الحديثة أجاب:

اللغة النوبية لغة أفريقية تنتمي إلى اللغات النوبية الصحراوية ومكرها الأساسي بحيرة تشاد، وهي لغة قديمة وتاريخ التحدث بها غير معروف لكن الكتابة بها بدأت تقريبا مع القرن الثامن الميلادي، وهناك مكتبة نوبية ضخمة في النوبة المصرية، تستقر أسرارها في المتحف المصري، حيث بدأ نشر هذه المخطوطات، أما عن علاقة هذه اللغة



إبراهيم فيقي

التكاثرو وجود الآخر، ولماذا يحكمون الأمور أكثر مما نعتلم؟، القوة كانت حضارة مستقل محمولة في الوجدان وسعير عنها بالأغنية والرقيقة والتملة وهذا حكنا الإنساني وإن تسطيع قوة مهما كانت أن تصادر أسرارنا لأن بضاعتنا فن لا سياسة.

● تأصيل ثقافة النوبة ●

المحتوى الحضاري والثقافي للأدب النوبي، هو عنوان الورقة التي تقدم بها الدكتور على عثمان محمد صالح أستاذ الآثار وتاريخ الحضارة بجامعة الخرطوم، تناول فيها المميزات الإقليمية التي تحكم مسار العلاقات والشائج بين الدول كالأديان والمورث الثقافي والصالح المشتركة، كما تناول عناصر الثقافة النوبية من عناصر مادية كالصناعات والحرف والهداريات، والعناصر غير المادية كالأدب واللغة مركزاً على الأدب النوبي الحديث لتحديد معالمه:

من أهم مميزات الحضارة النوبية الاستمرارية الديناميكية، فقد تطورت عبر حقبة تاريخية طويلة تبلورت فيها عناصر الحضارة المختلفة، المحلية منها والوافدة ثم تأصلت لتكون المورث الحضاري النوبي، فالحضارة النوبية نشأت في بداية الألف الثاني ق.م. واستمرت حتى

السياسة وإن تضمن السياق الإبداعي رؤى وشطحات سياسية مؤكدين على كونهم جزءاً من وحدة هي جماع التعدد والتنوع:

● حسن توير ●

دهولما نكول أدب نوبي دون حساسية ودون خوف مما أثار البعض ضدنا، فقد حاولنا إزهاينا بحتاوين ضخمة لأهداف سوية، لا أدري لماذا هذه الحساسية الذي وكبرها الأدب النوبي، هل هناك شبر أن نقول على سبيل المثال أدب «سولي»، أو أدب «صرايحي»، إذا كان كتاب هذه المناطق يتناولون مشاكل وقضايا تخص مناطقهم، ليس من الأفضل أن تتنوع الكتابات وأماكتها وثقافات أبطالها بدلا من تشابهها وتبالمسها، ألم يتمسح «محفوظ» بكتابات عن الجمالية في القادرة القديمة؟، ألم يحاول «القطاني» البحث عن التميز فخاص في كتب ابن أبياس وتاريخ مصر السلوكية، في النهاية أقول إن من مجموع الوحدات المختلفة والمتنوعة يتكون الفن المصري والأدب المصري.

● محمد وهبه ●

التنوع في الثقافة يزداد وحدتها ولا يفتقها بل إنه يثرها والصفة النوبية لا يمكن أن تكون تكميلاً للثقافة الأصلية والاتكاش كما يدعو وإنما هي تكميل للنصوصية والتنوع داخل إطار الوحدة.

● إدريس على ●

النوبة التي نستعبدنا من الذاكرة وتكتب عنها لويس مجرد حارة أو قرية أو حتى محافظة، ولا كان النوبيون مجرد قبيلة واحدة، النوبة تراث حضاري إنساني وجزء هام من تاريخ المنطقة فلماذا يستنكر البعض وجود أدب نوبي؟، أو مصطلح لندي بهذا الاسم؟، لماذا محاولة

مائة وعشرون عاماً على تعليم المرأة

مقدمة:

في العشرين من نوفمبر عام ١٩٩٣ وعلى مدى ثلاثة أيام وتوسع جلسات عقدت في القاهرة بمرکز المهاجر للفنون بمجمع الأوبرا المصرية ندوة لغربية حول وضع المرأة المصرية من حيث التعليم وسدى الخراطها في عملياته، والإشكاليات المصاحبة لتعليم المرأة في مصر كذلك إشكاليات محو أميتها، والتشريعات القانونية التي تناوالت وضع المرأة المصرية سياسياً واجتماعياً وتعليمياً، بالإضافة إلى تأثيرات المتغيرات الاقتصادية الاجتماعية ونظام القيم السائد والتحولت العالمية المتسارعة على عملية تعليم المرأة في مصر. فضلاً عن مجموعة المتغيرات منذ بداية العصر الحديث والنتائج المترتبة عليها في مجال تعليم المرأة. وتناولت الندوة أيضاً ضمن محاورها العلاقة بين المرأة وعملية الإبداع من حيث الطابع التكويني العقلي والشعالي للمرأة المصرية. وتبع ذلك شهادات واقعية لإبداع المرأة في الأدب والفنون والصحافة وفي النهاية تناوالت الندوة علاقة التنوير- كعملية تستهدف إستنهاض قوى المجتمع الحية ضد ما هو غير عقلاني ومتخلف، وإعلام شأن العقل وعقلانية التفكير في تناوالت مظاهر ومشاكل الحياة الإنسانية كافة - بعملية تعليم المرأة الوثيق بين التنوير كعمل حضاري وبين تعليم المرأة، وعلاقة كل

المكتوبة باللغة اللغوية الحديثة فهي علاقة قريبة جداً، ونسبة القهم تمثل حوالي ٧٠٪ وهي موجودة في شكل نهجيتين تتركزان في «ثقافة الكون، وسكوت، وهي لغة تكتب مؤقناً بالصورف المصرية، عدد أصواتها ٢٨ صوتاً.

وعن سؤال حول عدم تسجيل تاريخ وفلكلور اللغوية في الكتب العلمية على نطاق واسع أجاب: «التاريخ اللغوي مسجل وهناك كتاب جامع اسمه «الرواق اللغوي» ترجمه عن الانجليزية، محبوب التهجاني، وبالنسبة للفلكلور اللغوي فقد قامت حملة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة بتسجيل الفلكلور اللغوي وهو عمل شخم، ثم نشر ثمانية كتب من نتائج هذه الحملة، وهي كتب عظيمة، كما أن المنطقة الباقية من اللغوية تضم جميعين لدراسة التاريخ والفلكلور اللغويين هما «الجمعية الوطنية لدراسات اللغوية، والجمعية العالمية لدراسات اللغوية، وأجاب الدكتور: صالح، أخيراً عن مداخلة حول عدم إحياء اللغة اللغوية باستخدام أجدديتها في الكتابة بقوله:

لم نستخدم بعد اللغة اللغوية في التسجيل. الكتابة. لكن مساندة الكتابة هذه تحت الدراسة في كل الجمعيات اللغوية وهناك عمل متقدم دون أن يصل الجهد إلى الاكتمال لأن استخدام لغة شفاهية وتحويلها ل لغة مكتوبة ليس بالعمل السهل، وهناك جماعات عدة مهتمة بالثقافة اللغوية وتساعد على إنجاز ذلك، المبرح أن المجلس الأعلى للثقافة بمصر أصبح مساهماً في دفعنا وتشجيعنا وسأتي له مشاريع عديدة في القريب. ■

كريم عبد السلام

ذلك بأنايات ومفردات العملية التطعيمية للمرأة.

شارك في الندوة نخبة متميزة من الأساتذة المتخصصين في المجالات التربوية والاجتماعية والباحثين والصحفيين وبعض من رواد العمل العام في مصر وشارك فيها أيضاً جمهور من المهتمين بقضايا المرأة، وقضايا العمل الاجتماعي وممثلين لجمعيات ومنظمات غير حكومية.

لماذا على مبارك وتعليم المرأة:

لعل ما قدمته تلك الاحتفالية من ندوات علمية وفي القلب منها ندوة «مائة وعشرين عاماً على تعليم المرأة» تعد استجابة وأعية لمكطلبات الواقع الراهن وحاجة الأمة إلى التنوير والتطوير... كذلك تعد آلية جديدة وضرورية تضاف إلى آليات متعددة تستهدف ترسيخ مؤسسات المجتمع المدني وإشاعة قيمة ومثله، وذلك في ظرف تحاول فيه قوى قلاسية سلب أمثلا قوتها ووحدها وحضارتها، وواحدة من أبرز عناصر القوة والوحدة والحضارة.. عقل المرأة ودورها... وصلتها كصنول للرجل وصانعة للأجيال. قريبت تلك الندوة بين تراث الأمة القريب في مجال التنوير والمدنية والاهتمام الضروري بالمرأة وتعليم البنات، والذي يتناه على مبارك كجزء أصيل من عملية تطوير التعليم في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ذلك التطوير الذي استحق عنه على مبارك أن يطلق عليه رائدا للتنظيم. وبين الإشكاليات التي تعيق وتؤثر على استمرار تعليم البنات وتحقيق الأهداف المرجوة منه.

الندوة ... عرض وروية:

شملت الندوة فيما شملت إنتاجاً لغريباً وتظرياً ومعرفياً للنخبة المثقفين الذين

الإشارات والتنبيهات

شاركوا فيها وتم تنظيمها، وتناولها ومناقشتها عبر المحاور التالية:

١ - إشكالية تعليم المرأة، جلسة واحدة

٢ - إشكالية محور أمية المرأة، جلسة واحدة

٣ - التشريع وتعليم المرأة، جلسة واحدة

٤ - تعليم المرأة والتغيرات الاجتماعية، جلسة واحدة

٥ - تعليم المرأة والتغيرات الاقتصادية، جلسة واحدة

٦ - المرأة والإبداع، جلسات

٧ - رواد التطوير وتعليم المرأة في مائة وعشرين عاماً.

وتم عرض الأوراق والأبحاث التالية:

المحور الأول: إشكالية المرأة:

م. شبل بدران

١ - مصود أبو زيد .. إشكالية تعليم المرأة وتناول فيها حال تعليم المرأة في مصر من خلال مجموعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والعوامل المؤثرة فيها وأدور المتغير بأصرة المتعلمة ومدى تعلقه.

٢ - زينب شاهين .. تعليم المرأة في الوطن العربي وتناولت فيها عملية تعليم المرأة على امتداد الوطن العربي وأثر درجة التطور الاقتصادي والاجتماعي في تحقيق الأثر المرجو منها .. كدراسة حالة.

٣ - نادية حليم .. الواقع التعليمي للمرأة (دراسة ديموجرافية)، تناولت في تلك الدراسة الإحصائيات التي توضح نسبة عدد الإناث إلى نسبة عدد الذكور في مراحل التعليم المختلفة وتوزيهم على نوعيات التعليم المختلفة (أحادي - مهني - الخ) .

٤ - مجدى مهنا .. جمعية الصعيد .. رؤية في تنمية المرأة تناول فيها الدور الذى تلعبه الجمعية بالنسبة لمجال تعليم المرأة كشهادة وأهمية والربط بين التعليم النظري وتنمية تعليم الحرف والمهن بالنسبة للمرأة في الريف.

٥ - نادر لرجاني ... تقديم الإنجاز المصرى في تعليم المرأة تناول حجم وتوعية الإنجاز في مجال تعليم المرأة في مصر وذلك بالتقدم مشهوراً إلى أن هذا الإنجاز يفتح للتشاور بالنسبة لمستقبل تعليم المرأة في مصر.

المحور الثانى: إشكالية محور أمية المرأة:

حامد عمار

١ - هلى فهمى:

تناول محور أمية النساء في مصر من حيث المرتكزات التي تستند عليها والأممية الحيوية لها في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية وواقع إنجازاتها ودوية مستقبله

٢ - دلال ياسين:

تناولت مدى وفاء المقررات والمناهج في التعليم الأخرى للفتيات بالمجالات التعليمية لهم وعرضت لأوجه القصور في تلك المناهج والمقررات وسبل تلفيها.

٣ - الهام عبد الحميد فرج .. نحو استراتيجية لتطوير التعليم غير النظامي للنساء في مصر. تناولت في مقدمتها دور النساء في المجتمع المصرى والعوامل التي تؤثر سلبياً في هذا الدور، ووضعية قضية المرأة وتعليمها في العصر الحديث ثم تناولت مفهوم التطوير غير النظامي وأهميته وأمن يتوجه وضرورته وتبنيته لحاجات اجتماعية ثم تصورها لاستراتيجية تطوير التعليم غير النظامي.

٤ - فولى عبد الجواد .. أمية المرأة المصرية رؤية نفسية، تناولت فيها

الأسس النفسية التي حالت دون تعليم المرأة كذلك الآثار النفسية لحالة الأمية التي يعانيها قطاع كبير من المرأة المصرية.

المحور الثالث: التشريع وتعليم المرأة

م نور فريحات

١ - نهانى الجبالي ... الحقوق السياسية للمرأة المصرية تناولت بالنقد مدى ما تتجسم به المرأة من حقوق سياسية ومدى مواهبها لتطوير وضعيتها الاجتماعية بالمقارنة مع مجتمعات أخرى.

٢ - أموره يونس الدين ... المرأة محلا للتشريع. تناولت فيها أهم التشريعات التي صدرت وتخص المرأة المصرية وعلاقة ذلك بتكوينها من لعب دورها المطلوب.

٣ - إبراهيم حامد ططواني ... أمية المرأة وعلاقتها بالجريمة. تناول في ورقته الآثار التي تترتب على أمية المرأة وأثرها في الانحراف النفسي وارتكاب الجرائم المختلفة.

٤ - أحمد وهدان ... تعليم الأم وانحراف الأبناء. تناول في ورقته العلاقة بين تعليم الأم ومدى سواء أو انحراف الأبناء.

٥ - سميرة نصر... إشكالية التعليم والجريمة. وتناولت بشكل عام العلاقة بين التعليم والجريمة والدراسات التطبيقية التي تناولت تعليم الأم والمرأة والعلاقة بينها وبين الجريمة.

٦ - ماجد فؤاد ... التطور التشريعي لتعليم المرأة. تناول في ورقته مجموعة التشريعات التي تناولت تعليم الفتاة في مصر منذ الربع الأخير للقرن التاسع عشر، وحتى الآن ومدى ملائمة هذه التشريعات للتطورات الاقتصادية والاجتماعية.

الإشارات والتنبيهات

المحور الرابع: المرأة والمتغيرات الاجتماعية

م شهيدة الباز

١ - أ.د. شهيدة الباز... التطعيم ونظام القيم تناولت أثر النظام القومى السائد فى عملية تعليم المرأة والتقنيات والاختلافات فى هذا النظام ومدى تأثيرها على تعليم المرأة.

٢ - هدى زكريا... المرأة والتحول الاجتماعي. تناولت النتائج التي لحقت بالمرأة المصرية نتيجة التحولات الاجتماعية والاقتصادية

٣ - نيلون جمعه... قراءة حول تعليم المرأة فى الفكر الاجتماعى، شملت الورقة عرضاً لأهم الرؤى الفكرية فى المجال الاجتماعى التي تناولت المرأة المصرية من حيث وضعها الاجتماعى وضرورة تلخيصها والنتائج المترتبة على حرماتها من التعليم.

٤ - سامية خضر... تعليم المرأة بين المتغيرات المحلية والنظام العالمى الجديد.

تضمنت الورقة رؤية حول مفهوم النظام العالمى الجديد ومدى تعكسه ومجموعة المتغيرات المحلية والمترتبة على نشوء هذا النظام وارتباط كل هذه بقضية تعليم المرأة وضرورتها.

وخلال المناقشات التي أعقبت تقديم تلك الأوراق أبرزت، شهيدة الدور الهوى للمرأة فى تقديم المجتمع وإزهاره، وإن دهشة عودة المرأة للنزول لا يظنون هذه الدعوة إلا فى مواجهة المرأة المتعلمة والمثقفة والعاملة، لأنها بطبيعة دورها كعاملة وأم يبرز تأثيرها الإيجابى على حركة المجتمع فى اتجاه التقدم وهذا ما لا يريده الظالمون.

المحور الخامس: تعليم المرأة والمتغيرات الاقتصادية

سهير لطفى

١ - نادية سالم... تعليم المرأة والتنمية الاقتصادية. تبنت فى ورقتها مفهوماً أكثر صفاً للتنمية ألا وهو مفهوم التنمية الشاملة الذى يربط بين التنمية الاقتصادية والتنمية البشرية، والذي يضع الأولوية مترتبة على تحقيق الثنائية واستعرضت برامج التنمية فى مصر خلال الستينيات والسبعينيات والثمانينيات وأثرها فى النظر إلى دور المرأة وضرورة تعليمها.

٢ - شبل بدراي... المرأة ومشاكل التعليم والعمل. تناول فى ورقته العلاقة بين تعليم المرأة وعملها والمشاكل التي تتعرض لتعليمها وعملها والشروط الاجتماعية التي تحد من تحقق المرأة فى هذين المجالين.

٣ - كمال نجيب... تعليم المرأة وتطور اندماج مصر بالسوق الرأسمالى العالمى. تناول هذا البحث عملية التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث والتي دخلت بها السوق الرأسمالى العالمى فى عصر تقسيمه، ورد الضعف البادى فى التوجهات الاجتماعية خاصة تعليم المرأة وتحويلها إلى طبيعة تطور الرأسمالية المصرية وضبط هيكلتها واندماجها فى هذا السوق كاتقتصاد تبنى أو طرأ، وأثر ذلك على تطور تعليم المرأة فى مصر وإشكالاته الحالية.

المحور السادس: المرأة .. الإبداع (جلستان) م.أ. علاء حمروشى.

١ - ناهد رسزى... إبداع المرأة بين القدرة العقلية والواقع الثقافى. تناولت الورقة قضية الإبداع الفنى والأدبى لدى المرأة فى مصر وأرجعت قلة الأعمال الصاعدة للمرأة المصرية مقارنة بالأعمال

الأدبية والفكرية والفنية للرجل إلى طبيعة الواقع الثقافى فى مصر.

٢ - فوزية مهران... قراءة فى أعمال لطيفة الزيات. شملت هذه الورقة عرضاً لإنتاج الأدب والفكرى للأستاذة الدكتور لطيفة الزيات موضحة علاقته بالإبداع خاصة فيما يتعلق بمذكراتها الأخيرة.

٣ - فريدة التحدى... الفجيرة عند المرأة. أوضحت فى بحثها مفهوم الفجيرة والمنظرة العلمية لها وإماداً ارتبطت بالمرأة والمعامل الاجتماعية التي تعمل على استمرارها.

٤ - سكينه فؤاد... الصحافة النسائية هدى وصلى عرشت فى ورقتها لتاريخ الصحافة فى مصر والدور الذى لعبته سواء بالنسبة لقضايا المرأة أو بالنسبة للقضايا القومية العامة.

٥ - إقبال بركة... المرأة والصحافة شملت ورقتها تناول الصحافة للمرأة المصرية وقضاياها والدور الذى لعبته الصحفيات فى تطوير الفن الصحفى فى مصر.

٦ - منى رجب، أليفة ولعت، هالة سرحان... قراءة وشهادات، قدمت كل منهن على حدة شهادات على دور المرأة فى الصحافة المصرية والعربية.

المحور السابع: رواد التنوير وتعليم المرأة فى ١٩٠ عاماً - (جلستان)

عبد الفتاح جلال

١ - سيدى إسماعيل للكاشف... رؤية تاريخية لتعليم المرأة. قدمت عرضاً تاريخياً لتعليم المرأة فى مصر فأوضحت مدى ارتباط هذا التعليم بمجموعة المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى العصر الحديث.

٢ - م.ى محمود شهاب (المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية)... تطور تعليم

غراميات عطوة أبو مطوة

مطوة، غيور أنه يتكلم
خطوات أبعد عن سابقه، حين
جاء، وبرتولد بريخت، فسي
العرض الذي قدمه على المسرح
القمي ٩٢ - ٩٤.

يجب أن نقر بداية أن ألفريد فرج
باحث دائم عن العدالة بمعنى الحرية،
كلاهما وجه الآخر وصداء الاجتماعي،
وقد أقام عالمه المسرحي على فكرة
العدالة في بعده التاريخي للتراجيدي
بمسيرته، «سقوط فرعون»، و«سليمان
الطبيب»، كما جسد أطروحة العدالة
على مستوى الأسطورة في «الزير
سالم»، وعلى مستوى الفانتازيا في
مسرحيته «التبريزي وقيله»، و«هلاقي
بغداد»، ثم تأتي أخيراً إلى النماذج
المسرحية والتي تغفل كل العنصريات
الدراسية بهدف طرح أفكار العدالة
مباشرة، «عسكر وخرامية»، التي يقوم
بها الانحراف في المجتمع الاشتراكي،
و«جسوار على ربة طلاق»، التي
يرهن من خلالها بالهويات طبقية
 وإعادة ترتيب البناء الطبقي من جديد
من خلال إعادة تكديس الثروة في أيدٍ
قليلة، أما «غراميات عطوة أبو مطوة»،
فهو بها يدين تكديس الثروة في هذه
الأيدى القليلة دون سائر المجتمع، وهو
يقدم تحديده شديداً هذه المرة بأن ما
يحدث سوف يؤدي إلى تصدعات
وتشوهات خطيرة في المستقبل.

نحن أمام صراع أبدي وخطير
داخل قاع المجتمع بين الشحاذين
الذين أصبحت لهم نهاية تدافع عن
مهنهم وتساكنيتها وتبنيها حيث يقول
رئيس الشحاذين «دكتور شحاتة»: نحن
نستثمر الرحمة في قلوب الناس،
واللصوص على الجانب الآخر الذين

تعد مسرحية «أويرا الشحاذين،
لجون جاي مصدراً رائعا للإلهام
وإبداع الكثير من كتاب المسرح
المعاصرين، حيث يقترب هذا النص
من مساحات الكوميديا الرشيقة التي
تكشف عن اختلال توزيع الثروة، وقد
كتبها عام (١٧٢٨) تطبيقاً خفياً على
رئيس وزراء إنجلترا في ذلك الوقت
«روبرت والبول» الذي صعد إلى الحكم
كنموذج للنقاء السياسي، لكنه عندما
استقر به المقام، هُدد.

وفي زمن الخراب الاجتماعي
تصبح الصنم الرسمية في أي مجتمع
في الوساطة والصعولة والدعارة،
والتي يرى أصحابها ثراء فلاحها، حيث
ينعدم القانون، ويختل ميزان العدل،
ويتسيد قانون مافيا اللصوص
والشعاذين، ويسيطرون على الثروة
وتوزعها أو كما يقول «مات»، أحد
أعضاء عصابة «ماكهيث».

«مات» وتقليدنا امتصاص الفاض
عن حاجة الناس..

عالج هذه الفكرة الدرامية الكاتب
الألماني «برتولد بريخت» في مسرحيته
«أويرا الثلاث بنات»، قرأ في حينها
صراعاً طبقياً بين البناء اللغوي والبناء
التحتي للمجتمع، فصاغ بذلك تحديداً
أويولوجياً قاطعاً في حربه ضد النازية
وقوى الشر في العالم.

والآن يعالج هذه الفكرة الدرامية
الكاتب المسرحي الكبير ألفريد
فرج في مسرحيته «غراميات عطوة أبو

المرأة خلال ١٢٠ عاماً. عرضت فيه
تطور تعليم المرأة منذ ما قبل القرن ١٩
وحتى القرن العشرين في مختلف مراحل
التعليم كذلك التعليم المهني والقي
للنساء.

٣ - هدى قناوى ... المرأة بعد ١٢٠
عاماً من التعليم. وعرضت فيها للنتاج
التي تربت على تعليم المرأة في مصر
في مختلف المجالات وأثر ذلك التعليم
على وضعية المرأة.

٤ - شكرى العناني ... قراءة في
مؤلفات على مبارك. قدم عرضاً لنتاج
على مبارك الأدبي والفكري والعمرى.

٥ - عبد الفتاح جلال ... تعليم المرأة
واشكالية المنهج المدرسي

نادية جمال الدين. تناولت الورقة قضية
تعليم المرأة وطبيعة المنهج المدرسي
وضورة تطويره ليلام احتياجاتها وتنمية
إمكاناتها.

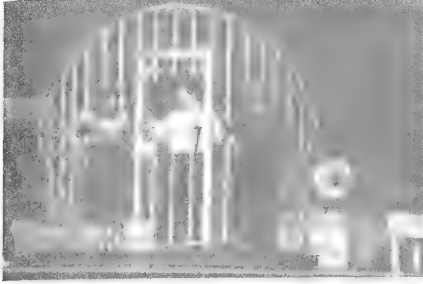
٦ - ناجى شنودة غله، د. حوض
تولوى عوض، د. كمال حامد ميث ...

فكر رواد التنوير في تربية المرأة
وتعليمها. مثلت هذه الأوراق المركز
القوى للبحوث التربوية والتنمية وقدمت
عرضاً لكل من رعاة التطوير، على
بasha مبارك، الشيوخ محمد عبده، قاسم
أمين، أحمد لطفي السيد، سلامة موسى،
طه حسين، من رؤيتهم لتربية المرأة
وتعليمها.

٧ - علا مصطفى... التنوير وتعليم
المرأة. تناولت الورقة الارتباط
الموضوعي بين عملية التنوير وبين
عملية تعليم المرأة ■

علاء حمروش

الإشارات والتبنيات



عطوة أبو مطر في السجن بين زوجة بليلة إلى اليمين ومارجو إيد قائد الشرطة وزوجته كذلك.

الفكرية والسياسية، والتي استكملت بها الأحداث الدرامية زخارفها الفنية، فبهذه الزخارف والمنمنمات الرقمية الدقيقة يستكمل ألفريد فرج صورة هذا الواقع الاجتماعي في مصر في ثلاثينيات هذا القرن.

ولا تتبع قيمة مسرح ألفريد فرج من عدد المسرحيات التي كتبها فحسب، بل من ذلك التنوع العظيم في طرح الأشكال المسرحية والتي كتبها بالكفاءة والاقتدار، التراجيديات، التراجيكميدى، الميلودراما، الكوميديا، الفودفيل، الفارس... في أنساقها الكلاسيكية أو المعاصرة.

إنه بحق أعظم كتاب المسرح في تاريخ الأدب العربي، الحديث والمعاصر معا ■

مجدى فرج

نظير حصولها على عشرة جوائز ثمنا لخيانتها له.

وفي السجن، ويكتشف الجميع أنهم ضحايا لنصوص أكبر فأكبر، وبعد حقن الملك من عطوة، يدفع الجميع إلى منطقة التضامن معه ضد اللصوص للكار من خلال صورة فوتوغرافية جماعية.

بهذا النص المسرحي يصل ألفريد فرج في رحلته الإبداعية إلى نتائج فكرية مهمة تمثلت في ذلك التصنيف الحاد والقاطع الذي أنجزه بين الشحاذين واللصوص، فضلا عن قدراته الإبداعية في تحديد التكتيك الذى للكوميديا، فإذا ما كان أرسطو قد سجل أن الكوميديا هي «محاكاة الظرفاء من البشر»، وأدار صراعه الدرامى داخل هذا العالم المليء بالقيم الزلغلة والانهدام المروع، بالفضائل والشرور، بالحب والكراهية... أى بكل ما يسمح بخلق دراما راقية تتميز بذلك التسيج الشفاف من التلميحات

يعودون توزيع قانص الثروة الإنسانية من جديد، وفي الصراع الدامى بين هاتين القوتين الاجتماعيتين يتزوج عطوة من بليلة خبيثة الماكياج ابنة الدكتور شحاته زعيم الشحاذين، بهدف ضمان السيطرة على عناصر هذا الصراع، وذلك يرتفع عطوة وزوجته «بليلة» درجة عن مستوى الشحاذين لتصل إلى مستوى اللصوصية. يبدأ عطوة في ممارسة عمله بأن يحصل على بعض قانص الثروة من أحد محلات الذهب تارة بالرضا والسعادة البادية على وجهه صاحب المحل، وتارة أخرى من خلال ملامح الفزع والرعب عند ضرورة استخدام السلاح. غير أن الدكتور شحاته والد بليلة لا يسكت على هذه المنافسة الشرسة حيث يستولى عطوة على كل قانص، وهو ما يعنى فشل الشحاذين في الحصول على أى نسبة من هذا القانص مما يؤدي بهم إلى الانتحار جوعا، بل ويعنى انهيار عالمهم وتنظيمهم، وهنا ندرك أن الصراع بين المجموعتين هو كذلك صراع على مناطق النفوذ ذاتها.

ولكنما اتسعت ثروة عطوة وأعماله، تزوج أكثر، فبالإضافة إلى بليلة تزوج من ماجى ابنة جاريو قائد البوليس، بهدف قرض سيطرته كذلك على القانون، كل هذا بالإضافة إلى علاقة غرامية أقامها مع راقصة حتى يتمكن من السيطرة على عالم الدعارة كذلك في قاهرة الثلاثينيات.

في النهاية يتمكن الدكتور شحاته من اقتناص عطوة لا من منطقة فضائله كالأبطال النبلاء، بل يقتنصه من منطقته انحطاطه ورذائله، ويتم القبض عليه بمساعدة العاهرة الراقصة

الإشارات والتنبيهات

الصعود إلى القلعة

فعلما نبحث عن مسرح مسكون بالحيرة، ومدفوع بها وألبيها .. مسرح يخرج من وضع السكون إلى الحركة، ومن الأفضل إلى الفعل .. يصبح من الضروري أن يتحدر الإبداع من قبوه السائد والساكن، ويطلق بعدا عن تلك التجارب الضامرة التي تختزل الوجود الإنساني في مقلوبات مجردة عاجزة عن إنتاج دلالة فاعلة، لها القدرة على تغيير الواقع في هذا الإطار المشحون .. المتوهج .. جاءت مسرحية (الصعود إلى القلعة) لتكون تحليفا لتلك المعادلة الصعبة الساحرة.

والسرحية يقدمها مسرح الظليمة للمؤلف (محمد أبو العلا سلاموني) والمخرج (ناصر عبد النعم).

على المستوى التاريخي تدور الأحداث في بداية القرن التاسع عشر أثناء ثورات القاهرة .. وتتناول بالتحديد تلك التجربة الديمقراطية الفريدة، حين اجتمعت إرادة الشعب المصري على رفض الوالي العثماني (خورشيد باشا) وفي جلسة تاريخية قرر وكلاء الشعب بقيادة الزعيم (عمر مكرم) عزل الوالي وتنصيب (محمد علي) واليًا على مصر، بإرادة الشعب وشروطه.

يقول المؤلف في تقديمه للعرض :

«رجلان في تاريخ مصر الحديث كان لدهما حلم تحقيق النهضة القومية، وبناء مصر الحديثة .. ورغم اتفاقهما على وحدة الهدف إلا أنهما اختلفا في الوسيلة، ومن ثم كان الصراع والشقاق.

الأول (محمد علي باشا) الذي رأى أن حلمه لن يتحقق إلا بالفرديية والاستبداد بالرأى، وثانيهما (عمر مكرم) الذي رأى أن حلمه لن يتحقق إلا بتضافر آراء الجميع وخضوع سلطة الفرد لسلطة المجموع.

ولو أن العلاقة بين الرجلين اتخذت شكلالجدليا، تمثل في وحدة الضدين .. لا تناهز القطبين .. لربما كان لمصر شأن آخر، ولما انكمس الحلم القومي لأى منهما.

من هذا المنطلق اتخذ (السلاموني) مسار الدرامي ليصور صراع الأضداد بين (محمد علي) ، و(عمر مكرم) في جذبيته التاريخية المركبة.

لذلك خرج الصراع بينهما من إطار الطرح المسطح لقوتين متناقضتين، على إحداهما أن تقضى على الأخرى، ولكنه اتخذ تلك الصيغة الدافئة والتي تقوم على مبدأ المفارقة حيث أحلام الباشا، وأفكار الزعيم هما وجهان لعملة واحدة.

ولما كانت أحداث التاريخ تتشابه وتخرج دائما بمقولة إن التاريخ يعيد نفسه، لذلك يتحتم أن نتوقف أمام هذه الرؤية الفكرية الواعية التي استطاعت أن تتجاوز بالمتلقى، أوهام المرافقة الفكرية التي تؤكد المقولة السابقة، حيث تعامل العرض المسرحي مع التاريخ من منظور النفي الجدلي فكل مرحلة تاريخية تنفى ما قبلها .. والنفي لا يعنى النقاء .. ولكنه نفي واحتفاظ بما.

ترتفع موجات المد التي يثيرها ذلك الجدل المتواصل حول العديد من التيمات الظاهرة والمضمرة، مثل الصراع وطموحه، السلطة، آليات الصعود، لشعب بحضوره وغيباه، المثالية

والواقعية، الأسطورة والتاريخ. ثم ذلك الجدل الذي تجذره الرغبة في إعطاء معنى لحياة الفرد والمجموعة في آن واحد.

تتعهد الدوافع، ويختلط الوعى، ولا تلك شخصيات العرض إلا ذلك الوهم بأنها تمتلك الحقيقة .. ذلك الشيء الذي يهرب دائما من التعريف.

وعندما تنتبج أحداث العرض التي تبدأ من نهاية الحدث حيث (محمد علي) مضطود إلى أقل لا نهائى ليلاصم بشغافية وعى الحياة في صراعها مع الموت، مهزوم هو ومكسور .. يلق على حافة الجلوت، يطارده طيف صديقه المحبوب، لا يفارقه صوته، يبحث عنه دائما .. إلى قبره يذهب .. ليعاتبه على الرحيل .. يستعبر موته خيانة له .. أميته أن يعود للحياة .. إحساس بالذنب يدمره .. يعيش وجوده وبفنته.

الزوجة والأبناء والحاشية عاجزون عن رؤية ذاته العميقة .. لن يصلوا أبدا لسر عذابه .. يعتقدون أنه الجلوت .. تتردد الهيمات ، وتثار التساؤلات حول الباشا الذاهب دوماً إلى قبر الزعيم.

وتكرر الزوجة عمل الزار لعله ويظرد ذلك الشبح المقيم في أعماق الوجدان . (إبراهيم) الابن يرفض آليات التخلف ولا يقف مع الزار .. يتلقى مع ديوان الباشا بتحويل الزار إلى حفل ترفيهي .. يشارك فيه (محمد علي) ويظل أيضا. سعود الماضى والأحداث ، لئلاى (عمر مكرم) لكن في صورة (حفيده صالح) ليضاهد الباشا وقائع حلمه المكسور .. لعله يتكشف .. ويعى ويفسر .. وقد ينتقل العذاب من لواعى الأعماق إلى وعى المنطق والأسباب.

أما نحن المتكلمين فسوف نتخطى تلك المسافة التي تفصلنا عن أبطال الحكاية،

الإشارات والتنبيهات

وان تذبذب معهم أو نتوحد .. حتى نعى
ونترك ما يقلل .

هكذا .. وباستخدام تكتيك المسرح
داخل المسرح تبدأ اللعبة المسرحية
الصغرى داخل اللعبة الأساسية التي
ذهبتا نحن لمشاهدتها، حيث نلتقي (بمصر
مكرم) زعيم الأشراف، وقد اجتمع
بوكلاء الشعب في دار المحكمة الكبرى
ليقرروا ضرورة عزل (خورشيد باشا)
فالإحساس بالظلم أصبح هارما، وتحول
إلى ثورة شعبية تكادها تلك الأصوات
الهادرة .. يحاول الوكلاء مواجهة الثورة
بشرى من التمسك .. وطلبيسون من
(الكتفخدا) أن يبلغ الوالى بضرورة عدم
قبول ضرائب جديدة إلا بمشورتهم ..
الزعيم الشائر .. يرفض الطول الوسط
ويصر على تحقيق رغبة الشعب. وفي
لحظة تاريخية، شديدة الدلالة والإبقاء،
يعلن مجلس شرع المحكمة الكبرى عزل
الوالى التركى، وتصيب (محمد على)
واليا على مصر.

يذهب السيد مكرم والإزعاء إلى
(محمد على) ويدور هذا الحوار :

عمر مكرم : ضع كفك في كفى يا محمد
على باشا .. لننله نلق
بك صفحات كانت أحلك ما
لقد مر بمصر من
الظلمات .. كى نبدأ معك
وبك صفحات تصور التور
ونحو الحريات .. وأمانى
الإنسان. المصريون خلعوا
الليلة الوالى الطاغية
الظالم، خلعوه ليختاروا بدلا
منه .. الوالى العسادل
والإنسان فترى يا محمد
على باشا .. أتلن بنفسك
هذا الوالى العسادل
والإنسان؟؟

محمد على : يا سيد مكرم إلى لا
أدرى .. لكنى لست
أظنك تبغى منى مجرد
رد سؤال ..

ويأتى على ثورة شعبية عارمة قادها
(مكرم) يصدر فرمان السلطان بموافقته
على تصيب (محمد على) الذى أصبح
من منظور زعيم الشعب رمزاً لإرادة
مصر وعلامة مضوية فى ذلك العصر.

يطلب زعيم الشعب من الوالى أن
يبارس مهمة الحكم فى بيته القام بلقب
القاهرة، وليس من فوق القلعة ليصبح
قريباً من آلام وأحلام الناس، حيث
تبلورت سخة الشعب المصرى مع كل
الولاة السابكين فى إصرارهم على
الصعود للقلعة .. بعيداً عن الحياة حيث
تضيق الأصوات . وتكون الأصداء .

يوافق الباشا على رغبة الزعيم ..
ولكن عشق القلعة يسرى فى وجوده
ويعيث بأعماقه، فهو فى داخله معادل
للقلعة والطموح، لذلك يسأل المحببة
(هيلانة) ..

هل يسعى الإنسان إلى العظمة .. أم
أن العظمة تسعى إليه ؟؟

رؤية رومانسية تكلف وجود (محمد
على) فهو هارب دائماً من الآن وهنا،
متطلع إلى المجهول والماوراء .. باحث
عن شيء ما .. قد يكون آمالاً ..
أحلاماً .. أو فردوساً ملقوباً.

وفى هيلانة معشوقته الجميلة ..
تجسد كل الجئات فى تنسج فى أعماقه
حلماً أبدياً للخلود والمجد .. ويذوب
هو .. فى وجودها. المسيح بالأوهام، حين
تعزف على أوتار قلبه المشدود دائماً نحو
المجهول .

هذه الذاتنة المفرطة .. وتلك
الزخعات الرومانسية التى تدفع للهرب

من واقع الوجود الفعلى .. شكل الإطار
المرجعى الذى تتحرك فيه الشخصية
المعوية، والعرض المسرحى ككل .

تضى سنوات قليلة من حكم (محمد
على) وهو لا يزال يحتفظ بوعد الزعيم
(مكرم) بالألا يصعد القلعة .. ولكن هذا
الوضع يؤرقه شخصياً .. فهو يحلم
بالصعود .. ولكن شيئاً ما يمنعه ..
وتأتى حملة (فريزر) لتهاجم مدينة
رشيد وتتوج المقاومة الشعبية بقيادة
الزعيم فى مواجهتها ويطلب (الإنجليز)
من (عمر مكرم) الاتصاف مقابل
الأسرى.

انتصار عظيم لم يشترك فيه (محمد
على) .. ذاتيته المفرطة تضخم له
الأسو .. البطولة يصنعها آخرون ..
منظور رؤيته للعالم .. ثم ضغوط
الزوجة .. يدفعانه لاتخاذ القرار الذى
تأجل كثيرا .. سوف يصعد القلعة ..
وتبدأ رحلة الصعود، التى تتمثل درامياً
على المستوى النفسى والرمزى فى
العزلة والنفى .

ذهبت أيام الوعد، وبدأ يتخلص من
صورته الماضية التى صنعتها مع (عمر
مكرم)، فانطرد بالقرار، وبدأ يبارس
لعبة السلطة. ويعترض زعيم الشعب
متمسكاً بأمانيد والكلمة .. حاشية الحاكم
انتهجت إلى الأشراف، الذين فضلو
الصعود مع السلطة على مسيرة الزعيم ..
ببساطة تغلوا عنه، وأطاحوا به ..
ليصدر مجلسهم قراراً بئلى الزعيم إلى
ديماط ..

يتكسر الحلم فى داخل الشائر .. يؤثر
القرار ويتخلى عن زعامته، ينفصل عن
الشعب ويقرر الاعتزال .. طبيعة الأمور
تؤكد أنه يمتلك الزمام ويستطيع
المواجهة، ولكن طبيعة الشخصية
الرومانسية بتوجهها المثالى يحتم الاتجاه

الإشارات والتنبيهات

لمصر من أسجاده .. لكنه يدرك أنها النهاية ويضطر إلى توقيع الاتفاقية التي تنص على حكم مصر فقط لا باسمه ولكن باسم السلطان. ورغم الواقع المرير إلا أن هيلانة، كتجسيد رمزي لطموحه .. تصرخ وتؤكد أنه سيظل الأقوى رغم المحلة والخسران، وتجرى مسرعة لتسقط من فوق القلعة للأعماق .. ويموتها يكون طموح (محمد علي) قد انتهى ومات بالفعل.

ويواجه (الباشا) لحظات الضباب والسمت والإحباط ويصرخ في جثثه باحثاً عن (السيد مكرم) ليجيب عن تساؤلاته .. ويضع حداً لعذابه ..

هنا بالطبع ينتهي التشخيص في داخل المسرحية لنعود كما بدأنا في بهو القلعة .. وتأتي التمثيلية بشامرا وبغنى الباشا من أجزائه .. وتكرس في وجه الشخصيات المائلة أمامه من قلب تجريته الماضية .. ويسأل ... ويعلم ويتحاور مع (صالح) حفيد (مكرم) والمتنكر في زي جده.

ويختلط الحوار برأسه ، ويهوى لنفسه مؤكداً أنه لا يستطيع إلا أن يكون ذاته حيث يقول ...

أه يا شعب المحروسة .. أنا ما كنت سوى فرد قد جاء برغبتكم وإرادتكم .. ما كنت سوى بعض أمانيتكم .. أشعسلم بي وجهك يخطف كل الأبصار، ومنعتم مني رجل القرن وبطل العصر .. ولأن هل أمك أن أخلع عن نفسي هذا الأمر ؟ كلا .. إنني أعطيها من فوق القلعة لتدوي في كل الأرجاء .. أبداً لن أطلب غفراناً أو أنكس أو أرتد .. فأنا لا أمك إلا أن أصبح نفسي وحدي .. رجل القلعة .. رغم المأساة ورغم المحنة في الزمن المهزيم .. هذا هو

في تلك السواجدة تتكشف كل الأبعاد .. إنهما يدوران في فلك واحد .. فالباشا محاصر بأسوار طموحاته اللاتهنائية، فهو أسير إيمانه بتلك الذات المتفردة التي يتضاد بها فيها كل الوجود.

أما الزعيم فهو شديد التكرار لذاته .. وأسير الإيمان المفرط بالجموع، في أعماقه يقين مطلق لصورة مثالية تعيش لا في خياله فقط .. ولكن الواقع النعش لا يبرفها .. لذلك يتخلى عن وجوده وواقعه وتوراته ، حفاظاً على تلك الصورة ويذهب راضياً إلى الأمل.

وفي القلعة يظل (محمد علي) نشوان بغزواته وفتوحاته والتتصاراته .. وما هو الجيش المصري أصبح على مقربة من الاستانة .. فقد قرر الباشا أن يطبع بالسلطان ليحل محله ويحكم قبضته على العالم. ورغم إدراك السلطان لأخطاع أوروبا في الشرق إلا أنه يقرر التحالف معها خوفاً من أطماع الباشا الألباني.

وتتحالف جيوش أوروبا مع الباب العالي ، وينزل الطغاة بأرض الشام ويهزم (إبراهيم) قائد جيوش (محمد علي) وتبدأ رحلة السقوط، حين تتكاتف سحب الأحزان في سماء الباشا، فهو لا يستطيع أن يدرك معنى الانتصار والأقول .. إلا أن يؤكد أن الهزيمة محققة، والأب لا يؤمن بالأسباب لكنه يؤمن بالإصرار. ويقرر أن يعلن الحرب الشعبية في مصر ليحارب. وأخيراً .. ينزل من القلعة لبحث عن الناس .. عن زعماء الشعب .. عن روح الزعيم الذي تركه ومات .. ولكن دون جدوى .. فالتاس خائفون، مخبتون .. بالنسبة

ويشعر الوالي، بأنه خسر الرهان فقد كان يظن أنه يحسب الناس بما حقق

إلى المنفى، والسجون داخل الذات التي كسرتها حياة الرفقاء وضيق الحلم .. فترفض ذلك الزمن المشبوه، وكان عسيراً عليه أن يواجه ذاته حطمتها الألام.

وقبل أن يذهب الزعيم إلى منفاه يلتقي (بمحمد علي) لمواجهة كل منهما ذاته في الآخر .. حيث يقولان :

محمد علي : أنا لم أنقض معك العهد بل رفقاؤك هم من نقضوه وليس أنا .. حيث ظلت السنوات الأربع ملتصقا .. لا إيمانا بالعهد ولكن تقديراً مني لوقتكم في تنفيذ العهد.

القلعة كانت تستهوي من منذ توليت السلطة .. لكني كنت أراك بأفكوى من أعظم قلعة .. لكن قد كانت نقطة ضعفك أنك تلقى بغيرك من رفقاؤك في المجلس ثقة عياء.

عمر مكرم : إن كنت تراها نقطة ضعفي فأنا لست أراها إلا منطق القوة في نفسي، فأنا لا أمك أن ألتفتد ثقتي بالرفقاء.

محمد علي : هذا لا يمنع أنك أخطأت التقدير .. وسيت إلى ما رفضت أنت السعي إليه .. أصبحت وحدك مثلي إزاء الذات .. وخسرت قضية إنسانك بالقوة في الرفقاء .. هذا لا يعني إلا شيئا واحداً .. هو أنني كنت على حق لمصود القلعة كي أحكم وحدي ..

الروح التي ترقت

قل ذلك الصوت الجميل،
«التلألؤ الشمس»، لصان يعمران
تعبيراً صادقاً عن عالم سنوى يكر، إذ
تبرز لعبة الفن المميقة التي تقوم الكتابة
على إتقانها ببراعة، حيث مركز العمل
الفنى وبؤرته واقع فى المجال غير
المرئى للقارئ، لا يتكشف من خلال
السرية ولا من واقع العناية، وإنما هو
هناك لا يستطيع أن يمسك به، ولكنه
تشعر وهو يدفعك إلى حيث يجتلك قادراً
على اكتشاف كتلة التوهج العام المميقة
من تلك البؤرة والمركز الخفى، ذاك هو
الفاصل غير المرئى الذى تضع فيه سنوى
شخصها، حيث تتأرجح بين مجالين
متداخلين من اللون القهوى الذى تجوس
فيه الشخصية وتتحرك ضمن عبق الأزيمة
التي تصالى منها الأشخاص، كتشبيحة
ناجمة عن عالم لهاز بلا توقف، والتعقل
التمام الذى يحيط بسكاتها وسلوكها
وتصرفاتها إزاء العالم ذاته الذى يشع
منه الانبهار.

كل ذلك الصوت الجميل الذى يأتى
من داخلها.

أزمة سيدة كما تبدو من الوهلة
الأولى أزمة بسيطة، ورغم كونها ربة
بيت فقيرة فهي تتميز كما تتميز بقية
شخص سنوى بكر بالثقافة الشديدة
كما غلب نساء بلادنا، وهى فجأة تكشف
أن لها صوتاً رغوياً جميلاً. والتناقض
بين موقف الزوجة والزوج مثير للسخرية،
قلعى حين تتحدث سيدة عن اكتشافها
لصوتها الجميل، فإن الزوج لايهمه على
الإطلاق إذا ما كان لزوجته صوت جميل
من عدمه، إذ إن ذهله لا يفكر، إلا فى

تاريخه يا شعب المحروسة .. بل
هذا هو قدرى المحترم.

وينتهى العرض المسرحى بأغنية
كان ياما كان! ترددها حفيذة (عمر
مكرم) ذات الصوت الجميل .. وتتل من
خلالها الرؤية الفكرية التي تحملها
المسرحية، والتي تؤكد الدور الفعال
للشعب فى حياة الثورات والحكام.

فيما يتعلق بالإخراج، فقد تعامل
(ناصر عبد المليم) مع نص
(السلاسونى) بأسلوب يعى جماليات
النص الفكرية، وكان موفقاً فى إضافته
للمستوى الواقعى الثالث .. عن طريق
التعليق والغناء، حيث تمكن ببساطة من
إضفاء لمحة المعاصرة على العرض .
أيضا تعامل المخرج مع سينوغرافيا
القاعة بأسلوب يؤكد رسالة العرض،
فخرج من إطار الثبات إلى التدفق
والحركة السريعة والتشكيلات ذات
الدلالة الفكرية.

ولكن يبدو أن تباعد كثير من أبطال
العرض عن المفهوم السليم للفن التمثيلى،
قد ربطهم فى الانزلاق إلى المباشرة
الشديدة، حيث لم تلمس فرقا فى الأداء
على مستويات العرض الثلاثة . يستثنى
من هذا (توفيق عبد الحميد) (محمد
على)، و(أشرف طنبة) (عمر مكرم)
حيث كانا على وعى بطبيعة الانتقال
عبر المستويات الزمنية، وبالأبعاد
النفسية الدقيقة التي تتحرك من خلالها
الشخصيات ■

وفاء حامد كمالو

الأعباء التي ستثقل المصروف الشهري،
أو أن تكون حاملا.

وستطيع أن ترى بقعة من الجمال قد
وضعت فجأة على ضرورة الحياة الشاقة
الغالية من المتعة، وذلك فى ذات اللحظة
التي أسدل أماناً لناع الغانتازيا فى النو
واللحظة، جطلنا مشدودين لهذا الصراع
الذى خرج فجأة من حالة العلم إلى
الحقيقة، رغما عن أن النعية كلها ليست
سوى الظلم المستعمل التحلق، فلا صوت
سيدة سوف يصبح فجأة جميلاً.. ولا هى
مستعدة على حين فجأة أن تستشعر معنى
جمال الصوت كى تتعافى فى سبيله..
ولكن من المصنع أن تحاول إعادة
الصياغة، قل أن سيدة اكتشفت فجأة
جمال صوتها، فإن زوجها إن يهيم ذلك
على الإطلاق، وهو أن ينوى على سبيل
المثال أن يستثمره كى يدر له نفعاً، فلا
هو يملك الوقت الذى يملكه حتى من
التفكير على هذه الصورة، ولا هو يملك
الرغبة التي تدهوه هو نفسه للاستمتاع
بصوت زوجته الجميل، والأشد سوءاً أنه
ينتمى لبنية أخلاقية وثقافية تروج الغناء
والمعشوقين به، ثم يستطيع أن يستمتع
به كشطاً يضم أم كلثوم وأحمد عدوية،
لكن مغنية فى منزلنا.. اللعنة، إنه غارق
فى قبح الحياة اليومية حتى الثمالة، وهو
ليس سوى عبد لمصروفات البيت الشهير
والإنفاق على أطفاله، ولو ذهبت سيدة
لطبيب نفسى حقيقى لصبح سيدة بأن
تترك زوجها وأطفالها وتتفرغ لنفها وأن
تتلقى الراديو وتتواصل بتدريب صوتها على
طلاوة الأداء، وطمناً أن تأكل جيداً، لكن
الحقيقة تلتزم أن سيدة لا تتوى أن تتحول
إلى فنانة وتترك زوجها وأطفالها من أجل
نفها المقبل، لا.. لكل ماتريد أن تتقوله
سنوى بكر أن سيدة قد ضرب بكل حقوقها
إلى بسيطة عرض الحائط.. فحتى هذه
اللحظة لم تذكر سوى أن ثمة موضوعاً
تريد أن تتألق فيه زوجها، وعندما

الإشارات والتنبيهات

تخبره تلخرج وتطمئن هواجسه ينلخرج فى ضحكه هستوى .. نحن إزاء حالة قهر، وعلى سبيل المثال لو أن الزوج غادر المنزل إلى القسوة لا فكر حتى أن يغيرها.

ولأغاثي سيدة مطلع شهيرة (أحب عيشة المصرية)، (باحلالة الدنيا يا حلاوة). واختيار مثل هذين المثلين نابع من اختيار الكاتبة وليس الشخصية لباحلالة والمصرية ترف شديد لامرأة فقيرة.

ولا يفلوتنا قرار الإعدام السريع الذى أوقعه الزوج على سيدة ككائن إنسانى، إذ أنه بعبارة بسيطة أوضح تقديره لأحلامها الذاتية، محولا إياها إلى موضوع للغرائز تحت الطلب، وقد جاء قراره مكملا بأسباب وجيهة، لقد تمتد الأربعين، فالحبوبة والإبداع أمان قد فاتها، وما يجرحان كينولتها وقدرتها على العطاء الإنسانى، كما أنه هدهما بأن تكون موضع سخرية وهذا حكم جائر، والمقصود أن الموت أقرب لها من الحياة، وما فى النهاية وحدان مصدر المتعة الوحيد الممكن هو أن تكونه، وهو كونها موضوعا للمتعة.

ولا تقتفى سلوى، فالمعادل الملائم لجسم الصوت الذى تصفه بكونه، خلابة، سماويا، فواضا بالقوة والثناء، وهو ما يدفعها للشعور بأنها كائن آخر ليس له علاقة بسيدة التى تسمع وتتمنى وتلف شعريا فى التنديل لكونها لا تجد الوقت الذى يملكها من تصفيله، فويدها لها الشعور المقبور مسبقا بكونها امرأة جميلة.

وبعداً تأخذنا سلوى فى رحلة عبر الحياة الدميعة والمدمرة، التى تعيشها المرأة المصرية أئنة الطبقات الشعبية، ثم تدعنا فجأة أمام القرار الجمول والمستحيل، توقفت .. قررت.. لكى أغنى مفروض

أن أشعر بالجمال، أى والله هذا مفروض .

ولقد يبدو من الوهلة الأولى أن الشخصية قد تلمعت لغة الكاتبة.. هذا قناع للفن، والأكثر احتمالا أن الشخصية تنقل على حافة الجون. والأرجح أنها تعود إلى منطقة الصقل الإنسانى الذى قهرته الظروف الاجتماعية والبيئة الثقافية السائدة.

وهكذا شئمة قدر مرسوم للفقراء، الكدح بالحيوانات ولا شيء سوى الكدح، ومن يخطو خارج هذا المصور يصير مستوحا، أو مجنونا، وأحيانا، جلى ومصور، وبصورة أخرى يمكن أن يمل عليه عقاب قدرى أو حادث درامى.

إن سلوى تلقى بشخصياتها على تلك الشفرة الصادة الفاصلة بين المعتاد الكرى، وبين الإحجام من قرار بالجنون نفسه، وهذا هو القناع الثانى للفن، ولهذا مفعول السحر فى أعمالها، فلما أن سيدة قد صرمت على اتقاد قرار وجمعت خلجاتها ورحلت، تاركة زوجها وأطفالها بحثا عن تحقيق ذاتها أو حريتها، فن يكون مسيرها أفضل من عبث الليل والكباريات، تلك القصة القديمة المعتادة والتقليدية، والميلودراما المتكررة والباهظة على العلى، والمفجعة أن مصير المرأة المثقلة التى عالت للتقاليد، تعرف سلوى عنه أنه كان أشد مرارة. ولذا فطى مستوى الواقع ليس ثمة بذائل أمام سيدة سوى المثول لسيدة الرجل.

على أن القناع الثالث يبدو كالضربة القاصمة، إذ إن سلوى ترفع من درجة الصراع إلى المستوى الاجتماعى، فالرجل يأخذ زوجته إلى طبيب نفسانى. لاحظ الوثيقة وأقاربا، ويقرر الطبيب النفسى ببرود وجلاء بعد سماع شكواها ورشة من حبوب مهذلة (الإبداع، والصالح للتفتيش النفسى) (ابتعدى عن أى شيء

وسبب لك التوتر، ولا تبكى بمرورك أبدا، أديرى المزاج وأنت فى الصمام، كلى جيدا وحاولى أن تتعشى، وبالماسة أن الإبداع وأقمه التوتر والوحدة والخلق الفنى، كما أن المزاج رمز للتقليدى وليس مأوى إبداعى، كما أن هذه نصائح تلذد مريضا عاديا وليس شخصا فى حالة قلق إبداعى.. ومن غير المنطقى أن يذهب زوج يزوجه إلى طبيب نفسى، وهو يحاسب نفسه على كل ملهم، فضلعن أن الطبقات الشعبية لا تدين بالطب النفسى، ولا تستخدمه، ربما تكون بالشعوذة وترتكز إليها عندما تواجه مشاكل من هذا النوع، وسلوى يكره نص ذلك جيدا، ولهذا فالأشد غفلة من ناحية التعبير عن مستوى القضية ومضمونها أن يكون الطبيب النفسى ليس سوى رمز للأعلى، البناء الاجتماعى القوي، إن سيدة تتحاصر من جميع الجهات، وهذه حققة يلزم الاعتراف بها.

التنظار الشمس

التنظار الشمس حالة وهم أخرى تتداخل فيها الحقيقة مع الأحلام. فانت لا تلقى بها إذا كانت المرأة قد قابلت الرجل العجوز الذى وعدنا ذات يوم بأن يتزوجها ويعول طفلها الصغيرين، فإذا وافته المتعة قبله سوف يتركها عمارته، أم أن الأمر مجرد وهم..

ربما لهذا تستخدم سلوى لغة الحكاية الخرافية بطابعها القدرى ولقنها المستفاد من التراث، بها ملامح للزوج الدبنى والتسليم بالقدر والفتكوب.

ولكن من هو ذلك الرجل الذى سيعرض على امرأة تهلل بجوارها على مقعد حجرى، تهر فى ذيل جلبابها ودين، وليس لها ما هو أكثر من ذلك، سوى خرف مجنون وربما كان يستدرجها، أو أنها ملاوس عجوز مفرد.

الشيء السياسي في مصر من ١٩٦٧ - ١٩٨٠

ق شهدت المرحلة التاريخية الواقعة ما بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٠ أحداثاً سياسية خطيرة ومتلاحقة، فمن نكسة يوليو إلى انتصار أكتوبر إلى زيارة «السادات» للقدس، وتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل أنهت حالة الحرب بينه وبين مصر، وأصبح مقتضاهم لإسرائيل «سفارة» يرتفع عليها العلم ذو النجمة (السادسية).

وعلى الرغم من خطورة هذه الأحداث فإن أحداً من الباحثين لم يتعرض لها بالدراسات العلمية الموضوعية، بلغة تنوء هذه الدراسة للباحث مشهور فواز إضافة حقيقية تسمى لسد هذا النقص.

وقد انقسمت الدراسة إلى ثلاثة فصول، مهد لها الأبحاث بتمهيد تناول فيه أهم القضايا التي يثيرها الشعر السياسي، حيث تناول مفهوم الشعر السياسي، والعلاقة بين الشعر والسياسة من خلال إبراز نقاط الالتقاء، وأبعاد الخلاف بينهما، كما أجاب على سؤال على قدر من الأهمية، وهو: كيف تحضر السياسة في الشعر؟، إضافة إلى تناوله لملامح وأبعاد العلاقة بين الشاعر والمنطة.

وبعد هذا التمهيد، تتأهت فصول الدراسة، حيث بدأت بفصل يتناول شعر النكسة، ومن خلال الدرس الفني التحليلي لقصائد النكسة، بين الباحث أن الشعراء كانوا أكثر انصياعاً بالواقع، وأكثر صدقاً في قراءته، ومنهم من توقع النكسة وتنبأ بها، فقد اتجه الشعر إلى كشف سموات

أن لها أن تنام إلى صباح مبكر لتبدد معزوفة الهائلة والمثقلة من جديد، ولهذا فعلاقة الرجل بالمرأة هي «علاقة الثعبان بالحمام، والقط بالفأر»..

هل هذا هو الطابع الوحيد للعلاقة؟.. بالطبع لا.. لأن نتحدث عن العلاقات الإيجابية التي يتعامل فيها الرجل مع المرأة بشكل سوى، ولكن هناك أيضاً - وهو الأهم - الجانب الملبى التابع من المرأة ذاتها، سلوكها، بنائها الثقافي والاجتماعي علاقاتها بالصورث القديم، نضالها من أجل حقوقها، استسلامها لغانيتها الجود، ثم إن هناك طموحاتها المدمرة، طابعها الذاتي والأناني، هناك نمطها المتمرس في استخدامها أسلحة الكهر ذاتها التي تستخدم ضدها.. ولكن من يستطيع أن يجيب على كل الأسئلة دفعة واحدة؟

الدفاع عن المرأة عند سلوى بكر يتناول داخل العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، لكن الحذر، فلا يجب أن تقع في فخ الأنفاق المنطوية، فسلوى بكر لا تكتب جنساً، والحقيقة أنها لا تضع وقتها هباء، فالنضاع عن المرأة ضد أشغال اضطهادها أمر يشغل بالها بلا توقف، ولهذا فالعلاقة المتوازنة بين الرجل والمرأة وتلك الناجحة أمر لا يشغلها طويلاً، وقد حلا للبيض اتهام أعصابها بأنه سيكون جميلاً إن فعلت، ولكن حتى لو لم تفعل.. الأهم أن أدب سلوى بكر مأخوذ من الحقائق الدائمة للحياة المصرية في الثلث الأخير من هذا القرن، وليس هناك من يزعم أن العسمل الأدبي يجب أن يتناول للحقيقة موضع الشك كاملة.. إن جزءاً من الحقائق يؤثر على درجة استوعابنا للحقائق، ولكنه في الوقت نفسه يساهم في الكشف عما هو مجهول فيها. ■

فتحي إمبابي

ولكن كل هذه التفاصيل لا تهمننا في شيء، مع اعتبارها ذات مغزى، وعلى العكس إن شمة طوقها توحى لنا بأن ما جرى بين المصور والمرأة كان حقيقياً، وكى تلقى لنا سلوى بالاعتناء، يجب أن توحى لنا أولاً بقوة الحقيقة.. وقوة الحقيقة تبرز عنف الجنون.. وعنق الجنون هو اختراع العقل الإنساني لواقعة جرت منذ سنوات عديدة، أما الذي أمامنا الآن هو «مرأة ذائلة العقل شاردة الفكر تتطلع إلى بوابة في انتظار الشمس».. نحن أمام هلاوس لمرأة تعيش على لحظة غير مؤمنة، وبمعنى ثان غير حقيقية، ذلك أن حقيقة حدوث التشالها من أزمتهما لم تكن سوى قضية احتمالية الحدث، ولكنها لم تتحقق، لهذا السبب حدث انكفاء وتثبيت لدى المرأة عند تلك اللحظة التي كانت يوماً ما حقيقية بأي حال من الأحوال، ولكن التقيض يبرز ذلك أن هذه الحقيقة توقفت بوصفها ذلك بمجرد جوبها حادثاً جرى في الماضي.

وهكذا تصنع سلوى حيلها والأحري فلها، فتجعله «انقارئ»، يلق أمام عملها ليس كمن يتابع متواليه سرد الأحداث، لا فالنص عمق يلق خارج حدود (الصفحات، إنها تدفعه للتولوج داخل العمل الكائن.

العلاقة بين الرجل والمرأة:

تعتبر سلوى بكر عن علاقة المرأة بالرجل بشكل خاص، وعلاقة الزواج بشكل عام، فالزوجة عادة تضرب من زوجها، وهي تقتصب في نوبة الزفاف، بمعنى أن مشاعرها الجنسية لا توضع في الاعتبار، فالرجل يقضى متعته منها، دون أن يهتم بتأويلها الشخصي للمتعة تلك، والزواج نهاره خدمة متواصلة شاقة للأخر، الزوج والأطفال، والتيل انقضاء لمعة الآخر «الزوج»، وقد يتحول إلى سادية وحلقة من الإهانة والضرب، وإذا

الإشارات والتنبيهات

فى المعاهدة من إهدار جهد الجنود وتكشفا استباحة الواقع الجميل بكل مصادره فى طوفان المعاهدة البوليسية، وإحساس الإنسان بالاعتراق.

وقد استخدم الباحث المنهج الفنى التحليلى أداة لدراسته، وبالتالى اكتفى بطرح أهم مفردات الحدث السياسى، ولم يعول كثيراً على مناقشة ما يطرحه من قضايا وما يشهده من تعدد رؤى واختلاف آراء، وإنما بحث عن الحدث السياسى شعبياً، وصورتاً فنياً، كما طرحها الشعراء فى قصائدهم، وعانت رغبته من وراء ذلك أن يحفظ للشعر استقلاليتيه الفنية ولايربطه إلى السياسة: فالسياسة - فى مفهوم هذا البحث - ليست إلا مثلاً ومحوراً رئيسياً من محاور التجربة الشعرية فى القصائد التى تناولها، كما أن الباحث تعامل مع هذه الظاهرة الشعرية فى مجملها، ليحفظ لها تكاملها وينادىها ومعمارياتها فلم يشأ أن يفتت العمل إلى محتوى ولغة وصورة وموسيقى.

وقد تناول الباحث عدداً كبيراً من الشعراء منهم: صلاح عبد الصبور وأحمد صيد المعطى حجازى وأمل دنقل وهدى توكليق ومحمد إبراهيم أبوسنة ولمازوى شوشة ود. أحمد هيكل ود. حسن فتح الباب وعبد الصنع عواد ويوسف ومحمد مهران السيد ومالك عبدالعزيز وفولاذ عبد الله الأنور وحسن النجار وأحمد الحوتى وغيرهم... ■

إيناس رفعت



مشهور فواز

مصر وإسرائيل، فكتفت عن أن الغالبية العظمى من القاصد المؤيدة للسلام كتبت بعد زيارة السادات للقدس، وقبل توقيع اتفاقية كامب ديفيد، كما كشف البحث عن أن الغالبية العظمى من القاصد المؤيدة للسلام كانت صدق للإعلان الوجه آنذاك، وأنها وقعت فى الخطابية والمباشرة. والحدود بعضها إلى حدود الإبتذال خاصة فى خطابهم مع جبهة الرافض العربية. كما كشف البحث عن وقوع بعض الشعراء المؤيدين لمبادرة السلام فى مغالطات تاريخية صارخة سعى منهم لبیان سلامة الموقف العربى للمعاهدة، ورغبة فى إدانة الموقف العربى منها. كما تناول الباحث الشعر الرافض لمبادرة السلام، ومعاذتها، حيث بين الشعراء الرافضون لمعاهدة السلام مبررات الرضا، كما طرحوا النار والحرب بديلاً عن السلام وأدانوا معاهدة السلام ومن وقعها، وأبرزوا ما فى واقع ما بعد السلام من مهانة ومثلة يتم فيه إهدار الكرامة والعزة ويقتع فيه العربى بالمؤخرة بعد أن يلفه العجز، كما بينوا ما

الواقع الذى أدى إلى التكتسة فى أبعاده المختلفة، كما اتجه الشعراء إلى فضح المسئولين عن التكتسة، وإلقاء الضوء على ما رسده فيه من ملامح، وأبرزوا صورة ضحايا التكتسة الذين رأى الشعراء أنهم قتلوا سيق بهم للمذبحة وليسوا شهداء فى معركة حقيقية، وممارسة للصدق، فكتفت اتجه الشعراء إلى الذات وبيان ما فيها من ضعف وخلل، ولجأوا إلى البحث عن طريق الخلاص، وذهبوا فى ذلك مذاهب عديدة، لاأذا فى بعضها بالتاريخ القديم الشرق يستلهمون ما فيه من صور مشرقة انتظارا للحظة الثار.

وفى الفصل الثانى تناول الباحث شعر النصر، حيث كتفت القاصد عن ميلاد زمن جديد ولد فى فوهات البنادق والهبوب المعركة، كما بشر الشعراء بميلاد أجيادية جديدة فى أتون المعركة، ودعوا إلى سيادة رموزها، وتحدثوا عن ثمار أكتوبر، فعبلاً غفلاًهم بصودة الفكاة والعريس وسيناء والكرامة والشموخ، غير أن الباحث كتشف، من خلال قصائد النصر عن وجه آخر لشعر النصر، وهو الشعر الذى رفض وقف إطلاق النار، ومباحثاته مع قوات الأمم المتحدة وإسرائيل ورأى فى ذلك إهداراً لتضحيات الجند، ولذماتهم كما رصد الشعراء ملامح واقع ما بعد النص حيث صوروا جوانب القصور فيه، كما صوروا روح التشاؤم والإحباط، هذه الروح التى غلفت مناخ قبول وقف إطلاق النار وسادت رؤى سوداوية للمستقبل.

وفى الفصل الثالث تناول الباحث شعر السلام الذى تناول زيارة السادات للقدس وتوقيع معاهدة كامب ديفيد، بين

جائزة السيدة / سوزان مبارك لأدب ورسم كتب الأطفال لعام ١٩٩٤

مجالات الجائزة

أولاً: جائزة أصن كتاب للأطفال صدر في مصر عام ١٩٩٤ وذلك من ناحية التأليف والرسوم والأخراج الغنى والطباعة (جميع الناشرين المصريين مدعوون للمشاركة في المسابقة بإرسال الكتب التي يرسمونها للفوز بهذه الجائزة الكبرى إلى مركز توثيق وبحوث أدب الأطفال).

ثانياً: جوائز السيدة / سوزان مبارك للكتاب ورسم كتب الأطفال من الشباب (ب) في مجال أدب الأطفال

- مغامرة في سناء أو الوادي الجديد أو بحيرة ناهض (للسن من ٩ - ١٥)
- كتاب تلوين يحتوي على مشاهد من أهم آثار مصر أو من أثار الطبيعة أو العادات والتقاليد الشعبية (لسن ما قبل المدرسة)

(ب) في مجال رسم كتب الأطفال

- كتاب مضمّن محتوى على شكل بسيط من البيئة وقصة بسيطة مناسبة للشكل المضمّن (لسن ما قبل المدرسة)
- يمكن للمسابين من الرسامين أن يتقدم في أوائل سبتمبر إلى مركز توثيق وبحوث أدب الأطفال بالروضة لاستلام النصوص الأدبية الفائزة والمشاركة في مسابقة رسم النصوص الفائزة.

الشروط

- ١- يشترط أن يكون العمل المقدم للمشاركة في المسابقة لم يسبق نشره بأي صورة من صور النشر المكتوبة أو المسموعة أو المرئية
- ٢- تقدم الأعمال المشاركة من ثلاث نسخ مكتوبة على الآلة الكاتبة إلى مركز توثيق وبحوث أدب الأطفال التابع للموسسة المصرية العامة للكتاب ١٥ ميدان الممالك - بالروضة وذلك في موعد أقصاه أول سبتمبر ١٩٩٤
- ٣- يتم منح جوائز في فئتين من فروع المسابقة

الجوائز

التأليف الرسوم

- | | |
|--------------------------|--------------------------|
| الجائزة الأولى ١٥٠٠ جنيه | الجائزة الأولى ١٥٠٠ جنيه |
| الجائزة الثانية ٧٥٠ جنيه | الجائزة الثانية ٧٥٠ جنيه |
| الجائزة الثالثة ٥٠٠ جنيه | الجائزة الثالثة ٥٠٠ جنيه |

ويمنح فروع الجوائز معرض القاهرة الدولي لكتب الأطفال الحارث عشر في ٢٤ نوفمبر ١٩٩٤



لوحة الغلاف الأخير
سولجنستسين
للغنان: مكرم حنين

